سيرة أهل البيت عليهم السلام

من محاضرات الدكتور الشيخ أحمد الوائلي

١٣٤٦ هـ - ١٤٢٤ هـ

إعداد
مصطفى آل مرهون

منشورات
[illegible]


سيرة أهل البيت
من محاضرات الدكتور الشيخ أحمد الوائلي


بسم الله الرحمن الرحيم



من محاضرات الدكتور الشيخ أحمد الوائلي

١٣٤٦هـ - ١٤٢٤هـ

إعداد

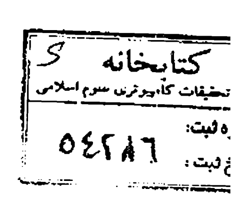
مصطفى آل مرهون

الجزء الثاني

منشورات

شركة دار المصطفى لإحياء التراث

الطبعة الأولى
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م



يطلب من:

لبنان - بيروت - جادة السيد هادي - مفرق الرويس - بناية اللؤلؤة ط١ -

هاتف: ٠٠٩٦١١٥٤٠٦٧٢ - ٠٠٩٦١٧٠٠٦٦٦٩١

سوريا - ص.ب: ٧٣٣ - السيدة زينب محمول: ٠٠٩٦٣٩٤٤٣٥٦٥٨٤ و٠٠٩٩٤٠٧٣٥٥٤

مؤسسة المصطفى: إيران - قم - خ سمية - ١٦ متري عباس آباد بلاك ٢٤

هاتف: ٠٠٩٨٢٥١ - ٧٧٣٨٨٥٥

البريد الإلكتروني: E-mail: mnmnmn3@hotmail.com



الفصل الرابع

الإمام الحسن عليه السلام



﴿٢٥﴾

في رحاب السبط عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: الناس أقسام ثلاثة

نحتفل هذه الليلة بولادة ثاني نجوم أيمّة أهل البيت الإمام الحسن عليه السلام سبط الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله. وقد يقول قائل: إن ولادة إنسان ليست بذلك الحدث الذي يستحقّ أن تحتفل به الدنيا، فهي تستقبل كلّ يوم طائفة وتودّع أُخرىٰ. وهذا إلىٰ حدّ ما صحيح، لكنّ هؤلاء الداخلين إلىٰ الحياة والخارجين منها لم يترك أحد منهم بصماته عليها إلّا القليل.

فالداخلون إلىٰ الدنيا يُقسمون إلى ثلاثة أقسام:

قسم يدخل إلىٰ الدنيا كما يدخل العشب البري في أيام الربيع، لا

(1) آل عمران: ٦١.

يلبث أن تحرقه الشمس وتقسو عليه الرياح حتىٰ يعود هشيماً وينتهي. فمن الناس من يدخل ويخرج فلا يشعر بدخوله أو خروجه أحد، يقول أحد الأدباء في العصر العباسي:

خليفةٌ ماتَ لم يحزنْ له أحدٌ وآخرٌ قامَ لم يفرحْ به أحدُ[١]

وقسم منهم يدخل إلىٰ الحياة كالشجرة العالية الوارفة الظلّ، الممتدّة الأغصان، الواسعة الأفياء ولكن لا ثمر فيها، فهو يدخل إلىٰ الدنيا صدىً وسمعة ومنظراً وبهرجة لكن حياته ليس فيها عطاء أبداً.

وقسم ثالث يدخل إلىٰ الحياة كالشجرة المثمرة، في كل عام يتجدّد عطاؤها وثمرها. فمثل هذا إذا دخل إلىٰ الحياة أغناها، وإن خرج منها تأسّفت عليه.

فنحن إنما نحتفل بميلاد إمام من أيمّة أهل البيت عليهم السلام لأن دخولهم إلىٰ الدنيا أغنىٰ الحياة، وخروجهم منها ترك فراغاً كبيراً؛ فلذا يحتفل الإنسان بحياة فيها خصب يغني الناس. وعندما نحتفل بميلاد الحسن عليه السلام فإنما نحتفل بامتداد طبيعي للنبي صلى الله عليه وآله، حمل الرسالة وترك آثاره في الحياة. وسوف نعرف ما هي الآثار التي تركها هذا الإمام العظيم، وهي ليست آثاراً مادّية، فكم تارك آثاراً مادّية لكن كان بلاء علىٰ الدنيا، فهل نستطيع أن نحتفل بفرعون الذي ترك الأهرامات الضخمة؟ إننا نحتفل بابن سينا والفارابي والكندي وأناس من هذا النمط الذي لم يترك أهرامات ضخمة وإنما بنى آثاراً فكرّية ضخمة، وهذا هو العطاء الذي يخلد، يقول أحد الأدباء:

---

(١) البيت لدعبل الخزاعي. تاريخ بغداد ١٤: ١٧، البداية والنهاية ١٠: ٣٤٠.

أرى الموتَ يحييكم وبعضُ الذي مشوا	على الأرضِ لو عاينت يمشي بهم قبرُ
تَشُدّ بهم للطينِ سودُ فعالِهم	وتسمو بكم للنورِ أمثلةٌ غُرُّ
كرائمُ أعمالٍ وزادٌ من التقى	وفيضٌ من الإصلاحِ هذا هو العمرُ
رأيت الغنى فكراً يعيش وغيره	وإن ملأ الآفاق من ذهب فقرُ
فما مات عيسى وهو يفترش الثرى	ولا عاش قارونٌ وأبوابه تبرُ
تهاوى رماداً ألف صرح مُمَرَّدٍ	وعاش على البرديِّ في ألقٍ سطرُ

المبحث الثاني: سبب نزول الآية الكريمة

وبعد هذه المقدمة نعود إلى الآية التي نزلت في المباهلة، فالنبي صلى الله عليه وآله يقول: تعالوا ندع أبناءنا، فمَن هم الأبناء الذين أرادهم النبي صلى الله عليه وآله؟ المعروف عند الجميع[1] أن النبي صلى الله عليه وآله دعا للمباهلة الإمام علياً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، فالمقصود بـ﴿أَبْنَاءَنَا﴾ في الآية الإمام الحسن والحسين عليهما السلام خاصة.

والهدف من هذا أن الإمام الحسن والحسين عليهما السلام هما ابنا رسول الله صلى الله عليه وآله، فإعطاؤهما صفة «سبط» وإن كان من الناحية اللغوية صحيحاً؛ حيث إن ابن البنت يسمى سبطاً[2]، لكن من الناحية العلمية هو ولد. ونحن بغض النظر عن الناحية العلمية لا ندعوهما ابني رسول الله صلى الله عليه وآله لأن ابن البنت ولد حقيقي ـ وإن كان حقيقياً في الواقع؛ بدليل أن الجدّ لا يستطيع أن يتزوج ابنته، فالنبي صلى الله عليه وآله لا يسعه الزواج من بنت الحسن أو بنت الحسين عليهما السلام؛

---

(١) انظر: مسند أحمد ١: ١٨٥، الجامع الصحيح ٤: ٢٩٣، ٥: ٣٠٢، وغيرهما كثير.

(٢) لسان العرب ٧: ٣١٠ ـ سبط، بل نص فيه على أن الأسباط هم خاصة الأولاد والمصاص فيهم.

لأنهما داخلان في صلبه فيحرمون عليه[(١)] ـ وإنما قلنا ببنوّتهما لأن النبي صلى الله عليه وآله نصّ على ذلك في أكثر من مورد، كقوله في الحسن عليه السلام: «إن ابني

(١) فمثلاً روي عن أبي الجارود أنه قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام: «يا أبا الجارود، ما يقولون لكم في الحسن والحسين عليهما السلام؟». قلت: ينكرون علينا أنهما ابنا رسول الله صلى الله عليه وآله. قال: «فأي شيء احتججتم عليهم؟». قلت: احتججنا عليهم بقول الله عزّ وجلّ في عيسى بن مريم عليه السلام: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى﴾ الأنعام: ٨٤ ـ ٨٥. قال: «فأي شيء قالوا لكم؟». قلت: قالوا: قد يكون ولد الابنة من الولد ولا يكون من الصلب. قال: «فأي شيء احتججتم عليهم؟». قلت: احتججنا عليهم بقول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ آل عمران: ٦١. قال: «فأي شيء قالوا؟». قلت: قالوا: قد يكون في كلام العرب أبناء رجل وآخر يقول: أبناؤنا.

قال: فقال أبو جعفر عليه السلام: «يا أبا الجارود، لأعطينّكها من كتاب الله عزّ وجلّ أنّهما من صلب رسول الله صلى الله عليه وآله لا يردّها إلّا كافر». قلت: فأين ذلك جعلت فداك؟ قال: «من حيث قال الله عزّ وجلّ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ الآية إلى أن انتهى إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ النساء: ٢٣، فسلهم يا أبا الجارود: هل كان لرسول الله صلى الله عليه وآله نكاح حليلتهما؟ فإن قالوا: نعم كذبوا وفجروا، وإن قالوا: لا، فهما ابناه لصلبه». الكافي ٨: ٢٦٣ ـ ٢٦٤ / ٥٠١.

وسأل المأمون الإمام الرضا عليه السلام: يا أبا الحسن إني فكّرت في شيء فنتج لي الفكر الصواب فيه: فكّرت في أمرنا وأمركم، ونسبنا ونسبكم، فوجدت الفضيلة فيه واحدة، ورأيت اختلاف شيعتنا في ذلك محمولاً على الهوى والعصبية. فقال له الرضا عليه السلام: «إن لهذا الكلام جواباً إن شئتَ ذكرته لك، وإن شئت أمسكت».

فقال له المأمون: إني لم أقله إلّا لأعلم ما عندك فيه. فقال له عليه السلام: «أنشدك الله يا أمير المؤمنين لو أن الله تعالى بعث نبيّه محمداً صلى الله عليه وآله فخرج علينا من وراء أكمة من هذه الآكام يخطب إليك ابنتك، كنت مزوجه إياها؟». فقال: يا سبحان الله، وهل أحد يرغب عن رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال له الرضا عليه السلام: «أفتراه كان يحلّ له أن يخطب إلي؟». فسكت المأمون هنيئة ثم قال: أنتم والله أمسّ برسول الله صلى الله عليه وآله.

بحار الأنوار ١٠: ٣٤٩ / ٩، ٩٤: ١٨٧ / ١٩.

ومثلها مناظرة الإمام الكاظم عليه السلام للرشيد. انظر الاحتجاج ٢: ٣٣٨ / ٢٧١.

هذا سيد»[١]، لا لما مرّ من الدليل السابق من كون ابن البنت ولداً حقيقياً.

المبحث الثالث: البنوّة دموية وروحية

فالقرآن عبر عن الحسنين عليهما السلام بأنهما ابنا رسول الله صلى الله عليه وآله، فماذا استهدف من هذه البنوّة؟ فلدينا هنا نوعان من البنوّة:

النوع الأوّل: بنوّة الدم

وهي أن يتكون الولد من صلب أبيه. وهذه البنوّة مفتقرة إلىٰ بنوّة الروح، فلابد من انسجام روحي. قال تعالىٰ علىٰ لسان نوح عليه السلام: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ فأتاه الجواب: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾[٢]. فما هو الوجه في نفي البنوّة عن ابن نوح عليه السلام؟ إن نساء الأنبياء مبرآت ولا يتطرق إليهن الشك في عفّتهن؛ لأن النبي لا يمكن أن يُبتلىٰ بهذا، فهو عارٌ منفّر عن النبوة؛ ولذلك ألقىٰ اللّه من افترىٰ علىٰ عائلة النبي صلى الله عليه وآله في حادثة الإفك[٣] في أسفل الدرك من الجحيم.

النوع الثاني: البنوّة الروحية

فالله تعالىٰ ينفي البنوّة عن ابن نوح عليه السلام؛ لأن البنوّة ليست بنوّة دم[٤] فقط، فبنوّة الحسنين عليهما السلام؛ ليست بنوّة دم فقط، وإنما هي بنوّة روح، قال الشاعر:

---

(١) مسند أحمد ٥: ٣٧، ٤٤، ٤٩، ٥١، صحيح البخاري ٣: ١٦٩، ١٧٠، ٤: ١٨٤، ٢١٦، ٨: ٩٩، سنن أبي داود ٢: ٣١١ / ٤٢٩٠، ٤٠٥ / ٤٦٦١، وغيرها كثير.

(٢) هود: ٤٥ ـ ٤٦.

(٣) مجمع الزوائد ٩: ٢٣٦، المعجم الكبير ٢٣: ١٢٤، مسند الشاميّين (الطبراني) ٣: ٣٣٤.

(٤) قال أبو فراس الحمداني:

كانت مودّة سلمان له رحماً ... ولم يكن بين نوح وابنه رحمُ

ديوان أبي فراس الحمداني: ٢٥٥. فمودّة سلمان جعلت له من رسول الله صلى الله عليه وآله رحماً بقوله: «سلمان منا أهل البيت». عيون أخبار الرضا ١: ٧٠ / ٢٨٢، المعجم الكبير ٦: ٢١٣.

أبا واحداً من خمسة إن رأيتهم رأيت بهم في كلّ وجه محمدا

ولذا فإننا عندما ننظر إلىٰ الحسن عليه السلام فإننا ننظر إلىٰ النبي صلى الله عليه وآله.

المبحث الرابع: من ملامح الإمام الحسن عليه السلام

الأول: أنه عليه السلام أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وآله

فالمؤرخون يقولون: إن الحسن عليه السلام أشبه النبي صلى الله عليه وآله خَلقاً وخُلقاً، أي أشبهه بأخلاقه والكثير من أعضائه الجسدية[1]. وأشبه أباه أمير المؤمنين عليه السلام في قامته وبعض ملامحه، فكانت الزهراء عليها السلام ترقّصه فتقول:

اشبه أباك يا حسنْ واخلع عن الحقّ الرسنْ

واعبد إلهاً ذا مننْ ولا توالِ ذا إحَنْ[2]

وقد كان الإمام علي عليه السلام يُنزل ابنه محمد بن الحنفية إلىٰ المعركة ويمنع الإمام الحسن والحسين عليهما السلام، وكان يقول: «املكوا عني هذين الغلامين لئلا ينقطع بهما نسل رسول الله صلى الله عليه وآله». فقيل له في ذلك فقال: «هذان ابنا رسول الله صلى الله عليه وآله، وهذا ابني»[3].

ويريد بذلك أن حمل رسالة النبي صلى الله عليه وآله يكون عن طريق هذين. مع العلم أن الإمام الحسن عليه السلام كان ممارساً للحرب في أعتىٰ الميادين وأقساها[4]، ولا يُخاف عليه، وقد اشترك في الفتوحات قائداً لإحدىٰ الكتائب. ومن يرمِ الإمام عليه السلام بحب الحياة فهو مغفّل لا يفهم من حياة الإمام عليه السلام شيئاً، أو

(١) الإرشاد ٢: ٥، مسند أحمد ١: ٩٩، ١٠٨، الجامع الصحيح ٥: ٣٢٥ / ٣٨٦٨.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٥٩، بحار الأنوار ٤٣: ٢٨٦ / ٥١، شجرة طوبىٰ ٢: ٢٥٧. والإحن: جمع إحنة، وهي العداوة. المعجم الوسيط: ٨ ـ أحن.

(٣) الخصال ٤٤١ / ٣٣، بحار الأنوار ١٠: ١٣٠ / ١، ٣٣: ٢٣٨ / ٥١٨.

(٤) انظر: طبقات المحدثين بأصبهان (ابن حبان) ١: ١٩١، تاريخ جرجان: ٤٨.

أنه أخذ التأريخ من أعدائه، وموقف التأريخ معروف بسلبيته من أهل البيت. لم لا، وهو الذي كُتب في زمن معاوية المعروف بأساليبه في تزوير التأريخ؟ فقد كان يصعد على المنبر ويقول: تعرفون من هم أهل البيت الذين عنتهم الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[1]؟ قالوا: لا. قال: نحن أهل البيت. وقد استعمل معاوية المال والسيف وغيره في هذا السبيل كما هو معروف.

إذن فانتماء الحسنين عليهما السلام للنبي صلى الله عليه وآله ليس بالدم فقط، فالكثير من أبناء الأيمّة مَن يبرأ منهم آباؤهم عليهم السلام، ونحن نبرأ منه من أمثال جعفر الكذاب الذي هو ابن إمام وأخو إمام. في حين أن النبي صلى الله عليه وآله اعتبر سلمان الفارسي من أهل البيت عليهم السلام. ولذا يقول محيي الدين ابن عربي صاحب (الفتوحات المكية): «إن سلمان الفارسي معصوم، بدليل أن أهل البيت معصومون، والنبي صلى الله عليه وآله يقول: «سلمان منا أهل البيت»[2]، فيكون سلمان معصوماً». ولذا تجد هناك حملة على محيي الدين بن عربي بسبب الكثير من آرائه في أهل البيت عليهم السلام، منها مثلاً قوله: «إن المسلم لا يدخل النار ببركة التمسّك بأهل البيت عليهم السلام»[3]، ولو كانت آراء ابن عربي في مروان لكان له شأن آخر، ولصار سيّد العارفين.

فالبنوّة التي يثبتها القرآن للحسنين عليهما السلام هي البنوّة الروحية. والحسن هو الامتداد الطبيعي لرسول الله صلى الله عليه وآله. ولذا يقول صلى الله عليه وآله: «كلّ بني أمّ ينتمون إلى

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) عيون أخبار الرضا ١: ٧٠ / ٢٨٢، المعجم الكبير ٦: ٢١٣.

(٣) قريب منه في شرح أصول الكافي (المازندراني) ٦: ١٤٨ / شرح الحديث: ١ من باب الإشارة والنص على الحسن بن علي عليهما السلام.

عصبتهم إلّا بني فاطمة عليها السلام فإنني أنا أبوهم»[1]. أي هـم يـنتمون إليّ. وهـذا الحديث يرويه كلّ مؤرخي المذاهب الإسلامية.

فهذه أوّل مزايا الإمام عليه السلام، وهي أنه ابن رسـول الله صلى الله عليه وآله الذي يـحمل أخلاقه.

الثاني: أنه عليه السلام أحد من باهل بهم النبي صلى الله عليه وآله

فهو أحد الوجوه الكريمة التي باهل بها النبي صلى الله عليه وآله نصارىٰ نجران، وهم الأسقف والعاقب والسيّد، وذلك عندما أتوا إلىٰ المباهلة، فتقدم السيد للمباهلة وقال لمن معه: والله، إني أرىٰ أن مع محمد وجوهاً لو أقسم بهم علىٰ الله أن يزيل جبلاً من مكانه لفعل، فلا تباهلوهم فتهلكوا. والله لئن باهلتموهم لا يدور الحول عليكم ومن النصارىٰ عين تطرف. فامتنع النصارىٰ عن المباهلة وصالحوا النبي صلى الله عليه وآله ببركة هذه الوجوه الكريمة[2].

الثالث: أنه عليه السلام ممّن شملتهم آية التطهير

فالإمام الحسن عليه السلام أحد الذين احتوتهم آية التطهير من الرجس: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾، فهو من الذين أبعد الله عنهم الرجس، ورفع القرآن عقيرته بتطهيرهم آناء الليل وأطراف النهار.

---

(١) مجمع الزوائد ٤: ٩٩، المعجم الكبير ٣: ٤٤ / ٢٦٣٢، تهذيب الكمال ١٩: ٤٨٣، ٤٨٤، وغيرها كثير.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن الله لم يبعث نبياً إلّا جعل ذريته من صلبه غيري؛ فإن الله جعل ذريتي من صلب علي». انظر كشف القناع (البهوتي) ٥: ٣٢، الفقيه ٤: ٣٦٥، وقال: «لكلّ بني أب عصبة ينتمون إليه إلّا ولد فاطمة أنا عصبتهم». نيل الأوطار ٦: ١٣٩، كنز العمّال ١٢: ٩٨ / ٣٤١٦٨، تاريخ مدينة دمشق ٣٦: ٣١٣.

(٢) التبيان ٢: ٤٨٤، قريب منه في شواهد التنزيل ١: ١٦٣ ـ ١٦٤ / ١٧٤.

الرابع: أنه عليه السلام حفظ نسل الرسول صلى الله عليه وآله

أضف إلى ذلك أن الحسنين عليهما السلام حفظا نسل النبي صلى الله عليه وآله عبر التأريخ، وقد انحصر نسله بهما. وكم حدثت من المحاولات لقطع هذه القناة الممتدّة عبر التأريخ! وقد سمعنا في كربلاء من يقول: اقتلوهم.. لا تبقوا لأهل هذا البيت باقية. والقصد أن يقطع هذا الحبل المتّصل بالنبي صلى الله عليه وآله[١].

الخامس: أنه عليه السلام إمام قام أو قعد

فالحسن هو الإمام بشهادة النبي صلى الله عليه وآله: «الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا»[٢].

السادس: أنه عليه السلام سيد شباب أهل الجنة

فالحسن سيد شباب أهل الجنة بصريح قول النبي صلى الله عليه وآله فيه وفي أخيه الإمام الحسين عليهما السلام: «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة»[٣].

ومن هنا فإن الاحتفال بمولده ليس أمراً بلا جدوى، فهناك الآلاف ممّن يأتون إلى الدنيا يومياً، ويرحل عنها مثلهم، ومن هؤلاء من يأتي إلى الدنيا وتتمنّى أنه لم يولد؛ فهو بلاء على الدنيا، يقول أحدهم:

فكم من وليدٍ قد وددنا لو انه ... يموت بأيدي القابلات مناغيا

تبشّ إليه الأمّهات ولو درت ... بما سوف يجنيه لطمن النواصيا

---

(١) وقد أكّد الرسول صلى الله عليه وآله معنى اتّصال هذا الحبل به بما مرّ من أحاديث في الصفحة السابقة.

(٢) دعائم الإسلام ١: ٣٧، علل الشرائع ١: ٢١١، الإرشاد ٢: ٣٠.

(٣) ورد هذا الحديث بطرق كثيرة وألفاظ مختلفة عند إخواننا أهل السنة، انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ٢٠، ٥٨، ٧٦، مسند أحمد ٣: ٣، ٦٢، ٦٤، ٨٢، ٥: ٣٩١، ٣٩٢، سنن ابن ماجة ١: ٤٤، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢١، ٣٢٦، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٦٧، ١٦٧، ١٦٧، ٣٨١، صحيح مسلم بشرح النووي ١٦: ٤١، وغيرها كثير.

وكما قلنا فإن هناك أشخاصاً إذا ولجوا إلى الحياة أثْروها، وإذا خرجوا منها خلّفوا فيها فراغاً. والإمام الحسن ﷺ من هذا النـوع، فـقد اسـتقبلت الدنيا هذا العطاء في السنة الثالثة من الهـجرة، ليـلة الخـامس عشـر مـن رمضان المبارك. وهو أول وليد يربط بين النبوّة والإمـامة؛ ولذا فـرح بـه النبي ﷺ فرحاً لا حدود له، وقد جاءت به الزهراء ﷺ إلى النبي ﷺ حين ولادته فقالت: «يا رسول الله، هذا ولدك فسمّه». فقال: «مـا كـنت لأسـبق ربـي باسمه». فهبط عليه جبرئيل يحمل اسمه. قال: «إن علياً منك بمنزلة هارون من موسى، فسمّ ابنه باسم ابن هارون (شبر)». قال: «ذلك عبراني وأنا عربي؟» قال جبرئيل: «سمه حسناً»[١].

فسماه كذلك، وأمر بتغيير الخرقة التي لفّ بها، وراح يلثمه، وعقّ عنه بكبشين أملحين وتصدّق عنه بوزن شعره ورِقاً. فهو أول وليد احتفل به النبي ﷺ وأدخل على قلبه السرور، وقال عنه: «إن ابني هذا سيد». وقـد أُضيف إلى هذا الحديث من مخترعات الرواة: «وسيُصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[٢]. وقد وُضعت هذه الزيادة لغرض جـعل مـن قاتل الحسن ﷺ مسلماً. ولا يمكن لأحد يمتلك خـلفية عـلمية أن يـقع بمثل هذا الخطأ؛ لأن النبي ﷺ يـقول لعـلي ﷺ: «حـربك حـربي وسـلمك سلمي»[٣]، «من أحبك ختم الله له بالأمن والإيمان، ومن أبغضك فليس له نصيب

---

(١) ذخائر العقبى: ١٢٠، المعجم الكبير ٣: ٩٧ / ٢٧٧٦، ينابيع المودّة ٣: ٢٠١ / ٥٧٩.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٨: ٢٤، المناقب (الخوارزمي): ١٩٩، وبهذا المعنى أحاديث كثيرة، انظر الحاوي للفتاوي ٢: ٤٤. لمناقب (الخو

من الإسلام»[١]. فمن حارب علياً عليه السلام حارب رسول الله صلى الله عليه وآله، فكيف يكون من حارب رسول الله صلى الله عليه وآله مسلماً؟ وعليه لا يمكن أن نعتبر من يرفع سيفه لقتل سيد شباب أهل الجنة مسلماً. فالملحق بالحديث غير صحيح وإنما هو من اختراع الرواة. ثمّ إن الإمام الحسن عليه السلام لم يخرج للصلح، وإنما خرج للقتال، فلما أسلمه جيشه اضطر إلى الصلح.

وهناك الكثير من الأحاديث من أمثال هذا منها أن لبابة أمّ الفضل بن العباس دخلت على النبي صلى الله عليه وآله فقالت: يا رسول الله، رأيت كأن عضواً من أعضائك انفصل فسقط في حجري. فقال صلى الله عليه وآله: «خيراً رأيتِ، ستلد فاطمة عليها السلام ولداً، وسترضعينه بلبن قُثَم»[٢].

ويبدو أن العباسيين دبّروا[٣] هذه القصّة ليشعروا أن آباءهم شاركوا في اللبن الذي شرب منه الحسن عليه السلام، فاشتركوا في هذه المكرمة، وإلّا فإن العباس كان آنذاك لا يزال في مكّة، وبين قثم والإمام الحسن عليه السلام سنون طويلة؛ فلا لبن ولا رضاع بينهما، بل إن العباس لم يهاجر وإنما التحق بالنبي صلى الله عليه وآله في السنة العاشرة في فتح مكّة ثم جاء مع النبي إلى المدينة. ولذا فإن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾[٤]، قطعَ ولاية العباس عن أهل البيت عليهم السلام؛ لأنه لم يهاجر.

فالنبي صلى الله عليه وآله سرّه الله بالحسن عليه السلام، ثم أكمل سروره بالإمام الحسين عليه السلام، فكان يحمل هذين الصبيين على صدره ولا يكاد يفارقهما ليلاً أو نهاراً،

---

(١) مسند أبي يعلى ١: ٤٠٣ / ٥٢٨، المعجم الكبير ١٢: ٣٢١، كنز العمال ١١: ٦١١ / ٣٢٩٥٥، ١٣: ١٥٩ / ٣٦٤٩١، وقال: قال البوصيري: رواته ثقات.

(٢) مسند أحمد ٦: ٣٣٩، ٣٤٠، مسند أبي يعلى ١٢: ٥٠٠، المعجم الكبير ٣: ٢٠، ٢٥: ٢٥.

(٣) ربما كانت الواقعة صحيحة لكنهم أضافوا إليها قصّة الرضاع.

(٤) الأنفال: ٧٢.

ولم يكونا يفارقانه حتىٰ في صلاته. وقد أطال السجود مرة فقال له الصحابة: نراك أطلت السجود، فهل هبط عليك الوحي؟ قال: «لا، وإنما ولدي ارتحلني فكرهت أن أعجّله»[١].

وكان يصعد المنبر والإمام الحسن والحسين عليهما السلام في حجره لا يكادان يفارقانه. ولك أن تتصور مقدار النكبة التي لحقت بالحسنين عليهما السلام عند وفاة النبي صلى الله عليه وآله، فهما لم يناديا أمير المؤمنين عليه السلام «يا أبه» في حياة النبي صلى الله عليه وآله، وإنما راحا يناديانه بذلك بعد رحيله صلى الله عليه وآله.

استقبل النبي صلى الله عليه وآله يوماً الخليفة الأوّل فرآه يحملهما علىٰ عاتقه، فقال: نِعمَ الجمل جملكما، ونعم الراكبان أنتما. فقال النبي صلى الله عليه وآله: «وأبوهما خير منهما»[٢]. فأخذهما أبو بكر من حجر النبي صلى الله عليه وآله.

عاش الإمام عليه السلام الحسن سبع سنوات مع النبيّ صلى الله عليه وآله، وقد يسأل سائل: كيف عاش هذه الفترة القصيرة وله عن النبي صلى الله عليه وآله مسند يرويه أحمد بن محمد الدولابي؟ ولا تزال هذه النسخة المخطوطة في مكتبة أمير المؤمنين بالنجف، فهل يستطيع صبيّ مثل هذا أن يحفظ الأحاديث الكثيرة عن النبي صلى الله عليه وآله؟

إن هذا الأمر ليس فيه غرابة، وإليك بعض الأمثلة البسيطة: راجع حياة الاقتصادي والثائر الإنكليزي المعروف «جون لوك»، وانظر ما يكتبون في ترجمته، وانظر ترجمة «جون مل ستيوارت» وماذا كُتب فيها، يقولون: إنه

---

(١) مسند أحمد ٣: ٤٩٤، ٦: ٧٦٤، السنن الكبرى (النسائي) ١: ٢٤٣ / ٧٢٧ تاريخ مدينة دمشق ٢١: ٢١٥، ٤١: ١٦٠، أُسد الغابة ٢: ٣٨٩، تهذيب الكمال ٦: ٤٠٢، تهذيب التهذيب ٢: ٢٩٩.

(٢) سنن ابن ماجة ١: ٤٤ / ١١٨، المعجم الكبير ٣: ٣٩ / ٢٦١٧، ٦٥ / ٢٦٧٧، ١٩: ٢٩٢، وليس فيها إشارة إلى أبي بكر.

قد حفظ لغات عدّة وهو في الرابعة من عمره، ووضع النظريات الكثيرة. فليست أرقام الموهوبين غير عادية، وإنما الموهوب رقم غير عادي.

وكان عمر الإمام الجواد عند وفاة والده ﷺ سبع سنوات، وكان أحد الفقهاء يتردّد إليه، فكان يقول: الناس يظنّون أنني أُعلمه، وأنا والله أتعلم منه طرفي الليل والنهار. فقد تجد ابن سبع أو عشر يستوعب ما لا يستوعبه الرجل الكبير. فليس غريباً أن يأخذ الإمام الحسن ﷺ عن جدّه الأحاديث فيحفظها، أو أن يأخذها بالواسطة من أبيه أمير المؤمنين ﷺ. ولدينا في تأريخ المسلمين من بلغ الاجتهاد وهو ابن الثامنة عشرة[1].

والسنون السبع الأُولىٰ من حياة الإنسان هي السنون الحسّاسة فيها، وقد قضاها الإمام الحسن ﷺ في حجر جده. ثم أُصيب الحسنان بموت جدّهما، فراحا يعيشان فراغاً كبيراً، ثم لحقتهما المصيبة الثانية بعد ثلاثة أشهر بموت أمّهما فاطمة ﷺ، لكن الله تعالىٰ عوضهما بحجر امرأتين طيبتين طاهرتين هما أسماء بنت عميس الخثعمية من جانب وفاطمة بنت حزام أمّ البنين من جانب، تلك المرأة التي كرّست حياتها لخدمتهما، حتىٰ إن بعض المؤرّخين يقول: إنها ألحّت علىٰ أمير المؤمنين ﷺ ألّا يسميها باسمها كيلا يتألم الحسنان.

نشاط الحسن ﷺ إبان إمامة والده ﷺ

عاش الإمام الحسن ﷺ هذه الفترة من سبع سنين حتىٰ نهاية حياة والده أمير المؤمنين ﷺ ـ أي ما يقرب من ثلاثين سنة ـ وقد مرّ بأحداث ضخمة، ولكن كانت الأضواء فيها مسلطة علىٰ أمير المؤمنين ﷺ، وليس معنىٰ ذلك

(١) خلاصة الأقوال: ١٠، كشف اللثام ١: ٢٥.

أن حياته كانت بلا أضواء، وإنما كان نشاطه الاجتماعي والجهادي والعلمي يشغل جانباً من تلك الفترة، فمن نشاطه الاجتماعي أنه كان يقوم بأعمال تتناسب مع ما له من مكانة، فالخلافة لم تستغنِ عنه في أحداثها ولا في فتوحاتها، فقاتل في أكثر من واقعة وواقعة[١].

وهناك مغالطة يذكرها المؤرّخون دائماً في فتح القسطنطينية، ويروون أن أول جيش يفتح القسطنطينية من أهل الجنة، ثم ينسبون ذلك إلى يزيد بن معاوية؛ ليكون بذلك من أهل الجنة[٢]. ففي سنة تسع وأربعين كان سفيان بن عوف على رأس الجيش الذي فتح القسطنطينية، ومن بعد ذلك بسنة جاء الجيش الثاني، ولكن بعد أن أصاب جيش المسلمين طاعون وحمّى فتكا به، ويزيد مع جارية له في دير مرّان تغنيه، فوصل له خبر الجيش الذي أصابته الحمى والطاعون، فشرب حتى ثمل، ثم أنشأ يقول:

ما إن أبالي بما لاقت جموعُهُمُ ... بالفَرْقَدونة من حمّى ومن شومِ

إذا اتّكأت على الأنماط مرتفقاً ... بدير مرّان عندي أمّ كلثومِ[٣]

---

(١) طبقات المحدثين بأصبهان (ابن حبان) ١: ١٩١، تاريخ جرجان: ٤٨.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٦١: ٦١، فيض القدير شرح الجامع الصغير ٣: ١٠٩.

قال المناوي: «لا يلزم منه كون يزيد بن معاوية مغفوراً له لكونه منهم إذ الغفران مشروط بكون الإنسان من أهل المغفرة ويزيد ليس كذلك لخروجه بدليل خاص ويلزم من الجمود على العموم أن من ارتد ممن غزاها مغفور له وقد أطلق جمعٌ محققون حِل لعن يزيد به حتى قال التفتازاني: الحق أن رضا يزيد بقتل الحسين وإهانته أهل البيت مما تواتر معناه وإن كان تفاصيله آحاداً فنحن لا نتوقف في شأنه بل في إيمانه لعنة الله عليه وعلى أنصاره وأعوانه. قال الزين العراقي: وقوله بل في إيمانه أي بل لا يتوقف في عدم إيمانه بقرينة ما قبله وما بعده. البداية والنهاية ٨: ١٣٥.

(٣) معجم البلدان ٢: ٥٣٤، ٤: ١٨٨.

ومن بعد ذلك ألحّ عليه أبوه معاوية أن يلتحق بالجيش فالتحق، ولكن في المرة الثانية.

فالذي فتح القسطنطينية هو سفيان بن عوف، ولك أن تراجع التواريخ المعتبرة كالطبري وابن الأثير[1] وغيرهما[2].

أمير المؤمنين عليه السلام يرسل الحسنين عليهما السلام لحماية عثمان

وفي أيام الثورة على الخليفة الثالث كان أمير المؤمنين عليه السلام يدرك ما سوف تجرّه الثورة من البلاء على المسلمين؛ ولذلك أوقف الحسنين عليهما السلام على باب عثمان كيلا تُقتحم عليه الدار[3]، وكيلا يأتي التأريخ بعد ذلك فيقول: إن علياً عليه السلام هو الذي سهّل عليهم الأمر. ولكن علياً عليه السلام مع كلّ ذلك لم يسلم من هذه التهمة، يقول أحد شعراء الأُمويين:

بني هاشم كيفَ الهوادةُ بيننا	ودرع ابن أروى عندكم ونجائبُهْ
بني هاشم ردّوا تراث ابنِ أختِكم	ولا تنهبوه لا تحلُّ مناهبُهْ
هُمُ قتلوه كي يكونوا مكانه	كما غدرت يوماً بكسرى مرازبُهْ[4]

ولكن انظر إلى لحظة من لحظات الصدق مع النفس عند مروان، يقول ابن حجر في (الصواعق المحرقة): «سألوا مروان عن موقف علي عليه السلام من الخليفة الثالث فقال: والله، إنه لأبرأ الناس من دمه. فقيل له: فلم تنسبون إليه تهمةً في عثمان؟ قال: إن أمرنا لا يستقيم إلّا بذلك»[5].

---

(1) الكامل في التاريخ ٣: ٣١٤.

(2) الإصابة ٣: ١٠٧، تاريخ مدينة دمشق ١٢: ٣٥٠.

(3) المستدرك على الصحيحين ٣: ١٠٦، مسند ابن الجعد: ٣٩٠، الثقات (ابن حبّان) ٢: ٢٦٣، سير أعلام النبلاء ٨: ١٨١، الإمامة والسياسة ١: ٤٤.

(4) الجمل (الشيخ المفيد): ١١٢، المحلى ١٠: ٥١٣، شرح نهج البلاغة ١: ٢٧٠.

(5) الصواعق المحرقة ١: ١٦٣.

نعم، أرسل الإمام علي عليه السلام الحسنين عليهما السلام للوقوف على باب الدار؛ ولذلك لم يدخل الثوار من الباب، وإنما تسوروا عليه من وراء الباب وقتلوه. وأظن أن هذا هو الذي حمل طه حسين على القول: «إن الإمام الحسن عليه السلام كان عثمانياً بما تحمله الكلمة من معنى».

وفي المجال العلمي كانت الكثير من المسائل التي ترد على المسلمين توكل إليه، فمن ذلك أن أمير المؤمنين عليه السلام كان جالساً في مسجد النبي صلى الله عليه وآله وجاء سائل فقال: يا أمير المؤمنين، جئت إلى الحج فوطئت بيض النعام، ولا أدري ما يكون عليّ. فقال له الإمام علي عليه السلام: «سل ذا الوفرة». وأشار إلى الإمام الحسن عليه السلام، فأقبل إليه فسأله، فقال عليه السلام: «انظر إلى عدد البيض الذي وطئته، وخذ عدداً مثله من النياق فاضرب النياق بالفحول، فما حملت فاهده إلى بيت الله». فقال: إن النوق يزلقن. فقال له عليه السلام: «والبيض يمرق». فرجع السائل إلى أمير المؤمنين عليه السلام وأخبره بما أفتى، فقال عليه السلام: «والله لقد أفتاك بحكم الله من فوق سبع سماوات»[1].

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٧٦، بحار الأنوار ٣٤: ٣٥٤ / ٣٢، وليس فيهما: سل ذا الوفرة، بل ورد هذا اللقب في رواية أخرى فقد جاء شامي لأمير المؤمنين عليه السلام ليسأله فقال له: «سل ذا الوفرة». فسأله عن عدة أمور منها: كم بين الحق والباطل؟ وكم بين السماء والأرض؟ وكم بين المشرق والمغرب؟ وما قوس قزح؟ وما العين التي تأوي إليها أرواح المشركين؟ وما العين التي تأوي إليها أرواح المؤمنين؟ وما المؤنث؟ وما عشرة أشياء بعضها أشدّ من بعض؟ فقال الحسن بن علي عليهما السلام: «بين الحق والباطل أربع أصابع فما رأيته بعينك فهو الحق، وقد تسمع بأذنيك باطلاً كثيراً». قال الشامي: صدقت. قال: «وبين السماء والأرض دعوة المظلوم ومد البصر، فمن قال لك غير هذا فكذبه». قال: صدقت يابن رسول الله. قال: «وبين المشرق والمغرب مسيرة يوم للشمس تنظر إليها حين تطلع من مشرقها وحين تغيب من مغربها». قال الشامي: صدقت، فما قوس قزح؟ قال عليه السلام: «ويحك لا تقل قوس قزح فإن قزح اسم شيطان، وهو قوس الله وعلامة الخصب وأمان لأهل الأرض من الغرق، وأما العين التي تأوي إليها أرواح المشركين فهي عين يقال لها: برهوت، وأما العين التي تأوي إليها أرواح المؤمنين

نشاطه عليه السلام إبان إمامته

ومن بعد هذه الفترة عاش فترة أُخرىٰ وهي ما بعد استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام، ووصول الخلافة إليه، حيث ابتدأت زحمة الأحداث، فكان أن واجه عليه السلام تلك الأحداث المتشابكة برباطة جأش وثبات، فدعا الناس إلىٰ بيعته وطاعته، وجهّز الجيش لقتال معاوية، وهيأ كلّ الفرص. غير أنه عليه السلام لمّا تزاحم الأمر بين المهمّ والأهمّ قدم الأهمّ، فهو عليه السلام رأىٰ أن حقن الدماء في هذه الفترة أهمّ، ومن ناحية أُخرىٰ رأىٰ أن الحرب ستمكّن الروم من حدود المسلمين، فالروم كانوا قد حشدوا علىٰ الحدود من جهة الشام. فلم يكن الإمام الحسن عليه السلام محبّاً للحياة كما يحلو للبعض أن يتّهمه، وكيف يحبّ الحياة من نشأ في كنف جدّه النبي صلى الله عليه وآله وأبيه أمير المؤمنين عليه السلام؟ فهو لم ينشأ في بيت دعة أو رفاهية، وقد اشترك مع أبيه في الحروب، فلم يكن بعيداً عن ساحاتها، لكن المصلحة اقتضت حقن الدماء.

ولا ننسَ خذلان أصحابه له، ذلك الذي ملأ نفسه انفعالاً، حيث خرج

فهي عين يقال لها: سلمى، وأما المؤنث فهو الذي لا يُدرىٰ أذكر هو أم أُنثى فإنه ينتظر به: فإن كان ذكرا احتلم وإن كانت انثى حاضت وبدا ثديها، وإلّا قيل له بُل على الحائط فإن أصاب بوله الحائط فهو ذكر وإن انتكص بوله كما ينتكص بول البعير فهي امرأة. وأما عشرة أشياء بعضها أشد من بعض، فأشد شيء خلقه الله عز وجل الحجر، وأشد من الحجر الحديد الذي يقطع به الحجر، وأشد من الحديد النار تذيب الحديد وأشد من النار الماء يطفئ النار، وأشد من الماء السحاب يحمل الماء، وأشد من السحاب الريح تحمل السحاب، وأشد من الريح الملك الذي يرسلها، وأشد من الملك ملك الموت الذي يميت الملك، وأشد من ملك الموت الموت الذي يميت ملك الموت، وأشد من الموت أمر الله رب العالمين يميت الموت». فقال الشامي: أشهد أنك ابن رسول الله صلى الله عليه وآله حقاً، وأن علياً أولى بالأمر من معاوية.

الخصال (الصدوق): ٤٤٠، ٤٤١، الاحتجاج ١: ٣٩٩، بحار الأنوار ١٠: ١٣٠ / ٤٣، ٣٢٥.

من الكوفة، فوقف على مشارفها فأطال النظر إليها، وراح يقول:

«وما عن قلىً فارقت دار أحبّتي هُمُ المانعوني حوزتي وذماري»[١]

ورجع إلى المدينة يجترّ آلامه، حيث رأى أن كلّ الشروط التي اشترطها على معاوية لم يُنفَّذ منها شيء أبداً، ولكن ماذا يصنع؟

والغريب في التأريخ أنه ينتقده لأنه صالح معاوية، لكن هل سلم من انتقاداته الإمام الحسينُ عليه السلام الذي نهض ضد الأمويّين؟ أم إنه يقول عنه: خرج على إمام زمانه[٢]! وهذا يظهر لك أن التأريخ لا بدّ أن ينتقد الحسن والحسين عليهما السلام على كلّ حال.

وبقي الحسن عليه السلام يعيش آلامه ويضمّد جراحاته، حتى جاءت المأساة الأخيرة حيث دُسّ له السم، ذلك السلاح الخفي الذي استخدمه معاوية مع الكثيرين، فقد استعمله مع سعد بن أبي وقاص[٣]؛ لأن موقفه كان سلبياً منه. وقد حاول معاوية مراراً أن يحصل منه على شتم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فرفض، مع أنه كان عدوّاً لعلي عليه السلام، لكن عداوته لم تكن

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٦: ١٦.

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ٢٦٥ ـ ٢٦٦. وفيه: وقد غلب على ابن العربي البغض من أهل البيت، حتى قال: قتله ـ يعني أن يزيد قتل الحسين عليه السلام ـ بسيف جدّه.
وقال: ومن مجازفات ابن العربي أنه أفتى بقتل رجل عاب لبس الأحمر؛ لأنه عاب لبسة لبسها رسول الله صلى الله عليه وآله، وقتله بفتياه كما ذكره في (المطامح). وهذا تهوّر غريب، وإقدام على سفك دماء المسلمين عجيب، وسيخاصمه هذا القتيل غداً. ويبوء بالخزي من اعتدى. وليس ذلك بأول عجرفة لهذا المفتي وجرأته وإقدامه؛ فقد ألّف كتاباً في شأن مولانا الحسين (رضي الله عنه، وكرم وجهه، وأخزى شانئه) زعم فيه أن يزيد قتله بحقّ بسيف جدّه نعوذ بالله من الخذلان. فيض القدير شرح الجامع الصغير ٥: ٣١٣.

(٣) شرح نهج البلاغة ٦١: ٢٩، النصائح الكافية (محمد بن عقيل): ٨٦.

خسيسة وإنما كانت عداوة نبيلة، فقد واجه معاوية بقوله: والله لو كانت لي واحدة مما كان لعلي لكان أحبّ إليّ مما طلعت عليه الشمس: زوّجه رسول الله صلى الله عليه وآله ابنته، ودفع له اللواء يوم خيبر، وقال له: «أنت مني بمنزلة هارون من موسىٰ». فقال معاوية: إذن لم تخلّفت عن بيعته؟ قال: ذلك لا يعنيك[1].

واستعمل معاوية السم مع الأشتر[2]، وأرسل السم إلىٰ جعدة مع الكثير من الإغراءات، فدسّته للحسن عليه السلام في اللبن وكان صائماً، وقدّمته له عند الإفطار. فتناول منه جرعة فأحس بالسمّ يجري في عروقه، فعاد إلىٰ الدار يلفظ أمعاءه والدماء قد أخذته.

ودخل عليه الإمام الحسين عليه السلام وهو في هذه الحالة، فراح يشرح للحسين الموقف وما سوف يحصل، ثم قال له: «لا تهرق في أمري ملء محجمة دماً، وإذا لم يمكن الدفن عند جدي فادفني عند أمي».

ثم قال: «سجّني إلىٰ القبلة». وراح الإمام الحسين عليه السلام يودّع أخاً عاش معه وترعرع، ورضع معه لبان النبوّة والإمامة، وجرت من عين الإمام الحسين عليه السلام دمعة حارّة وهو يلحظ الروح الطيبة تصعد إلىٰ بارئها، وضع رأسه في حجره.. أغرق وجهه بدموعه ثم قام بتنفيذ وصاياه. وخرجوا يحملون النعش، وخرج بنو أمية، وواجه الإمام الحسين عليه السلام ذلك بما عُرف عنه من ثبات وصبر، ولم يصرّ علىٰ دفنه عند جده وإنما جدّد به عهداً بالنبي صلى الله عليه وآله، ثم عاد به إلىٰ البقيع، فأنزله في قبره وجلس علىٰ شفير القبر يخطّ الأرض بأنامله.. يبلّ الثرىٰ بقطرات من دموع عينيه، ويقول:

---

(١) مروج الذهب ٣: ٢٤ ـ ٢٤، شواهد التنزيل ٢: ٣٥، تاريخ مدينة دمشق ٢٤: ١١٢.

(٢) الغارات ١: ٢٦٣، الغدير ٩: ٤٠، ١١: ٦٣، شرح نهج البلاغة ٦: ٧٦، النصائح الكافية: ٨٧.

«أأدهن رأسي أم تطيب مجالسي وخـدّك معفور وأنت تريبُ
وليس حريباً من أُصيب بماله ولكنّ من وارى أخاه حريبُ
بكائي طويل والدموع غزيرة وأنت بعيدٌ والمزارُ قريبُ»

ثم نفض يديه من تراب القبر ورجع[1]. وكان يجول بالدار ويقول:

«أجول بالدار لا أراك وبا لدار أُناس جوارهم غبنُ»[2]

أقول له: سيدي، مكان واحد خالٍ أقضّ مضجعك، فكيف حالك لو رأيت بيوتكم بعد واقعة الطفّ وقد أصبحت جميعها بيوتاً للأحزان؟ كيف بك لو رأيت أُختك في دارك تجول لا تهدأ حتى الصباح ولسان، حالها يقول:

منازل كانت نيّراتٍ بأهلها تـوالى عليها غـبرة وقتامُ
ألا لا تُـزان الدار إلّا بأهلها على الدار من بعد الحسين سلامُ

* * *

يناعي الشبعد تدري اشبكالي وشـخلّفت عـندي الليالي

---

(١) شرح الأخبار ٣: ١٣٢، مناقب آل ابي طالب ٣: ٢٠٥، بحار الأنوار ٤٤: ١٦٠، نظم درر السمطين: ٢٠٦.

(٢) البيت لسليمان بن قتة. مقاتل الطالبيين: ٥٠، شرح الأخبار ٣: ١٣٢، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٠٥، بحار الأنوار ٤٤: ١٦١، شرح نهج البلاغة ١٦: ٥٢.

﴿٢٦﴾

الإمامة ومفتريات المنحرفين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَ تَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً إِنِّي أَراكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: في طهارة آباء الأنبياء

تدور مضامين هذه الآية حول الفكر السياسي في الإسلام، أو بتعبير آخر: إن هناك مطارحات فيها نوع من الآيديولوجيا تدور حولها، والآراء المتبنّاة مسبقاً، كما سيتّضح لنا ممّا سنرىٰ بيانه.

إن أول مسألة أثار المفسّرون الجدل حولها في هذه الآية هي: هل إن آزر أبٌ للنبي إبراهيم عليه السلام أم عمّ له؟ وهل إنه أب له حقيقة أو مجازاً؟ وهل إنه أبوه الذي ولده أم لا؟ فعند السدّي[2] وغيره أن إجماع المؤرّخين على أن أباه عليه السلام كان اسمه تارخ، وأن آزر عمه. فإن كان الأمر كذلك، فلمَ

---

(١) الأنعام: ٧٤.

(٢) التبيان ٤: ١٧٥، عمدة القاري ١٥: ٢٤٠، فتح القدير ٢: ١٣٥.

ينسب الله النبي إبراهيم عليه السلام لآزر؟

ووجه الإشكال أن آزر كان يعبد الأصنام، فهل يجوز أن يكون أبو النبي مشركاً يعبد الأصنام أم لا؟ وفي هذا أيضاً نزاع بين فرق المسلمين، فهم فيها قسمان: فالذي عليه الشيعة الإمامية[١] وقسم من المذاهب الإسلامية الأخرى ـ كما ينقل الآلوسي في تفسيره الموسوم (روح المعاني)[٢] ـ أن آباء الأنبياء لا يمكن أن يكونوا مشركين.

دليل كون النبي من سلالة طاهرة

ويستدل القائلون بأن آباء آل النبي يجب أن يكونوا مؤمنين بقسمين من الأدلة: منقول ومعقول، أما المنقول فهو الحديث المروي عن النبي صلى الله عليه وآله: «ما زلت أنتقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهّرات حتى أخرجني الله إلى عالمكم هذا»[٣]. وبناء على صحّة هذا الحديث فليس من شك في أن أحداً من آباء النبي صلى الله عليه وآله لم يكن مشركاً؛ لأن القرآن الكريم يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[٤].

أمّا الدليل العقلي فإنه يقول: إذا كان أوّل شيء يدعو إليه النبي هو توحيد الله، وتنظيف الفكر عن هذا القذر وهو الشرك، فكيف يبعث الله نبياً يدعو إلى التوحيد وأبوه مشرك؟ إن الناس سوف يقولون له: إنك تدعونا إلى التوحيد، وقد كان أبوك مشركاً. وهذا يعدّ لوناً من النقص في الأفق النبوي الذي يحيط بالأنبياء عليهم السلام. ولذا فإن أصحاب هذا القسم يرفضون فكرة أن يكون آباء الأنبياء مشركين أو ملحدين.

---

(١) تصحيح اعتقادات الإماميّة: ١٣٩.
(٢) روح المعاني ٧: ١٩٥.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) التوبة: ٢٨.

إذن هنا رأيان متقابلان عند فرق المسلمين على اختلاف المذاهب: أحدهما يقول: لا يمكن أن يكون آباء الأنبياء مشركين، والآخر على العكس من ذلك كما ينص عليه الرازي[١] في تفسيره، ومحمد رشيد رضا في تفسير (المنار)، من أنه يجوز أن يكون أحد الأبوين مشركاً، بل إن آباء الأنبياء عليهم السلام يمكن أن يكونوا مشركين. وهذا في رأيهم لا يقدح في النبوّة ولا في النبي. ونحن عندنا ـ بالإجماع ـ أن آباء الأنبياء عليهم السلام يجب أن يكونوا موحّدين.

في أن الإمام كالنبي

وكذلك الأيمّة؛ لأن هناك وحدة ملاك في الموضوع. ومعنى وحدة الملاك هنا أن الغاية من وجود الإمام هي ذاتها الغاية من وجود النبي، وغاية ما في الأمر أن النبي يوحي له الله من السماء، أمّا الإمام فيأخذ علمه وما يسيّر به أُمته من النبي، والنبي يستقي من السماء، لكن الهدف لهما واحد، هو تبليغ رسالة السماء، ونشر الأحكام الدينية بين العباد، والإشراف على تجسيد النظام الإلهي في المجتمع.

فعندما تنزل آية من القرآن فيها تجسيد للنظام كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[٢] فالنبي لا يبلّغ هذا المعنى فقط، وإنما يبلّغه ويجسده. فمن عقد عقداً ولم يفِ به، يجبره على الوفاء به؛ فهو يتّصف بسلطتين هنا: تشريعية وتنفيذية. وكذلك الإمام؛ ولذا تقول الرواية: «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزعه بالأديان»[٣] . فإن اقتصرنا على الجانب النظري

---

(١) التفسير الكبير ١٣: ٣٨.　(٢) المائدة: ١.

(٣) التبيان ٩: ٢٧٥، فتح القدير ٣: ٢٥٢، ٢٥٦.

من الوحي فقط، فسوف لن نصل إلى نتيجة ذات فائدة؛ إذن أن هناك من الناس من لا يهمّه التشريع؛ سواء نزل في القرآن أو في القانون، فلا بدّ من قوة لتطبيق القانون.

وباعتبار وحدة الملاك وإن النبي والإمام سنخ واحد، لذا فإننا نخاطبهم في الزيارة بقولنا: «أشهد أنكم كنتم نوراً في الأصلاب الشامخة، والأرحام المطهرة، لم تنجسكم الجاهلية بأنجاسها»[1]. ومن أنجاس الجاهلية: الشرك.

وعندما أمر بهذا الموضوع ألحظ فيه حدّة الصراع، وإنْ كان الصراع الفكري ـ على العموم ـ لا بأس به ولا نقص ولا عيب؛ لأننا نختلف في فهم الدليل، لكن يجب أن يكون الاحترام متبادلاً بين المختلفين وأن تحترم آراء الآخرين. والاختلاف في الرأي لا يوجب العداوة[2]، وهذا ما نراه في الشعوب المتحضّرة، وليست الحضارة إلا السلوك الحضاري الذي يسلكه الإنسان، فأنا أحتمل مثلاً أن يكون رأي المقابل صحيحاً قابلاً للخطأ، أو بالعكس، وبالمقابل عليه أن يعاملني بالمثل، فيكون هناك تبادل في الآراء لنصل أخيراً إلى الحقيقة.

إيمان أبي طالب عليه السلام

كما إنني عندما أمر بهذا الصراع ألمح فيه مسألة الإصرار على شرك أبي طالب عليه السلام. وهذه النقطة من النقاط الساخنة، فهناك إصرار على أنه مات مشركاً، وإصرار من الطرف الثاني على أنه رُمي بالشرك لأنه أب

(١) مصباح المتهجد: ٧٢١/ ٨٠٧.

(٢) قال الشاعر:

واختلاف الرأي لا يفـ ـسد في الودّ قضيّه

لعليّ عليه السلام، ولو أنه كان أباً لغير علي عليه السلام لكان الأمر على غير ما نرى.

إن الواقع يقول: إن أبا طالب كان مؤمناً كما نستفيده من مواقفه وشعره ومن إجماع أهل البيت عليهم السلام، وإجماعهم حجّة حسب حديث الثقلين. ولا يضر أبا طالب قول من قال أو دعوى من ادّعى، ولو كان الشتم يضرّ لكان هناك من الناس من ينبغي أن يختفوا من الوجود، وليس هناك من أحد شتم أكثر من علي، لكنه أخذ بأبعاد الحياة، وفكرها الصحيح السليم. وكل من يقرأ تاريخه يذعن أنه جدير بالاحترام. أما الإجماع على علي من كل الناس فلا نتوقعه؛ لأن الناس لم يجمعوا حتى على ألوهية الله ووحدانيته، فهناك من يسبّ الله، وهناك من يكفر بنعمته، فهل يضر ذلك البارئ تعالى؟

المبحث الثاني: في كون العمّ أباً

وبالعودة إلى الآية نلحظ أن القرآن استخدم كلمة (ابيه) مع ادّعائنا أنه عمه، فهل يسمى العم أباً؟ والجواب: نعم، وقد استخدم القرآن لفظة الأب بدل العم في موضع آخر، قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾[1]. وهذه الآية حكاية عن النبي يوسف عليه السلام. وكان يعقوب أباً له، إمّا إسحاق فكان عمه. فالعم يسمى عند العرب أباً. والقرآن نزل بلغة العرب، وإذا كان الأمر كذلك زال إشكالان في المسألة:

الأوّل: أن المشرك المذكور في الآية لم يكن أباً له، وإنما هو عمّه، وهذا لا يضره.

والثاني: قيام العم مقام الأب وتسميته به.

---

(١) يوسف: ٣٨.

أبو طالب (عليه السلام) يضحّي في سبيل النبي (صلى الله عليه وآله)

وانطلاقاً من هذا المعنى فإننا نلاحظ أن أبا طالب (عليه السلام) كان من مصاديق العمومة التي تقوم مقام الأبوة؛ لأن النبي توفي والده وعمره ستة أشهر على رواية، وعلى أخرى سنتان، وثالثة ست سنين. فقام عمّه أبو طالب بكفالته بعد جدّه عبد المطلب. ولم يقم بتربيته فحسب، وإنما ضحى بكل شيء في سبيله؛ فلا أموال ولا أولاد ولا مكانة، فمكانته في قريش تضعضعت، لأنهم كانوا يقولون له: إن ابن أخيك أفسد شباننا، وأوقعنا في مشاكل نحن في غنى عنها، فلا بدّ من مناجزته. لكن أبا طالب كان يقول له:

اذهب لأمرك ما عليك غضاضة ... أبشر وقرّ بذاك منك عيونا
والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أوسّد في التراب دفينا[1]

كما عرض أمواله كلها لخدمة النبي (صلى الله عليه وآله)، وضحى براحته، وسخر أولاده الأربعة لخدمة النبي (صلى الله عليه وآله)، وكان يقول لهم: صِلُوا جناح ابن عمكم.

المبحث الثالث: الإمام الحسين وأبناء الإمام الحسن (عليهما السلام)

وممن قام بدور الأبوّة من الأعمام الإمام الحسين (عليه السلام) مع أولاد الحسن (عليه السلام)، وهذا ما سنتعرف عليه هذه الليلة.

نقاط في حياة الإمام الحسن (عليه السلام)

وهنا نقاط تستحق الوقوف عندها في حياة الإمام الحسن (عليه السلام)، ولا بدّ من

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢: ٣١، السيرة النبوية ١: ٤٦٤، الجامع لأحكام القرآن ٦: ٤٠٦، زاد المسير ٣: ١٧، البداية والنهاية ٣: ٥٦، فتح الباري ٧: ١٤٨، شرح نهج البلاغة ١٤: ٥٥.

المرور بها وهي:

الأولى: أولاد الإمام الحسن عليه السلام

إن عدد أبناء الإمام الحسن عليه السلام الذكور والإناث خمسة عشر فرداً على أصح الروايات. وهناك رواية تقول: إن عددهم عشرون، وثالثة تقول: إن عددهم أحد عشر، ورابعة تقول: إن عددهم تسع. لكن الأصح، والذي عليه الشيخ المفيد وآخرون أنهم خمسة عشر. ومنهم زيد بن الحسن وأختاه أم الحسن وأم الحسين، وأمّهم أمّ بشير الخزرجية من الأنصار. وكان زيد يتولّى صدقات رسول الله التي تركها لتوزّع على المسلمين. فلما جاء سليمان بن عبد الملك إلى الحكم نزع منه هذه التولية، لكن عمر بن عبد العزيز أرجعه إليها مرة أخرى.

وهذا يدل على أننا لا عداء لنا مع أحد إذا كان محمود السيرة، فبعض الأمويين من أمثال عمر بن عبد العزيز نقدرهم غاية التقدير؛ لأن المقياس عندنا هو الصلاح والفساد. وكان أبان من أصحاب الأيمّة، وهو أموي، لكنه من خيرة الناس، وله عندنا مكانة كبيرة لا حدود لها. كما إننا نعطي أم حبيبة بنت أبي سفيان حقّها من الاحترام والتبجيل اللذين منحها الله إياهما، فلا عداء لنا مع أحد.

وكان لزيد بن الحسن مكانة كبيرة، وكان من الأجلاء ومن مقاصد العرب، وقد اشتهر بالجود، يقول عنه أحد الشعراء:

إذا نزل ابن المصطفى بطن تلعة ... نفى جَدبها واخضرّ بالنبت عودُها

وزيدٌ ربيع الناس في كل شتوة ... إذا أخلفت أبراقها ورعودُها

ويعتبر زيد من أعمدة النسب عند السادة الحسنيين؛ لأن الولدين

اللذين أعقبا عند الإمام الحسن عليه السلام هما: زيد بن الحسن، والحسن المثنى.

والحسن المثنى هذا هو الحسن بن الحسن، وكان يتولّى صدقات جده علي عليه السلام، وقد بعث الحجّاج إليه أن أشرك معك في هذه الصدقات عمك عمر بن علي بن أبي طالب، فقال الحسن: هذه الصدقات مشروطة، وأنا منصوص علي بالولاية، ولا أستطيع أن أخالف النص. فقال الحجاج: أُجبرك على هذا.

فخرج من حيث لا يشعر به الحجاج، فأتى الشام إلى عبد الملك، فوجد في الطريق رجلاً اسمه يحيى، فقال له يحيىٰ: أنا معك، وسوف أرعاك. فدخل معه على عبد الملك، فرحب به، وقال: أرى الشيب قد غلب عليك. فالتفت إليه يحيى قائلاً: ولمَ لا يشيب، لقد شيبته الهموم والأماني بأن يكون خليفة، وهناك من يدخل عليه يبايعه ليصبح خليفة. فقال: الحسن ليحيىٰ: بئس ما قلت، أهذا الرفد الذي وعدتني به؟ ثم قال له عبد الملك: ما وراءك؟ فقصّ عليه أمره مع الحجّاج.

فكتب عبد الملك للحجاج أن يترك الأمر على ما هو عليه، وأن تبقى الصدقات بيد الحسن المثنى، ثم ودعه وخرج. فلما خرج الحسن قال ليحيىٰ: أهذا ما وعدتني به من الإعانة؟ قال يحيىٰ: نعم. قال: كيف؟ قال: أتظن أن هذا يقضي لك حاجة وهو لا يخاف منك؟ لقد خوّفته بما قلت له فقضى لك حاجتك. أي أنه يريد أن يقول له: قد أحببت أن أُنبهه إلى أن لك مكانة، وأنك تشكّل مركز ثقل، ولذا قضى حاجتك.

وكان الحسن المثنى قد خرج مع الإمام الحسين عليه السلام يوم الطف وقاتل حتى سقط جريحاً، وكانت أُمّه خولة بنت منظور الفزارية، فلما انتهت المعركة وجاؤوا للتنكيل بالقتلى، جاء أحد أخواله وهو أسماء بن

خارجة، فقال: لا يصلن أحد إلى ابن خولة. فقال ابن سعد: دعوه لأبي حسّان، إنه ابن أُخته. فحمله وهو جريح، وأتى به إلى الكوفة، فعالجه حتى برؤ، وأرجعه إلى المدينة.

وهناك ثلاثة آخرون من ولد الإمام الحسن هم: القاسم وعبد الله وعمرو، وأُمهم أُم ولد (جارية).

الثانية: فرية أنه مذواق مطلاق

إن هذه الفرية المختلقة تقول: إن الإمام الحسن تزوج ثلاثمئة امرأة، وهي فرية لا أساس لها، بل إن هناك رواية تقول: إنه مر يوماً بـلُمّة من النساء فقال لهن: «من منكن تتزوج ابن رسول الله؟». فقلن له: كلّنا مطلقاتك.

وأنا أسأل هذا السؤال: لو أنك مررت بأدنى الناس أخلاقاً (ابن شارع) وسمعته يقول لمجموعة من النساء: من منكن تتزوجني؟ فهل تقبل منه ذلك؟ فكيف تقبله من خليفة من خلفاء المسلمين، وسيد شباب أهل الجنة[1]، وابن رسول الله؟ إنه ﷺ صاحب مركز مرموق لا يتناسب معه هذا الكذب والافتراء. إن هناك ما يسمى بـ« مناسبة الحكم للموضوع» فهل تساعد مناسبة الحكم للموضوع ما سمعت من أنه يمر بمجموعة من النساء ويسألهن: من منكن تحب أن تتزوج ابن رسول الله؟ وهل يقدم على هذا العمل ذو مكانة ومقام كريم، وقائد من قواد المسلمين، ومن يحبه النبي ﷺ ويقول عنه: «أحب الله من أحبه». وكان

---

(١) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ٢٠، ٥٨، ٧٦، مسند أحمد ٣: ٣، ٦٢، ٦٤، ٨٢، ٥: ٣٩١، ٣٩٢، سنن ابن ماجة ١: ٤٤، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢١، ٣٢٦، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٦٧، ١٦٧، ١٦٧، ٣٨١، صحيح مسلم بشرح النووي١٦: ٤١، وغيرها كثير.

يحمله على كتفه، ويعبر عنه بأنه «سيّد».

الثالثة: إن كانت هذه نساؤه فأين أولاده

إن الإمام الحسن عليه السلام مات وعمره (٤٦) أو (٤٧) سنة، أي أنه في ريعان شبابه، ثم إنه لم يكن عقيماً، فإن كان تزوج هذا العدد من النساء فأين أولاده منهن؟ إن المرأة الواحدة يمكن أن تنجب (١٥) ولداً، فهل يتناسب عدد أولاده المذكور أوّل هذا المبحث مع عدد النساء المزعومات؟ مع العلم أن الأضواء في التاريخ تسلط عندنا على من يحكم، حتى إن أحدهم يقول عن تاريخنا: إنه تاريخ حكّام لا تاريخ شعوب. وكان الإمام عليه السلام الحسن خليفة وحاكماً، ولا شكّ أن الأضواء سلطت عليه، فأين هذا العدد الضخم من النساء؟ وأين من أنجبنهم من الأولاد؟

إن الهدف من إلصاق هذه التهمة بالإمام الحسن عليه السلام هدف واضح، وهو محاولة إسقاط مكانته وهيبته من قلوب الناس وأعينهم. وقد لعب العنصر السياسي دوره هنا، والذي لعب هذا الدور بشكل أكبر إنما هم العباسيون، فأصروا على تشويه صورة الإمام الحسن عليه السلام، وعلى إبرازه للناس بشكل يوحي أنه إنسان لا شغل له سوى الزواج والطلاق. رووا أن الإمام عليّاً عليه السلام قال: «لا تزوجوا الحسن؛ فإنه رجل مطلاق». فقام رجل من همدان فقال: بلى والله لنزوجنّه وهو ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وابن أمير المؤمنين عليه السلام؛ فإن شاء أمسك وإن شاء طلق[1].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣: ٢٥٣، ٢٦٢، البداية والنهاية ٨: ٤٣، وقد رواه الكليني في الكافي ٦: ٥٦ / ٤.

وهذا كما رأيت لا يتناسب معه، ولا يستقيم أمام النقد أبداً. وقد أراد العباسيون أن يصوروا العلويين على أنهم ضعفاء منصرفون إلى شهواتهم ولذائذهم.

والغريب أن الأضواء لم تسلّط على من تزوجوا عدداً كبيراً من النساء فعلاً، فهناك من بني أُمية من تزوج (٦٢) امرأة، والمتوكل العباسي كان لديه (٤٠٠٠) سرية[١]. ويمكنك مراجعة تاريخ الطبري والمسعودي وغيرهما[٢]. وهذه الأربعة آلاف موزّعة على قصوره، لكن، هل سمعت أحداً من المؤرخين ينتقده؟ أم أنهم يصفونه أنه محيي السنة ومميت البدعة؟[٣]. وقد كان يتقرب إلى الله بشتم علي بن أبي طالب عليه السلام[٤]، لذا تجد التاريخ يصفه بهذه الأوصاف. وهذه من الثغرات التي يجب أن تصحّح في تاريخنا؛ لأن التاريخ كتب في العصور الملغمة، وآثار ذلك سوف تنسحب على الأجيال، فعلى المراكز الإسلامية أن تنتبه لذلك، وتصحّح مسار تاريخنا وهدف مسيرتها.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢: ٤٠. (٢) البداية والنهاية ١٠: ٢٣٨ ـ ٢٣٩، ٢٤١.

(٣) البداية والنهاية ١٣: ٢٣٩.

(٤) شجرة طوبى ١: ١٥٧، الكامل في التاريخ ٧: ٥٥ ـ ٥٦، قال ابن الأثير: وكان المتوكّل شديد البغض لعلي بن أبي طالب عليه السلام ولأهل بيته، وكان يقصد من يبلغه عنه أنه يتولّى عليّاً وأهله بأخذ المال والدم، وكان من جملة ندمائه عبادة المخنّث، وكان يشدّ على بطنه تحت ثيابه مخدّة ويكشف رأسه وهو أصلع، ويرقص بين يدي المتوكّل والمغنّون يغنون: قد أقبل الأصلع البطين، خليفة المسلمين. يحكي بذلك عليّاً عليه السلام والمتوكل يشرب ويضحك، ففعل ذلك يوماً والمنتصر حاضر فأومأ إلى عبادة يتهدّده، فسكت خوفاً منه، فقال المتوكّل: ما حالك؟ فقام وأخبره، فقال المنتصر: يا أمير المؤمنين، إن الذي يحكيه هذا الكلب ويضحك منه الناس هو ابن عمّك، وشيخ أهل بيتك، وبه فخرك، فكل أنت لحمه إذا شئت ولا تطعم هذا الكلب وأمثاله منه. فقال المتوكّل للمغنّين: غنّوا جميعاً:

غار الفتى لابن عمّهْ رأس الفتى في حِرِ امّه

يقول الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه (المذاهب الإسلامية): «ليس من المعقول أن يشتم الأمويّون علي بن أبي طالب على المنبر صباح مساء، ثم يكتبون له في تاريخهم فضيلة». وماقاله عين الصواب؛ لأنهم إن كتبوا له فضيلة وهم يشتمونه كان ذلك تناقضاً.

إذن ينبغي أن ينظّف التاريخ من روايات المدح والقدح والمبالغة وغير ذلك مما ليس في محلّه، وإلّا فما ذنب الجيل إذا زودناه بهذا الزاد؟ إنك ترى أننا إذا أُصبنا بوباء بسيط في بلداننا، فإننا نقوم بحملة صحّيّة واسعة للقضاء عليه، فلم لا نفعل ذلك مع الوباء الفكري والعقيدي؟

الرابعة: في تزوّج الأئمّة عليهم السلام من الإماء ومفهوم الكفاءة

إن الكثير من الأئمّة تزوّجوا من الإماء، والأمة غير الحرّة، ومعنى ذلك أن الكفاءة التي يشترطها فقهاء المسلمين من ناحية الزوجين، لا من ناحية الزوج فقط لم تتحقّق.

ففي كتب الأحكام أن الكفاءة بين الزوجين لا بدّ أن تتحقّق، لكن، هل هذه الكفاءة شرط صحة أو شرط لزوم؟ فإن انعدمت الكفاءة وحصل العقد فهل هو صحيح أو لا؟ يقول بعض المذاهب الإسلامية: إن الكفاءة شرط في الصحة، ولا ينعقد العقد في مثل هذه الحال، وإن قارب المرأة فهو زنا. وعند بعض المذاهب أنه شرط لزوم، أي أن الكفاءة إذا لم تتحقّق، فالعقد صحيح، لكن المرأة يحقّ لها أن تفسخ العقد[1]. فما هي الكفاءة؟

---

(١) انظر في هذا المطلب وسابقه: الخلاف ٤: ٢٧٤ ـ ٢٧٥ / المسألة: ٣٢ المبسوط (الطوسي) ٤: ١٧٩، تذكرة الفقهاء ٢: ٦٠٤ (حجري)، مسالك الأفهام ٧: ١٥٧، كتاب النكاح (الأنصاري): ١٦٩، بدائع الصنائع ٢: ٣١٧.

يشترط الأحناف[١] والشوافع[٢] والحنابلة[٣] الكفاءة في النسب، فالقرشي يتزوج القرشية، والكردي الكردية. وغير العربي ليس كفئاً للعربية. والعربي غير القرشي ليس كفئاً للقرشية.

وعند الإمامية[٤] والمالكية[٥] أن الكفاءة لا تطلب إلا بالدين: «من جاءكم ممّن ترضون دينه فزوجوه، إلّا تفعلوه تكن فتنة»[٦]. فالمسلم كفء المسلمة. أما في النسب فلا، فقد زوّج النبي صلى الله عليه وآله ربائبه إلى أُناس ليسوا بمستواه، باستثناء الإمام علي، وزوّج ابنة عمته زينب بنت عبد المطلب[٧] سيد البطحاء من زيد بن حارثة، وهو مملوك، وزوّج فاطمة بنت قيس من مملوك مُعتق. ثم إن النبي صلى الله عليه وآله نفسه تزوج من الإماء. وأمر النبي صلى الله عليه وآله بني بياضة وهم من أُسر الأنصار الشريفة أن يزوّجوا جويبراً الغلام من ابنتهم[٨].

فالكفاءة في الدين فقط، أما في النسب فلا، قال تعالىٰ: ﴿يا أيُّها النّاسُ إنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إنَّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أتْقاكُمْ﴾[٩].

---

(١) المبسوط ٥: ٢٢، ٢٤، تحفة الفقهاء ٢: ١٥٤، ١٥٥، بدائع الصنائع ٢: ٣١٨.
(٢) المجموع شرح المهذّب ٤: ٢٨، مغني المحتاج ٣: ٢٠٨، إعانة الطالبين ٣: ٢٧٥.
(٣) المغني ٧: ٢٧٤، ٢٧٥، ٤٢٠، الشرح الكبير ٧: ٤٦٥، ٤٦٦، ٥٥٤، كشاف القناع ٥: ٧٣.
(٤) الناصريات: ٣٢٧/المسألة: ١٥٣، الخلاف ٤: ٢٧١/٢٧، إرشاد الأذهان ٢: ٣٠.
(٥) حاشية الدسوقي ٢: ٢٥٠.
(٦) الكافي ٥: ٣٤٧ / ٢ ـ ٣، الفقيه ٣: ٢٩٣ / ٤٣٨١، كنز العمّال ٦: ٤٥٩ / ٤٥٤٢٧.
(٧) يريد المحاضر أنها من نسل عبد المطّلب الذي هو جدّها لأمّها، فهي ابنته.
(٨) بحار الأنوار ٢٢: ١١٨، أُسد الغابة ٢٠٢ / ١٩٦٥.
(٩) الحجرات: ١٣.

نكاح العلوية من غير العلوي

وقد يقول قائل: إن عندكم أيها الشيعة أحد الروافد يقول: لا يجوز أن تتزوج العلوية إلّا من علوي، فما هذا الرأي؟ والجواب: أن هذا الرأي مقتصر على جماعة، وهو متروك لا يُعمل به. وعندنا أن المسلم كفء المسلمة. والكفء هو الرجل الصالح.

وقد تطرّقت لهذا الموضوع؛ لأن هناك مشكلة قائمة الآن هي أن الكثير من الآباء تركوا بناتهم عوانس بحجّة أن هذا ليس كفئاً لهم، لأنهم سادة أو عرب، وهذا كما يقول الحديث «إلّا تفعلوه تكن فتنة»؛ ولأنه عامل على نشر الفساد في الأرض. ولو تذلّلت العقبات أمام الزواج لارتفع الكثير من الفساد؛ لأن الإنسان يقع غالباً في الرذيلة إذا لم يجد ما يعفّف به نفسه.

وأنا لا أطلب من الآباء أن يلقوا البنت أو الولد إلى مصيريهما دون دراسة للحالة، فهذه مسؤولية أيضاً، ومن زوّج ابنته من فاسق فقد عقّها[1]، لكن ينبغي أن تخفّف القيود عن الزواج.

والمصيبة اليوم هي أن المكان الذي أراد النبي صلى الله عليه وآله أن يجمع منه المسلمين، انطلق المسلمون منه لبثّ الفرقة بينهم. فقالوا: معنى من ترضون دينه أن يكون من مذهبك. والمذهب ـ في الحقيقة ـ ما هو إلا مجتهد يوصلك إلى الحكم، فهو رافد، يقودنا إلى الإسلام، وكلنا إلى الإسلام. فمن كان مسلماً يشهد أن لا إله إلا الله، ولا ينكر ضرورة من ضرورات الدين، فهو كفء المسلمين.

وأؤكد هنا أن المجتمع الإسلامي لا يمكن أن يلتحم بعضه ببعض

---

(١) في الحديث عن الصادق عليه السلام: «من زوّج ابنته شارب الخمر فكأنما قادها إلى الزنا. ومن زوّج ابنته مخالفاً له على دينه فقد قطع رحمها». الفقيه ٤: ٥٨ / ٥٠٩١.

ويتلاصق إلا عن طريق الزواج، وهذا هو الهدف الذي رسمه الله للزواج.

لكن ماذا نفعل مع هؤلاء الذين يمنعون الزواج من مذهب آخر؟ إن هذا لا يلتقي مع روح الإسلام. وقد زوج أهل البيت أناساً لا يصلون حتى لغبارهم، كل ذلك بدافع وحدة المسلمين. ونحن هنا نطلق صوت الإسلام الذي يدعو إلى تذويب العقبات. والذي يعنينا وحدة المسلمين فقط.

رجع

وممن حضر في الطف من أولاد الإمام الحسن ولم يقتل ابنه عمر، وكان مريضاً، وعمره (١١) أو (١٣) عاماً، وقد جيء به أسيراً وأُدخل إلى مجلس عبيد الله ومجلس يزيد، وقد سأله يزيد: من أنت؟ قال: أنا ابن الحسن. قال: هل لك أن تصارع ابني خالداً؟ قال: أنا مريض، لكن أعطني سكيناً وأعطه سكيناً، فإما أن يقتلني فألحق بآبائي، أو أقتله فيلحق بآبائه.

فعرف يزيد أنها كلمة رجل. فقال:

شنشنة أعرفها من أخزم   هل تلد الحية إلا حيه[١]

وهناك من أبناء الحسن من ينص عليه المؤرّخون أنه حضر يوم الطف، ويذكرون أن أُمه شهربانويه أخت شاه زنان، فيكون على هذا ابن خالة الإمام زين العابدين ﷺ. وهو على رواية أن أباه ﷺ تركه في بطن أُمه، وعلى أُخرى أن عمره كان (١٠) سنوات أو (١١) سنة، أي في عمر القاسم. فلما سقط الحسين ﷺ على الأرض يوم كربلاء، خرج من الخيمة يعدو،

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٩. اللهوف في قتلى الطفوف: ٨٥.

فرآه الحسين عليه السلام وكان لا يقوى على الحركة، فصاح بأُخته: «أمسكيه لئلا تأخذه حوافر الخيل».

فبادرت إليه لتمسكه، فأفلت منها، وأقبل يعدو حتى جلس في حجر عمه. فأدناه الحسين إليه، ومسح بيده على رأسه، وبينا هو كذلك إذ أقبل أبجر بن كعب فرفع سيفه يريد ضرب الحسين عليه السلام، فالتفت إليه الصبي قائلاً: يا بن اللخناء، تريد أن تضرب عمي؟ واتقى الضربة بيده، فقطعت يده، وبقيت معلّقة بالجلد. فصاح: أدركني يا عماه. فضمّه الحسين وهو يقول: «صبراً ولدي، صبراً بني الكرام، والله لا لقيتم هواناً بعد هذا اليوم، إن الموت قنطرة تعبر بكم عن البؤس والضرّ إلىٰ جنان الله الواسعة والنعم الدائمة. فأيكم يكره أنه ينتقل من سجن إلىٰ قصر؟ وهؤلاء أعداؤكم كمن ينتقل من قصر إلىٰ سجن وعذاب أليم. إن أبي حدّثني عن رسول الله صلى الله عليه وآله أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[١].

ثم رفع رأسه إلى السماء، وقال: «اللهم اشدد وطأتك علىٰ هؤلاء القوم؛ إنهم دعونا لينصرونا، فوثبوا علينا فقاتلونا»[٢].

ولم أرَ من بنات الحسن من حضرت إلى الطف، وكان له من البنات سبع. منهن أم سلمة ورقية وفاطمة. أما الأولاد فقد حضر منهم من ذكرنا، كما حضر القاسم بن الحسن، وكان عمره يوم الطف (٩) سنوات أو (١٠) أو (١١) سنة على ثلاث روايات. وقد كان آخر من صرع كما يظهر من

---

(١) تصحيح اعتقادات الصدوق: ٥٢، بحار الأنوار ٤٤: ٢٩٧ / ٢.

(٢) انظر: الإرشاد ٢: ١١١، بحار الأنوار ٤٥: ٤٢، وفيهما أنه عليه السلام قالها حين نزل علي الأكبر عليه السلام إلى المعركة، تاريخ الطبري ٤: ٢٩٣، ٣٤٥، تهذيب التهذيب ٢: ٣٠٤، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٠٩، وفيها وفي غيرها أنه عليه السلام قالها حين قتل صبي له، باختلاف في اللفظ في الجميع.

الروايات؛ لأنه كان داخل الخيمة، فلما لم يبقَ مع الحسين أحد من بني هاشم، ورجع آخر رجعة ووقف، سمع القاسم صوت عمه ينادي: «أما من مغيث يغيثنا؟ أما من ذابٌ يذبّ عن حرم رسول الله؟»[1]. خرج وأمسك بثوب عمه. قال: عم، إني سمعت صوتك، وأريد أن أذبّ عن حرم جدّي. فقال له الحسين عليه السلام: «بني، أنت وديعة عندي من أخي الحسن. ادنُ إليّ». فدنا منه، فشمه وقبله وأعاده إلى الخيمة. فعاود الخروج وهو يقول: يا عمّ، لا أستطيع أن أسمعك تنادي وأنا أجلس في كسر الخباء، ايذن لي. فلم يأذن له، فعاود الثالثة، فقال له الحسين: «أعزمت؟» قال: نعم. فدخل إلى الخيمة وأخرج صندوقاً فيه عمامة للإمام الحسن عليه السلام لأنها على رأسه، وألبسه رداء للإمام الحسن عليه السلام أيضاً، وقلّده سيفاً، ثم قال له: «انزل بارك الله فيك». فنزل وهو يرتجز:

إن تنكروني فأنا نجل الحسنْ ... سبطِ النبي المصطفى والمؤتمنْ

هذا حسين كالأسير المرتهنْ ... بين أُناس لا سُقوا صوب المُزُنْ[2]

يقول حميد بن مسلم: والله، لقد رأيته يبعج الفرسان بعجاً، وعين الحسين عليه السلام تلاحقه. وفي أثناء القتال انقطع شراك نعله فأهوى إليه ليصلحه، فنظر إليه عمرو الأزدي، قال: والله لأُثكلنّ به أُمّه، فقال له حميد بن مسلم: أتمدّ يدك إلى هذا الصبي؟ والله لو ضربني ما ضربته. قال: والله لأُثكلنّ به أُمّه. ثم رفع سيفه وضربه على رأسه، فسقط إلى الأرض يتخبّط بدمه، صاح أدركني يا عماه.

---

(١) كشف الغمّة ٢: ٢٦١، اللهوف في قتلى الطفوف: ٦١، بحار الأنوار ٤٥: ١٢.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٥، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (الخوارزمي) ٢: ٢٩.

وامتطى الحسين جواده وأقبل إليه يذود الخيل عنه يميناً وشمالاً، إلى أن وصل مصرعه، فجلس عنده يمسح الدم والتراب عن وجهه وهو يقول: «صبراً بني إخوتي، صبراً بني عمومتي، لا رأيتم هواناً بعد هذا اليوم». ثم نقله الحسين إلى الخيمة؛ لأنه عليه السلام كان يعرف أن أمه وعمّاته سوف يخرجن إليه، فأراد أن يحافظ على خدر عائلته، فوضعه على صدره ورجلاه تخطّان الأرض، وطرحه في الخيمة. فكانت أُمه بعد ذلك لا تهدأ الليل ولا النهار.

يقول أحد الاعراب: مررت على أبيات بني هاشم، وكانت قدماي تتسمّران إلى الأرض كلّما مررت على بيت منها، فكنت أسمع حنيناً ونحيباً وأنيناً. ويبدو أنه مر بهذه الدار، دار رملة التي كانت تدور وسط الدار:

نطرت العيد يوليدي ... بلهفات وگلب ولهان
وصرت اجمع اهدوم العيد ... وعلگت اشموع بالصيوان
وگلت افرح بجيّاتك ... وطنّاتك ويه الشبان

الفصل الخامس

الإمام الحسين ﷺ



﴿٢٧﴾

الحسين ﵇ ضمير أمّة

سكتُّ فلا الأنغامُ تقرَعُ مسمعي ... ولا جَمَرَاتُ العِشقِ تلذعُ أضلعي

وحالَفني همٌّ يُلازمُ يقظتي ... ويمنعُني طيبَ الرُّقادِ بمضجعي

وما عادَ لي إلا حنينٌ لكربلا ... يُجدِّدُ في ذكرى الطُّفوفِ توَلُّعي

خليليَّ هل من وقفةٍ لكما معي ... على جدثٍ أسقيه صَيِّبَ أدمُعي

ليُروَى الثّرى منهُ بفيضِ مدامعي ... فإنَّ الحيا الهطَّال لم يكُ مُقنعي

لأنَّ الحيا يَهمي ويُقلعُ تارةً ... وإنّي لعُظمِ الخطبِ ما جفَّ مَدمَعي

خليليَّ هبّا فالرُّقادُ مُحرَّمٌ ... على كلِّ ذي قلبٍ من الوجدِ مُوجَعِ

هَلُمّا معي نَعقِرْ هناك قلوبَنا ... إذا الحُزنُ أبقاها ولمْ تتقطَّعِ

هَلُمّا نُقِمْ بالغاضريةِ مأتماً ... لخيرِ كريمٍ بالسُّيوفِ مُوزَّعِ

فتىً خلَّقتْ فيهِ قوادمُ عِزِّهِ ... لأعلى ذُرا المجدِ العظيمِ وأرفعِ

وآسادُ حربٍ غابُها أجَمُ القنَا ... وكلُّ كَميٍّ رابطِ الجأشِ أروعِ

إذا ألقحَ الهيجاءَ حتفاً برُمحِهِ ... فماضي الشبا منه يقول لها ضَعي

إلى أن دعاهُم ربُّهم للقائه ... فكانوا إلى لُقياهُ أسرعَ مَن دُعي

وخرُّوا لوجهِ اللهِ تلقا وجوهِهم ... فمن سُجَّدٍ فوقَ الصعيدِ ورُكَّعِ

٭ ٭ ٭

جـــينه نـــنشد كـــربلا مـــضيعينها بـــيها زيـــنب گـــالوا مـــيسرينها
يسّـــــروها ولا لهـــا واحـــد فـــزع شـــال حـــادي ظـعونها بـليل وگـطع
جينه ننشد وين أبـو فـاضل وگـع مـــا تـــدلونا الشـــريعه ويـــنها

يقول أحد أدباء الطفّ:

خُـذ فـي ثـنائِهِمُ الجميل مُقرّضاً فـالقومُ قـد جَـلُّوا عـن التأبـين

المباحث العامّة للموضوع

المبحث الأوّل: أن الحسين عليه السلام انتزع الخلود من الدنيا

لا نريد في هذه الليلة أن نؤبن الحسين عليه السلام ؛ لأن الذي يؤبّن هو الذي يموت ، أما الحسين عليه السلام فقد منحه اللّه الخلود ، وسنرى كيف انتزع الخلود من الدنيا .

إن الدم الذي أراقه الحسين عليه السلام في كربلاء كان حيّاً وسيبقى ، والسرّ في ذلك أنه امتداد لدماء النبوات ، وقد بقيت دماء الأنبياء المراقة في سبيل اللّه حية لم تمت ، وإنما أخذت طريقها إلى الخلود في الحياة ؛ لأن دماء الشهداء أصوات تبقى تتردّد في الفضاء . وهي مواقف ، والمواقف لا تموت ، وإنما الذي يموت الجسد فقط ، أما الموقف فيبقى يعيش ويعيش إلى أن تنتهي الدنيا . فالفناء يعتري الدنيا ولا يعتري الموقف ؛ لأن اللّه تكفّل بحياة الشهداء: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾[1] ، فماذا نفهم من حياة الشهداء التي يذكرها القرآن الكريم؟ نفهم منها أن الذي يقاتل في سبيل اللّه ويقتل لابدّ أن يكون حيّاً ؛ لأن اللّه قال ذلك ، وهو أصدق القائلين.

---

(١) البقرة: ١٥٤.

صحيح أن مظاهر الموت استولت على الأجساد في كربلاء، وأن هذا الجسد الذي وضع في التراب هدأ عن الحركة، لكن الروح لم تهدأ.

الهدف الذي أراد الحسين عليه السلام إبرازه من خلال نهضته المباركة

ونسأل عن الهدف الذي أراده الحسين عليه السلام من وراء طرحه ذلك الدم في طريق الشهادة، فنعرف أن الهدف كان أكبر من الأهداف الرخيصة، فإنْ كان البعض يقاتل من أجل حكم، فالحكم لا يلبث أن يتلاشى في أيام قلائل. ونحن نعرف في تاريخ الخلفاء أن منهم من حكم أربعة عشر يوماً، ومنهم من حكم أسبوعاً، ومنهم من حكم سنة أو سنتين، ثم بمجرد أن ماتوا مات ذكرهم، أما هذا القتيل فما زال يحكم القلوب منذ (١٤٠٠) سنة، وسيبقى يحكمها إلى أن تقوم الساعة.

ثم إن العروش التي تلاشت في أيام قليلة حكمت الظاهر فقط ولم تحكم القلوب، فالعرش الذي يقوم على القهر والجبر والقوّة ليس كالعرش الذي يتربّع على القلوب. فالشهداء يتربّعون على القلوب؛ لأنهم استشهدوا في سبيل إعلاء كلمة الله. وهم لا يموتون؛ لأن كلمة اللّه لا تموت، والتيّار الذي حمل دماء الشهداء أراد اللّه له ألّا يموت، وسيبقى هكذا. ولذلك تبقى الشهادة اللواء الذي يرفرف على امتداد الدهر، أما الذي وقف في طريق إعلاء كلمة اللّه فقد تلاشى.

لقد قتل الحسين عليه السلام إذ لم يكن بإمكانه أن يربح المعركة ذلك الربح الذي نعرفه نحن بذلك العدد الذي كان معه، فهل يستطيع أن يقابل ويقاتل بسبعين رجلاً ذلك الجيش الجرّار الذي يبلغ سبعين ألفاً أو ضعف هذا العدد على بعض الروايات[1]؟ يقول أحد أدباء الطفّ:

---

(١) استقرب بعض المحققين أنه ثلاثون ألفاً. انظر: أنصار الحسين عليه السلام: ٢٠٢، ٢٣٢. حياة الإمام الحسين عليه السلام: ١١٨.

لو لم تكن جُمِعتْ كلُّ العُلَى فينا ... لكان ما كان يومَ الطف يكفينا
يومٌ نهضنا كأمثالِ الأسودِ به ... وأصبحت كالدُّبا زحفاً أعادينا
جاؤوا بسبعين ألفاً سَلْ بقيَّتَهم ... هل قابلونا وقد جئنا بسبعينا

فلا يمكن من الناحية الماديّة أن يربح الحسين عليه السلام المعركة بهؤلاء السبعين، لكنه ربح المعركة من جانب آخر، وذلك بالدم الذي أراقه على تراب كربلاء، وظل يتفاعل مع هذا التراب ويبعث بصوته.

نحن نقف الآن في هذه الليلة وما مثلها من الليالي والدوي هناك عند قبر الحسين عليه السلام، ذلك الدوي الذي أراد الظالمون أن يخمدوه ويسكتوه، لكنه بقي على الرغم منهم بتلك الدماء التي أُريقت عليه، وستبقى كربلاء المفاعل الذي يخشى منه الظالمون، وسيبقى هذا الدم الطاهر اللواء الذي يرفعه الأحرار.

فالحسين عليه السلام أراد من هذا الدم أن يبقى الصوت الذي يلعلع على امتداد التاريخ: «والله لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أُقرّ إقرار العبيد»[1]. ذلك الشعار الذي مازج الدم سيبقى وسيظلّ يصل إلى كلّ أُذن تتسمّع إذا وقفت على قبر الإمام الحسين عليه السلام. فكل من يقف على قبره عليه السلام يسمع هذا الصوت الهادر الذي لا يمكن أن يتلاشى:

وإلى أن هَويت يَطعنك الحِقـ ... ـدُ ويلهو بشِلوك التنكيلُ
والهديرُ الشّجاعُ عندك ما انفـ ... ـكّ وطبعٌ عند السيوف الصليلُ

فالحسين عليه السلام عندما أراق هذا الدم أراد منه أن يبقى شعلة حيّة تهدّد الظالمين. وقد كان ذلك، فقد بدأت الثورات، وبدأ هذا الصوت يمتدّ إلى

---

١) الإرشاد ٢: ٩٨، تاريخ الطبري ٤: ٣٢٣، البداية والنهاية ٨: ١٩٤.

أعماق الثائرين ليدفعهم إلى مقارعة الظلم والباطل، وراحت الثورات تتلاحق ابتداء بالتوّابين ومن بعدها ثورة المختار بن أبي عبيد، ومن بعد ثورة المختار ثورات الطالبيّين التي تلاحقت إلى أن انفلّ العرش الأموي وجاء العرش العباسي.

لكن هل استطاع العرش العباسي أن يغطّي هذا الدم الكريم وأن يضع عليه تراباً ليُميته؟ أبداً لم يستطع، فقد بقي تراب الحسين عليه السلام يرعب العروش العبّاسيّة، وإلّا فما هو الدافع لأن يرسل الرشيد غلاماً له لينبش قبور هؤلاء الشهداء (رضوان الله عليهم)[١]؟ إن هذه القبور كانت توحي إليه الرعب، وهذا أحد الشعراء يخاطب أحدهم وكأنه يخاطب الإمام الحسين عليه السلام:

وعلى عدوّك يابنَ عمِّ محمدٍ ... رَصَدانِ ضوءُ الصبحِ والإظلامُ
فإذا تنبّهَ رُعتَهُ وإذا غفا ... سلّت عليه سيوفَك الأحلامُ[٢]

وهكذا كان دم الحسين عليه السلام يرعبهم وهم في اليقظة، ويرعبهم وهم في النوم.

ولم يكن العباسيون ليستهدفوا قبراً أو حجارة يقتلعونها، أو شجرة يقطعونها كما فعل المتوكل[٣] الذي سلط المحاريث على القبر، وأمر بالماء ففتح عليه ليمحو معالمه[٤]، لكن هل استطاع وهو يغطّي معالم

---

(١) الأمالي (الطوسي): ٣٢٥ / ٦٥١.

(٢) البيتان لأشجع بن عمر، وقيل: لمروان بن أبي حفصة. قالها في المتوكل العباسي. مناقب آل أبي طالب ٣: ١٧. ونسبها البكري وابن عساكر لأشجع بن عمر في الرشيد. معجم ما استعجم ٢: ٥٨٤، تاريخ مدينة دمشق ٩: ١٠٧.

(٣) تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٤٥، تهذيب الكمال ٦: ٤٤٤، سير أعلام النبلاء ٣: ٣١٧.

(٤) انظر محاولات المتوكل لمنع الزائرين من زيارة القبر الشريف بشتى الوسائل: الأمالي

القبر أن يغطي معالم الحسين عليه السلام؟ كلا إنما بقيت الآثار وستبقى.

ويخطئ تمام الخطأ من يظن أننا في هذه الليلة نجلس لنمجّد عظاماً، نحن في هذه الليلة نستمع إلى أصداء الموقف الذي وقفه أبو الشهداء عليه السلام. إن آذاننا الآن صاغية إلى ديباجة طرحها الحسين عليه السلام على صعيد الطف عندما وقف ورفع رأسه إلى السماء فقال: «ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين؛ بين السلّة والذلّة، وهيهات منّا مأخذ الذلّة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، وحجور طابت وطهرت ونفوس أبية وأُنوف حمية من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام». ثم رمق السماء بطرفه وقال: «اللهم إني زاحف بهذه الأسرة على قلّة العدد وخذلان الناصر»[1].

فنحن عندما نقف على القبر فإنما نتلمّس فيه ذلك الموقف الهادر الذي ما استطاعت أحداث الطفّ بما فيها أن تأخذ منه. يقول عبد الله بن عمار: والله لقد رأيت الحسين عليه السلام فما رأيت مكثوراً قطّ أربط جأشاً منه، وقد كانت الخيل والرجال تشدّ عليه فيشدّ عليها فينهزمون بين يديه انهزام المعزى إذا شدّ فيها الذئب، ويرجع إلى مركزه فيتكئ على قائم سيفه ويكثر من قول: «لا حول ولا قوة إلّا بالله»[2].

فهذا الدم الطاهر الذي نحتفل به هذه الليلة لا زال يفور، ولم ولن يجفّ، ونخاطبه في الزيارة: «السلام عليك يا ثار الله وابن ثاره»[3]، ومعنى

(الطوسي): ٣٢٦ / ٦٥٣، مقاتل الطالبيين: ٣٩٥، وفيهما قصّة إبراهيم الديزج، وهي مشهورة، وقد مرّت في ج١ ص٩٧ ـ ٩٨ من المحاضرات إضافة إلى ما ورد في الهامش السابق.

(١) الاحتجاج ٢: ٢٥، اللهوف في قتلى الطفوف: ١٢٤، بحار الأنوار ٤٥: ٨٣.

(٢) مثير الأحزان: ٥٤، البداية والنهاية ٨: ٢٠٤.

(٣) كامل الزيارات: ٣٢٨، مصباح المتهجد: ٧٢٠ / ٨٠٦، ٧٧٤ / ٨٤٧.

ثار اللّه: أن اللّه يطلب بهذا الدم، وهو الذي أراد له البقاء، وأن يجعله علامة تهزّ عروش الظالمين، وأن يبقى شعاراً يعيش على فم الأحرار وفي مشاعرهم. فهذا الدم لن يتلاشى ولن يموت.

إذن هذا هو الدم الذي أراد الحسين عليه السلام أن يخلّده على تراب كربلاء، وأن يرفع منه علماً للأجيال تبقى على امتدادها تأخذ من شعاره.

المبحث الثاني: آليات الأئمة عليهم السلام لإبقاء شيعتهم على تماسّ مع دمه عليه السلام

والآن لنرَ ما هي وسائل أهل البيت عليهم السلام لإبقاء شيعتهم على تماسّ مع هذا الدم الطاهر؟ نحن نعرف أن أهل البيت عليهم السلام كانوا يدعون إلى إحياء أمرهم، يقول الإمام الحسين عليه السلام يوم الطف في كتابه إلى أهله الباقين في المدينة بعد أن وصل كربلاء: «بسم اللّه الرحمن الرحيم. أما بعد: فمن لحق بنا منكم استشهد، ومن تخلّف لم يبلغ الفتح»[1]، فما هو الفتح الذي أراده الحسين عليه السلام؟ إنه لم يستولِ على أرض، ولم يفتح بلداً، ولم يستولِ على أموال، الفتح الذي أراده عليه السلام هو أنه أراد أن يرفع مشعل الحقّ والعدالة والحريّة، وبقي هذا المشعل متّقداً إلى الآن. وأقول له: سيدي يا أبا الشهداء، إن كان دمك قد سقط على تراب كربلاء قبل (١٤٠٠) سنة، فإنه لازال حتى الآن يعيش بمشاعرنا وقلوبنا، وسنبقى مشدودين إليه، نستمدّ من عطائه وجذوته.

ونسأل مرة أُخرى: ما هو الطريق الذي سلكه أهل البيت عليهم السلام للبقاء على تماس بثورة الحسين عليه السلام ودمه؟ يقول الإمام الصادق عليه السلام «أحيوا أمرنا، رحم اللّه من أحيا أمرنا»[2]. فما هو الأمر الذي طلب منا الإمام الصادق عليه السلام أن

---

(١) بصائر الدرجات: ٢ ٥٠٢، مثير الأحزان: ٢٧.

(٢) الكافي ٨: ٨٠ / ٢، الخصال: ٢٢ / ٧٧.

نحييه؟ إنه التأمّل في أهداف الطفّ وعدم أخذها من الجانب المأساوي فقط، فلو مرّ أحد بواقعة الطفّ فعليه أن يتأمّل في سبب استشهاد الحسين عليه السلام يوم الطف، وبأي دافع قتل، وليتساءل: لماذا قدّم البراعم من آل محمد صلى الله عليه وآله حتى طرحوا على وجه الأرض؟ إن الهدف كان إعادة الروح إلى الدين الذي أراد الأُمويّون القضاء عليه، فقد اتّبع الأُمويّون أساليب ووسائل كانت تستهدف القضاء على الدين الحنيف، وإلّا فبم نفسّر أن يصعد خليفة من خلفاء المسلمين على المنبر ويرفع عقيرته بقوله:

أقولُ لصحبٍ ضمتِ الكأسُ شملَهم ... وداعي صَباباتِ الهوى يترنَّمُ
خُذوا بنصيبٍ من نعيمٍ ولذّةٍ ... فكلٌّ وإن طالَ المدى يتصرَّمُ[(١)]

وهذا ليس نَفَسُ خليفة يؤمن بالله، وليس يؤمن بالله من ينشد:

لعبت هاشمُ بالملك فلا ... خبرٌ جاء ولا وحي نزل[(٢)]

فلم يكن المستهدف عند هؤلاء الدم واللحم، وإنما المستهدف المضمون مما يحملونه من الرسالة الإسلامية. فالحسين عليه السلام بموقفه يوم الطف كان يريد أن يقف بوجه التيار الأُموي الذي يلاحق الدين الإسلامي ليمحقه من الوجود، وإذا كان كذلك فلا بدّ لنا إذن أن نكون على تماسّ مع

---

(١) البيتان ليزيد بن معاوية. جواهر المطالب (ابن الدمشقي) ٢: ٣٠١.

(٢) تاريخ الطبري ٨: ١٨٧، ضمن الكتاب الذي أخرجه المعتضد في لعن معاوية وأبيه وابنه، وقد نوّهنا إليه في ج٢ ص٨٠ هـ ٤ من كتابنا هذا، بلاغات النساء: ٢١، ٢٢، البداية والنهاية ٨: ٢٠٩، ٢٢٢، ٢٤٦، النصائح الكافية: ٢٣٦، وحول هذا البيت وإنشاد يزيد له.

هذا النبع، ليغذينا دائماً، ويجعلنا نحمل فكرة المحافظة على ديننا وإسلامنا.. ذلك الرافد الذي أرادت له السماء أن يصل إلينا عن طريق نبينا صلى الله عليه وآله وسلم.

أما الآليات التي اتّبعها أيمّة أهل البيت عليهم السلام في المحافظة على هذه النهضة فتتمثّل في جانبين: مادي ومعنوي. غير أن الجانب المعنوي غالباً ما يكون بعيداً عن تصوّرات بعض الأذهان، إذ ليس باستطاعة كلّ واحد منا أن يكون مشدود التفكير إلى الطفّ دائماً، فقد يغفل أو تشغله هموم الحياة، فكيف تمكّن الأيمّة من أهل البيت عليهم السلام من شدّ أذهاننا إلى هذه الثورة؟ لقد استخدموا عليهم السلام مجموعة من الآليات لهذا الغرض منها:

الآليّة الأولى: تغذيتنا بالتيّار الأدبي

وهو تيار ترتاح إليه نفوسنا، وذلك من خلال الأبيات المكهربة، ففي الشعر كلمات مكهربة فيها نوع من الحرارة لا توجد في النثر، فأراد الأيمّة عليهم السلام تطويع الشعر وتوظيفه لإبقائنا على صلة بواقعة الطف، فوقف الإمام عليه السلام يقول: «من قال فينا بيت شعر بنى الله تعالى له بيتاً في الجنة»[1]، و«من رثى لنا وتفجّع لمصيبتنا أعطاه الله كذا وكذا». والهدف من ذلك أن تبقى هذه الآليّة محفّزة لنا ومؤجّجة للجذوة في نفوسنا. فعندما أسمع من يقف على قبر الحسين عليه السلام ويقول:

وخلتُ وقد طارت الذكرياتُ	بروحي إلى عالمٍ أرفعِ
كأنّ يداً من وراء الضريـ	ـحِ حمراء مقطوعة الإصبعِ
تُمدُّ إلى عالمٍ بالخنو	عِ والضيمِ ذي شَرَقٍ مُترعِ

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٥ / ٢، بشارة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم: ٣٢٤ / ٤.

لــتُبدِلَ مــنهُ جــديبَ الضــميرِ بآخــرَ مُــعشوشِبٍ مُــمرِعِ

عندما أسمع هذا المقطع يأخذ أثره من نفسي وأضعه على مشارف الواقعة، وتتأجّج الجذوة في داخلي، وأسمع من يقول:

تُســامرني والكــائناتُ هــجوعُ بــدنياك فــي قــلبِ الظــلام شموعُ
سهرتُ عليها الليلَ أستلهمُ الرُؤى فألهــمني مــمّا وهــبتَ نــجيعُ
نـجيعٌ مشى عبر القرونِ بخِصبِهِ فــلا دهــرَ إلّا مــن خــباهُ ربــيعُ

وأرتقي قليلاً إلى بواكير أُدبائنا لأسمع دعبل بن علي الخزاعي وهو يقول:

أفــاطمُ لو خــلت الحســين مــجدّلاً وقــد مــات عــطشاناً بشــطّ فــراتِ
إذن للــطمتِ الخــدّ فــاطمُ عــنده وأجــريت دمــعَ العــين بــالوجناتِ
أفاطمُ قومي يا ابنة العزّ واندبي نــجومَ ســماوات بأرض فــلاةِ[1]

أو أسمع الكميت وهو يقول:

مــن لقــلبٍ مُتيّمٍ مُستَهامِ غيرما صبوةٍ وما أحلامِ

إلى أن يقول:

وقــتيلٍ بــالطفّ غــودرَ مــنهم بينَ غــوغاءِ أُمّــةٍ وطَــغامِ[2]

ويسمعه غيري، فإننا نبقى مشدودين للواقعة، وتبقى تلك الجذوة ملتهبة في نفسه، ويكون على تماسّ مع عطاء الطفّ.

فأهل البيت عليهم السلام جنّدوا الشعر، فكان ذا دور فاعل في الميدان. ولم

---

(١) شرح الأخبار ٣: ١٧٣، بحار الأنوار ٤٥: ٢٥٧، ٤٩: ٢٤٨.
(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٣٧.

يكن الهدف رغبة مؤقّتة، وإنما كان لإشعال جذوة الحقّ بالنفوس؛ إذ هم عليهم السلام ما أرادوا دنياً أو كرسيّاً أو حكماً، وإنما أرادوا إعلاء كلمة اللّه في الأرض. يقول أمير المؤمنين عليه السلام في نهجه: «اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان ولا لالتماس شيء من فضول الحطام، ولكن لنرد المعالم من دينك؛ فتُقام المُعَطَّلة من حدودك، ويأمن الضعيف من عبادك»[1]. وهذا هو الهدف الذي طرحه أهل البيت عليهم السلام، ومن أجله كانت واقعة الطفّ.

الآلية الثانية: التذكير بالتراب الذي أُريق عليه الدم الطاهر

فيجب ألّا ننسى التراب الذي أُريق عليه ذلك الدم وإن كان دم الحسين عليه السلام قد تمرد على التراب فلم يضمّه، لكن الوقوف ميدانياً على التربة له شأن خاصّ. وهذا له شواهد كثيرة، منها علة توجّه المسلمين إلى مكّة؛ إذ أليس بإمكانهم أن يؤدّوا المشاعر والمناسك وهم في بلادهم؟

نعم يمكنهم ذلك، لكن اللّه تعالى إنما يندبهم إلى قطع المسافات والذهاب إلى مكة: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾[2]؛ لأنه جلّ شأنه يريد أن يوقف المسلم على المهد الأول الذي انطلقت منه كلمة «لا إله إلّا الله»، وأن يوقفهم على الكعبة ليقول لهم: هذه هي التي حملت لكم شعار التوحيد. فيجعل المسلم يعيش طيوف الأمس، ويتصوّر كيف كان بلال يصعد على سطح الكعبة ويعلن كلمة التوحيد، وكيف كان يقف النبي صلى الله عليه وآله وإلى جانبه صحبه الكرام، وهو يحمل رسالة السماء. وهذا الوقوف له أثره الكبير.

---

(١) نهج البلاغة / الكلام: ١٣١. (٢) آل عمران: ٩٧.

فلذا أراد الأيمّة عليهم السلام منا أن نقف على كربلاء، وأن نسجد على التربة الحسينيّة. وهناك الكثير من الروايات في فضل السجود على تربة الحسين عليه السلام[١]، فلماذا هذه التربة بالذات، مع أن هناك تربة للنبي صلى الله عليه وآله وتربة لأمير المؤمنين عليه السلام وكلاهما ثائر مقاتل في سبيل الله؟ إن هذا صحيح، لكن الواقعة التي أعطت دماً أكثر، واستقطبت عواطف المسلمين هي واقعة الطفّ، ولما كان لها هذا الأثر بالنفوس أراد أهل البيت عليهم السلام منا ألّا ننسى هذا التراب الذي سقط عليه الدم المقدّس الشريف الطاهر.

إن السجود على تربة الحسين عليه السلام ليس فيه خروج على النص، يقول النبي صلى الله عليه وآله: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»[٢].

وهذه التربة الحسينية قطعة من التراب، لا كما يحاول البعض أن يصوّر أن الشيعة يسجدون عليها لأن فيها دماء الحسين عليه السلام، إن الشيء الذي فيه الدم لا يسوغ لنا السجود عليه، وكلّ ما في الأمر أن هذه التربة هي التي احتضنت الدم الطاهر قبل أربعة عشر قرناً، فهي تشدّنا وتجدّد عندنا الجذوة في داخلنا، فنختصر الزمن لنُطلّ على ذلك الدم الذي تمرّد على السيوف.

وعندما يشدّنا أهل البيت عليهم السلام إلى السجود على هذه التربة المقدّسة

---

(١) انظر وسائل الشيعة ٥: ٣٦٥ ـ ٣٦٧ / ب١٦.

(٢) الخلاف ١: ٤٩٦ / المسألة: ٢٣٦، جامع الخلاف والوفاق: ٤٢، وعن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث يذكر فيه مناقب رسول الله صلى الله عليه وآله أنه عليه السلام قال: «أسري به صلى الله عليه وآله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى مسيرة شهر، وعرج به في ملكوت السماوات مسير خمسين ألف عام في أقل من ثلث ليلة»، إلى أن قال عليه السلام عن لسان الله تعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وآله: «وقد جعلت الأرض كلّها لأمّتك مسجداً وطهوراً». الاحتجاج ١: ٥٢١ ـ ٥٢٧ / ١٢٧.

فذلك لنكون في ذكر دائم لها. وهذا هو الهدف من السجود على التربة، وإلّا فإنه يسعنا أن نسجد على الأرض وما أنبتت إلّا ما يؤكل أو يلبس كما دلّ عليه الدليل، فيمكننا السجود على ورق الشجر أو القرطاس وغير ذلك، لكن المرء عندما يضع جبهتة على تربة الحسين عليه السلام فكأنه يشمّ عبير الحسين عليه السلام، ويلمس في هذا التراب روح النخوة والبطولة والرجولة التي مثّلها (سلام الله عليه) في واقعة الطف، يقول أحد الأُدباء:

دأبتُ أزورُك في كلِّ عامٍ ... وألثمُ تربكَ يابنَ النبي

ويابنَ عليٍّ ويابنَ البتولِ ... ويابنَ ذُرا المجدِ في يثربِ

أتربُ خدّي بعفْرِ ثراكَ ... بحيثُ دماؤكَ لم تنضُبِ

بحيثُ يُلَعلِعُ ثغرُ أبي ... بأن يحتسي الذُّلَّ في مشربِ

وهامُ أبي للطغاةِ الرُّكوعَ ... وإن فلَقُوا منه بالمضربِ[(١)]

فالآليّة الثانية التي شدّ فيها أهل البيت عليهم السلام شيعتهم ليكونوا على ذكر دائم لواقعة الطفّ هي السجود على التربة التي احتضنت هذا الدم الطاهر، والتي مثّل عليها الحسين عليه السلام أروع ما يُمثّل، فقد مثل الصبر، والمفاداة والتضحية والفناء في ذات الله. وقد شوهد وهو في آخر لحظاته يرمق السماء بطرفه ويقول: «لك العتبىٰ يارب، صبراً علىٰ قضائك، ياغياث المستغيثين، إن كان هذا يرضيك فخذ حتىٰ ترضىٰ»[(٢)].

الآلية الثالثة: زيارة المشهد المقدّس لسيّد الشهداء عليه السلام

فكتب الحديث حبلى بالروايات التي وردت في فضل زيارته عليه السلام، وكم

---

(١) ديوان المحاضر ٢: ٢٥.

(٢) انظر: شجرة طوبى ٢: ٤٠٩، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المقرّم): ٣٥٧، ينابيع المودّة ٣: ٨٣.

ملأ أهل البيت عليهم السلام صفحات وصفحات عن جدّهم عليه السلام في فضل هذه الزيارة! لقد كان أيمّة أهل البيت عليهم السلام يدفعون الناس دفعاً إلى زيارة الحسين عليه السلام، يقول أحدهم: دخلت على الإمام الصادق عليه السلام، فسألني: «ممّن الرجل؟». قلت: سيدي من نواحي الكوفة. قال عليه السلام: «أتزور جدي الحسين عليه السلام في كلّ يوم؟». قلت: لا يا سيدي إني لا أستطيع ذلك. فقال عليه السلام: «تزوره في كلّ أسبوع؟». قلت: لا. فقال عليه السلام: «تزوره في كلّ شهر؟». قلت لا. فقال عليه السلام: «ما أجفاكم بالحسين عليه السلام!». ثم قال عليه السلام: «إن زيارة الحسين عليه السلام تدفع الحرق والغرق وتمحق الذنوب»[١].

ولهذا تجد الروايات تختلف باختلاف الزيارات فمنها: «من أحب أن ينظر إليه الله عز وجل، ويجعله في عداد الشهداء فليزر الحسين عليه السلام ليلة العاشر من المحرم»[٢].

ومنها زيارة النصف من شعبان[٣]، والنصف من رجب[٤]، وزيارة الأربعين[٥] التي تعتبر من علائم الإيمان[٦].

---

(١) لم نعثر على هذا الحديث، وقد ورد في فضل زيارته عليه السلام وأنها تحط الذنوب أحاديث كثيرة، انظر: كامل الزيارات: ٢٨٦ ـ ٢٩٠ / ب، بحار الأنوار ج٩٨، فقد خصّصه لزيارته عليه السلام وما جاء فيها من الفضل.

(٢) لم نعثر على هذا الحديث فيما بين أيدينا من مصادر حديثيّة، وقد ورد: «من أحب أن يصافحه مئة ألف نبي وأربعة عشرون ألف نبي فليزر الحسين عليه السلام ليلة النصف من شعبان؛ فإن الملائكة وأرواح النبيين يستأذنون الله تعالى في زيارته فيأذن لهم، فطوبى لمن صافحهم وصافحوه، منهم خمسة أولو العزم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد صلوات الله عليه وعليهم أجمعين». الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ٣٣٩.

(٣) انظر الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ٢٣٧.

(٤) انظر بحار الأنوار ٩٨: ٣٤٥ ـ ٣٤٦ / ١.

(٥) انظر مصباح المتهجد: ٧٨٧ ـ ٧٩٠ / ٨٥٧.

(٦) وذلك بقول الإمام العسكري عليه السلام: «علامات المؤمن خمس: صلاة الإحدى والخمسين،

ويكثر التساؤل عن أصل زيارة الأربعين، وسنة الزيارة بها، أي هل انها كانت في السنة نفسها التي استشهد فيها الإمام الحسين عليه السلام، أو من بعد سنة من استشهاده؟ الأقرب بل الأصح أن هذه الزيارة تعود إلى ما بعد أربعين يوماً من السنة نفسها التي استشهد فيها الإمام الحسين عليه السلام، فقد ساروا بالسبايا الليلَ والنهارَ، ولم يُعطوهم مجالاً للراحة إلّا قليلاً، وهذا الطريق الى الشام استغرق أربعين يوماً في الذهاب والإياب، ولم يمكثوا طويلاً في الشام لأن وجودهم هناك سبّب حرجاً كبيراً ليزيد وحركة ضده؛ ولذا اضطرّ الى أن يخرجهم من المجلس الى خربة، مما تسبّب في موت الطفلة رقيّة بنت الحسين عليه السلام، فقد كابدت وعثاء السفر ولم تستطع أن تحتملها، وكان أن تعرّضت في الخربة إلى الشمس فماتت.

وقد أراد يزيد أن يرمّم قليلاً ممّا حدث، فقال للنعمان بن بشير: أنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وأُريد أن تأخذ معك ثلاثين رجلاً، وترجع بهؤلاء السبايا إلى مأمنهم. ثم جاء إلى الإمام السجاد عليه السلام وطلب منه بعض الأشياء، فلم يستجب له الإمام عليه السلام. ثم تهيؤوا في هذه السنة نفسها إلى زيارة الإمام الحسين عليه السلام، فخرج الإمام عليه السلام من الشام في طريقه إلى العراق، وتحرّك جماعة من بني هاشم والعلويين من المدينة في طريقهم إلى كربلاء.

يقول السيد ابن طاوس وأبو مخنف: إن الإمام زين العابدين عليه السلام التقى بجماعة من العلويين الذين جاؤوا إلى الزيارة.

وزيارة الأربعين، والتختّم في اليمين، وتعفير الجبين، والجهر بـ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾». مصباح المتهجّد: ٧٨٧، روضة الواعظين: ١٩٥، الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ١٠٠.

وقد روي عن الأعمش عن عطية أنه قال: صحبت جابر بن عبد اللّه الأنصاري في السنة التي قتل فيها الحسين عليه السلام إلى كربلاء نريد زيارة الحسين عليه السلام، فأقبلنا نسير بالليل ونكمن بالنهار ـ وهذه العبارة توحي أن السير بالليل كان إمّا تجنّباً للحرّ أو خوفاً؛ لأن الأمويّين وضعوا الرصد كيلا يصل أحد إلى قبر الحسين عليه السلام ـ إلى أن وصلنا إلى كربلاء، فقال لي جابر: يا عطية، دلّني على الفرات. فأخذت بيده إلى الفرات، فاغتسل، وأخرج صرّة من السعد كانت معه، فنثره على بدنه ولبس ثياباً جدداً، ثم خلع نعليه، وجاء يمشي حافياً على التراب، وقال لي: ألمسني القبر.

يقول عطية: فأتيت به إلى القبر الشريف ووضعت يده عليه، فلما أحسّ ببرد تراب القبر صاح: «يا حسين يا حسين يا حسين»، ثم قال: «حبيب لا يجيب حبيبه، وأنى لك بالجواب وقد شخبت أوداجك على أثباجك، وفُرّق بين رأسك وبدنك؟ أشهد أنك من دعائم الدين وأركان المسلمين، وابن سيّد النبيّين وابن سيّد الوصيّين، وابن سيّد المؤمنين، وابن حليف التقوى وسليل الهدى، وخامس أصحاب الكساء، وابن سيّد النقباء، وابن فاطمة سيّدة النساء. ومالك لا تكون هكذا وقد غذتك كفّ سيّد المرسلين، وربيت في حجر المتّقين، ورضعت من ثدي الإيمان، وفطمت بالإسلام؟

فطبت حيّاً وطبت ميْتاً غير أن قلوب المؤمنين غير طيّبة لفراقك ولا شاكّة في الخيرة لك، فعليك سلام الله ورضوانه. وأشهد أنك مضيت على ما مضى عليه أخوك يحيى بن زكريا».

ثم جال ببصره حول القبر وقال: «السلام عليكم أيها الأرواح التي حلّت بفِناء الحسين وأناخت برحله، أشهد أنكم أقمتم الصلاة، وآتيتم

الزكاة، وأمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر، وجاهدتم الملحدين، وعبدتم الله حتى أتاكم اليقين. والذي بعث محمداً بالحقّ لقد شاركناكم فيما دخلتم فيه».

قال عطية: فقلت لجابر: وكيف، ولم نهبط وادياً، ولم نعلُ جبلاً، ولم نضرب بسيف، والقوم قد فُرّق بين رؤوسهم وأبدانهم، وأُيتمت أولادهم، وأُرملت الأزواج؟ فقال لي: يا عطيّة، سمعت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «من أحبّ قوماً حشر معهم، ومن أحبّ عمل قوم أُشرك في عملهم». والذي بعث محمداً بالحقّ نبياً، إن نيّتي ونيّة أصحابي على ما مضى عليه الحسين عليه السلام وأصحابه.

يقول عطية: وبينما أنا أُحاور جابراً إذ نظرت إلى سوادة أقبلت من ناحية الشام، وكان ذلك الركب الذي جاء به الإمام السجاد عليه السلام والسبايا، فصار على مفترق طرق، إما أن يذهب في طريق المدينة أو يرجع إلى الطريق الذي يؤدّي إلى كربلاء، فأدار الإمام عليه السلام وجهه إلى عمّته زينب عليها السلام، فرأى أنها متوجّهة إلى الدليل، ثم قالت للإمام عليه السلام: يابن أخي، قل للدليل فليعرج بنا على كربلاء. فقال له الإمام عليه السلام: «مِلْ بالركب إلى كربلاء». فأقبل إلى كربلاء. فلما نظر إليه عطية كرَّ مهرولاً، وأقبل إلى جابر وقال له: يا جابر، قم واستقبل حُرَمَ رسول الله، هذا الإمام زين العابدين عليه السلام قد رجع.

يقول أبو مخنف: فقام جابر وقام معه جماعة من العلويين فالتقوا الإمام السجاد عليه السلام، فجدّدوا الأحزان وسكبوا الدموع.

ولما وقع بصر الإمام عليه السلام على جابر قال: «جابر هذا؟». قال: نعم. قال: «يا جابر، هاهنا قتلت رجالنا، يا جابر هاهنا ذبحت أطفالنا، يا جابر هاهنا سبيت

نساؤنا، يا جابر هاهنا أُحرقت خيامنا»[١].

أما الحوراء زينب عليها السلام فقد هرولت إلى قبر الحسين عليه السلام، فألقت بنفسها عليه:

خويه من اليسر توني لفيتك أربعين ليله فاركيتك

تحت الثرى مرمي لگيتك

احتضنت التراب وهي تنادي: والوعتاه، واحسيناه، واعزيز رسول الله. ثم طافت على القبور بأجمعها، وقامت تقلّب طرفها، فلم تُبقِ قبراً إلّا جالت حوله، ولسان حال الإمام السجاد عليه السلام: أنا أعرف عن أي قبر تبحثين. قالت: بلى، دلّني على قبر ابن والدي. فأخذ بيدها إلى نهر العلقمي، عند قبر أبي الفضل عليه السلام. فأقبلت إليه:

لونّه اللحد ينكشف بابه لجيمن عليه وانگل اترابه

أصبل للولي واسمع جوابه أعاتبه واكثر اعتابه

* * *

إلي مناشده وياك وعتاب يمنوّخ الهودج على الباب

---

(١) بشارة المصطفى: ١٢٥ ـ ١٢٦ / ٧٢، بحار الأنوار ٦٥: ١٣٠ ـ ١٣١ / ٦٢، لواعج الأشجان: ٢٤٢.

﴿٢٨﴾

ملامح النهضة الحسينية

في كلّ عام لنا بالعشر واعية
تطبّق الدور والأرجاء والسككا

المباحث العامة للموضوع

المبحث الأول: الدوافع وراء تحرك الحسين عليه السلام

إن الواعية التي يعبّر عنها السيد جعفر الحلي رحمه الله في بيته هذا هي اثر واقعة الطف.. الواقعة التي كان لها صدى كبير وأثر أكبر في معالجات الباحثين والمفكّرين والكتّاب الذين تناولوا هذه الواقعة. وكان عند كلّ من هؤلاء مناهج عدّة يعتمد عليها في عملية بحثه وتنقيبه حول ملابسات الواقعة وأحداثها وما يدور حولها، لكن أغلب هذه المناهج كانت تعتمد على مفهوم «نظرية العامل الواحد»، العامل الذي يكمن وراء البحث عن الأسباب الكامنة خلف واقعة الطف.. الواقعة التي مافتئ كلّ من كتب فيها يطرح تساؤلات عدّة حول الأسباب التي حملت الإمام الحسين عليه السلام على أن يخرج على الأمويين وهم أصحاب النفوذ والسلطة؛ مما أدّى إلى أن يجهّز له هؤلاء جيشاً جرّاراً، وينتهي الأمر إلى مصرعه ومصرع أهل بيته.

والحقيقة أن هناك نظريّات عدة لتفسير هذه الدوافع، وهي تفسيرات جميعها تشترك فيما بينها بشيء واحد هو أنها تعتمد على ما يسمى بـ«نظريّة العامل الواحد»، كما قلنا. ومن هذه الدوافع نذكر:

الأول: نظرية اختلاف الطبائع بين العائلتين

إن الكثير من الباحثين عندما يتناولون واقعة الطف، ويطرحون الأسباب المتعلّقة بقيامها يعتمدون على هذه النظرية، ويرجعون أسبابها إلى حالة من العداء العائلي التي نشأت بين بني هاشم وبين بني أميّة بسبب اختلاف الطبائع عندهما. إن لكل من الهاشميين والأمويّين خطّ رسمه في حياته، ومسيرة انتهجها وسار بها، ولكل فرد من أفرادهما مزاج معيّن وتربية معينة لكنهما مزاج وتربية يتصادمان دائما مع مزاج وتربية البيت الآخر ولا يلتقيان معهما. وبهذا يفسّر هؤلاء كثيراً من حالات الصدام التي وقعت بينهما (بين أصحاب هذين الطبعين).

وهكذا فإن الطبع الأموي قائم على الجانب الوصولي والانتهازي، وهو طبع مادّي يقيس الأمور بمقياس المال والمادّة، في حين أن الطبع الهاشمي قائم على أسس دينيّة وأخلاقيّة.

دور المهنة في تحديد الطبائع والتربية

وكلّ هذا يرجع إلى عامل المهنة، فهي أمور تخضع لها خضوعاً تاماً. وإن شاء الله سوف أبيّن الآلية التي يتمّ فيها هذا الأمر على ضوء هذه النظريّة. ولقد عالج المرحوم العقّاد في كتابه (أبو الشهداء)[1] هذا الموضوع، وكان يركّز على هذه النقطة. وكذلك فعل الدكتور طه حسين

---

(١) أبو الشهداء الحسين بن علي: ١١ ـ ٤٠.

أيضاً، فكان في أغلب معالجاته لهذا الموضوع حينما يمرّ به يركّز على هذا الجانب. ومثلهما الكثير من الباحثين ممّن تقدّم عليهما كعلي جلال وغيره ممّن تناول واقعة الطفّ وكتب عنها أو تناول جذور الصراع بين الأُمويّين والهاشميّين؛ فكلّ هؤلاء ركّزوا على هذا العامل، أي الأعمال التي كانت تمتهنها تانك العائلتان.

وحينما نأتي إلى الأُمويّين نجد أنهم كانوا يعيشون على المعاملات الربويّة سيما أبو سفيان والنسبة الغالبة منهم. والمعاملة الربويّة كما هو معلوم معاملة قائمة على أساس استغلال الآخرين، فهي معاملة تجارية يشوبها الظلم والقهر والقسر والابتزاز لحقوق الناس ولأموالهم.

وإضافة إلى هذا فإننا نجد أنهم كانوا يدمنون الخمر، والجو الذي كانوا يعيشون فيه ينطبق عليه وصف الليالي الحمراء التي هي متاجرة غير مشروعة بأي شكل من الأشكال. فهذه الأجواء التي كانوا عليها من عمل الربا إلى المتاجرة غير المشروعة بالخمر وإدمانه، إضافة إلى الوظيفة التي أعطتهم إياها قريش، وهي وظيفة الحرب وسفك الدماء بغياً؛ لأنها كانت تقوم على البغي والاعتداء، كلّ هذا جعل من هذه العائلة عائلة منغمسة بالانتهازية والوصول إلى الهدف بأقصر الطرق وإن كان غير مشروع، بل إنها لا تعمد إلى طريق مشروع أبداً.

أما عمل العائلة الثانية (الهاشميّون) فكان سقاية الحاجّ، وعمارة الكعبة الحرام وسدانتها، وإطعام الحاجّ، وتوفير وسائل الراحة لهم. وهي وظائف دينيّة غالباً؛ ولهذا فإن الهاشميّين كانوا يفتخرون على غيرهم من قريش بسدانة البيت، وسقاية الحاجّ وإطعامهم، وما إلى ذلك، كما جرى في المحاورة أو المفاخرة التي حدثت بين العباس بن عبد

المطلب وبين طلحة بن أبي طلحة، ذلك أن أمير المؤمنين عليه السلام دخل على العبّاس بن عبد المطلب رضي الله عنه وطلحة بن شيبة، فقال طلحة: أنا صاحب البيت، بيدي مفتاحه، ولو أشاء بتّ في المسجد؛ فأنا أفضل من علي. وقال العبّاس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها، ولو أشاء بتّ في المسجد؛ فأنا أفضل من علي. فقال عليه السلام: «ما أدري ما تقولان، لقد صلّيت ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد». وفي رواية أنه عليه السلام قال: «لكنني أسلمت وآمنت بالله ورسوله وجاهدت في سبيل الله قبلكما، فلي في ذلك من الحظّ ما ليس لكما. ولقد ضربتكما بالسيف على خياشيمكما حتى دخلتما في دين الله». فأنزل الله تعالى قوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[١]...[٢].

فالعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه يقول له: إن عملي أهمّ من عملك؛ لأني أتولّى سقاية الحاج، وأحفظ أكبادهم وأرواحهم من العطش؛ فأُنجيهم بذلك من الموت. وأمير المؤمنين عليه السلام حينما يقول ذلك لهما وفيهما العبّاس؛ لأن قريشاً أجبرت العبّاس على أن يخرج لقتال النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والذي أتى به أسيراً إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو الإمام علي عليه السلام.

وأمّا هذا العبدري فقد كانت عائلته تتولّى سدانة الكعبة، إضافة إلى حمل الألوية في الحرب، والذين قتلهم الإمام عليه السلام من حملة الألوية كانوا كلهم من بني عبد الدار، فقتل السبعة الذين حملوا اللواء من بني عبد الدار، وأسر العبّاس بن عبد المطلب على الرغم من أنه عمّه، فقد وضع يده

---

(١) التوبة: ١٩.

(٢) انظر المحاورة في شرح الأخبار ١: ٣٢٤ - ٣٢٥، العمدة: ١٩٣، فتح الباري ٣: ٣٩٣.

في تلابيبه وأقبل به أسيراً، يسحبه إلى أن وقف به أمام النبي صلى الله عليه وآله. وبهذا فإن الإمام علي عليه السلام يفاخرهم بهذا ويقول لهم: أنا هذه وظيفتي في الواقع.

وموضع الشاهد من هذه الحادثة هي أن وظائف بني هاشم كانت أقرب إلى الروحيّة.. وظائف تلتصق بمرتبة الخُلُق، وهي خلاف الوظائف التي كان يزاولها الأمويّون، والتي بني على أساسها مزاجهم القائم على النفعيّة، والربح والماديّ كما ذكرنا. ولم يكن لبني أُميّة شيء من الممارسات العمليّة ممّا هو قريب من الدين أو الأخلاق؛ فكل ما كانوا يزاولونه أو يمارسونه كان بعيداً عن تصوّر الدين وعن معناه. ولهذا السبب نجد أن الباحثين حينما يتناولون معركة الطفّ فإنهم يصوّرون العداء فيها بين الجيش الهاشمي المحمدي، وبين الجيش الأُموي الجاهلي على أنه عداء يرجع إلى التناقض بين مزاجين، وعلى أنه استمرار لعداء بين عائلتين.

فهاتان العائلتان كانتا في الجاهلية هكذا، وحينما جاء الإسلام عمر القلوب عند بعض منهما، في حين أن البعض الآخر دخله دخولاً فقط؛ فلم يعمره، ولم يستقرّ فيه، ولم يتجاوز قشورها إلى اللباب، وهو أمر أشبه ما يكون بتوصيف النبي صلى الله عليه وآله للخوارج حينما يمر بذكرهم: «يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»[1].

أي أن بعض الناس يقرأ الآية ولا تكاد تتجاوز حنجرته؛ لأنه يتمسّك بظاهرها فقط، وحينما يناقَش حول هذا الأمر ويقال له: إن هذا الظاهر الذي تتمسّك به وتعمل عليه يصطدم مع آية أُخرى، أو مع العقل، أو مع

(١) شرح الأخبار ٢: ٤٣، مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ٢: ٣٢٦، وقريب منه في صحيح مسلم ٣: ١١٥، سنن أبي داود ٢: ٤٢٩.

العلم، فإنه ليس من العسير عليه حينئذٍ أن يصف هذا القائل بأنه كافر، أو أنه ليس بمؤمن، وأنه يريد أن يحرّف كلام الله تعالى. وهؤلاء هم فعلاً كما يصفهم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بذلك الوصف الدقيق؛ لأنهم ليس لديهم أي عمق أو تعمق عند قراءة القرآن أو التعامل معه؛ ولذا فهو لا يتجاوز تراقيهم.

وفي هذا المضمار نجد أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله إنما يصف مثل هؤلاء حيث يقول: «يخرج قوم من اُمّتي؛ يقرؤون القرآن، ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، يقرؤون القرآن يحسبون أنه لهم، وهو عليهم، لا تجاوز صلاتهم تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية»[1].

فهؤلاء ببالغ الأسف يتمسّكون بظواهر الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة دون أن يسبروا غورها، وأن يعرفوا معاريضها، والمعاني الكامنة وراء ذلك. ولهذا نجد أنهم يتّهمون بالشرك من يزور قبراً من قبور المؤمنين ويقف عنده ليدعو له أو يدعو عنده، ويصلّي له أو لنفسه، ويقرأ شيئاً من القرآن الكريم. إن معنى هذا ـ وقوف الإنسان على قبور المسلمين، والصلاة لهم، وقراءة شيء من القرآن الكريم ـ أنه مسلم، فهل هناك من مسلم يشرك بالله؟ إننا حينما نزور قبور المؤمنين أو الأئمة (صلوات الله وسلامه على جدّهم رسول الله صلى الله عليه وآله وعليهم أجمعين) فإنما نزورهم بقصد إكرامهم؛ لأن هذا المزور مسلم، وربما كان شهيداً أو إماماً ووليّاً.

---

(١) صحيح مسلم ٣: ١١٥، سنن أبي داود ٢: ٤٢٩.

يضاف إلى هذا أننا نروي في الحديث الشريف أن «من أتى قبر أخيه، ثم وضع يده على القبر وقرأ: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [(١)] سبع مرات أمن يوم الفزع الأكبر» [(٢)].

وغيره من أقوال النبي ﷺ ممّا يرويه أهل السنة أنفسهم في كتب الصحاح عندهم [(٣)]. فلماذا إذن يُعمد إلى تكفير هذا الشخص الذي يمتثل لهذه الأحاديث، ويطبّق معانيها، ويستلهمها في حياته، حيث يزور قبراً من قبور المؤمنين؟ إن هؤلاء حينما يعمدون إلى هذا التكفير فإنما ينبئون عن أن إيمانهم سطحي وقشري لا يصل إلى اللباب، وليس فيه ذلك العمق الذي نجده عند المؤمنين الحقيقيّين. كما أنه ليس له القابلية على فهم الكلام والمطارحات وتحليلها ومقارنتها.

---

(١) القدر: ١.

(٢) الكافي ٣: ٢٢٩ / ٩، كامل الزيارات: ٥٢٨ ـ ٥٢٩ / ٨٠٨، ٨٠٩.

(٣) كقوله ﷺ: «زوروا القبور فإنها تذكّركم الآخرة»، وقوله ﷺ: «كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ثم بدا لي أنّها تُرقّ القلب وتُدمع العين وتُذكّر الآخرة: فزوروها»، وقوله ﷺ: «ما من أحد يمرّ على قبر أخيه المؤمن يعرفه في الدنيا فيسلم عليه، إلّا عرفه وردّ عليه». وقد صحّ أنه ﷺ كان يخرج إلى البقيع لزيارة الموتى، ويسلّم عليهم، وغيرها من الأحاديث الكثيرة المبثوثة في كتب القوم، والتي تصبّ في الباب نفسه. انظر في كل ذلك مضافاً إلى آراء علماء القوم التي في بعضها التصريح بجواز زيارة المسلم حتى لقبر غير المسلم: الموطّأ ٢: ٤٨٥، سنن ابن ماجة ١: ٥٠٠ / ١٥٦٩، السنن الكبرى (البيهقي) ٤: ٧٨، المستدرك على الصحيحين ١: ٣٧٦، المعجم الصغير ٢: ٤٣، التلخيص الحبير ٥: ٢٤٧، الشرح الكبير ٢: ٤٢٦، المجموع شرح المهذّب ٥: ٣١٠، المغني ٢: ٤٢٤، تلخيص الحبير ٥: ٢٤٧، فتح الباري ٣: ١١٨، ١٢٠، مغني المحتاج ١: ٣٦٥، فيض القدير شرح الجامع الصغير ٤: ٨٨، ٥: ٧٢، كشف القناع ٢: ١٧٤، ٤: ٣٠١، كنز العمّال ١٥: ٣٨٣ / ٤١٤٨٦، ٤، نيل الأوطار ٣: ٣٠٥. وقد مرّ مفصلاً في ج٢ ص٢٥٩ من المحاضرات، وفي موارد أُخرى متفرّقة كثيرة منه.

على أيّ حال فإننا نقول: إن بعض هاتين العائلتين قد دخله الإيمان كالإمام علي عليه السلام والحسنين عليهما السلام، وإخوة الإمام علي (رضي الله عنهم)، وأولاد إخوته، ومن ثم أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذين حملوا القرآن وعملوا به، ولم يحملوه فقط؛ ذلك أنهم وعوه وتعمّقوا فيه، وكانوا من أنصاره.

في حين أننا نجد في الطرف الثاني من يقول بعد أن سمع الأذان: ولقد كنّا في محفل فيه أبو سفيان وقد كفّ بصره، وفينا علي بن أبي طالب عليه السلام، فأذّن المؤذن، فلمّا قال: أشهد أنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال أبو سفيان: أهاهنا من يحتشم؟ قال واحد من القوم: لا. فقال: للّه درّ أخي هاشم، انظروا أين وضع اسمه. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «أسخن الله عينيك يا أبا سفيان، الله فعل ذلك بقوله: ﴿ورفعنا لك ذِكْرَك﴾»[1]. فقال: أسخن الله عين من قال: ليس هاهنا من يحتشم[2].

والقائل: يا بني أمية، تلقّفوها تلقّف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان، مامن عذاب ولا حساب، ولا جنة ولا نار، ولا بعث ولا قيامة[3].

---

(١) الشرح: ٤. (٢) قصص الأنبياء (الراوندي): ٢٩٣ ـ ٢٩٤.

(٣) تاريخ الطبري ٨: ١٨٢ ـ ١٩٣ /كتاب المعتضد بالله في لعن معاوية، شرح نهج البلاغة ٢: ٤٥. وله من هذا الكلام الشيء الكثير الذي ذكرته كتب التفسير. نذكر منه:

قال أبو سفيان لما بويع عثمان: كان هذا الأمر في تيم، وأنى لتيم وهذا الأمر، ثم صار إلى عدي فأبعد وأبعد، ثم رجعت إلى منازلها، واستقرّ الأمر قراره. فتلقّفوها تلقف الكرة. جمهرة الأمثال: ٤٢٣.

ثم دخل على عثمان فقال له: صارت إليك بعد تيم وعدي، فأدرها كالكرة، واجعل أوتادها بني أميّة؛ فإنما هو الملك ولا أدري ما جنّة ولا نار. الاستيعاب ٤: ١٦٨٠ / ٣٠٠٥.

وقال له: بأبي أنت، أنفق ولا تكن كأبي حجر، وتداولوها يا بني أمية تداول الولدان الكرة، فو الله ما من جنّة ولا نار. شرح نهج البلاغة ٩: ٥٣ ـ ٥٤.

ودخل إليه (إلى عثمان) بنو أميّة حتى امتلأت بهم الدار، ثم أغلقوها عليهم، فقال أبو سفيان بن حرب: أعندكم أحد من غيركم؟ قالوا: لا. قال: يا بني أميّة، تلقّفوها تلقّف الكرة،

وبهذا فإننا نجد أنه أمر لا شكّ فيه أن يتنافر هذان الصنفان من الناس، فالذي يصرّح بالكفر في كلّ لحظة من لحظاته، وفي كلّ تصرّف من تصرّفاته وفعل من أفعاله لا ينسجم البتّة مع من انعقد على الإيمان ومن ملئ بالإيمان. ولهذا فإن حصول ذلك الخلاف بين هاتين العائلتين لهو أمر صريح جدّاً.

وهذا اللون من الصراع أو الصدام بين هذين المزاجين قد أكّد عليه الباحثون، لكنه كما ذكرنا لا يتعدّى نظرية العامل الواحد، أي حصر السبب في الاختلاف بين المزاجين. وهذا الاختلاف كان في زمن الجاهلية، ثم انتقل إلى زمن الإسلام. وقد نصّ الحديث الشريف على أن: «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا»[1].

ذلك أن العنصر النظيف يبقى نظيفاً سليماً طاهراً، أما العنصر غير الطاهر وغير السليم فإنه لا يمكن إلّا أن يكون كذلك حتى بعد مجيء

فوالذي يحلف به أبو سفيان، ما من عذاب ولا حساب، ولا جنّة ولا نار، ولا بعث ولا قيامة. شرح نهج البلاغة ٩: ٥٣ ـ ٥٤.

وفي رواية أنه دخل على عثمان بعد أن كفّ بصره، فقال: هل علينا من عين؟ قال: لا. فقال: يا عثمان، إن الأمر أمر عالميّة، والملك ملك جاهلية، فاجعل أوتاد الأرض بني أميّة. الأغاني ٦ / ٣٢٣.

وعن أنس أنه دخل على عثمان بعدما عمي فقال: هل هاهنا أحد؟ فقالوا: لا. فقال: اللهم اجعل الأمر أمر جاهلية، والملك ملك غاصبيّة، واجعل أوتاد الأرض لبني أمية. تاريخ مدينة دمشق ٢٣: ٤٧١.

ووقف على ثنية أحد بعد ذهاب بصره، ثم قال لقائده: هاهنا ذبينا محمداً وأصحابه. تاريخ الطبري ٨: ١٨٢ ـ ١٩٣ / كتاب المعتضد بالله في لعن معاوية.

وقد ذكرنا جملة من أحواله في محاضرة (أصحاب النار وأصحاب الجنة)، وغيرها.

(١) مسند أحمد ٢: ٢٥٧، ٣: ٣٨٣، ٤: ١٠١، صحيح البخاري ٤: ١١١، ١٢٠، ١٢٢، ١٥٤، ٥: ٢١٦، سنن الدارمي ١: ٧٣.

الإسلام.

وخلاصة الأمر أن هذه النظرية تقول: إن السبب في حدوث واقعة كربلاء هو هذا الصدام بين مزاجي العائلتين منذ البداية والذي تعمّق أكثر وبشكل أكبر بعد مجيء الإسلام. وهو اختلاف في جوانب عدّة حيث انتهجه الأمويّون كوسيلة للربح أو الوصول إلى أغراض دنيويّة بعيدة عن مفاهيم الإسلام وتعليماته؛ ممّا أدّى إلى حدوث هذا الصدام. ولهذا فإن المعركة كانت معركة مبادئ ـ أي بين مبادئ الإسلام وبين مبادئ الجاهلية ـ وقد تجلّى فيها الصدام بين الحقّ المتمثّل بالبيت النبوي الطاهر، وبين الباطل المتمثّل بالبيت الأموي.

تساؤل حول هذا الرأي

وربما يقول قائل: إن هذه النظرية لا تعدو أن تكون دعوى من غير دليل، وعليه فلا بد من إقامة الدليل عليها.

ونقول: إن الدليل موجود حيث إن الإسلام يقول: «المثلة حرام ولو في الكلب العقور»[1]، غير أن هؤلاء قتلوا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله، وقطعوا إصبعه، ورفعوا رأسه فوق الرمح، فهل هنالك حقد جاهلي أكبر من هذا؟ وهل هناك حقد أبعد من أن يأمروا بنبش قبر لطفل عمره ستة أشهر ليقطعوا رأسه ويأخذوه مع الرؤوس إلى يزيد بن معاوية؟ وهل لهذا الأمر أدنى علاقة بروح الإسلام؟ وهل مطاردة النساء بشكل تبقى معه الهاشمية ترتعد كما ترتعد السعفة في مهبّ الريح حتى ينزع عنها رداءها، ويسلبها

---

(١) نهج البلاغة / الوصيّة: ٤٧، عن رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله. وسائل الشيعة ٢٩: ١٢٨ / ٣٥٣١٦، المعجم الكبير ١: ١٠٠.

حليّها، ويعتدي عليها بالضرب والسبّ وما إلى ذلك يمتّ للإسلام بصلة؟ إن هذه الأُمور ليست من الإسلام في شيء.

وهذا كما هو واضح نمط بعيد جداً عن التفكير الإسلامي، وعن الروح الإسلاميّة، بل وحتى عن الروح العربية التي كانت سائدة قبل الإسلام، فالعرب كانوا يحترمون المرأة الكريمة الشريفة التي تكون من بيت شريف وعالٍ وسامٍ، فيقدّرونها. ثم إن من شيمهم ألّا يعتدوا على امرأة أبداً؛ لأنهم يعدّون ذلك عاراً عليهم.

إذن فالاعتداء على المرأة ليس من شيم العرب، وليس من شيم الإسلام والمسلمين، أما هؤلاء فضربوا عرض الحائط كلّ شيم العرب، وكلّ شيم الإسلام ومبادئه، واعتدوا على حرائر البيت النبوي الطاهر بالضرب والتنكيل والسبّ وما إلى ذلك. يقول عبد الله بن قيس:

إن من أعجب العجائب عندي ... قتل بيضاء حرة عطبولِ

قتلوها ظلماً على غير جرم ... إن لله درها من قتيلِ

كُتب القتل والقتال علينا ... وعلى المحصنات جرّ الذيولِ[1]

فهؤلاء قد ضربوا النساء في المعركة، وقتلوا بعضهن كما فعلوا مع أُمّ وهب، وبعض من نساء آل بكر حيث تعرضن إلى القتل. وهذا كما قلنا ينأى بعيداً جدّاً عن روح الإسلام ومفاهيمه.

---

(١) الأبيات لعمر بن أبي ربيعة، قالها في عمرة بنت النعمان بن بشير الأنصاريّ حينما قتلها مصعب بن الزبير بأمر أخيه عبد الله. تاريخ الطبري ٣: ٤٥١ ـ ٤٩٤، الكامل في التاريخ ٤: ٢١١ ـ ٢٧٨، البداية والنهاية ٨: ٢٨٩ ـ ٣١٣.

والعطبول: المرأة الجميلة الفتيّة الطويلة العنق الشبيهة بالظبية. لسان العرب ٩: ٢٦٥ ـ عطبل.

الثاني: نظرية الدم المراق بين هاشم وعبد شمس

وهذه النظرية هي أيضا نظرية تعتمد على العامل الواحد، وهي تنص على أن أسباب معركة الطفّ تعود إلى العداء والحقد المستحكم بين العائلتين منذ أيّام الجاهليّة. فهذه النظريّة تفترض أن هناك حقداً كامناً في كل عائلة ضد العائلة الأخرى. وهؤلاء يعتمدون في نظريتهم هذه على أسطورة حيث تزعم بعض كتب التاريخ أن هاشماً وعبد شمس قد ولدا من بطن واحدة، وأنهما كانا ملتصقين مع بعضهما؛ إذ خرج هاشم، وتلاه عبد شمس، وعقبه ملتصق بعقبه، فلما أرادوا أن يفرّقوا بينهما لم يتمكّنوا؛ مما اضطرّهم إلى أن يأتوا بسيف ويقطعوهما من منطقة الالتصاق وبهذا فرقوا بينهما. وكان هناك أعرابي واقف فقال: إن هذا السيف سيكون سمة لهما إلى النهاية، وليخرجن بين ولد هذين من التقاطع ما لم يكن بين أحد سواهم [1].

وهذا في واقع الحال أمر أسطوري واضح، وهو ليس الأمر الأسطوري الوحيد المذكور في كتب التاريخ، فنحن حينما نرجع إلى هذه الكتب نجد فيها أساطير كثيرة. إن الباحث العلمي حينما يحاول أن يعرض التاريخ على الوسائل العلميّة فإنه سوف يرى حينئذٍ أنه يجب أن يحذف منه الشيء الكثير، لتوفّره على هذا العامل (عامل الأسطورة)؛ ذلك أن البعض من المؤرّخين لا يتورّع أن يذكر أسطورة ليقيمها مقام الحقيقة، دون أن يتروّى في نقلها، ودون أن يتأكّد من مصداقيّتها وصحتها وعدمها.

---

(١) تاريخ اليعقوبي ١: ٢٤٢.

الثالث: نظرية الاختلاف على بئر زمزم

حيث إننا نجد من يرجع هذا الصراع إلى العداء الذي قام بين العائلتين بسبب تفضيل عبد المطلب على غيره في حفر بئر زمزم، فقد نشب من حينها خلاف بين القرشيّين وبين عبد المطلب على هذا الأمر؛ لأنهم أرادوا أن يشاركوه فيه، ممّا اضطرّهم إلى أن يطالبوه بالذهاب إلى الكاهن حيث حدث ما حدث في تلك الرحلة مما أقنعهم بأحقّيّة عبد المطلب ببئر زمزم[1]، لكن العداء الخفي والحقد الخبيث بقي في قلوب الأمويّين.

---

(١) رأى عبد المطّلب في منامه ذات ليلة قائلاً يقول له: احفر طيبة. قال: وما طيبة؟ فمضىٰ عنه. وفي الليلة الثانية جاء إليه، فقال له: احفر برّة. قال: وما برّة؟ فمضىٰ عنه. وفي الليلة الثالثة جاء إليه، فقال له: احفر ميمونة. قال: وما ميمونة؟ فمضىٰ عنه. وفي الليلة الرابعة جاء إليه، فقال له: احفر زمزم. قال: وما زمزم؟ ـ وكانت حينئذٍ قد نُسي خبرها، ودرس أثرها، وبعد أن مضىٰ علىٰ ردمها نحو من ثلاثمئة عام ـ قال: بئر لا تنزف ولا تذمّ، تسقي الحجيج الأعظم، مثل نعام جافل لم يقسم، ينذر فيها ناذر بمنعم، عند منحر قريش، عند قرية النمل، عند نقرة الغراب الأعصم، وهي شرب لك ولولدك من بعدك.

فلمّا تبيّن له أنه قد صدقته الرؤيا، غدا بمعوله ومعه ابنه الوحيد آنذاك الحارث، فوجد قرية النمل، ووجد الغراب الأعصم ينقر عندها بين أساف ونائلة اللذين كانت قريش تنحر عندهما ما تتقرّب به إليهما. فجاء بالمعول وجعل يحفر حيث أُمر، وجعل ولده الحارث ينقل التراب، حتّىٰ بدا له طيّ البئر، فكبّر فرحاً؛ لأنّه تأكّد من وجوده هناك.

وحينئذٍ سألت قريش من مشايخها المسنّين عن هذا البئر، فعرّفوهم بما سمعوا من آبائهم وأجدادهم من أن هناك بئراً نبعت لأبيهم إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، فعادوا إلى عبد المطلب، وقالوا: إنها بئر أبينا كلّنا، فدعنا نكن معك، وأشركنا فيها. فأبىٰ وقال: هذا شيء خصصت به دونكم، وأُعطيته من بينكم.

فطلبوا منه أن يخاصموه، فأجابهم وقال: اجعلوا بيني وبينكم من شئتم. فاختاروا كاهنة بني سعد بن هذيل، وكانت في أطراف الشام، فأجابهم إلىٰ ذلك فذهبوا. وكان مع عبد المطلب نفر من بني عبد مناف، فنفد ماؤهم في بعض الطريق، فاستسقوا مَن معهم من قبائل قريش، فأبوا، وقالوا: إنا في مفازة ونخشىٰ أن يصيبنا ما أصابكم. فأمر عبد المطلب أصحابه أن يحفروا لأنفسهم الحفائر، وأن ينتظروا فيها الموت، فإذا مات منهم أحد دفنه الآخر، وتكون

الرابع: نظرية الخلاف الشخصي

أي الخلاف بين الإمام الحسين عليه السلام وبين يزيد. وهذه النظرية أيضاً تعتمد على العامل الواحد، وتُقرّر أن سبب الخلاف بين يزيد والإمام الحسين عليه السلام وهو الذي أدّى إلى وقوع معركة الطف هو الخلاف على أرينب، وتقول القصّة: لما بلغ معاوية عشق يزيد وهيامه بأُرينب بنت إسحاق من وصيف له، وكانت مثلاً في أهل زمانها جمالاً، وكانت تحت ابن عمّها عبد الله بن سلام القريشي وكان له منزلة عند معاوية، وقد استعمله بالعراق، امتلأ معاوية همّاً وغمّاً بأمر يزيد، فأخذ في الحيلة والنظر فيما يجمع بينهما حتى يرضى يزيد، فاستدعى زوجها من العراق يبشّره بأمر له فيه حظّ وافر، فلما أنزله منزلاً حسناً، دعا أبا هريرة وأبا الدرداء ـ وكانا بالشام ـ فقال لهما: إني قد بلغت لي ابنة أردت نكاحها ليقتدى بي من بعدي، وإني أخاف أن يعضل الأُمراء بعدي نساءهم، وقد رضيت لها عبد الله بن سلام لدينه وفضله وأدبه فاذكرا ذلك عني، وإني كنت جعلت لها

النتيجة أن يبقىٰ منهم رجل واحد؛ وذلك أهون من أن يبقوا كلّهم طعمة للطيور والسباع.
وبعد أن حفروا لأنفسهم، وامتدّوا في حفائرهم ينتظرون الموت ساعة بعد أُخرىٰ، عدل عبد المطلب عن رأيه هذا، وأمر أصحابه أن يركبوا إبلهم، وأن يضربوا في الأرض؛ فلعلّ الله أن يرزقهم الماء. وأقبل هو إلىٰ راحلته، فركبها، فلمّا انبعثت به، انفجر الماء من تحت أخفافها، فكبّر عبد المطّلب وكبّر أصحابه، ونزلوا وشربوا، ثمّ ملؤوا أسقيتهم.
ولمّا رأى المخاصمون له ما أكرمه الله به، رجعوا عن مخاصمته، وخلّوا بينه وبين زمزم، فحفرها وبنىٰ عليها حوضاً واسعاً ينقل إليه ماءها؛ تسهيلاً للواردين. ثمّ لما جاء موسم الحجّ، جعل ينقل ماءها للحجيج أين ما كانوا؛ فلقب لذلك ساقي الحجيج.
سبل الهدى والرشاد ١: ١٨٨، الطبقات الكبرى ١: ٨٣، الكامل في التاريخ ٢: ١٢، البداية والنهاية ٢: ٣٠٣، البداية والنهاية ٢: ٣٠٤، سيرة ابن إسحاق ١: ٢، السيرة النبوية (ابن هشام) ١: ٩٣، ٩٤ ـ ٩٥، السيرة النبوية (ابن كثير) ١: ١٦٨ ـ ١٧٠، السيرة الحلبية ١: ٥٢ ـ ٥٣.

الشورى في نفسها غير أني أرجو ألّا تخرج من رأيي.

فخرجا إلى عبد الله بن سلام وأعلماه بما قاله معاوية فسرّ به وفرح، وحمد الله ودعا لمعاوية، ثم بعثهما إلى معاوية خاطبين عليه، فلما قدما قال لهما معاوية: إنكما تعلمان رضاي بذلك فادخلا عليها واعرضا عليها ما رضيت لها. فدخلا وأعلماها بكل ما جرى، وكان معاوية قد لقّنها ما يريد أن تجيب به فقالت: عبد الله بن سلام كفء كريم وقريب حميم، غير أنه تحته أُرينب بنت إسحاق، وأنا خائفة أن تعرض لي غيرة النساء فأتولّى منه ما يسخط الله، ولست بفاعلة حتى يفارقها. فأخبرا عبد الله بن سلام بالأمر ففارق زوجته وأشهدهما على طلاقها، فأظهر معاوية كراهيته طلاقها وقال: لا أستحسنه ولو صبر ولم يعجل كان أمره إلى مصيره. فانصرفا في عافية ثم عودا لتأخذا رضاها.

ثم أخبر يزيد بما كان من طلاق أُرينب، ثم عادا إلى معاوية فأمرهما بالدخول إليها ليسألاها فدخلا عليها وأعلماها بطلاق أُرينب؛ طلباً لمسرّتها فقالت: إنه في قريش لرفيع، وإن الزواج هزله جدّ، والأناة في الأُمور أوفق، وإني سائلة عنه حتى أعرف دخيلة خبره، ومستخيرة فيه ومعلمتكما بخيرة الله.

ثم انصرفا وأعلما عبد الله بن سلام فقال:

فإن يكُ صدر هذا اليوم ولّى فإن غداً لناظره قريبُ

ثم استحثّهما عبد الله بن سلام وسألهما الفراغ من أمره، فأتياها فقالت لهما: إني سألت عن أمره فوجدته غير ملائم لي ولا موافق لما أُريد لنفسي. فعلم عبد الله أنه قد خدع، فقال متعزّياً: ليس لأمر الله رادّ. ولام

الناس معاوية على خديعته وجرأته على الله. ولما انقضت أقراؤها وجّه معاوية أبا الدرداء إلى العراق خاطباً لها على ابنه يزيد، فخرج حتى قدمها وبها يومئذ الإمام الحسين عليه السلام، فقدّم أبو الدرداء زيارة الحسين عليه السلام والتسليم عليه على مهمّته، فرحّب عليه السلام به، وأخبر أبو الدرداء بمهمته، فقال عليه السلام: «لقد ذكرت نكاحها فلم يمنعني إلّا تخيّر مثلك، فاخطبها عليّ وعليه، وأعطها من المهر ما أعطاها معاوية عن ابنه».

فلما دخل عليها أبو الدرداء قال لها: قد خطبك أمير هذه الأُمّة وابن الملك، ووليّ عهده يزيد بن معاوية، وابن بنت رسول الله الحسين بن علي، فاختاري أيهما شئت. فسكتت طويلاً ثم فوّضت أمرها إليه، فقال: أي بنيّة، ابن بنت رسول الله أحبّ إليّ وأرضاهما عندي. فتزوّجها عليه السلام، وساق لها مهراً عظيماً، وبلغ معاوية ما فعل أبو الدرداء فتعاظمه جدّاً، وقال: من يرسل ذا بلاهة وعمى يركب خلاف ما يهوى، ورأيي كان من رأيه أسوأ، ولقد كنّا بالملامة أولى.

وكان عبد الله بن سلام قد استودعها قبل فراقه بدرات مملوءة درّاً هو أعظم ماله، وأحبّه إليه، وكان معاوية قد جفاه وقطع جميع روافده لتهمته إياه بالخديعة، ولم يزل يقصيه حتى عيل صبره وقلّ ما في يده، فخرج راجعاً إلى العراق يذكر ماله الذي كان استودعه أرينب ولا يدري كيف يصنع، ويتوقّع جحودها؛ لطلاقه إياها من غير شيء أنكره منها ونقمه عليها، فلمّا قدم لقي الإمام الحسين عليه السلام وسلّم عليه وقال: قد علمت جعلت فداك ما كان من قضاء الله في طلاق أرينب، وكنت استودعتها مالاً عظيماً درّاً، فذكّرها أمري، واحضضها على الردّ؛ فإن الله تعالى يحسن إليك.

فلما انصرف عليه السلام إليها قال لها: «قد قدم عبد الله بن سلام وهو يثني عليك، ويذكر أنه استودعك مالاً، فأدِّ إليه ماله». فقالت: صدق، وإنه لمطبوع عليه بطابعه. ثم لقي عليه السلام ابن سلام فقال: «ما أنكرت، وزعمت أنها لكما دفعتها لها بطابعك». ثم دخل عليها عليه السلام وقال: «هذا عبد الله يطلب وديعته، فأدّها إليه». فأخرجت البدرات فوضعتها بين يديه، ثم قال الحسين عليه السلام: «أُشهد الله أنها طالق، اللهم إنك تعلم أني لم أتزوجها لمال ولا لجمال، ولكن أردت حبسها لبعلها، وأرجو ثوابك على ذلك». فتزوّجها عبد الله بن سلام[1].

وبهذا فإن الإمام الحسين عليه السلام حينما منع يزيد عن أن يتزوّجها، ثم تنازل عنها وأعادها إلى زوجها نشأ من ذلك كثير من الحقد في قلب يزيد على الإمام الحسين عليه السلام.

نقد الرواية

والواقع انه على الرغم من أن هذه الرواية يذكرها بعض المؤرّخين، لكنها بعيدة جدّاً عن مزاج الإمام الحسين عليه السلام، ثم إن معاوية ليس من النوع الذي يتقيّد بالقانون ويتصرف على ضوئه، ليعمد إلى هذه الطريقة، بل انه يستطيع أن يزوج ابنه منها بعد أن يأمر زوجها بطلاقها بمختلف وسائل الإكراه التي يتّبعها معه. والدليل على هذا أننا نقرأ في كتاب (البداية والنهاية) لابن كثير ـ عندما يأتي إلى تاريخ سنة أربعين ـ أن معاوية قد أجبر أحد عمّاله على ترك زوجته لكي يتزوّجها هو نفسه[2].

---

(١) الإمامة والسياسة ١: ١٦٦ ـ ١٧٠، النصائح الكافية: ١٢٨.

(٢) لم نعثر عليه، قال الشيخ عبد الحميد المرهون: ومن عجيب ما جاء في التاريخ ما روي في كتاب (قصص العرب) نقلاً عن (نهاية الأرب)، وعن (المختار من نوادر الأخبار) أنّ رجلاً من تميم دخل على معاوية، شاكياً له من عامله مروان بن الحكم، فقال له معاوية:

ونحن حينما نذكر مثل هذه الأمور فإننا لا نرجع إلى مصادرنا بل إلى

اذكر قصتك وأفصح عن أمرك. فقال: كانت لي زوجة ـ وهي ابنة عمي، وكنت لها محبّاً، وكانت لي صرمة من الإبل ـ والصرمة هي ما بين العشرين إلى الثلاثين ـ فأصابتنا سنة ذات قحط شديد أذهبت الخفّ والظلف، وبقيت لا أملك شيئاً. فلما علم أبوها ما بي من سوء الحال، أخذها مني وجحدني وطردني. فشكوته إلىٰ عاملك مروان، فاستحضره وسأله عن حالي، فأنكر معرفتي، فقلت لمروان: إن رأى الأمير أن يحضرها ويسألها عن قول أبيها، فليفعل.

فلمّا أحضرها، وقعت منه موقع الإعجاب، فصار لي خصماً، وبعث بي إلى السجن وقال لأبيها: إن ضمنت لي أن تزوّجها مني ضمنت لك أن أخلّصها من الأعرابي. وأجزل له المهر، فرغب أبوها في البذل، وأجابه إلىٰ ذلك؛ فوكّل بي جماعة من غلمانه يعذبونني، حتّىٰ طلّقتها قهراً، وتركني في السجن حتّىٰ انقضت عدّتها، فتزوّجها، ولم يُطلقني من السجن حتّىٰ دخل بها. وقد أتيتك مستجيراً، وإليك ملتجئاً. ثمّ اضطرب وخرّ مغشيّاً عليه.

فكتب معاوية إلىٰ مروان: لقد انتهكت حرمة من حرم المسلمين، وتعدّيت حدّاً من حدود الدين، وينبغي لمن كان والياً أن يغضّ بصره عن شهواته، ويزجر نفسه عن لذّاته. ثمّ ختم الكتاب، وأعطاه الكميتَ ونصر بن ذبيان. فلمّا قدما بالكتاب علىٰ مروان، طلّقها وجهّزها وأرسلها معهما، وكتب إلىٰ معاوية كتاباً قال فيه:

حَوراءُ يقصُرُ عنها الوَصفُ إن وُصفتْ ... أقــولُ ذلكَ فِــي ســرٍّ وإعــلانِ

فلمّا قرأه قال: لقد أحسن في الطاعة، وأطنب في حسن الجارية. ولما رأىٰ معاوية الجارية وكلّمها رآها كما وصف مروان، فقال لزوجها: هل لك عنها من سلوة، وأعوّضك عنها ثلاث جوارٍ أبكارٍ، ومع كلّ جارية ألف دينار، وأقسم لك من بيت المال في كلّ سنة ما يكفيك ويعينك علىٰ صحبتهن؟ فشهق الأعرابيّ وخرّ مغمى عليه، فلمّا أفاق، قال له معاوية: ما بالك؟! قال: شرّ بال وأسوأ حال، استجرت بعدلك من جور مروان، فبمن أستجير من جورك؟ ولو أعطيتني ما حوته الخلافة ما اعتضته دون سعدى. فغضب معاوية وقال: إنك مقرّ أنك طلقتها، ومروان مقرّ أنه طلّقها، ونحن نخيّرها، فإن اختارت سواك زوّجناه بها، وإن اختارتك رددناها إليك. قال: افعل، ولاحول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم. فقال لها معاوية: ما تقولين يا سعدى، أيّما أحبُّ إليك: أميرُ المؤمنين في عزّه وشرفه وسلطانه، أو مروان في عسفه وجوره، أو هذا الأعرابيّ في جوعه وفقره؟ فاطرقت هنيهة، ثمّ قالت: والله يا أمير المؤمنين، ما أنا بخاذلته لحادثات الزمان، ولا لغدرات الأيّام، وإن لي معه صحبة قديمة لاتنسىٰ، ومحبّة لا تبلىٰ، وأنا أحقّ من يصبر معه على الضرّاء، كما تنعّمت معه في السرّاء.

مصادر غيرنا من أبناء المذاهب الإسلامية الأخرى [١]، وعليه فإن معاوية ليس بحاجة إلى أن يحتال على الرجل. ثم إن هذه الحادثة لا تسبّب عداوة تستدعي أن يريق الإمام الحسين عليه السلام في سبيلها دماء أهل بيته وأصحابه، وأن يعرّض حرائر وعقائل آل بيت محمد صلى الله عليه وآله إلى السبي والضرب وما إلى ذلك؛ فالإمام الحسين عليه السلام أكبر من أن يفعل ذلك، ومن أن يريق كلّ هذه الدماء التي يحرم إراقتها إلّا بالحقّ من أجل امرأة يختلف حولها مع يزيد بن معاوية.

الخامس: نظرية المنهج التكاملي

وهي نظرية تعتمد على كلّ هذه العوامل، وتأخذها جميعها بعين الاعتبار في تحديد أسباب الصراع بين البيت الهاشمي الطاهر والبيت الأموي. ويضاف إلى ذلك ممّا تقدّم من العوامل ـ عدا ما ذكرنا من العامل الأخير وهو العامل الشخصي ـ عامل هامّ جدّاً، هو عامل وجود الأصبع الأجنبي لضرب مصادر الوحدة في تاريخ المسلمين ووحودهم.

يزيد ربي بين أخواله النصارى

إننا حينما نرجع إلى سيرة يزيد فإننا نجد أنه قد ربي عند أخواله بني كلب، وبنو كلب هؤلاء كانوا مسيحيين من النساطرة، وحينما ربي بينهم تولّوا تدريسه وتعليمه وتثقيفه؛ ولذا فإن دراسته جميعها كانت في

فقال له: خذها لا بارك الله لك فيها (باختصار). رائق الضمير ٣: ٢٦٢ ـ ٢٦٥، عن قصص العرب ٤: ٢٨٥ ـ ٢٩٠ / ٩٣.

(١) انظر: سمط النجوم العوالي ٣: ١٤٤ ـ ١٤٧، أخبار النساء ١: ١ (نسخة المكتبة الشاملة / الإصدار الثاني / كومبيوترية)، إعلام الناس بما وقع للبرامكة ١: ٧ (نسخة المكتبة الشاملة / الإصدار الثاني / كومبيوترية)، تاريخ مدينة دمشق ٦٨: ١٤٣ ـ ١٤٦ / ٩١٢١.

الأديرة على أيدي الرهبان والقساوسة من النساطرة. إن كون معلمه مسيحيّاً وتربيته وثقافته تربية وثقافة مسيحيّة أدّى إلى أن يكون مصير الدولة الإسلاميّة بيد هؤلاء بعد أن تولّى زمام الحكم؛ فقد اتّخذ بعد ذلك نديماً مسيحياً هو الأخطل الشاعر المعروف(١)، ثم إنه عمد إلى مستشاريه فاختارهم من المسيحيين وهم سرجون بن منصور الذي كان مستشاراً لأبيه من قبله وغيرهما، وهؤلاء جميعهم هم الذين كانوا يديرون له شؤونه وأمور مملكته.

وعليه فما الذي يمكن أن ننتظره من رجل كانت كلّ ثقافته مسيحية، وكان ندماؤه ومستشاروه مسيحيين؟ وهؤلاء ليسوا إلّا أعداء الإسلام والمسلمين، ولم يكن لهم من همّ إلّا القضاء على الإسلام؛ لأنهم لم يكونوا يريدونه؛ ولهذا فإننا نجدهم دائما يدفعون يزيد دفعاً إلى اتّخاذ قرارات خطرة(٢)، أو إلى إصدار أوامر بها، وجميعها تتنافى مع الإسلام.

وربما يسأل سائل فيقول: وما المانع من ذلك ونحن نرى اليوم أن أبناءنا يتربّون في الدول المسيحيّة، ويدرسون هناك، ويعيش بعضهم ضمن إرساليّات مسيحية، وهم مع ذلك لم ينسوا وجودهم ولا ذواتهم ولا

---

(١) الذي أنشد ليزيد في الأنصار:

خلّوا المكارم لستُمُ من أهلِها ... وخذوا مساحيَكم بني النجّارِ

ذهبت قريشٌ بالمكارمِ والندىٰ ... واللؤمُ تحتَ عمائمِ الأنصارِ

فلمّا بلغ ذلك الشعر النعمانَ بنَ بشير، دخل علىٰ معاوية وحسر عن رأسه عمامته، وقال: أترىٰ لؤماً؟ قال: لا، بل أرىٰ كرماً وخيراً، فما ذاك؟ قال: زعم الأخطل أن اللؤم تحت عمائمنا. قال: أو فعل؟ قال: نعم. قال: لك لسانه.

وأمر أن يؤتىٰ به، فاستشفع فيه يزيد، فتركه. انظر العقد الفريد ٥: ٣٢١ ـ ٣٢٢.

(٢) وليس شيء أعظم من قتل الإمام الحسين عليه السلام.

دينهم؟

وأقول: إننا لو اطلعنا الآن على ما يجري في المحافل الدينية في أوروبّا لعرفنا أنهم حينما يمرّون بذكر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فإنهم لا يقرنون ذكره إلّا بالعبارات البذيئة، والانتقاص من قدره صلى الله عليه وآله، وتشويه نبوّته ودينه، وتشويه القرآن ومحاولات الدس عليه وعلى الدين للقضاء على الإسلام. فهذه المحافل حينما تمرّ بالإسلام تمزّقه إرباً إرباً مع أنها في القرن العشرين ـ أي في عصر العلم والانفتاح والتطور والتعايش بين أبناء الكرة الأرضية جميعها ـ فكيف والأمر قبل أربعة عشر قرناً من الزمان حيث كان الناس منغلقين على جهلهم وعلى حقدهم، وكانوا منطوين على أهدافهم سيّما النصارى واليهود في ذلك الوقت، والذين مافتئوا يريدون للإسلام الاندثار، وللمسلين التفكّك والتباغض والتباعد؛ كي تسهل عملية السيطرة عليهم؟

ولهذا فإننا نقول: إن أوروبّا لا زالت إلى الآن تعيش عقليّة الحروب الصليبية، فهي في كلّ محافلها تحاول أن تقضي على الإسلام وأن تقصيه من الحياة والوجود، وأن تبعد الناس عنه. ونحن حينما نقول: إن أوروبّا تعيش عقليّة الحروب الصليبيّة إلى الآن فإن هذا يعني أن العنصريّة أو النظرة إلى العنصريّة باقية حتى الآن. ومن مصاديق هذا أننا لا زلنا نقرأ بين آونة وأُخرى تصريحاً يلفت النظر، ومن هذا أنني قرأت اليوم في جريدة القبس إن شخصاً اقترح إعادة مجد الإسلام لكن بشرط أن يكون الخليفة تركيّاً في اسطنبول ـ إذ أنه ينظر إلى اسطنبول على أنها أوروبّية ـ وإلّا فلا إسلام.

وكأن هذا وأمثاله لم يكفهم ما فعله العثمانيّون عبر تاريخهم الأسود

بالمسلمين. ومثل هذه العقليّة موجودة مع أن الإسلام لا يعرف جنساً ولا يعرف لوناً ؛ ذلك أنه رسالة عالمية خالدة : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[١] .

فالإسلام لا يأخذ العرق بعين الاعتبار أبداً ، ولا يأخذ العنصر بعين الاعتبار كذلك ، فهو لا ينظر إلى الجنسية ولا إلى الهويّة والدم ، وإنما ينظر إلى الإنسان من حيث إنه إنسان فقط. فالإنسان في نظر الإسلام الحنيف أخو الإنسان من أي عرق كان ، أحبّ ذلك أم كره[٢] .

وعليه فإن عامل تربية يزيد هنا لم يخرج عن هذا الجوّ الصليبي ، وعن هذا الإطار. ثم إن يزيد نفسه لم يخرج بأفكاره عن الجو المسيحي الذي تكلّمنا عنه آنفاً ، بل إن أفكاره كانت ملبّدة بتعليماته وآرائه وميوله . ولو لم يكن كذلك لما وجدناه وهو خليفة يحكم باسم الإسلام يجلس على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله في بيت مسلم وفي بلد مسلم حيث الشام بلد الفتوحات ، ثم يصعد المنبر ويقول :

لما بدت تلك الرؤوس وأشرقت	تلك الشموس على ربى جيرون
صاح الغراب فقلت صح أو لا تصح	فلقد قضيت من الرسول ديوني[٣]

فهذه اللغة ليست لغة مسلم على الإطلاق ، وكذلك نجده يردّد من على

---

(١) الحجرات : ١٣ .

(٢) قال أمير المؤمنين عليه السلام لمالك الأشتر : « وأشعر قلبك الرحمة للرعيّة والمحبة لهم واللطف بهم ، ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم : فإنهم صنفان : إما أخ لك في الدين ، وإما نظير لك في الخلق » . نهج البلاغة / ٥٣ ـ عهده عليه السلام له عندما ولّاه مصر .

(٣) بحار الأنوار ٤٥ : ١٩٩ ـ ٢٠٠ / ٤٠ ، مختصر الفتاوى المصرية (ابن تيمية) ١ : ٢٠٩ ، مجموع الفتاوى (ابن تيمية) ٤ : ٤٨١ ، ٤٨٥ ، توحيد الألوهيّة (ابن تيمية) ٤ : ٥٠٦ ، منهاج السنة النبويّة ٤ : ٥٤٩ ، تفسير الآلوسي ٢٦ : ٧٢ ـ ٧٣ .

ذلك المنبر:

اسقني شربة تروّي فؤادي ثمّ قم واسقِ مثلها ابن زياد
موضع العدل والأمانة مني ولتنفيذ مغرمي ومرادي(١)

المبحث الثاني: مصادر الوحدة عند المسلمين

وأنا من هذا المنبر لا أُريد أن أقول: إن هؤلاء الذين جاؤوا إلى كرسي الخلافة مسلمون ويجب أن يكونوا ملائكة، لكن أُريد أن أُبيّن أن هؤلاء الذين جاؤوا إلى كرسي الخلافة كانوا كلّهم يفعلون المعاصي، غير أن منهم من كان يستتر بها ولا يشهّر أما الحال مع يزيد فإنه كان يرتقي المنبر ويتطاول على النبي صلى الله عليه وآله ويتحدّاه، ويتحدّى الله تعالى والإسلام(٢). وهو بهذا مثله كمثل أبي نؤاس حيث يقول:

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمرُ ولا تسقني سرّاً إذا أمكن الجهرُ
وبح باسم من تهوى ودعني من الكنى فلا خير في اللذّات من دونها سترُ(٣)

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ٢٢: ١٤٣ ـ ١٤٤، الأغاني ١٥: ٢٨٢، النصائح الكافية: ٧٩.
وهو الذي كان مع جارية له في دير مَرَّان تغنّيه، فوصل له خبر جيش المسلمين الذي أصابته الحمىٰ والطاعون وفتكا به، فشرب حتىٰ ثمل مستخفّاً بما حصل للجيش غير عابئ به، ثم أنشأ يقول:

ما إن أُبالي بما لاقت جموعُهُمُ بالفَرقَدونة من حمّى ومن شومِ
إذا اتّكأت علىٰ الأنماط مرتفقاً بدير مَرَّان عندي أمّ كلثومِ

معجم البلدان ٢: ٥٣٤، ٤: ١٨٨.

(٢) بما مرّ من شعر له، وغيره ممّا نقلته المصادر الآنفة والآتية في الهامش التالي ممّا فيه معصية حتى قال ابن تيمية عند نقله قوله: نعق الغراب... وهذا الشعر كفر. مختصر الفتاوى المصرية ١: ٢٠٩.

(٣) تاريخ الطبري ٧: ١٠٩، تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات: ٤١٤، تفسير الآلوسي ١٤: ١٣١، ١٥: ٣٠٨، الكامل في التاريخ ٦: ٢٩٥.

فكما أن أبا نؤاس يتحدى بهذا حيث يقول: «وقل لي»، فكذلك كان يزيد يتحدّى رسول الله صلى الله عليه وآله حينما يقول بأعلى صوته من على منبر المسلمين:

أقول لصحب ضمّت الكأس شملهم	وداعي صبابات الهوى يترنّمُ
خذوا بنصيب من نعيم ولذة	فكلٌّ وإن طال المدى يتصرّمُ
ولا تتركوا يوم السرور إلى غد	فربّ غد يأتي بما ليس يُعلمُ[1]

إن هذا تحدٍّ عجيب، وهو تحدٍّ بعيد عن روح الإسلام بعداً شاسعاً كبيراً بل إنه يطوّح بها بعيداً؛ وهذا ليس بالأمر العجب حينما نلتفت إلى أن هذا الشخص هو وليد تلك التربية المسيحيّة، والذي تشبّع بأفكارها، وقد رافقته هذه الأفكار حتى كرسي الخلافة حيث جاء محمّلاً بها ولم يكن لها من مهمّة سوى ضرب مصادر الوحدة الإسلامية.

بذور الوحدة الإسلاميّة ومصادرها

وكما هو واضح فإن الكلّ يعلم أن شعار الوحدة الإسلامية هو القرآن الكريم حيث يقول: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[2]، فهذه أمّة إسلاميّة واحدة؛ الله جلّ وعلا خالقها، وهو ربّها الذي بذر بين أفرادها بذور التوحيد ومصادره، وحثّ على اتّباع جميع المظاهر التي تعمل على توثيق تلك الوحدة بين المسلمين، والتي تدفعهم إلى تلك الوحدة. وهي تتمثّل في ثلاثة أشياء:

---

(١) جواهر المطالب (الدمشقي) ٢: ٣٠١، سمط النجوم العوالي ٣: ٢٠٨، شذرات الذهب ٤: ٩، النجوم الزاهرة ١: ١٦٣، وفيات الأعيان ٣: ٢٨٧، التدوين في أخبار قزوين ٤: ٩٨، فوات الوفيات ٢: ٦٤٤.
(٢) الأنبياء: ٩٢.

البذرة الأولى: الكتاب الكريم، وهو القرآن الذي أنزله الله جل وعلا على نبيه محمد صلى الله عليه وآله.

البذرة الثانية: العترة، وهم أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله [1].

البذرة الثالثة: الكعبة الشريفة التي يتوجّه إليها المسلمون كلّ يوم خمس مرات لأداء فريضة الصلاة، والتي يؤمونها عند الحجّ.

فهذه هي مصادر الوحدة عند المسلمين، وحينما نتناول هذه المصادر واحداً واحداً لنرى ما الذي فعله الأمويّون به، فإننا سنخرج بنتيجة هي أن هؤلاء لا يمكن أن يمتّوا إلى الإسلام بأدنى صلة.

المبحث الثالث: موقف الأمويين من بذور الوحدة

موقفهم من القرآن الكريم (البذرة الأولى)

إننا حينما نتناول القرآن الكريم فإننا لا نجد مسلماً لا يمكن أن ينظر إليه بعين التقديس والإكبار، فكلّ مسلم ينظر إلى القرآن هذه النظرة، المملوءة تقديساً واحتراماً؛ لأنه كتاب الله جلّ وعلا المنزّل على رسوله صلى الله عليه وآله، ولأنه دستور حياتهم. فالقرآن محلّ تقديس عند المسلمين عامّة لهذا، وقد حثّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله على احترام القرآن الكريم وعلى التعامل به والتفاعل معه، وعلى تعلّمه، والاستنارة به، كما حثّ على ذلك أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: «تعلّموا القرآن الكريم فإنه أحسن الحديث، وتفقّهوا فيه فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور، وأحسنوا تلاوته فإنه أنفع القصص» [2].

---

(1) الذين جمعهم رسول الله صلى الله عليه وآله مع القرآن، وجعلهم عدلاً له في حديث الثقلين.

(2) نهج البلاغة / الخطبة: 110.

وعليه فإن على الإنسان ألّا يقرأ القرآن قراءة عابرة، أي أن يقرأ الآية ويتمسّك بظواهرها، ويرفض فكرة التأويل. وهذا كما أسلفنا لون من الإيمان السطحي غير المتجذّر وغير الناضج.

وعليه فالقرآن الكريم محلّ وحدة المسلمين؛ لأنه الجامع لكلمتهم؛ ولهذا فإننا نرى أن المسلمين في كلّ يوم يقفون بين يدي الله جلّ وعلا وقت الصلاة وفي جميع أرجاء الكرة الأرضية ليقرؤوا من القرآن في صلاتهم سورة الحمد وغيرها من سور القرآن الكريم. وبهذا فإن القلوب تتوحّد، وتتوحّد المشاعر بين جميع المسلمين.. من في شرق الأرض، ومن في غربها. وهكذا فإن المسلم الذي يعيش في أوروبّا بدلاً من أن يقول: «إيّاك أعبد وإيّاك نستعين»، فإنه يأتي بصيغة الجمع ويقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1]. وكذلك الذي في أفريقيا وفي أمريكا، وفي الصين وفي غيرها من البلاد والقارات. فهؤلاء كلّهم يجمعهم شعار واحد هو القرآن الكريم حيث إنه المصدر الأول لوحدة المسلمين.

وإذا كان القرآن الكريم كذلك ـ المصدر الأول لوحدة المسلمين ـ فلست أدري كيف يرضى شخص بأن يمزّق هذا الكتاب؟ وكيف تطيب نفس شخص بأن يجعله صدراً لنبال الخليفة الأموي الوليد وهدفاً لحقده؟ وهل هذا إلّا لأجل تفكيك وحدة المسلمين؟ إن هؤلاء يرون أن من الواجب أن تزال منزلة القرآن الكريم من النفوس بمختلف الوسائل وبألوان الطرق؛ لأن هذا يعتبر الكتاب الممثّل للإسلام المناقض للجاهليّة التي يريدون أن يعيدوا الناس إليها.

---

(١) الفاتحة: ٥.

والقضاء على القرآن عند هؤلاء يمكن أن يكون بعدة أنماط:

الأول: بعدم العمل بمفاهيمه

الثاني: بتزييف هذه المفاهيم

الثالث: بالتقليل من قيمته ككتاب سماوي إلهي نزل بـه الروح الأمـين على قلب سيّد المرسلين رسول الله صلى الله عليه وآله.

وقد اتخذ معاوية بن أبي سفيان بمشورة من عمرو بن العاص من القرآن الكريم وسيلة للخدعة، وللغدر حينما أشرف الإمام أمير المـؤمنين عليه السلام على النصر؛ فقد كان بينه وبين النصر في صفّين خمس خـطوات، وقـد وضع معاوية رجله في الركاب واستعدّ للهرب. وكان حينما يتذكّر تلك الواقعة يقول: حينما وضعت رجلي في ركاب الفرس تذكّرت أبيات ابن الأطنابة حيث يقول:

أبت لي عـفّتي وأبـى بـلائي	وأخـذي الحـمدَ بـالثمن الربـيحِ
وإقـدامـي عـلى المكـروه نـفسي	وضـربي هـامةَ البـطل المشـيحِ
وقـولي كـلّما جشأت وجـاشت	مكـانك تـحمدي أو تسـتريحي[1]

وهنا جاءه عمرو بن العاص وقال له: إلى أين أنت ذاهب؟ قال: وماذا أفعل؟ قال: مرهم أن يرفعوا المصاحف على الرماح وأن ينادوا: كتاب الله بيننا وبينكم. وفعلاً وضعوا القرآن على طـرف رمـح ونـادى مـناديهم: كتاب الله بيننا وبينكم. وبهذا فإنه قد جعل القرآن وسيلة للضحك على غيره من سذّاج المسلمين، وللعبث؛ لكي يخدع به. وبعد كـثرة خـدعه

(١) شرح نهج البلاغة ٢: ٢٢٣، ٨: ٥٩، ١٨: ٢٠٣، تـنزيل الآيـات عـلى الشـواهـد مـن الأبيات: ٣٥٩، تفسير الثعلبي ٤: ٥٢.

كتب له الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : «وأما تلك التي تريد فإنها خدعة الصبي عن اللبن في أول الفصال»[١].

ولمّا لم يجد الإمام عليه السلام أذناً صاغية انطوى على نفسه وسكت.

ومعاوية هذا الذي جعل القرآن الكريم خدعة بني الخضراء بحمل أربعين بعيراً ذهبا وفضة[٢]، وهو مع ذلك يعلم أن هناك من المسلمين من يأتي عليه الليل ولا يجد ما يأكله حتى رغيف الخبز.

على أية حال فإن الأمر حينما وصل إلى الوليد بن يزيد استفتح به فخرجت له الآية القرآنية: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾[٣]، فوضعه على أربعة رماح وجعله هدفاً له، حتى مزّقه، ثم أنشأ يقول:

أتوعد كل جبار عنيد	فها أنا ذاك جبار عنيدُ
إذا ما جئت ربك يوم حشر	فقل يا رب مزقني الوليد[٤]

وبهذا فإننا نأخذ صورة واضحة عن التعامل الأموي مع القرآن الكريم الذي يعد المصدر الأول من مصادر الوحدة عند المسلمين.

موقفهم من الكعبة المشرّفة (البذرة الثانية)

وهي المصدر الثاني من مصادر الوحدة عند المسلمين، وهم منذ أن

---

(١) نهج البلاغة / الكتاب: ٦٤، وانظر: مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٥٠، كتاب الفتوح ٢: ٥٠٦، الإمامة والسياسة ١: ٨٥، تاريخ مدينة دمشق ٥٩: ١٢٨، شرح نهج البلاغة ١٧: ٢٥١.

(٢) وقد اشتراها عبد الملك بن مروان من خالد بن يزيد بن معاوية بأربعين ألف دينار، وأربع ضياع بأربعة أجناد الشام اختارهن: فاختار من فلسطين عمواس: ومن الأردن قصر خالد، ومن دمشق أندر، ومن حمص دير زكي، وذلك لعظمتها واتّساع رقعتها. تاريخ مدينة دمشق ٢: ٣٥٩.

(٣) إبراهيم: ١٥.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٩: ٣٥٠.

جاء الإسلام وحتّى اليوم يتوجّهون كلّ يوم إليها من شرق الأرض وغربها، ومن مختلف بقاع المعمورة. كما أنهم يقصدونها من كلّ حدب وصوب متحمّلين جرّاء الهدف الذي يقصدونه ـ وهو حجّ بيت الله الحرام ـ الحرّ والبرد، والألم، وبعد المسافة وشقّة السفر، وما إلى ذلك من مشاكل تمرّ بهم ومن مخاطر تعترضهم. فهؤلاء لا يعيرون أيّاً من هذه المعوّقات ولو قليل اهتمام، فما إن يتمكّن أحدهم من تحصيل مقدّمات الحجّ حتى يتوجّه إلى ذلك البيت الطاهر ويقصده ليؤدّي فريضة افترضها الله عليه.

وهناك يلتقي كل مسلم مع إخوانه المسلمين الذين جاؤوا لأداء هذه الفريضة المقدّسة، فيصافح بعضهم بعضاً مصافحة غير مقصودة عبر استلامهم جميعاً الحجر الأسود؛ إذ أن على كلّ مسلم أن يستلم الحجر ويلمسه. وفي هذا نمط من المصافحة ومن إيداع الشعور؛ ذلك أن كلّ مسلم يحمل شعوره ويأتي إلى هذا البيت فيقف عند المغرب ليرى كل هذه الجنسيات ذائبة تحت لواء «لا إله إلّا الله». ونحن نأمل ونودّ لو أن هؤلاء يحتفظون بهذه الروح، لكنهم ببالغ الأسف يتركون هذه الروح ويخلّفونها وراءهم داخل الكعبة، ويخرجون من غيرها. وهي روح أرادها الإسلام أن تلازم الإنسان في كلّ معطيات حياته؛ لأنه يريد من المسلم أن يكون دائماً متقولباً بروح «لا إله إلّا الله»، ومأخوذاً بها، وألّا يضع نفسه تحت سيطرة أي شيء غيرها.

ولو رجعنا إلى التاريخ لنرى ما هو موقف الأمويين من هذا المصدر (البيت الحرام) لوجدنا أنهم تعاملوا معه معاملة لا تنمّ عن الإسلام في شيء؛ فقد سلّطوا عليه المنجنيقات وهدموه، وأحرقوا أستاره، وأسقطوا

جدرانه، ودخلوا إلى المسجد الحرام وهتكوا حرمته، وأراقوا الدماء فيه، حيث راحت الدماء تسيل داخله. وقد أنذر الله هؤلاء الذين توجّهوا لهدم الكعبة بأن أنزل عليهم الصواعق، لكننا نجد التاريخ يحدثنا أن الحجاج كان يقول لهم: لا تخافوا منها؛ فهذه صواعق تهامة وأنا أعرف بها.

ثم يتقدّم بنفسه ليرمي الكعبة؛ محاولاً تبديد خوف الناس، فيرمون معه إلى أن تتحول الكعبة الشريفة الطاهرة إلى ركام من الأحجار وإلى سيل من الدماء. ومع كلّ هذا هل يمكن لأحد أن يدّعي أن لهذه الكعبة حرمة في نفوس هؤلاء؟ إن بعض السطحيّين من الناس يقول: لماذا لم يعاقب الله هؤلاء على عملهم هذا؟ والواقع أن الله جلّ وعلا لو كان من شأنه أن ينتقم من كلّ أحد بهذه السرعة فإنه سوف لن يترك على هذه الأرض من أحد[1]. والدعاء الشريف عن الإمام السجّاد عليه السلام يقول: «إنما يعجل من يخاف الفوت، وإنما يحتاج إلى الظلم الضعيف»[2].

فهناك نُظُم ومسارات حفظ الله لنا فيها هذا الكون وهي عبارة عن الخطط الإلهيّة التي يُحكم بها هذا الكون، وهو تعالى أعلم بها، ولا يمكن أن تُتجاوز أو أن تخترق.

إذن فالأمويّون عمدوا إلى أن يغلغلوا الشكّ في نفوس المسلمين إزاء المصدر الثاني من مصادر الوحدة عن المسلمين؛ حيث إنهم أهانوه، واعتدوا على حرمته، وأروا الناس ألّا حرمة لهذا البيت؛ بدليل أنهم

---

(١) يقول تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً﴾ فاطر: ٤٥.

(٢) الصحيفة الكاملة السجادية: ٢٨٤، دعاؤه عليه السلام في ردّ كيد أعدائه. مصباح المتهجّد: ٣٧٠ / ٥٠١، وعدّه من آخر أدعية الصحيفة. ويدعى به بعد صلاتي الجمعة والأضحى.

أحرقوه وهدموه. فهم يريدون أن يقولوا للناس: لو كان لهذا البيت قدسيّة أو أهميّة عند الله لعاقبهم عليه إذ عمدوا إلى هدمه وحرقه، وبما أنه تعالى لم يعاقبهم عليه فإن هذا البيت ليس له شيء من القدسية.

وبهذا فإنهم أرادوا أن يشكّكوا الناس في قدسيّة هذا البيت الشريف، وضرورة حرمته ومراعاتها عبر انتهاكهم تلك لحرمة (١).

موقفهم من العترة الطاهرة (البذرة الثالثة)

وإنما جعلنا العترة مصدراً من مصادر الوحدة بين المسلمين؛ لأن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قد أشار في جملة من أحاديثه إلى هذا المعنى حيث قال من ضمن ما قال: «النجوم أمان لأهل السماء فإذا ذهبت النجوم أتى للسماء مايكرهون، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض فإذا ذهب أهل بيتي أتى أهل الأرض مايكرهون» (٢).

---

(١) يشار إلى أنهم قد قاموا بهدمه مرتين:
الأولى: حينما حاصروا عبد الله بن الزبير فيها، حيث سلّطوا عليها المنجنيق والأحجار وأحرقوها، ثم قتلوه وصلبوه داخل الكعبة حتى سالت الدماء فيها انظر: التاريخ الكبير ٣: ٤ / ١٢، وقد ضعّف السند، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥١ - ٢٥٢، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٨٥، تهذيب الكمال ٦: ٥٤٨ / ١٣٧٦، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٧٤، فتح الباري ٨: ٢٤٥، تهذيب التهذيب ٢: ١٨٧ / ٣٣٨، ١٠: ١٤١ / ٢٩٧، ١١: ٣١٦ / ٦٠٠، ينابيع المودّة ٣: ٣٦.
الثانية: حينما أعدّ الحجّاج جنده ورماها حتى هدم جدرانها. سنن ابن ماجة ١: ٦٢٣ / ١٩٣٦، الأخبار الطوال: ٣١٤، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٦٦، تاريخ الطبري ٥: ٣٠، تهذيب التهذيب ٢: ١٨٤ / ٣٨٨، ١٠: ١٤١ / ٢٩٧، الكامل في التاريخ ٢: ١٣٥ / ٣، البداية والنهاية ٨: ٣٦٣، سبل الهدى والرشاد (الشامي) ٦: ٢١٤.

(٢) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، المعجم الكبير ٧: ٢٢ ـ ٢٣، نوادر الأصول (الحكيم الترمذي) ٣: ٦٣، ٦٦ / الأصل: ٢٢٢، ينابيع المودّة ١: ٧٢ / ٤.

وقال صلى الله عليه وآله في أمهم الزهراء عليها السلام: «روحي التي بين جنبي».

تروي السيدة زينب عليها السلام بنت أمير المؤمنين عليه السلام فتقول: كان جدي صلى الله عليه وآله في بيت أم المؤمنين أم سلمة (رضي الله عنها) مضطجعاً على كساء حبري، وكانت قائمة تصلّي، فدخلت عليه أمّي فاطمة الزهراء عليها السلام تحمل له برمة فيها خزيرة، فقال صلى الله عليه وآله لها: «ادعي لي زوجك وابنيك». فجاء أبي أمير المؤمنين عليه السلام والحسن والحسين عليهما السلام فدخلوا، فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة، وهبط جبريل عليه السلام، وتلا على النبي الكريم صلى الله عليه وآله قوله الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[1]، فأخذ الرسول صلى الله عليه وآله طرفاً من الكساء الذي كان يضطجع فوقه، فغطى به أمّي فاطمة وأبي علياً وحسناً وحسيناً، ثم أخرج يديه فألوى بهما إلى السماء، ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً»[2].

فهؤلاء مصدر من مصادر الوحدة عند المسلمين وكما ضُرب المصدر الأول والمصدر الثاني فقد ضُرب المصدر الثالث؛ ذلك أن الأُمويين حاولوا تشكيك الناس بهذا المصدر، كما حاولوا تشكيكهم بقدسية الكتاب وقدسية الكعبة، وفعلاً عمدوا إلى القضاء على هذا المصدر بأن دبّروا واقعة الطفّ كي يضربوه كما ضربوا القرآن والكعبة.

إذن هناك تخطيط مسبق التحضير للأُمويين لضرب مصادر الوحدة

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) انظر حول حديث الكساء: الأمالي (الصدوق): ١٧٥ / ١٧٨، مسند أحمد ١: ٣٣١، ٣: ٢٥٩، ٢٨٥، ٤: ١٠٧، ٦: ٢٩٢، صحيح مسلم ٧: ١٣٠، جامع البيان، المجلد: ١٢، ج٢٢: ٤ / ٢١٧١١ وغيرها كثير، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣١ / ٣٢٥٩، معاني القرآن ٥: ٣٤٨ / ٤٥، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٠٨.

عند المسلمين. وهكذا ضربوا العترة، ولم يكتفوا بها بل إنهم تعدّوها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله في ضريحه [(١)]، لكن ضربتهم للعترة كانت ضربة موجعة؛ فلقد تركت أثراً كبيراً في نفس كلّ مسلم، فتحرّكت فيها اللوعة. وليس بمسلم من يتصوّر مصارع آل الرسول صلى الله عليه وآله ثم لا ينفعل لذلك المنظر أو لا يتفاعل معه، وهل تلك المصارع إلّا الخدّ الذي كان يتكئ عليه النبي صلى الله عليه وآله ويشبعه لثماً وتقبيلاً؟ إن هذا الخدّ قد جرى عليه يوم الطفّ ما لم يجرِ على أي بشر سواه.. لقد ترك على الرمضاء تحت حرّ الهجير، وأخذت منه الحجارة والسهام دوراً كبيراً، وتناوشته النبال والسيوف من كلّ جهة.

وفوق كلّ هذا جاءه حجر أبي الحتوف الجعفي (لعنه الله تعالى)، فوقع على تلك الجبهة التي كان يشبعها رسول الله صلى الله عليه وآله لثماً وتقبيلاً، فسقط عليه السلام على الأرض، وقد أخذه نزف الدماء، وجراحاته تشخب دماً عبيطاً، فرمق السماء بطرفه الشريف وقال: «صبراً على قضائك يارب، ياغياث المستغيثين، لا معبود سواك، لك العتبى يارب» [(٢)].

كلّ هذا وعائلة الإمام عليه السلام داخل المخيّم ترقّب رجوعه عليه السلام، وبينما هي في لحظة الانتظار وإذا بها تفاجأ برجوع الجواد خالياً يسحب عنانه على وجه الأرض، فخرجن وأحطن بذلك الجواد الذي كان دليلهن إلى مصرع الحسين عليه السلام، حيث خرجن إلى أرض المعركة بعد سقوط الإمام الحسين عليه السلام

---

(١) ومن هذا قول الحجّاج واليهم على الكوفة: إن المسلمين مخدوعون حينما يطوفون بقبر محمد صلى الله عليه وآله، وقد تحوّل صاحب القبر إلى عظام بالية، ألا يطوفون بقصر عبد الملك؟ انظر: الكامل في الأدب ١: ٢٢٢، وقال المبرد فيه: إن ذلك ممّا كفّرت به الفقهاء الحجّاج، شرح نهج البلاغة ١٥: ٢٤٢.

(٢) ينابيع المودّة ٣: ٨٢.

قتيلاً عند حلول الظلام، ذلك أنه عليه السلام كان قد طلب من أُخته الحوراء زينب ألّا تعرّضه عليه السلام وتعرّض نفسها إلى مثل هذا الموقف قبل مصرعه، وقد أوصاها عليها السلام قائلاً: «أُخيّة تعزّي بعزاء الله، لا يذهبن بحلمك الشيطان. اعلمي أن أهل السماء لا يبقون، وأهل الأرض يموتون، ولي ولكلّ مسلم برسول الله صلى الله عليه وآله أُسوة حسنة. أُخيّة تمسّكي بحبائل الصبر»[1].

فهو عليه السلام يريد أن يقول لها: إن البكاء ما زال أمامك، فلا تدعيني ألمح في عينيك دمعة. وفعلاً فبعد أن جنّها الليل خرجت إلى ذلك الجسد المسجّى وهي باكية ولسان حالها:

مــــظلومة مــــقهورة مــضروبة ... مسـلوبة حتى الخمار وبـرقعي

أأخــي مـا عـوّدتني مـنك الجفا ... فعلامَ تـجفوني وتـجفو من مـعي

أنـعِم جـواباً يـا حسـينُ أمَا تـرى ... شمرَ الخَنا بالسوط ألهبَ أضلُعي

* * *

يــخويه الشــمر واللــه هـضمني ... ضــربني عـلى مـتوني وشـتمني

لا انـكســر گـلبـه ولا رحـمـنــي

* * *

إلى الحول ثم اسم السلام عـليكما ... ومن يبكِ حولاً كاملاً فقد اعتذرْ[2]

ثم جلست وأخذت من تراب القبر وشمّته، وراحت تشكو آلامها لأخيها:

(١) الارشاد ٢: ٩٤، تاريخ الطبري ٤: ٣١٩، البداية والنهاية ٨: ١٩٢.

(٢) البيت للبيد. مناقب آل أبي طالب ٣: ١٩٣، الإصابة ١: ٣٥٥ / ٤٨٨، تاريخ مدينة دمشق ٦٩: ١٢٠.

خوية اجينه وعلى كبرك كعدنه ونخيناك يا عزنه وضمدنه
هذه المحامل كوم ردنه لعند المدينة مقام جدنه

فما أقامت إلّا ثلاثة أيام هناك؛ ذلك أن الإمام السجاد عليه السلام قال لها: «عمة قومي». قالت: إلى أين؟ قال: «إلى المدينة». قالت: ومن ذا بقي لي في المدينة حتى أعود إليها؟

أيها الراغب في تغليسة بأمون قط لم تشكُ الكلالا[1]
اقتعدها وأقم من صدرها حيث وفد البيت يُلقون الرحالا
وإذا أندية الحيّ بدت تشعر الهيبة حشداً واحتفالا
قف على البطحاء واهتف ببني شيبة الحمد وقل قوموا عجالى
طحنت أبناء حرب هامكم برحى حرب لها كانوا ثمالا
وَطِئت آنافكم في كربلا وطأة دكت على السهل الجبالا[2]

(١) الأمون: الناقة الشديدة، وهي العُذافرة. العين ٢: ٣٤٤ ـ عذفر.
(٢) ديوان السيد حيدر الحلّي ٢: ١٠٠.



﴿٢٩﴾

الجوانب التصحيحيّة في النهضة الحسينية

أنست رزيّـــتكم رزايـــانا الّـــتي	ســـلفت وهـــوّنت الرزايـــا الآتـــية
وفـــجائعُ الأيّـــامِ تـــبقى مـــدّة	وتزول وهي إلى القيامةِ بـاقية[1]

المباحث العامّة للموضوع

المبحث الأوّل: استنباط العبر من السنن التاريخيّة

في تاريخ كل أُمة أحداث بطبيعة الحال تعدّ أحد الأنماط التي تحدّد مسيرتها. وحينما نتناول التاريخ الإنساني فإننا نجد أن هناك أحداثاً في تاريخ كل أُمة من الأُمم، وهذه الأحداث منها ما يدخل في مظاهر الخير ومنها ما يدخل في مظاهر الشرّ. والأُمة الواعية هي التي توظّف الحدث توظيفاً كاملاً للاستفادة منه في استنباط العبر ودراسة السنن. إن البعض من الأُمم إذا مرّت بها مصيبة فإنها تتحوّل إلى أُمّة نـائحة، وتـبقى تـجترّ المصيبة وتعتصر الدمع، في حين أن هناك أُمّة لا تأخذ الجانب المأساوي من المصيبة، بل إنها توظّف الحدث وتستثمره على الصعيد الاجتماعي

---

(١) الدرّ النضيد: ٣٥٧.

فنأخذ منه الدروس والعظات. ولو درسنا التاريخ الفرنسي أو الإنكليزي أو الأميركي لوجدنا أنه تاريخ مليء بالحروب والأحداث التي يمكن للدارس أن يخرج منها بحصيلة ضخمة من الدروس والعبر التي يمكن أن يوظّفها للاستفادة منها على مستوى الأُمة ككل.

وهذا الأمر ينطبق أيضاً على واقعة الطفّ، حيث إنها - شأنها شأن كلّ واقعة تحصل في تاريخ الإنسانية - تعتبر إحدى الوقائع التي هزّت الإنسانيّة والمجتمع الإسلامي هزّاً عنيفاً، وهي بهذا تختلف عن بقية الوقائع؛ لما ارتُكب فيها من بشاعات وفظاعات. وقد تركت هذه الواقعة بصمات واضحة على المجتمع الإسلامي لازالت آثارها موجودة إلى الآن، حيث يمكن مشاهدتها بوضوح.

والدليل على هذا أن الأدب قد توجّه بكل عناصره ومشاعر أصحابه إليها، والأدب عادة لا يتوجّه إلى فكرة عابرة، ولا يستمدّ منها صوَره أو عناصره، بل إنه يتوجّه إلى الفكرة المعمّقة:

وفجائعُ الأيامِ تبقى مدّة وتزول وهي إلى القيامةِ باقية

فهذه ليست كلمة عابرة، وإنما هي كلمة تنطوي على معاناة كبيرة يحاول الأدب أن يبرزها على ساحته.

الانطباعات التي تركتها واقعة الطفّ

والواقع أن هذه الحادثة الأليمة التي مرّ بها تاريخ المسلمين قد تركت آثارها وانطباعاتها على جوانب متنوّعة منه؛ ممّا انعكس على حياته وطريقة تفكيره. وسنحاول أن نستفيد منها من خلال محاضرتنا هذه.

ونذكر من هذه الجوانب الانطباعات التالية :

الانطباع الأوّل : أنها أوجدت تياراً ثورياً في الأمة

إن هذه الواقعة المباركة قد أوجدت تياراً ثورياً في الأُمـة الإسـلامية يدور حول مسألة الثأر للدين ولكرامته. وكلّ أُمّة من الأُمم حينما تتعرّض لهزة أو أزمة فإنها تقف بين أحـد طـريقين: الصبر والسكوت؛ حفظاً لمصلحة المجتمع ، أو الجهاد في سبيل الله وسبيل الدين. وهذه الواقعة تبرعمت وأخذت صوراً عنيفة جداً، ويعود ذلك لأُسباب عديدة نذكر منها :

الشعور بالإثم ودوافعه

فالأُمة التي شهدت مقتل الحسين عليه السلام وأصحابه وسبي عياله وهتك حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله ، ووقفت مكتوفة الأيدي دون أن تتدخّل للوقوف بوجه البغي ولنصرته مع ما تعرّض له عليه السلام من ظلم وقتل؛ سواء كان بدافع الجبن أو بدافع التخاذل أو تحت ضغط عوامل قاهرة أقوى منها، فإنها ستشعر بعد ذلك بشيء من الندم والألم وتأنيب الضمير. فالضمير عندما يصحو ويثور على صاحبه فإنه يأخذ بتعنيفه وإلقاء اللوم عليه لأنه لم يجاهد في سبيل اللّه ، ولم يؤدِّ ما يفترضه عليه دينه ورسالته ، ولم يقف الموقف الذي يريده الإسلام منه ويرضاه له. فهذا التوبيخ الذي يقع تحته الإنسان يدفعه إلى التحرّك؛ مهما كانت دوافعه التي قد تكون ناشئة عن مظاهر فكرية ، أو مظاهر ممارسة وتطبيق من قبيل حركة التوّابين مثلاً.

الدوافع الفكرية، موقف الحسن البصري نموذجاً

أما المظاهر الفكرية فمن قبيل ما نجده من خلاف فكري قد تبرعم بين

مذاهب المسلمين، وقد حاول الأُمويون بشتّىٰ الوسائل تطويق هذا اللون من الفكر الذي يبنىٰ عليه رفض الظلم والثورة عليه، وامتصاص جذوته عن طريق توظيف رجال منهم - رجال العلم التابعين للبلاط - لمحاربته. وذلك كالحسن البصري الذي كان يعد سيّد التابعين كما منحه التاريخ هذا اللقب، والحال أنه لم يكن سوىٰ رجل من المقاتلين في جيوش الأُمويين، ثم وُظّف كقاضٍ، ثم بعد ذلك ترك تلك الوظائف وأصبح في عداد العامّة.

وكان هذا الرجل من جملة من وُظّفوا لمعالجة هذا الأُمر، فقد وقف ينادي من على منبره بعدم مقارعة الظلم، ويدعو الناس إلى الامتناع عن التحرّك وإلى طاعة السلاطين، ثم راح يبرّر هذا الموقف ويبرهن عليه بأن مسألة مقارعة الظلم تخلق مشكلة في المجتمع وتفرز نتائج يكون مردودها أشدّ وأكبر من الظلم نفسه، وعليه فيجب أن تترك مقارعة الظلم مطلقاً. وقد راح يلحّ على هذه الفكرة إلحاحاً شديداً إلى درجة أن أحد الكتّاب كان يقول عنه: إن هذا الرجل قد جنى جناية كبيرة على تاريخ الإسلام بإبطاله معنى الجهاد في نفوس المسلمين، وقضائه على روح التوثّب والتمرّد الذي كان عند أبناء الأُمة الإسلامية، والحال أن الإسلام لم يصل إلى هذه النتيجة إلا بالجهاد والروح المتوثّب وتجسيد كلمة الله.

لقد كان النبي صلى الله عليه وآله يستعرض المسلمين قبل أن يذهبوا إلى الجهاد لكي يرى المقاتلين هل أنهم صالحون للجهاد أم لا، فيأتي صبي ويقف على مرتفع ويتطاول لكي يراه النبي صلى الله عليه وآله كبيراً فلا يمنعه من الجهاد[1].

---

(١) ومثلها قصّة حنظلة غسيل الملائكة الذي نزل فيه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا ٱسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ

إن هذه الحالة لم تأتِ من فراغ، وإنما جاءت بتوجيه مقصود؛ لأن المفروض في مثل هذه الحالة أن هذا الصبي لازال في مقتبل الحياة، وهو مقبل على دنيا واسعة جميلة في عينه، فالنتيجة يجب أن تكون بناء على هذا التصوّر أن يتخلف هذا الصبي عن الجهاد وإن دُفع إليه، لا أن يتطاول كي يبدو كبيراً وبالتالي يسمح له رسول الله صلى الله عليه وآله بالذهاب إلى الجهاد. فهذا هو التصوّر الأوّلي للمسألة، لكن هذا الصبي لما كان مقتنعاً بمسألة الجهاد وأنها كانت تمثل شيئاً مبدئياً له، فقد انعكس هذا الفهم والاعتقاد على سلوكه فصار بهذا الوضع من العزم والحزم، وبهذا اللون من الإيثار بالنفس الذي خلقه الإسلام للجهاد في سبيل الله والوقوف في وجه الظلم ولإعلاء كلمة الله. أما أن يأتي شخص فيحاول أن ينتزع هذا الروح من جسم الأُمة الإسلامية فهذا يعدّ كارثة كبيرة، وسهماً يضرب في مقتل. والأدهى من ذلك أن هذا الأمر قد أُلبس ثوباً دينياً، فاختلقت له

لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ النور: ٦٢ إلىٰ آخره.

وسبب نزولها فيه أنّه كان قد عقد له على ابنة خاله جميلة بنت عبد اللّه بن أُبيّ، وأراد أن يبني بها فلمّا كانت الليلة الّتي وقع في صبيحتها القتال في أُحد، استأذن من رسول اللّه صلى الله عليه وآله أن يدخل المدينة؛ ليبني بزوجته. فأنزل اللّه علىٰ نبيّه صلى الله عليه وآله هذه الآية الكريمة. وعلىٰ إثر نزولها أذِن له رسول اللّه صلى الله عليه وآله واستغفر له.

فدخل المدينة، وبنى بابنة خاله، فلما حضر وقت صلاة الفجر صلّاها فتعرّضت له زوجته، فنال منها، ثمّ قام؛ ليغتسل، فسمع المنادي ينادي بالخروج إلى أُحد، فعجّل عن الغسل وخرج، فتبعته وأشهدت عليه أربعة من مارّة الطريق بأنه قد بنىٰ بها البارحة.

ولما سئلت: لم فعلتِ ذلك؟ قالت: إني رأيت في نومي كأن السماء قد انفرجت، وكأنه قد رفع إليها فانضمّت عليه، فعلمت أنها الشهادة، وقد كرهتُ أن أُتّهَمَ فعملت ذلك. ثم حملت من تلك الليلة بعبد اللّه بن حنظلة الّذي بايعه أهل المدينة، وخلعوا يزيد بن معاوية، فكانت بسبب ذلك واقعة الحرّة الّتي قتل فيها هو وأولاده الثمانية، وأُبيحت بسببها المدينة ثلاثة أيام. انظر: تفسير القمّي ١: ١١٨، بحار الأنوار ٢٠: ٥٧.

الأحاديث واخترقت له الروايات التي اخترعوها ثم نسبوها إلى صاحب الشريعة صلى الله عليه وآله. وقضيّة اختلاق الأحاديث هي من أشدّ الكوارث التي منيت بها الأمة الإسلامية، وكمثال على هذا أنقل لك ما رواه الدميري في كتابه (حياة الحيوان) حيث يقول: حينما توفي عمر بن عبد العزيز ـ هذا الرجل المستقيم في سلوكه، والذي كان موضع رضا من كثير من المسلمين، وكان نموذجاً مشرّفاً ـ جاء من بعده يزيد بن عبد الملك، فسار بسيرة عمر بن عبد العزيز أربعين يوماً ومشى على خطّه الذي اختطه وسار بعين اتّجاهه، فكان يكره الظلم والباطل ويعيد للناس حقوقهم، وكان يتّصف بروح مملوءة بالرأفة بالمجتمع. فلما رآه بعض الأمويّين على هذه الحال، اتّفقوا على أن يأتوه بأربعين شيخاً من شيوخ دمشق يشهدون عنده ويحلفون بالله له أن الخليفة إذا عمل عملاً حسناً أثيب عليه وإذا عمل عملاً سيّئاً لا يعاقب عليه، واخترعوا له حديثاً عن النبي صلى الله عليه وآله في هذا المعنى، فترك ما كان عليه من صلاح، وجانب سيرة عمر بن عبد العزيز، وانغمس في العبث واللهو واللذائذ والفجور والمجون[١].

إن هذا اللون من الأحاديث أخذ طابعاً متكاملاً يعضد بعضه بعضاً، وربما تستغرب أن بعض هذه الأحاديث لازال يعيش معنا إلى الآن، ومنها القول المنسوب لرسول الله صلى الله عليه وآله: «صلّوا خلف كلّ برّ وفاجر».

وهذا الحديث مروي في كتب معتبرة عندهم، ومنها (السنن الكبرى)[٢] للبيهقي، وهو يرويه بطرق كلها واهية ليس فيها سند

---

(١) حياة الحيوان ١: ١٠١.

(٢) السنن الكبرى ٤: ١٩، عن مكحول عن أبي هريرة، وتمامه: «وصلّوا على كلّ برّ وفاجر، وجاهدوا مع كلّ برّ وفاجر». قال: قال علي: مكحول لم يسمع من أبي هريرة... وقال الشيخ:

صحيح[1]؛ فالذي عنده دراية في كتب الرواية يجد أن الأسناد التي ذكرها البيهقي كلها أسناد واهية وليست قوية. وفضلاً عن هذا فإن هذا الحديث يتعارض ويصطدم مع حديث نبوي آخر، وهو الحديث الذي يقول: «اجعلوا أيمّتكم خياركم؛ فإنهم وفدكم فيما بينكم وبين الله عز وجل»[2].

وهذا طبيعي؛ لأن الإنسان حينما يريد أن يأتمّ بشخص، فلا بدّ أن يبحث عن هذا الإمام ويحقّق في صفاته، كي يميز الفاسق ليبتعد عنه من العادل فيتّبعه، وإلّا فكيف يصحّ له أن يأتمّ بالفاسق؟

إن هذا الحديث قد اخترع؛ لأنه يتمّم ما سبقه من أحاديث موضوعة كلّها تصبّ في مصبّ واحد هو التستّر على أعمال هؤلاء الحكّام الفجرة الذين أُتيح لهم أن يقودوا المجتمع.

قد روي في الصلاة على كلّ برّ وفاجر، والصلاة على من قال: «لا إله إلّا الله» أحاديث كلّها ضعيفة غاية الضعف، وأصحّ ما روي في هذا الباب حديث مكحول عن أبي هريرة، أي حديث المتن. ولا ندري كيف يكون أصحّ ما روي في هذا الباب، وراويه لم يروِ عن أبي هريرة. ولم يسمع منه!

(١) انظر: سنن الدار قطني ٢: ٤٤، قال الدارقطني: مكحول لم يسمع من أبي هريرة.
نصب الراية ٢: ٣٣، ونقل عبارة البيهقي، ثم قال: ومن طريق الدار قطني رواه ابن الجوزي في (العلل المتناهية)، وأعلّه بمعاوية بن صالح مع ما فيه من الانقطاع... والحديث رواه أبو داود في سننه في كتاب الجهاد [١: ١٤٣ / ٥٩٤]، وضعّفه بأن مكحولاً لم يسمع من أبي هريرة.
ومن طريق أبي داود رواه البيهقي في (المعرفة)، وقال: إسناده صحيح إلا إن فيه انقطاعاً بين مكحول وأبي هريرة... ومن طريق الدار قطني رواه ابن الجوزي في (العلل) وأعلّه بعبد الله، قال أبو حاتم: متروك الحديث، وقال ابن حبّان: لا يحلّ كتب حديثه.
وقال ابن الجوزي: وسئل أحمد عن حديث «صلّوا خلف كلّ برّ وفاجر»، فقال: ما سمعنا به. نصب الراية ٢: ٣٤.

(٢) سنن الدار قطني ٢: ٧٤، الجامع الصغير ١: ٣٤ / ١٨٦، كنز العمّال ٧: ٥٩٦ / ٢٠٤٣٢.

فكيف يستقيم أمر التستّر على أعمال هؤلاء مع أنه يصطدم مع ما يقوله رسول الله(ص) : «اجعلوا أيمّتكم خياركم؛ فإنهم وفدكم فيما بينكم وبين الله عز وجل»؟ وهل يصحّ التستّر على مثل الوليد الذي يغطس في بركة من الخمر، ثم يخرج ثمِلاً يترنّح، ويتوجّه إلى الصلاة، ويصلّي بالمسلمين جماعة ثم يرفع يديه وينشد شعراً في قنوته فيقول:

علق القلبُ الربابا بعدما شابت وشابا

ومن ثم يتقيّأ في محرابه؟[١]

والغريب أن صلاة هذا من وجهة نظر طائفة كبيرة من المسلمين صحيحة ومقبولة، بل حتى صلاة المصلّين خلفه؛ لأنهم يدّعون أنه(ص) قال: «صلّوا خلف كلّ برّ وفاجر».

وهذا يعدّ نكسة في تاريخ الإسلام، فالإسلام ليس مجموعة من المواعظ البلهاء، وإنما هو هديّة السماء لأهل الأرض؛ لأجل بناء الإنسان بناء طاهراً، وبناء المجتمع بناء متكاملاً. ولا يمكن للإسلام أن يتاجر في عقيدة الإنسان ويحوّلها إلى تصوّر أبله، فيصحّح عمل هذا المستهتر الماجن. إن مثل هؤلاء الذين يخترعون الأحاديث عن النبي(ص) موجودون في كلّ طبقة، ولا يكاد يخلو منهم عصر من العصور أبداً، ففي

(١) وكان قد صلّى بهم أربعاً ثم التفت إلى الناس، وقال: أزيدكم؟ فقال له ابن مسعود: ما زلنا معك في زيادة منذ اليوم. وقال الحطيئة في ذلك:

شهد الحُطيئة يوم يلقى ربّه أن الوليد أحقُّ بالغدرِ
نادى وقد تمّت صلاتهم أأزيدكم ثملاً وما يدري
ليزيدهم أُخرى ولو قبلوا لقرنت بين الشفع والوتر
حبسوا عنانك في الصلاة ولو خلّوا عنانك لم تزل تجري

مسند أحمد ١: ٨٢، ١٤٠، مروج الذهب ٢: ٢٤٤ ـ ٢٤٦، شرح نهج البلاغة ١٧: ٢٣٠.

كل عصر نجد هناك طبقة ليس لها وازع من دينها، أو مانع يمنعها من أن تفتري الكذب على الله ورسوله صلى الله عليه وآله، أو تتاجر بدينها وعواطفها، أو قد تتملّق صاحب الحكم والسلطان.

روي أن أبا جعفر المنصور الدوانيقي كان له بقايا حساب مع الأُمويّين، فكان يلاحقهم في كلّ مكان، ومن جملة هؤلاء الملاحقين شيخ من أهل الشام كان بطانة لهشام ونديماً له، فوجّه إليه وأحضره عنده، ثم سأله عن تدبّر هشام في بعض حروبه للخوارج، وقال له: إني أُريد أن أستفيد من تجارب هشام هذا. فوصف له الشيخ ما دبّر هشام في حربهم، فكان يقول: فعل هشام (رحمه الله) كذا، وصنع (رحمه الله) كذا، وقام (رحمه الله)، وجلس (رحمه الله). فقال له المنصور: يابن اللخناء، قم عليك لعنة الله؛ تطأ بساطي وتترحّم على عدوي؟ فقال الرجل: إن نعمة عدوّك لقلادة في عنقي لا ينزعها إلّا غاسلي.

ثم ناداه المنصور وقال له: ارجع يا شيخ. فرجع فقال له: أشهد أنك نهيض حرّ وغراس شريف، عد إلى حديثك لله أنت، فلو لم يكن لقومك غيرك كنت قد أبقيت لهم مجداً مخلّداً وذكراً باقياً[1].

فالمنصور بهذا كأنه يقول له: إن بإمكانك أن تنافقني ولا تصدق معي في الحديث، لكنك آثرت أن تكون صريحاً وفيّاً، وهكذا فلتكن الرجال.

فهؤلاء الذين يخترعون أحاديث مكذوبة لولاة السوء هم في واقع الحال إنما يغشونهم: «نصحك من أسخطك بالحقّ، وغشّك من أرضاك بالباطل»[2].

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ٦٨: ٢٠٩. المستطرف في كل فن مستظرف ١: ٤٣٩.

(٢) قطعة من خطبة لشدّاد بن أوس بن ثابت الأنصاري حينما طلب منه معاوية أن يذكر الإمام

وبعد هذا الاستطراد أقول: إن من جملة الأشياء التي تركتها واقعة الطفّ في الأُمّة الإسلاميّة هو هذا النوع من الصراع الذي جاء الحسن البصري فتبنّاه كمدرسة وعمّقه؛ ولذلك فإن التاريخ واظب على منحه ألقاباً كثيرة؛ لأنه كان موضع رضاهم، وذلك من قبيل أنه من سادات التابعين وأنه واعظ.

وهذا الرجل إذا أُخضع للتمحيص والتحقيق فإنه لا يبين منه حينها سوى إنسان مزيّف.

وأنا لا أستغرب هذا، وإنما أستغرب من إنسان عملاق كابن عربي هذا الرجل الجليل القدر وهو فيلسوف كبير إضافة إلى ذلك وصاحب فكر، ومع ذلك نجد عنده نظرية تعدّ أخطر من كلّ تلك النظريات؛ فهو يرى أن الاعتراض على الظالم هو اعتراض على اللّه، فهو يقول: إن ولاية السلطان هي تجسيد لولاية الله.

وهذه النظرية ـ أن السلطان ظلّ الله في الأرض ـ قد تبنّاها العثمانيون في سياستهم. وهذا هو التاريخ المزيف (لعن اللـه تاريخهم).. التاريخ الذي ترك انطباعات سيئة السمعة على جسد الأُمة الإسلامية والأُمة العربية بالذات، هذا التاريخ الذي اخترعوا له ألقاباً من قبيل الخاقان ابن الخاقان، والسلطان ابن السلطان، والأكشم الأعلم والجناب الأعظم، والأعظم الأجل، وظل الله في أرضه. إن هذه الألقاب الطويلة العريضة

عليّاً عليه السلام ويعيبه. ومنها: وإن الله إذا أراد بالعباد خيراً عمل عليهم صلحاءهم، وقضى بينهم فقهاءهم، وجعل المال في أسخيائهم، وإذا أراد بهم شرّاً عمل عليهم سفهاءهم، وقضى بينهم جهلاءهم، وجعل المال عند بخلائهم. وإن من صلاح الولاة أن يصلح قرناؤها. أمالي المفيد: ٩٦ / ٥، شرح نهج البلاغة ١٨: ٢٣٩.

هي في واقع الأمر تصوّر الحاكم على أنه صاحب إرادة متحدّرة من إرادة الله وذات امتياز منها.

والحال أن نظرية الإسلام أصرح من هذا بكثير، فهي تنصّ على أن الخليفة إنما هو ممثّل للجمهور؛ إذا أحسن وجبت طاعته، وإذا أساء وُقف بوجهه. ارتقى الخليفة الأول المنبر ذات مرّة فقال: «إن استقمت فأعينوني، وإن زِغت فقوّموني»[(١)].

وكان الصحابة كلهم يسمعون الإمام علياً عليه السلام وهو يقول من على منبره حينما سئل عن بيع أمّهات الأولاد فقال عليه السلام: «كان رأيي ورأي عمر ألّا يُبعن، ثم رأيت بيعهن». فقال له عبيدة السلماني: رأيك مع الجماعة أحبّ إليّ من رأيك وحدك[(٢)]. فلم يجبه عليه السلام، ولم يعنّفه، بل إنه عليه السلام احترم رأيه؛ لأنه يعتبر نفسه الشخص الذي يمثّل المجموع. وعليه فإذا أحسن تمثيلهم فقد وجبت طاعته.

---

(١) المصنّف (الصنعاني) ١١: ٣٣٦ / ٢٠٧٠١، المعجم الأوسط ٨: ٢٦٧. وطرفه: أما والله ما أنا بخيّركم... وإن لي شيطاناً يعتريني، فإذا غضبت فاجتنبوني.

(٢) بدائع الصنائع ٤: ١٣٠، الإحكام في أُصول الأحكام ١: ٢٥٤، ٢٥٨، ٤: ٤٣، شرح نهج البلاغة ٧: ٧٢.

قال أبو بكر الكاشاني: على أنه ـ أمير المؤمنين عليه السلام ـ كان لا يرى استقرار الإجماع ما لم ينقرض العصر. ومنهم من قال: كانت المسألة مختلفة بين الصحابة (رضي الله عنهم) فكان علي وجابر (رضي الله عنهما) يريان بيع أُم الولد.

هذه هي الرواية في مصادر أهل السنّة، وهذه هي تعليقة أبي بكر الكاشاني، مع أن رواياتنا وفقهنا صريحان في النصّ على أن أُم الولد تعتق من نصيب ابنها. انظر: الفقيه ٤: ١٦٢ / ٥٠٩، وسائل الشيعة ١١: ٥٣، المختصر النافع: ١٦٤، كشف الرموز (الفاضل الآبي) ٢: ٧٥، قواعد الأحكام ٣: ٢٣١، ٢٥٦، إيضاح الفوائد ٣: ٥٦٩، المهذب البارع ٣: ١٠٩، مسالك الأفهام ١٣: ٥٢١.

واقعة الطف بصمات إيجابيّة في تاريخنا

فواقعة الطفّ في الواقع هي حدث ضخم في تاريخنا، وقد تركت بصمات نبيلة في مختلف الأبعاد، ومن جملة هذه البصمات أنها تركت لنا هاتين المدرستين. وعندما نقرأ كتب العقائد مثل كتاب (المواقف) للأيجي، أو كتاب (إحياء علوم الدين) للغزالي ـ وهما من ضمن مجموعة من الكتب ذات الطابع العقيدي ـ فإننا نرى أنهما يتناولان مسألة حساسة؛ فيمثّلان تيّارين متميّزين يمشيان جنباً إلى جنب، وكلّ هذا انعكاس لواقعة الطف.

أما أن يأتي أحد فيعلم الإمام الحسين عليه السلام تكليفه الشرعي ـ وكأنه عليه السلام غير عارف بتكليفه، ولم يعش في حجر النبي صلى الله عليه وآله، ولم يترعرع في مدرسته العظيمة، وكأنه أيضاً لم يكن الامتداد الطبيعي له صلى الله عليه وآله ـ فيأتي هذا ليعلمه الصواب من الخطأ في مسألة خروجه عليه السلام، فهذا بالطبع لا يستحق إلّا أن يوصف بأنه تفكير أبله؛ ذلك أن النبي صلى الله عليه وآله يقول: «الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا»[1]. وهذا ما يجب أن نتعبّد به، لأنه من أمر رسول الله صلى الله عليه وآله. وهكذا فإنه صلى الله عليه وآله قد وصفهما وبين حقيقتهما للناس. وكان الناس على علم بيّن بهذا، ووصفه صلى الله عليه وآله لهما بهذا يكشف عن أنهما يعرفان تكليفهما الشرعي معرفة غاية في الدقّة.

الانطباع الثاني: أنها إحياء لدستور الله تعالى

وهذا الانطباع قد خلف مصيبة كبرى فالرسول صلى الله عليه وآله حينما نزل عليه جبرئيل بالقرآن الكريم فهو إنما كان يحمل دستور أُمة، والدستور لا

---

(١) دعائم الإسلام ١: ٣٧، علل الشرائع ١: ٢١١، الإرشاد ٢: ٣٠.

يمكن أن يعطى لأي كان، بل لا بدّ من أن تكون هنالك طبقة خاصّة تستطيع أن ترى أبعاده الحقيقيّة، وأن تفسّره بالشكل الصحيح. وهذا أمر طبيعي وقانوني، ففي الأُمم المتحضّرة عندما يُراد أن يُجرى تعديل على الدستور فإنه يُدفع إلى لجنة مختصة من فقهاء القانون ليقوموا بإجراء التعديل اللازم عليه؛ لأنهم أعلم بمراده ودواخله. والقرآن الكريم بما أنه دستور إلهي لأُمة يراد لها أن تحكم بما أنزل اللّه، فإن الله تعالى قد بعث معه من يجسّده ويطبّق تعاليمه، وهؤلاء هم الراسخون في العلم الذين يشرحون أحكامه ونظرياته: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1].

فمن هم أهل الذكر؟ هم الذين قال فيهم الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بين جموع المسلمين: «إني مخلّف فيكم الثقلين: كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً. ولقد نبّأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»[2].

وهذا الحديث مروي عند جمهور المسلمين جميعاً، وأنا لا أهتم لما يروجه البعض إزاء هذا الحديث فيرويه: «كتاب اللّه وسنتي»[3]، وإن كان في واقع الأمر جناية على التاريخ والأجيال. إن حامل التاريخ يجب أن يكون أميناً، وأن يقدم للأُمّة الأثر الصحيح، لا المفتعل والمختلق. فجمهور المسلمين ينصّون عليه: «كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً».

---

(١) النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧.

(٢) ورد هذا الحديث بصيغ كثيرة وطرق أكثر، انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، وغيرها.

(٣) سنن الدار قطني ٤: ١٦٠، الجامع الصغير ١: ٥٠٥ / ٣٢٨١.

المبحث الثاني: الجناية على العترة (عليهم السلام) جناية على القرآن

وفي تصوّري أن الجناية على العترة الطاهرة (عليهم السلام) هي جناية على كتاب الله؛ لأن الجناية على الفقيه القانوني الذي يعرف النصّ القانوني وخفايا الدستور هي جناية على الدستور نفسه. هذا من جهة ومن جهة أُخرى إن حملة القرآن هؤلاء هم ليسوا كمن حملوه متأخّرين؛ فحملة القرآن الكريم هم الذين نزل الوحي في بيوتهم، وكان يقرع أسماعهم. ومعنى هذا أن جبرئيل (عليه السلام) حينما كان يهبط على النبي (صلى الله عليه وآله) فإنه كان يهبط في محراب فيه رسول الله (صلى الله عليه وآله) والحسين (عليه السلام) وقد ارتحله. يروي المسلمون جميعاً أن النبي (صلى الله عليه وآله) أطال السجود مرّة فقال له الصحابة: نراك أطلت السجود، فهل هبط عليك الوحي؟ قال (صلى الله عليه وآله): «لا، وإنما ولدي ارتحلني، فكرهت أن أُعجّله»[1].

فكان (صلى الله عليه وآله) غالباً ينتهي من المحراب والحسنان (عليهما السلام) إلى جانبه، فيهبط الوحي يقرع أسماعهم. كان الإمام الحسن (عليه السلام) يطوف حول الكعبة ذات مرّة فوقف له رجل شاميّ مخدوع، فشتمه، وقال له: كان الأولى بمعاوية أن يلحقك بأبيك ولا يدعك تطوف حول الكعبة كما يدور [...] في الطاحون. فقال له الإمام: «على رسلك: أنا آخذ بيدك إلى بيتنا لأريك زغب جناح جبرئيل»[2].

---

(١) مسند أحمد ٣: ٤٩٤، ٦: ٧٦٤، السنن الكبرى (النسائي) ١: ٢٤٣ / ٧٢٧ تاريخ مدينة دمشق ٣١: ٢١٥، ٤١: ١٦٠، أسد الغابة ٢: ٣٨٩، تهذيب الكمال ٦: ٤٠٢، تهذيب التهذيب ٢: ٢٩٩.

(٢) لم نعثر عليه، لكن ورد أن للحسن والحسين (عليهما السلام) تعويذين حشوهما من زغب جناح جبرئيل. انظر مناقب آل أبي طالب ٣: ١٦٢، بحار الأنوار ٤٣: ٢٦٣ / ٩، ترجمة الإمام

وهذا هو الخلق الإسلامي؛ ولذلك حينما دخل أحد الأدباء بيت النبي صلى الله عليه وآله راح يخاطبه:

وعفَّرتُ خدّي في ثرىً مسَّ عفرَهُ	لجبريل من جنحيه ريشٌ مُزغَبُ
وفيه محاريبٌ لآل محمدٍ	بهنَّ ضراعاتٌ إلى الله تُنصَبُ
وآثارُ أقدامٍ صغارٍ ومهجعٌ	إلى الحسنين الزاكيين وملعبُ
وصوتُ رحى الزَّهراء تطحنُ قوتَها	إلى جلدِ كبشٍ حيثُ تجلس زينبُ
رؤىً سوف يبقى الدَّهرُ يروي جلالَها	وتبقى على رغم البساطة تأشبُ[1]

فالواقع أن هؤلاء من هذا المنبع وهذا المعدن النقي، ولذا كان قتلهم قتلاً للقرآن الكريم وذبحهم ذبحاً له وقضاءً على الفكر الإسلامي وعلى الروح الإسلامي الذي أرادته السماء لأهل الأرض. وهذه الوقائع السلبية التي تقترن بتاريخ الواقعة هي وقائع كثيرة، ودورنا نحن هو أن نفكر كيف نوظف هذا الحدث الضخم في تاريخ المسلمين لخدمة المسلمين، فيجب ألا نأخذ منه الجانب السلبي وإنما ينبغي أن يوظف توظيفاً كاملاً لخدمة الإسلام، وأن نؤكد لهذه الأمة أن أُمة محمد صلى الله عليه وآله هي أمة حية لن تموت مادام فيها روح كروح الحسين عليه السلام؛ لأن النبي صلى الله عليه وآله والقرآن الكريم قد ادّخرا هذه الروح لتبقى حياة دائمة مستمرة في جسم الأُمة.

وقد يسأل سائل فيقول: ما معنى قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾[2]؟ فيجاب بأن هذا الذي يقتل وينزف دمه وتفارق روحه بدنه هو في حقيقة الحال ليس ميتاً على أساس الروح

الحسن عليه السلام (ابن عساكر): ١١٣، ١١٤. ترجمة الإمام الحسين عليه السلام (ابن عساكر): ١٩٢.

(١) ديوان المحاضر ١: ١٥. (٢) البقرة: ١٥٤.

وإن كان ميتاً على أساس الجسد؛ لأنه يبقى يعيش في مشاعر المسلمين وفي أرواحهم وفي قلوبهم. فهذا روح حية ودم يتنزّى لن يموت بل إنه سيعيش خالداً على صعيد النفس.

فالقرآن إذن ادّخر هؤلاء ليكونوا مداد الحياة للأمة، يقول أحد الأدباء:

الترابُ الجديبُ ما اخضرّ لو لم	يــتصدَّ له السحاب الهطولُ
وصدى كلّ هادرٍ وبليغٍ	ليس مثلَ الجراحِ حين تقولُ
قد يموت الرسولُ جسماً ولكن	بالرسالاتِ لن يموتَ الرسولُ[1]

وإلّا ففي الواقع أنه حتى النبي صلى الله عليه وآله يموت، فالقرآن الكريم يخاطبه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾[2]، لكنه موت الجسد وليس موت الروح والنفس، فهو صلى الله عليه وآله شعلة وهّاجة وروح متمرّد على الظلم والشرك.

إذن أهم شيء يمكن توظيفه من واقعة الطف هو أن يتخذ من الحسين عليه السلام قبساً ونوراً ومن روحه روحاً مهمتها إيقاظ العزم في نفوس المسلمين وتتحرى لهم الطريق الواضح.

المبحث الثالث: الجانب العاطفي في المأساة

نعم يبقى هناك في هذه الوقعة الجانب العاطفي الذي يفرض نفسه على الواقع.

وقد يقول قائل: ما هو الداعي إلى تكرار هذه المأساة كل سنة حيث تعتصر فيها الدموع؟

والجواب: إن هذه مغالطة؛ فلو قرأنا تاريخ الواقعة من سنيّها الأُولى كما في شعر الكميت فهل نجد فيها اعتصار دموع؟ كلا إنها كانت محاجّات

---

(١) ديوان المعاصر ١: ٤٠. (٢) الزمر: ٣٠.

فكرية وأدباً عالياً مترفاً من أروع ما يكون، فانظر قصيدته التي يقول فيها:

طربتُ وما شوقاً إلى البيضِ أطرَبُ ولا لعباً مني وذو الشيبِ يلعبُ(١)

وهي قصيدة أحسن فيها الشاعر توظيف الحدث حينما يمر بالمصارع، حيث لم يوظفه لخدمة الجانب المأساوي وإنما وظفه لصالح العظة والعبرة.

وانظر إلى شعر جعفر بن عفان أحد شعراء أهل البيت عليهم السلام، وكذلك شعر دعبل بن علي الخزاعي حيث يقول في تائيته:

تجاوبنَ بالإرنانِ والزفرات نوائحُ عُجمُ اللفظِ والنطقاتِ
أفاطم لو خلت الحسين مجدّلاً وقد مات ظمآناً بشطّ فراتِ
إذن للطمت الخدّ فاطم عنده وأجريت دمع العين بالوجناتِ(٢)

وهي تائية رائعة لا يقرأ فيها الإنسان الدمع وإنما يقرأ فيها الفكر والعظة. وقد وظّف الحدث أيضاً أحسن توظيف.

فالمسألة إذن أن واقعة الطف لم تكن مجرد دموع على امتداد تاريخها، فهي من أيامها الأُولى كانت عبارة عن تذكير ووعظ وحثٍّ على الجهاد ونصرة الدين. وأول من وقف بعد مصرع الحسين عليه السلام هو عبد الله بن الحر أو سليمان بن قتة، فقد وضع سيفه على القبر وأنشأ يقول:

مررت على أبياتِ آلِ محمدٍ فلم أرَها أمثالَها يومَ حلّتِ
ألم ترَ أن الشمسَ أضحت مريضةً لفقدِ حسينٍ والبلادَ اقشعرّتِ

(١) مروج الذهب ٣: ٢٥٤، خزانة الأدب ١: ١٤٥.
(٢) ديوان دعبل: ٣٨، بحار الأنوار ٤٩: ٢٤٨.

وكانوا رجاءً ثم صاروا رزيةً لقد عظمت تلك الرزايا وجلَّتِ
أتسألنا قيس فنعطي فقيرَها وتقتلُنا قيس إذا النعلُ زلَّتِ
وعند غني قطرةٌ من دمائنا سنطلبُها يوماً بها حيث حلَّتِ
فلا يبعد اللهُ الديارَ وأهلَها وإن أصبحت منهم برغمي تخلَّتِ
وإن قتيلَ الطفِّ من آلِ هاشمٍ أذلَّ رقابَ المسلمين فذلَّتِ[1]

وواضح من أبياته أنه لم يأخذ فيها الجانب المأساوي فقط وإنما أخذ فيها جانباً فكرياً؛ فيصرح بأن هذا الذي حدث قد أصاب المسلمين جميعاً بالذل ما لم ينهضوا بهذا الدم للأخذ بثاره.

إذن فالمسألة ليست كما يقال، وهذه من مزايا واقعة الطف؛ لأن الإمام الحسين عليه السلام من سنخ القرآن الكريم، فكما أن القرآن يأخذ كل قارئ منه معنىً حسب فهمه فكذلك واقعة الطف ومصائب العترة عليهم السلام؛ فهي من هذه السنخية عيناً؛ فكل واحد يأخذ منها معنىً وفائدة. وكلما عاودتها الأقلام وواجهتها أخذت منها زاداً؛ إذ أن فيها عطاء لا يقف عند حد؛ ففي كل سنة تعطي هذه الواقعة عطاء متجدداً، ولذا يقول الشاعر:

أنست رزيئتكم رزايانا التي سلفت وهوّنت الرزايا الآتية
وفجائعُ الأيام تبقى مدّة وتزول وهي إلى القيامة باقية

وقد روي أنه حينما دخل دعبل الخزاعي رحمه الله على الإمام الرضا عليه السلام، وأنشده قصيدته التائية التي مطلعها:

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٦٣، مثير الأحزان: ٨٨، مقاتل الطالبيين: ٨١، أُسد الغابة ٢: ٢١، تهذيب الكمال ٦: ٤٤٧، سير أعلام النبلاء ٣: ٣١٨، البداية والنهاية ٨: ٢٣٠، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٥٩.

سُمعت جارية تبكي من وراء الخباء، ثم خرجت وتحت ردائها شيء فوضعته على الأرض فإذا هو طفل رضيع يضطرب. ويبدو أن الجارية ذكية فأرادت أن تعرض منظراً حيّاً متحرّكاً من مناظر الطفّ، فلمّا رأى الإمام عليه السلام ذلك انفجر باكياً[1] مع أن الطفل كان سليماً معافى ليس به شيء، ولكن المنظر ذكّره بواقعة الطفّ عندما رجع الإمام الحسين عليه السلام يحمل رضيعه بعد أن آبَ من أرض المعركة ودماؤه تسيل على يديه. وقف عليه السلام بباب الخيمة وصاح: «رباب، خذي ولدك مذبوحاً». ومهما تكن البراعة والقدرة والصبر عند الإنسان وسيّما الأم فإنه لا يمكن تصوّر عاطفة أُم تنظر إلى رضيعها مذبوحاً؛ فهي واقعة أكبر من أن تتصوّر، وأكبر من أن يخوض فيها القلم. أخذت الطفل ورجعت به وهي ولهى الى المخيم، وقد ذهب عنها رشدها، فوضعته إلى جانب المهد تهزّه ذاهلة لا تشعر بما تصنع والمهد خالٍ منه، ثم راحت تدور حول مصرعه:

خذت سلوتي وظلّيت اسالي   بسرويحتي والدمع هالي
أدورن على ايميني وشمالي   أهز بالمهد والمهد خالي

* * *

كم رضيع لك بالطفّ قضى   عطشاً يصفق بالراحة راحا

---

(1) عيون أخبار الرضا عليه السلام 1: 153 / 8، 294 / 34، 296 / 35. وليس فيها ذكر الطفل.



﴿٣٠﴾

شعائر الله

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: في سبب النزول

إن سبب نزول هذه الآية يتعلّق بما كان العرب يمارسونه في زمن الجاهلية من بعض المناسك في الحجّ. وهذه الممارسات كان أن أخذ المشركون بتطبيقها بعد ذلك ـ في أول الإسلام ـ في حجّهم، فكانوا يعظّمون البيت في تصرّفاتهم ويجلبون البدنة والبعير إلىٰ الكعبة، ويهلّلون الله ويكبّرونه، ويقومون بالشعائر نفسها. فحاول المسلمون بعد ذلك منعهم من ممارستها؛ بحجّة أنهم أناس مشركون، فلا يجب أن يُسمح لهم بأن يمارسوا طقوسهم عينها. وكذلك بحجّة أن المشرك لا تقبل منه عبادة لأنه لم يعقد قلبه ولا نيّته على التقرّب إلىٰ الله تعالى بعبادته هذه، وأنهم ليس لهم اعتقاد بالله أصلاً.

---

(١) المائدة: ٢.

فنهاهم الإسلام عن هذا التصرّف، وقال لهم: لا تفعلوا هذا؛ لأن هؤلاء عندهم ميراث اجتماعي وعادات تسالموا عليها، وهذا الميراث وهذه العادات لا تقدح في الدين.

المبحث الثاني: الاجتهادات الشخصيّة إزاء النصّ

تقول الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾، وفيها مضامين عديدة، لكن قبل الولوج في مضامينها أودّ أن أُنبّه إلى أن كل نصّ - بالمعنى اللغوي - سوء كان آية، أو غيرها إذا لم يحتمل إلّا معنىً واحداً فإنه يسمى نصاً - بالمعنى الاصطلاحي - مثل قوله تعالىٰ: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾[1]، فهذا النصّ اللغوي لا يحتمل إلّا معنى واحداً هو أن المرأة تأخذ نصف حصّة الرجل في الميراث، وكذا قوله تعالىٰ: و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾؛ فإنه لا يحتمل سوى معنىً واحد هو وحدانية الله تعالىٰ. أمّا إذا احتمل أكثر من معنىٰ، فيعبّر عنه حينئذٍ بالظاهر. وظاهر الآية إمّا راجح وهو الظاهر، وإما مرجوح وهو مؤوّل.

فقوله تعالى في المقام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾، يراد به عدم انتهاك حرمة معالم الإسلام التي رسمها الله تعالىٰ، أي لا تحلّوا معالمه التي أعلمنا أنها حدّ من حدوده. فـ﴿شَعَائِرَ﴾: جمع شعيرة - علىٰ وزن فعيلة - وهي المعلمة التي أعلمنا الله تعالى أنها حدّ من حدوده كما أسلفنا. والشعائر منها ما هو مادّي، ومنها ما هو معنوي، والله تعالى رسم لنا حدوداً وممارسات، ضمن إطارها وأمرنا أن نحترمها ولا نتعدّاها:

فالشعائر المعنوية هي جميع ما أمرنا الله به ونهانا عنه.

---

(١) النساء: ١٠.

والشعائر المادّيّة هي من مثل السعي بين الصفا والمروة في الحجّ، فالبعض حينما يحجّ فإنه لا يسعى بينهما، فالحجّ عنده عبارة عن الطواف حول الكعبة فقط، فأراد القرآن الكريم أن يقول لهؤلاء: إن هذه الأُمور توقيفيّة، فلا تجعل نفسك مشرّعاً مقابل الله. وهذا الرأي مروي عن الإمام الباقر عليه السلام[١].

ويقول بعض آخرون: إنها بخصوص من لا يقوم ببعض ماهو مشرّع في الحجّ. فالقرآن الكريم يبيّن لنا الحدود التي يجب أن نعمل بمقتضاها وفق ما أمرنا الله تعالى به من مناسك. أما قصة الهدي، فكان بعض الحاجّ يسوقون النياق للكعبة، ولكي يبيّنوا أنها بدنة يعمدون إلى الجانب الأيمن لسنامها فيشقّونه، فإذا خرج منه دم فإنها تهدى للكعبة. وما كان عليه هذه العلامة من النياق لا يتقرب إليه أحد؛ لأنه قد أصبحت له علاقة بالكعبة وبالدين. فهؤلاء على جهلهم وجاهليّتهم يحترمون الشيء الذي له علاقة بالدين وبالكعبة.

وعند المسلمين بالإجماع أنه يجب على المسلم عند سوقه البدنة أن يشعر بها، لكن انفرد عن هذا المعنى أبو حنيفة حيث قال: إن شقّ ظهورها حتّى يخرج الدم ممنوع، وهو محرم لأمرين:

الأول: أنه مثلة والمثلة حرام ولو بالكلب العقور[٢].

ونقول: إن هذه ليست مثلة، وهذه المسألة مبتلى بها في كلّيات الطبّ، فالتشريح هل يعتبر مثلة أم لا، فبعض الفقهاء يمنعون الدخول إلى كليّة

---

(١) انظر التفسير الكبير ١١: ١٠١ ـ ١٠٢.

(٢) مقتضى قول نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله: «إيّاكم والمثلة ولو في الكلب العقور». انظر نهج البلاغة / الوصيّة: ٤٧.

الطبّ، لأن الطالب سيبتلى بالتشريح وتقطيع الأعضاء. لكن لنا أن نسأل الشارع المقدّس: هل للمثلة اصطلاح شرعي، أم إن الشارع استعملها بالمعنى الذي استعملها اللغوي فيه؟ أي المقصود منها المثلة عند العرب واستخدامهم لها، فنحن نقول: «فلان قتل فلاناً ومثّل به». فمثل به: تشفّىٰ به وانتقم منه، وذلك مثل الأسلوب الذي استخدمته هند بحمزة بن عبد المطلب عليه السلام، فهذه هي المثلة.

فالمثلة مأخوذ في معناها التشفّي والانتقام، فيقطع القاتل أعضاء المقتول مع التلذّذ بذلك. وهذا هو الحرام، أمّا التلميذ في كلّيّة الطبّ فليس عنده هذا الغرض وهو يقوم بعمليّة التشريح، فلا حرمة عليه إلّا إذا قلنا: إن المثلة تتحقّق بمجرّد قطع الأعضاء فقط، دون التشفّي. وهذا المعنى لم يستعمل عند العرب، كما أن المشرّع ليس له حقيقة شرعيّة.

ثم إن هناك أمراً هامّاً هو أن الأحياء أهمّ من الأموات، وهذا هو السبب في ابتكار وإنشاء بنوك للأعضاء، فتؤخذ هذه الأعضاء ويعالج بها الشخص الذي يبتلى بمرض ما، فيزرع له قلب أو كبد. فهذه العملية تتوقّف عليها حياة إنسان وإطالة أمدها. صحيح أن الله أمرنا بحفظ حرمة المؤمن، وبين لنا أن حرمته حيّاً كحرمته ميّتاً، لكن لو تزاحم المهم مع الأهمّ فإن الأهمّ هو الذي سيقدّم، فإذا كان بالإمكان تمديد الحياة عند أربعة ثبت أنهم سيعيشون لو زرعت لهم أعضاء من غيرهم، وجب تمديدها بذلك. وهذا ما يذهب إليه كثير من الفقهاء الذين يثبتون أن هذا من باب التزاحم، فيقدّم الأهمّ علىٰ المهمّ.

الثاني: أنه تعذيب للحيوان.

والله تعالى قد نهانا عن تعذيبه. إن هناك أشياء تتّحد بملاكها مع هذا

المعنىٰ، فالعرب ـ وحتّىٰ أوروبّا ـ كانوا إذا أراد أحدهم تمييز أنعامه فإنه يكويها، والحيوان بهذا الفعل يتألّم طبعاً، لكن الشارع المقدّس لم ينهَ عنه، ومعنى ذلك أنه قد أقرّهم علىٰ هذا. فهذا أشبه شيء بالوشم الذي يستخدم في الإبل والأغنام.

فما يفعل بالإبل هنا هو شيء بسيط لمجرّد الإشعار بأن هذه بدنة تساق إلىٰ الكعبة. وعليه فإن رأي أبي حنيفة فيه جانب إنساني، لكن أبا حنيفة ليس أرحم من الله تعالى بخلقه. فعلينا إذن أن نتّبع ما أمرنا الله به، لأن فيه من المصالح ما لا يمكن أن ندركه بأنفسنا. فمناطات الأحكام لها مصالح ومفاسد، فالحرام له سبب هو المفسدة، والحلال له سبب هو المنفعة، والإنسان نفسه يعذب بأشدّ أنواع العذاب. فالمسالة لا تخلو من نبض إنساني، لكن الفقهاء يخالفون أبا حنيفة في هذا، ويقولون: إن معنىٰ المثلة هنا وعنوان تعذيب الحيوان لم يتحقّقا.

ويمكن مراجعة تفسير القرطبي [1] في تفسير هذه الآية.

وعندما يتناول ابن حزم ـ صاحب كتاب (المحلىٰ)، وهو من فقهاء الظاهرية ـ هذا المبحث يحمل حملة عنيفة علىٰ أبي حنيفة. وهذا الأسلوب يرفضه الإسلام، فالمفروض أنه إذا خالف عالم عالماً في الرأي فعليه أن يبحث عن دليله ولا يجوز له شتمه والتشنيع عليه والتشهير به. إن البعض يحفظ بضعة أحاديث ثم يؤلّف كتاباً ويأخذ بشتم من يرغب من فرق المسلمين، وهو شتم مقذع مقزّز، ربما حمل الإنسان على أن يفقد

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٦: ٣٨. وفيه أن ابن العربي قد أوغل على أبي حنيفة في الردّ والإنكار حين لم يرَ الإشعار. فقال: كأنه لم يسمع بهذه الشعيرة في الشريعة! لهي أشهر منه في العلماء.

أعصابه. وهؤلاء من ورائهم أيادٍ تدفعهم إلى هذا. فعلينا أن نحترم رأي الفقيه الآخر، وإذا كان مخطئاً فعلينا أن نناقش في دليله.

وعليه فالآية الكريمة تقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّـهِ﴾، أي الهدي إلى الكعبة بالقول عنها: إنها شعيرة باطلة. وهذه إما تطبيقاً، وإما نظرياً، فالتطبيق أن تُساق البدنة من دون أن يحدث فيها جرح، والنظري هو أن يعطي الإنسان نفسه حقّ التشريع، فيقول: ما الحكمة من هذا المعنى؟

وظيفة الفقيه

إن وظيفة الفقيه عندنا هي البحث عن الحكم عن طريق الدليل؛ فإن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد. وبهذا فإنه ليس له حقّ تشريع حكم من عنده مطلقاً.

زكاة الخيل

ومن المعروف أن الله قد فرض زكاة على الأنعام كالإبل والبقر والغنم بنسب معيّنة، غير أن البعض أضاف إليها الخيل ففرض فيها الزكاة؛ لأنها أصبحت وسيلة للمباهاة وليست شيئاً أساسيّاً كما كانت من قبل حيث إنها تستخدم في الحروب[1].

وهذا خلاف الواقع فإن كلّ حيوان له جانب إنتاجي في حقله الخاصّ، والخيل تركب وتستثمر في أغلب شؤون الحياة السلميّة والحربيّة، وعليه فإنهم انطلاقاً من وحدة الملاك فرض فيها الزكاة. إن هذا ليس من

(١) تاريخ الخلفاء (السيوطي): ٩٣، وقد مرّ أن صاحب هذا الرأي هو الخليفة عمر بن الخطّاب. انظر ج ١ ص ٢٢٢.

حقّ أي أحد؛ فإن الله تعالى قد أعفانا من إخراج زكاة الخيول؛ لأنها تستخدم في الغارات والصولات وفي الدفاع عن النفس والملّة، وللمحافظة على القيم.

حمل الحمار على الخيل في الزكاة

ثم فرّع الفقهاء على هذه المسألة مسألة أُخرى، فأثاروا قضيّة حمل الحمار على الفرس في الزكاة هنا؛ فمنع قسم منهم ذلك[1] وكرّهه بعض آخر، وقالوا: إن به ذلاً للفرس ولعنفوانه. كان الحجّاج يجبر الناس على تزويجه من بناتهم، وفي أحد الأيام دخل على إحدى نسائه ـ وكانت من بيوتات العرب المجيدة ـ فسمعها تهمهم داخل البيت، فأصغى إليها، فإذا هي تقول:

وما هندُ إلّا مُهرةٌ عربيّةٌ سليلةُ أفراسٍ تَحلَّلَها بَغلُ
فإن وَلَدتْ مُهراً فللهِ دَرُّها وإن جاءَ إقرافاً فما أنجبَ الفحلُ

فتأثّر الحجاج وطلّقها[2]. وحسناً فعل؛ فإن الإسلام وضع الكفاءة شرطاً في الزواج، وهو لا يريد من هذا أن يضع عقبة في هذا الطريق.

فهؤلاء يبرّرون الكراهة بدعوى أن حمل الحمار على الفرس فيه ذلّ للفرس؛ فإن الفرس موضوعة للجهاد والغزوات والأُمور المشرّفة، فكيف يُذلّ كبرياؤها بجعلها تمارس أعمال الحمل؟

فإذا كان الإسلام لا يرضى بإذلال الحيوان، فهل يرضى بإذلال الإنسان وتعذيبه؟ لكننا لازلنا إلى الآن نعيش الجاهلية في تصرّفاتنا.

---

(١) قريب منه ما في تاريخ الخلفاء (السيوطي): ٩٣.

(٢) انظر: كمال الدين: ٢٤٩. وذُكر البيتان في بلاغات النساء: ٩٨.

فالآية حينما تقول: ﴿لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ فإنها تنبّه إلى أن هؤلاء يجب ألّا يعطوا أنفسهم حقّ التشريع؛ لأن العقل الإنساني لا يمكن أن يدرك علل الأحكام الواقعيّة. وإذا كان حكم العقل حكم الشارع، فإنه كذلك فيما إذا تطابق العقلاء على معنىً بما هم عقلاء؛ وهنا يتبع حكم الشرع حكم العقل. ومن هذا شكر المنعم، فهو واجب عقلاً، فإذا أنعم عليك أحد فالواجب عليك شكره. وهذا الأمر يحكم به العقلاء، والشارع يتبع حكمهم بوجوب شكر المنعم. وبعكسه قبح الخيانة فإن الله يحرم هذا تبعاً لحكم العقل.

لكن ليس كلّ ما يحكم به العقل يحكم به الشرع. حيث إن العقل الإنساني محدود، فمثلاً عينك ترىٰ إلىٰ مسافة، وأُذنك تسمع من مسافة معيّنة، فعقلك كذلك؛ فالإنسان محدود بالزمان والمكان وبشروط أُخرىٰ، فإذا حكم الله بشيء فعليك أن تذعن دون أن تبحث عن سرّه، وعليك أن تمتثل أمر الحكيم المطلق، أمر الله عزّ وجل الذي هو بكلّ شيء محيط دون تردّد أو تروٍّ.

المبحث الثالث: الأمويّون يحلّون ما حرّم الله

ثمّ قالت الآية الكريمة: ﴿وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾، الشهر الحرام اسم جنس للأشهر الحرم. والأشهر الحرم أربعة: واحد منها فرد وهو شهر رجب، وثلاثة منها سرد وهي ذو القعدة وذو الحجّة والمحرّم. وعندما نرجع إلى التاريخ سنجد كيف كان هؤلاء يحلّون الشهر الحرام؛ ذلك أننا سنرى أن حياتهم كانت قائمة علىٰ النهب والسلب والغارات؛ فالحروب التي كانت تقوم على أساس مصادرة حقوق الآخرين وحريّاتهم مثلاً تعدّ أمراً طبيعيّاً في شبه الجزيرة. لأنهم كانوا يتذرّعون بأنهم لا يستطيعون البقاء

ثلاثة أشهر من غير قتال؛ فطبّقوا مفهوم (النسيء)، وهو نقل حرمة شهر المحرّم إلىٰ صفر، فيقلبون المحرم حلالاً، ويحرّمون صفر، ثم بعد غاراتهم واستقرارهم يُرجعون الحرمة إلىٰ المحرّم ويلغونها عن صفر.

وقد حرّم القرآن الكريم هذا التصرّف بقوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[١].

فالقرآن يقول لهم: أنتم كفرة وتجعلون أنفسكم مشرّعين قبالة الله عزّ وجلّ، وهذا الأمر زيادة في الكفر. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإن بعضهم كان يحترف القتل بالغارات والسلب، والحال أن الله نهى عن ذلك مطلقاً وأكّد النهي في الأشهر الحرم التي ينبغي أن تكون مأمونة ومحفوظة من هذه التصرّفات. فهؤلاء أحلّوا الأشهر الحرم وجعلوها مباحاً فيها الفعل الحرام باختراع فكرة النسيء.

هذا مع أن مسألة الوقت مأخوذة في الحكم الشرعي، فلا يجوز لأحد أن يتجاوزها، فإن فعل كان مثله كمثل من يقول: إن صيام شهر رمضان في فصل الصيف مرهق ومتعب؛ لارتفاع حرارة الجو وطول النهار، فلأفطر الآن وسأصوم في كانون الثاني؛ حيث إن الجوّ حينها سيكون بارداً، فيفطر شهر رمضان عمداً، لكنه سيكون آثماً؛ لأنه نقض فرضاً مأخوذاً فيه الوقت.

وعليه فليس من حقّ هؤلاء أن ينقلوا حرمة شهر المحرم إلىٰ غيره: ﴿وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾، بل عليهم أن يحترموا هذا الشهر.

---

(١) التوبة: ٣٧.

ولا بدّ من الإشارة إلى أن بعض القبائل العربية كانت تتقيّد بحرمة الأشهر الحرم وتلتزم بهذاالجانب الأخلاقي والجنائي فيها؛ مراعاة للوضع الاجتماعي، ولتقليص تكرّر سفك الدماء، حتىٰ تبرد الضغينة والثأر. ثم إن سفك الدم ليس وراءه إلّا سفك الدم، وإن الحروب لا تجرّ خلفها سوى المآسي المتراكمة. فكان هؤلاء يراجعون عقولهم لإطفاء النائرة وتبريد الأحقاد والضغائن، وقد يلجؤون إلىٰ الصلح ويحلّون مشاكلهم عبره.

الحكمة من الدية في الفقه الجنائي

وهذا المعنى قد راعاه الفقهاء في الفقه الجنائي؛ حيث إنه يعطي لولي المقتول إذا لم يستخدم القصاص حقّ أخذ الدية؛ لأنه ما دام الأمر قد وقع، وأن المقتول قد مضى فيه أمر الله تعالى فلا داعي حينئذٍ لسفك دم ثانٍ. أمّا قوله تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1] ففيما إذا لم تظهر آثار الندم عند القاتل، لكن معها تؤخذ منه الدية ويترك عقابه إلىٰ الله عزّ وجلّ. فولي الدم يملك هذا الحقّ.

إن الإسلام أمضى كثيراً من الأشياء التي كانت معروفة على أيّام الجاهلية، ولم يبعدها كلّها، وقد أقرّ هذه الأشياء لأنها تقوم علىٰ ملاكات صحيحة؛ فبعض بيوتات العرب كانت تحرّم الخمرة، فأقرّ الإسلام هذا التحريم، وكان عندهم نظام دفع الديات؛ فإذا قُتل أحد أُخذت الدية لوليّه من الأبل أو الأموال وأقر الإسلام هذا أيضاً. فهناك جملة من الأحكام التي كانت سائدة على أيّام الجاهلية وأقرّها الإسلام لما فيها من ملاكات عقلائيّة أو صحيحة.

---

(١) البقرة: ١٧٩.

وهذا بحدّ ذاته اعتراف من المشرع بقيمة العقل الإنساني، وفيه ردّ على بعض الكتّاب الذين يقولون: إن الدين الإسلامي يلغي العقول. كلا إن الإسلام يحترم العقل، ولكنه لا يعطيه أكثر من حجمه؛ لأن الله خالق العقل، وقد تعبّدنا بالعقل، وجعله ملاك الأحكام ومناط التكاليف.

وعليه فإنه يجب أن يكون الشهر الحرام محترماً، دخل على الإمام الرضا عليه السلام أحد أصحابه في مثل هذه الأيام، فالتفت عليه السلام إليه وقال له: «ان المحرم شهر كان أهل الجاهلية يحرمون فيه القتال، فاستحلت فيه دماؤنا، وهتكت فيه حرمتنا، وسبي فيه ذرارينا ونساؤنا، وأُضرمت النيران في مضاربنا، وانتهب ما فيها من ثقلنا، ولم ترعَ لرسول الله حرمة في أمرنا».

فهؤلاء الذين يدّعون الإسلام لم يتّبعوا ميراثهم الاجتماعي الذي ورثوه من آبائهم العرب، ولم يرجعوا إلىٰ نفوسهم وإلىٰ أحكام الشرع؛ لأن شكر المنعم واجب عقلاً، والنبي صلى الله عليه وآله قد أنعم عليهم، فقد كانوا كفرة وأصبحوا مسلمين، وكانوا فقراء يأكلون القدّ، ثم أصبحوا بفضله صلى الله عليه وآله يتناولون ألذّ أنواع الطعام. وبه صلى الله عليه وآله وضعت العروش تحت أرجلهم. فما كان جزاؤه صلى الله عليه وآله؟ إنهم بدلاً من أن يلحظوا نعمته عليهم ويشكروه، أبكوه في ذرّيّته صلى الله عليه وآله.

ثم قال الإمام عليه السلام: «إن يوم الحسين أقرح جفوننا، وأسبل دموعنا، وأذلّ عزيزنا، وأورثنا البلاء إلىٰ يوم الانقضاء. فعلى مثل الحسين فليبكِ الباكون، وليندب النادبون، فإن البكاء يحطّ الذنوب العظام».

ثم عقّب الإمام عليه السلام بعد ذلك بقوله: «كان أبي (صلوات الله عليه) إذا دخل شهر المحرم لا يُرى ضاحكاً، وكانت الكآبة تغلب عليه حتى يمضي منه عشرة أيّام، فإذا كان يوم العاشر كان ذلك اليوم يوم مصيبته وحزنه وبكائه، ويقول: هو اليوم

الذي قتل فيه الحسين (صلوات الله عليه)...»[١].

ذلك أن الواقعة تعيش في ذهنه، والمحرم يعيش في أعماقه، وفعلاً شهر المحرم يعيش في نفس كل من له صلة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

كيف نتفاعل مع المحرّم؟

فما الذي ينبغي أن يكون لدينا في هذا الشهر من التفاعل والتأثّر؟ إن هذا الشهر يرفع لنا أشياء يجب اغتنامها:

أولاً: أنه يرفع دماء أبي الأحرار عليه السلام

فهذا الشهر يرفع لنا دماء الإمام الحسين عليه السلام. تقول الرواية: «إذا هلّ هلال المحرم نشرت الملائكة قميص الحسين عليه السلام وهو مخضّب بالدم»، يقول الإمام: «نحن وشيعتنا نراه بالبصيرة لا بالبصر، فتجري لذلك دموعنا». حيث إننا نسمع من وراء ذلك الدم، «والله لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أفرّ فرار العبيد»[٢].

فهذا الشهر يوحي إلينا التسليم بقضاء الله وقدره، لأننا نرى ببصائرنا الإمام الحسين عليه السلام يقول: «لك العتبى يا ربّ، صبراً على قضائك، يا غياث المستغيثين، لا معبود سواك، إن كان هذا يرضيك فخذ حتى ترضى»[٣]. ولذا فإن علينا ألّا نضيع دمه الشريف الذي أراقه من أجل الإسلام وأجلنا.

---

(١) الأمالي (الصدوق) ٢: ١٩٠ ـ ١٩١ / ١٩٩، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

(٢) شرح الأخبار ١٤٤: ١٤٤، مثير الأحزان: ٢٧، تاريخ الطبري ٤: ٢٥٣، شرح نهج البلاغة ٣: ٣٤٨، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٠٤.

(٣) انظر: شجرة طوبى ٢: ٤٠٩، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المقرّم): ٢٥٧، ينابيع المودّة ٣: ٨٣.

ثانياً: أنه يجسّد لنا المثل

فإذا مرّ بنا هذا الشهر تجسّد لنا الإمام الحسين عليه السلام، بما جسّد من المثل الصبر والبطولة، يقول عبد الله بن عمّار: واللّه لقد رأيت الحسين عليه السلام يوم العاشر، فما رأيت مكثوراً قطّ أربط جأشاً منه، وقد كانت الخيل والرجال تشدّ عليه فيشدّ عليها، فينهزمون بين يديه انهزام المعزى إذا شدّ فيها الذئب، ويرجع إلى مركزه فيتّكئ على قائم سيفه ويكثر من قول: «لا حول ولا قوة إلّا بالله»[1].

ثالثاً: أنه يجسّد الارتباط برسول الله صلى الله عليه وآله

وكذلك معاني الارتباط برسول الله صلى الله عليه وآله والوفاء له؛ حيث إننا نواسي رسول الله صلى الله عليه وآله بأبنائه وبواقعة الطفّ.

كما أن المحرم يحمل لنا الحزن واللوعة والألم، ويظلّ الطفّ ماثلاً أمام أعيننا، وتبقى كربلاء تعيش في نفوسنا وتشدّنا إلى الإمام الحسين عليه السلام شدّاً. كلّ ذلك يعكسه لنا المحرم، فينبغي علينا ألّا نهدره، وكان هذا المعنى ينعكس على أهل بيته، وبالخصوص أُخته زينب، فكلّ أوّل يوم من المحرّم كانت تعيش الآلام والأحزان، وتدور من بيت إلى بيت، ومن أُسرة إلى أُسرة:

يابه ما بعيني دمع واسجيك   بنفسي يبو السجّاد اداويك

---

(١) مثير الأحزان: ٥٤، البداية والنهاية ٨: ٢٠٤.



﴿ ٣١ ﴾

مسؤولية المسلم تجاه نهضة الحسين عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: معالم النهضة الحسينية

نحن نعيش دائماً ثمرة مدرسة الحسين عليه السلام نتفيّأ ظلالها ونستوحي منها القيم الخالدة والمثل الأصيلة التي ترقىٰ بالإنسان إلى مصافّ الأحرار، وتسمو به إلى مستوى المسؤولية الشرعية تجاه المجتمع واحتياجاته، وإحداث ثورة التغيير فيه. ولذا فإن من الواجب على كلّ مسلم أن يفتح الأبواب إلى هذه المدرسة المعطاء؛ ليقوم كل بدوره، وهو السعي إلى تحقيق الهدف الذي قامت من أجله هذه الثورة العالمية المباركة. وهنا نقطتان ينبغي الالتفات إليهما هما:

النقطة الأولى: الجوانب العاطفية في الثورة

إن الحسين عليه السلام بهذا الجانب من جوانب الثورة، وضع المجتمع الإسلامي

---

(١) آل عمران: ١٧٩.

أمام المسؤولية، فنجده يخاطب المجتمع لأنه حامل الرسالة ويحاول أن ينفذ إلى نفس كل مسلم؛ لأنّ المسلمين جميعاً هم حملة الرسالة السماوية التي يجب أن تصل إلى الناس جميعهم. وبهذا فإن الإمام الحسين عليه السلام أراد أن يجسّد رسالة الإسلام؛ إذ أنّ هدف النهضة الحسينية هو إحياء رسالة الإسلام التي كادت تموت على يد يزيد وأعوانه. فكان الإمام الحسين عليه السلام يردّد هذه الآية في مثل هذه الليلة، يقول الضحاك بن قيس المشرقي: بتنا الليلة العاشرة، فقام الحسين وأصحابه الليل كلّه يصلّون ويستغفرون ويدعون ويتضرعون، فمرّت بنا خيل تحرسنا، وإن الحسين عليه السلام ليقرأ: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[1]، فسمعها رجل من تلك الخيل فقال: نحن وربّ الكعبة الطيّبون، ميّزنا منكم وأنتم الخبيثون. قال: فعرفته، فقلت لبرير: أتعرف من هذا؟ قال: لا. قلت: أبو حريث عبد الله بن شهر السبيعي، فعرفه برير، فقال له: أما أنت فلن يجعلك الله في الطيّبين. فقال له: من أنت؟ قال: برير. فقال: هلكت والله يا برير. فقال له برير: لا أراك تحسن من كتاب الله آية[2].

ووجه الاستشهاد هذا أن الإمام الحسين عليه السلام يريد أن يضع الأمم الإسلامية التي تدّعي الإسلام وتتلبّس بلباسه أمام مسؤوليّاتها الجسام في حمل

---

(١) آل عمران: ١٧٨ ـ ١٧٩.

(٢) مقتل الحسين (أبو مخنف): ١١١، إبصار العين في أنصار الحسين عليه السلام: ١٢٢ ـ ١٢٣، لواعج الأشجان: ١٢٣ ـ ١٢٢، تاريخ الطبري ٣: ٣١٧.

مبادئ الإسلام، ليبرهنوا عمليّاً على إسلامهم بوقوفهم بوجه حاملي ألوية الكفر والعناد والفساد ممّن يريدون الرجوع بالإسلام إلى زمن الجاهلية وعاداتها المقيتة. فهذا هو وجه استشهاد أبي الأحرار عليه السلام بهذه الآية الكريمة، أي أنّه لابدّ من أن يتميّز الطيب من الخبيث الذي يهزأ بعواطف الناس ويسخر منها، ويدّعي الإسلام وهو لا يصلي ولا يؤدّي فرائضه التي افترضها الله تعالى عليه.. يدّعي الإسلام وهو لا يقدّم للإسلام شيئاً، بخلاف الطيّب الذي يجسّد الإسلام موقفاً وبطولة وتطبيقاً، ويعرف أنّ الجهاد من أوّل واجبات المسلم وأهم تشريعات الإسلام.

والغريب أنّ هذه الظاهر ـ قضية موقفنا من يزيد ـ تعيش بين الناس حتى في هذه الأيام، مع أن المفروض بهذا المعترض أن يمتلك الوعي في هذا المجال، ومن لم يكن كذلك فلينظر في كتب المسلمين ككتاب (حياة الحيوان) للدميري في باب (فهد) وليرَ ما ينقل عن يزيد وما يقول فيه، وهو ينقل ذلك عن علماء المسلمين[1] من غير الشيعة.

ونحن لا نبتغي من وراء احتفالاتنا هذه بثّ روح الفرقة بين المسلمين، وليس هذا في حسابنا أبداً، بل إن هدفنا هو خدمة الإسلام والحفاظ على وحدة المسلمين وفق الضوابط الشرعية والآيات القرآنية. وهذه أصواتنا تخرج لوسائل الإعلام وليس عندنا ما يقدح بوحدة المسلمين، بل العكس هو الصحيح؛ لأننا ندعو إلى النبع الذي شرب منه المسلمون وهو النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته الكرام عليهم السلام، ولا ندعو إلى نبع الجاهلية. ونحن

---

(١) حياة الحيوان ٢: ١٧٥ ـ ١٧٦.

عندما نتمسّك بالحسين عليه السلام فإنّما نتمسّك برافد من روافد الإسلام التي لم تلوّث.

فالإمام الحسين عليه السلام يريد أن يضع المسلمين على مفترق الطرق، ويقول لهم: ادرسوا أسباب هذه النهضة؛ فـ: «إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا ظالماً ولا مفسداً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدّي صلى الله عليه وآله، وأن أسير فيهم بسيرة الحقّ؛ فمن قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بقبول الحقّ، ومن ردّ عليّ هذا أصبر حتى يحكم الله وهو أحكم الحاكمين»[1]. فالحسين عليه السلام هو ابن رسول الله صلى الله عليه وآله والرسول صلى الله عليه وآله جاء بشيراً ونذيراً للمسلمين كافّة، كما أنه عليه السلام ابن القرآن والقرآن الكريم كتاب المسلمين كافّة. ولو أننا حكّمنا العقل لرأينا أن سيّد شباب أهل الجنة[2] أولى بالاتباع ممّن كان يتغنّى:

لعبت هاشم بالملك فلا ... خبر جاء ولا وحي نزل[3]

فليحاول كل من يطلب الحقّ والحقيقة أن يكسر حاجز التعصّب المقيت والجمود على التاريخ المزوّر وأن يقرأ بموضوعية ومنهجيّة علمية ليطلع على الحقائق، وليطلق الحرّيّة لفكره، وليسمع صوت الحسين عليه السلام مجلجلاً يهزّ أعماق الكون ويرعب مخلوقات الشرّ والظلام، وهو يهدر في مثل هذه الليلة: «ألا وإن الدنيا قد أدبرت وتنكّرَ معروفُها، وذهبت حذّاء،

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩.

(٢) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ٢٠، ٥٨، ٧٦، مسند أحمد ٣: ٣، ٦٢، ٦٤، ٨٢، ٥: ٣٩١، ٣٩٢، سنن ابن ماجة ١: ٤٤، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢١، ٣٢٦، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٦٧، ١٦٧، ١٦٧، ٣٨١، صحيح مسلم بشرح النووي ١٦: ٤١، وغيرها كثير.

(٣) انظر: تاريخ الطبري ٨: ١٩٣، شرح نهج البلاغة ١٥: ١٧٨، البداية والنهاية ٨: ٢٠٩، الأخبار الطوال: ٢٦٧.

ولم يبقَ منها إلّا صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا تنظرون إلى الحق لا يُعمل به، وإلى الباطل لا يُتناهى عنه؟ ليرغب امرؤ في لقاء ربه مُحقّاً. إني لا أرى الموت إلّا سعادة، والحياة مع الظالمين إلّا شقاءً وبرماً»[١].

فالحياة ليست عبارة عن طعام وشراب ولباس؛ لأن من يرَها كذلك لا يعدُ الحيوان في شيء؛ إذ أن الحيوان يشاركنا في هذا الجانب البهيمي، بل الحياة هي المواقف النبيلة، وأن يقال للحق: إنك حقّ، وللباطل: إنك باطل، يقول أحد الشعراء:

نحن موتى وشرّ ما ابتدع الطغـ ـيان موتى على الدروب تسيرُ

ذلك أن الميت ليس من تخرج روحه من بدنه، فكثير ممّن فارقوا الدنيا لكنهم يعيشون معنا بما خلّفوه من أثر كبير في الحضارة والعلم والفكر والتقدّم البشري، بل إن الميت هو من لا يحمل الوعي، فتراه جثة تسير على سطح الأرض لا تعي ما حولها ولا تبصر أكثر مما هو تحت قدميها، فلا تحسّ بالعالم ولا تشعر.

النقطة الثانية: الجوانب غير العاطفية

وهذه الجوانب كثيرة يمكن أن نذكر منها:

أوّلاً: معادلة الخير والشر

ففي مثل هذه الليلة تتّضح لنا معالم معادلة حساسة جداً، ويعتمد هذا الأمر على معرفة طرفي المعادلة:

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٢٤، المعجم الكبير ٣: ١١٤، نزهة الناظر: ٨٨.

الطرف الأوّل: خطّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله

ففي الطرف الأوّل من المعادلة أبو الأحرار وسيّد الشهداء وسيد شباب أهل الجنة الحسين بن رسول الله صلى الله عليه وآله، وابن أوّل الناس إسلاماً وإيماناً بدعوة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وابن علي بن أبي طالب عليه السلام. وهو عصارة مبادئ الإسلام، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يحمله على صدره ويقول: «حسينٌ منّي وأنا من حُسين»[١].

ويقول: «أحبّ الله من أحبّ حسيناً، وأبغض الله من أبغض حسيناً»[٢]. مرّ أبو بكر بالرسول صلى الله عليه وآله فرآه يحمل الحسنين عليهما السلام على عاتقيه، فقال: نِعمَ الجمل جملكما. فقال النبي صلى الله عليه وآله: «ونعم الراكبان هما، وأبوهما خير منهما»[٣]. فأخذهما أبو بكر من حجر النبي صلى الله عليه وآله.

الطرف الثاني: الخطّ الجاهلي المعتم

أما في هذا الطرف فتتضح معالم الجاهلية المقيتة وخلاصتها، وطرف الأحقاد الأُموية والانحراف عن خطّ الإسلام الحنيف. وهذا الطرف تجسّد في شخص كان يصعد المنبر وهو يترنح تحت وطأة سكره، وينشد:

أقول لصحب ضمّت الكأس شملهم	وداعي صبابات الهوى يترنّمُ
خذوا بنصيب من نعيم ولذّة	فكلّ وإن طال المدى يتصرّمُ[٤]

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٣: ١٧٧، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٥١٥.

(٢) مسند أحمد ٤: ١٧٢، سنن ابن ماجة ١: ٥١، سنن الترمذي ٥: ٣٢٤، وغيرها كثير.

(٣) سنن ابن ماجة ١: ٤٤ / ١١٨، المعجم الكبير ٣: ٣٩ / ٢٦١٧، ٦٥ / ٢٦٧٧، ١٩: ٢٩٢، وليس فيها إشارة إلى أبي بكر.

(٤) جواهر المطالب (الدمشقي) ٢: ٣٠١. والقائل:

إذن في المعادلة رافد من راوافد الإسلام ورافد من روافد الجاهلية، وهذا هو سبب الصراع؛ فالإسلام على خطٍّ موازٍ للجاهلية ولا يمكن أن يتقاطعا أو يلتقيا أبداً. فهنا نحن ننظر إلى رمز بارز من رموز الإسلام وإلى رمز آخر بارز لكن من رموز الجاهلية، وبهذا يتقرّر أن دعوى كون يزيد يشكل حلقة من حلقات الحكم الإسلامي هي دعوىٰ باطلة وفارغة من أي مضمون؛ فالنظرية الإسلامية لا تقوم على أساس تقديم الدم واللحم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1].

فالمسألة هي مسألة فكر، والمسلم هويته الإسلام، فيجب على الآخرين ألّا يدخلوا عوامل أجنبية ويقولوا: أنتم ضد العرب، وأنتم شعوبيون، فنحن عرب ونعتزّ بعروبتنا وبتاريخنا الإسلامي، وبمن حمل الإيمان والدين من العرب. كما أننا لا نتخلّىٰ عن دورنا في الحفاظ على اللغة العربية في عبادتنا، وهو ما ليس موجوداً عند غيرنا؛ فعند غيرنا أنّ الصلاة تجوز بغير العربية والعقود كذلك، وكذلك عندهم أن الخليفة لا بأس بأن يكون غير عربي في حين أننا لا نقول بذلك، بل نشترط كونه عربياً.

فكل ما يثار في هذه المجال لا يعدو كونه لعبة عاطفيّة، فهويتنا «لا إله إلّا الله محمد رسول الله»، ونحترم الشعوب الأُخرىٰ والقوميات كافّة، لكن لا

اسقني شربة تروِّي فؤادي ثمّ قم واسقِ مثلها ابن زيادِ
موضع العدل والأمانة مني ولتنفيذ مغرمي ومرادي

تاريخ مدينة دمشق ٢٢: ١٤٣ ـ ١٤٤، النصائح الكافية: ٧٩.

(١) الحجرات: ١٣.

نقدّس أحداً لا يستحقّ التقديس لمجرد أنّه قد حكم، فالحكم وجوده وعدمه سواء فيما يخصّ قدسية الرجل واستحقاقه للطاعة والحب والتقدير والإكرام، يقول أحد الشعراء مخاطباً أمير المؤمنين :

هو عدل السماء أعطتك عرشاً لا يدانيه عرشك المغصوب

فعرشه الذي وهبته إياه السماء هو قلوب المؤمنين، فما قيمة كرسي مصنوع من خشب حينئذٍ؟

ثانياً: أهل بدر والأحزاب

وهنا يتّضح لنا كذلك من هم الذين كانوا مع الحسين ، ومن هم الذين كانوا مع يزيد في معادلة الخير والشر ممّن وقفوا إلى جانب الرمز. وبه يتّضح لنا هذا البعد الهام من أبعاد هذه المعادلة التي يمكن رسمها بالشكل التالي:

الطرف الأوّل: صحابة الرسول

فممّن وقف إلى جانب الإمام الحسين في هذه المعادلة بعض من صحابة النبي الأكرم ، وكان في طليعة هؤلاء حبيب بن مظاهر الأسدي. وكان لهؤلاء سابقة وقدم في الإسلام والجهاد ونصرة الله تعالى ورسوله الكريم ودينه الحنيف.

الطرف الثاني: أصحاب الخندق

إن في جيش يزيد بقية باقية من معسكر الأحزاب، وقد صوّر لنا هذا الأمر بأروع صورة عقيل بن أبي طالب حينما راح يصف جيش أخيه أمير المؤمنين وجيش معاوية لهذا الأخير إذ طلب منه ذلك وقال له: قد مررت بجيش أخي علي بن أبي طالب فما رأيت فيهم إلّا قائماً

وقاعداً، وراكعاً وساجداً كأنه جيش رسول الله صلى الله عليه وآله ولكن الرسول صلى الله عليه وآله ليس فيهم، ومررت بجيشك فما رأيت إلّا قوماً ممن نفّر ناقة رسول الله ليلة العقبة حيث يوجد الطليق وغيره[1].

يقول أحد الشعراء مخاطباً الحسين عليه السلام:

يا أبَا الطفّ ساحة الطفّ تبقى	وعليها مَشاهدٌ لا تزولُ
فهنا والنبيّ يرقب شلواً	مزّقته قناً وداست خيولُ
يزدهيه بأنه وحسين	قصّة الأمس والغد الموصولُ
وبأن الروح الذي حمل السبـ	ـط تراث من النبي أصيلُ
وهنا حشد آل حرب وللخسّـ	ـة في كلّ ما به تذليلُ
وهنا حشد هاشم وهو جذر	ينتمي للشذا وطبع نبيلُ
وستبقى الدنيا وللوضر النتـ	ـن قبيل وللسموّ قبيلُ [2]

فهناك مجموعة خيّرة فيهم بقية من الصحابة التفّت حول رمز الإسلام، فكانوا حماة الإسلام، عاشوا على المبدأ وماتوا دونه وهم يتمنّون لو أنهم نشروا ثم قتلوا ثم نشروا ثم قتلوا يفعل بهم ذلك ألف مرّة لما تركوا رمز الإسلام، فكيف وهي ميتة واحدة؟ هؤلاء المضحون هم الذين جمعهم هذا الرمز الإمام وخطب فيهم قائلاً: «هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً... الطريق غير خطير، والليل ستير، والوقت غير هجير، وأنتم في حلّ من بيعتي. إن القوم يطلبونني، ولو ظفروا بي لذهلوا عن طلب سواي»[3].

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٨٤ ـ ١٨٥، بحار الأنوار ٤٢: ١١٣.

(٢) ديوان المحاضر ١: ٤٠.

(٣) انظر: الدمعة الساكبة ٤: ٢٧٢، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المقرّم): ٢٦٢ ـ ٢٦٥.

فكان جوابهم ما جاء على لسان مسلم بن عوسجة رضي الله عنه حيث قال مخاطباً الإمام أبا عبد الله عليه السلام: أنخلّي عنك ولمّا نعذر إلى الله سبحانه في أداء حقّك؟ أما والله حتى أطعن في صدورهم برمحي، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة. والله لا نخلّيك حتى يعلم الله أن قد حفظنا غيبة رسول الله صلى الله عليه وآله. والله لو علمت أني أُقتل ثم أحيا ثم أُحرق ثم أحيا ثم أُذرى، يفعل ذلك بي سبعين مرّة ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك، فكيف لا أفعل ذلك وإنما هي قتلة واحدة ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً؟

وعلى لسان زهير بن القين رضي الله عنه حيث قال: والله لوددت أني قتلت ثم نشرت ثم قتلت حتى أُقتل هكذا ألف مرّة، وأن الله تعالى يدفع بذلك القتل عن نفسك، وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك.

وعلى لسان محمد بن بشير الحضرمي رضي الله عنه إذ قال له: أُسر ابني بثغر الري فما أُحبُّ أن أبقىٰ بعده حيّاً. فقال له الحسين عليه السلام: «أنت في حلّ من بيعتي». ثم أخرج له من الخيمة خمسة ثياب، وقال له: «اعمل على فكاك ابنك». فقال له: أكلتني السّباع حيّاً إن فارقتك يابن رسول الله[1].

أما الطرف الآخر فمجموعة من الأشرار المرتزقة ممّن اشتروا دنياهم بدينهم، يقول أحدهم:

املأ ركابي فضّة أو ذهبا إنّي قتلت السيّد المهذّبا

قتلت خير الناس أمّا وأبا[2]

---

(١) الإرشاد ٢: ٩٢، روضة الواعظين: ١٨٣، الخرائج والجرائح ١: ٢٥٤، تاريخ الطبري ٤: ٣١٨، البداية والنهاية ٨: ١٩١.

(٢) الأمالي (الصدوق): ٢٢٧، الاستيعاب ١: ٣٩٣.

وهذا هو الفرق بين هذين الطرفين اللذين يمثلان معسكري الحقّ والباطل.. بين معسكرين يحمل أحدهما روح الإيمان والتضحية في سبيل الدين ومعسكر يعشّش الحقد في قلبه، ويتراءى الطمع له أمام عينيه.

ثالثاً: المبادئ التي اصطرع عليها المعسكران

إن هناك فرقاً واضحاً وبيّناً بين معسكري طرفي المعادلة، ويتمثّل هذا الفرق بالمبادئ التي كانت العامل الوحيد وراء نشوب الصراع بينهما، وهو ما يمثل رمزاً جديداً في هذه المعادلة. فالمبادئ التي حملها الإمام الحسين عليه السلام ومعسكره جلية واضحة لكل أحد ـ كما أن مبادئ يزيد ومعسكره واضحة جلية لكل أحد كما سيأتي ـ وكان على رأس هذه المبادئ قول أبي عبد الله عليه السلام: «حدثني أبي عن جدي رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: من رأى منكم سلطاناً جائراً، مستحلاً لحرمات الله، ناكثاً لعهد الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بقول ولا فعل كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله»[1]. فالذي لا يدافع عن الإسلام ضد الظلم والظالمين يكون مصيره مصيرَ الظالم عينه يوم القيامة؛ حيث يؤتى بالظلمة وأعوانهم ومن برئ لهم قلماً أو ألقى إليهم دواة فيلقون جميعاً في نار جهنم.

أما المبادئ التي حملها يزيد فكانت الحقد على الدين وعلى صاحب الدين صلى الله عليه وآله، وطلب الثأر منه ومن أهل بيته عليهم السلام؛ حيث إنّ يزيد كان يردّد بعد ذلك:

ليت أشياخي ببدر شهدوا   جزع الخزرج من وقع الأسل

---

(١) انظر: بحار الأنوار ٤٤: ٣٨٢، تاريخ الطبري ٤: ٢٠٤.

لاستهلّوا وأهلّوا فرحاً ثم قالوا يا يزيد لا تُشل
قد قتلنا القرم من ساداتهم وعدلنا ميل بدر فاعتدل
لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل[1]

وهل في بدر إلّا دماء صحابة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وناصري دين الله من جهة، ودماء من حاربوا دفاعاً عن الصنم من جهة اُخرىٰ؟ إن البعض من الكتّاب يعزون سبب الحرب بين الإمام الحسين عليه السلام وبين يزيد إلى وجود عداوة قديمة بين الاُمويين والهاشميين من أيّام الجاهلية، وبعض آخر يعزوه إلى أنّه صراع على الحكم. ونقول لهؤلاء: إن هذه غفلة أو هو تغافل عن الحقيقة والواقع، فالحسين عليه السلام لم يكن يسعىٰ وراء الحكم[2] أبداً، وإلّا فإنّه (سلام الله عليه) ما الذي كان يبتغيه من كرسي يجلس عليه أياماً ثمَّ يخلّفه وراءه؟ كان أحد الخلفاء الأمويين حينما يريد الحجّ أو السفر لمكان ما يسوق معه ستمئة جمل لحمل ثيابه فقط، أما أمير المؤمنين عليه السلام فكان يقول وهو على سدّة الحكم: «ولقد رقعت مدرعتي حتىٰ استحييت من راقعها، وحتىٰ قال لي قائل: ألا تنبذها عنك؟ فقلت اعزب عني، فعند الصباح يحمد القوم السرىٰ»[3].

وكان عليه السلام يقول: «ما لعلي ولنعيم يفنىٰ ولذة لا تبقىٰ؟»[4].

إذن ما الذي كان الحسين عليه السلام سيجنيه من وراء الحكم؟ وما الذي سينتفع به

---

(١) انظر: تاريخ الطبري ٨: ١٩٣، شرح نهج البلاغة ١٥: ١٧٨، البداية والنهاية ٨: ٢٠٩، الأخبار الطوال: ٢٦٧.

(٢) وإلّا لما قال عليه السلام لأصحابه ليلة العاشر من المحرم: «هذا الليل قد غشيكم» كما مرّ.

(٣) نهج البلاغة / الخطبة: ١٦٠، عيون المواعظ والحكم: ٤٠٥.

(٤) نهج البلاغة / الكلام: ٢٢٤.

منه؟ هل كان عليه السلام يريد الأموال أم أنه كان يريد الشهرة؟ كلا إنه عليه السلام كان في غنىً عن كل ذلك؛ فالأموال كان من الممكن أن ينالها بسهولة بمداهنة نظام الحكم، فضلاً عن صدقات أبيه عليه السلام، أما الشهرة فهو عليه السلام لا يريد أكثر من هذه الشهرة التي حازها بعد الشهادة، حيث إنه ليس هناك شخص يؤمن بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وليس في قلبه حبّ ومكانة له، فهو ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله، وحبيبه ونحن نحبّ من يحبّه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله. فعرش الحسين عليه السلام في قلوب المؤمنين منذ (١٤٠٠) سنة، وهذا ثراه شاهداً على ذلك وهو يزداد ألقاً وبريقاً، ويغزو كل أنحاء المعمورة.

رابعاً: الإسلام بين حفاظ الحسين وتضييع يزيد

وهنا يبرز وجه رابع لهذه المعادلة وهو إصرار الإمام الحسين عليه السلام على تثبيت نظم الإسلام وقواعده وأسسه، وإصرار يزيد على محق الإسلام وحامليه. وهكذا فإن سيّد الشهداء والأحرار عليه السلام اجتمع مع عمر بن سعد ليلة العاشر من المحرّم وقال له: «أتزعم أنك تقتلني ويولّيك الدعيّ ابن الدعيّ ملك الريّ؟ والله لا تتمتّع بعدي ببرّ العراق إلّا قليلاً». فقال له عمر: أخشى أن يأخذ ابن زياد أموالي. فقال له الحسين عليه السلام: «أنا أعوّضك عنها». قال ابن سعد: أخشى أن يهدم داري. فقال له عليه السلام: «أنا أبني لك خيراً منها»[1].

فالإمام عليه السلام يلفت نظره إلى الفارق بينهما وبين موقفيهما، هو أنه لم يخرج لقتاله إلّا طلباً للدنيا ولإشهار سيفه بوجه المجاهدين في سبيل اللّه، والجهاد ديدن الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه، أمّا يزيد فهو ابن أبي سفيان

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ١٠، تاريخ مدينة دمشق (ترجمة الإمام الحسين عليه السلام): ٤٢٥، مقتل الإمام الحسين (الخوارزمي): ٢: ٦٠٢.

الذي قال حينما دخل المدينة: تلاقفوها يابني أُميّة تلاقف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان، ما من عذاب ولا حساب، ولا جنة ولا نار، ولا بعث ولا قيامة، وإنما هو المسلك[1]. وهذا النموذج المخزي إلى الآن هناك من يسميه شيخ الأرض، وهناك من يطلق عليه صبغة الإسلام ويترحّم عليه، أمّا من يقول:

فاصدع بأمرك ما عليك مخافة ... وابشر وقرّ بذاك منك عيونا

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البريّة دينا[2]

وهو الذي بذل كل ما عنده من مال وطاقة في خدمة الإسلام ورسول الإسلام صلى الله عليه وآله فيطلق عليه لقب كافر، وهذا هو ديدن التاريخ الجائر الظالم، وهذه هي مصيبتنا بمن كتبوه وأرّخوه.

المبحث الثاني: الحسين عليه السلام وليلة العاشر من المحرم

لقد كان لهذه الليلة خصوصية كبيرة وأهمية قصوىٰ عند الإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام؛ حيث إنّه عليه السلام أعطى فيها مثلاً رائعاً في الصبر والإيمان والانقياد لله تعالىٰ والرضا بقضائه والتسليم بقدره. وهنا عدّة نقاط يمكن إجمالها بالتالي:

---

(١) شرح نهج البلاغة ٢: ٤٥، ٩: ٥٣ ـ ٥٤.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ٨٩، تاريخ اليعقوبي ٢: ٣١، السيرة النبوية ١: ٤٦٤، الجامع لأحكام القرآن ٦: ٤٠٦، زاد المسير ٣: ١٧، البداية والنهاية ٣: ٥٦، فتح الباري ٧: ١٤٨، شرح نهج البلاغة ١٤: ٥٥. وقد قال ابن أبي الحديد ولله دَرّه:

ولولا أبو طالبٍ وابنُهُ ... لما مُثّل الدّين شخصاً فقاما

فذاك بمكّة آوىٰ وحامىٰ ... وهذا بيثرب جسّ الحماما

فلله ذا فاتحاً للهدىٰ ... ولله ذا للمعالي ختاما

شرح نهج البلاغة ١٤: ٨٤.

أوّلاً: إحياؤه عليه السلام إياها بالعبادة

إنّ الإمام الحسين عليه السلام أحيا هذه الليلة بالعبادة وقراءة القرآن والتهجّد حتى الصباح، جاعلاً شأنها في ذلك شأن ليلة عيدي الفطر والأضحىٰ وليلة النصف من شعبان. وعندنا روايات عديدة حول إحياء هذه الليلة بالعبادة والذكر والتهجّد، وبتذكّر مصيبة الحسين عليه السلام وأصحابه وأهل بيته وتضحياتهم وما جرىٰ عليهم صبيحتها. فإحياؤها؛ للتأسّي بالإمام الحسين عليه السلام وتذكّر مصيبته وتضحياته، وبالكم الهائل من الدماء النقية الطاهرة التي أُريقت من أجل الإسلام ورفعة شأنه، فهي ليلة عبادة وورع وتفكّر واقتداء بفعل أبي الأحرار عليه السلام.

ثانياً: صيام يوم عاشوراء

هناك روايات عند أهل السنة، بل وحتى عند الشيعة تنصّ على صيام عاشوراء أو في صبيحته، دخل الفضل بن عبد الله الهاشمي على الإمام الصادق عليه السلام فقال له: ما أعظم هذا اليوم! فقال له عليه السلام مبيّناً له هذا الأمر: «هذا اليوم أُدمي فيه قلب النبي، وهو يوم حزن ويوم لوعة». فقال له: فلماذا يعتبره بعض الناس يوم فرح؟ فقال عليه السلام «حينما قتل الحسين عليه السلام أراد الناس أن يتقرّبوا إلى بني أُميّة؛ فرووا لهم روايات في هذا الشأن».

ونقول في هذا الصدد: إن الصيام فريضة من الله تعالىٰ، بل من أجلّ فرائضه، فيجوز حينئذٍ الصوم من غير نيّة مبيّتة، وبهذا يكون المرء قد عمل عملاً يتقرّب به إلى الله تعالىٰ ويحصل عليه الأجر والثواب. غير أنّ هناك من يصوم تشفّياً بالحسين عليه السلام وفرحاً بقتله وقتل أهل بيته وأصحابه، وهذا الصوم باطل، بل إن من يفعل ذلك لا يمكن أن يكون مسلماً؛ لأن

المسلم لا يفرح بقتل ابن بنت رسول صلى الله عليه وآله وسلم وريحانته وسيد شباب أهل الجنة[١]؛ لأنه بذلك يعاند القرآن[٢] والإسلام، ومن عاندهما خرج عن الملّة. ومع كل هذا نجد في باب (صرد) من (حياة الحيوان) روايات تنصّ على عدم جواز قتل الصرد؛ لأنه كان يصوم عاشوراء[٣]، وهذه إحدى الروايات المضحكة التي وردت في هذا الباب.

فروايات صوم عاشوراء تصحّ إن كان الداعي إلى الصوم طلب القربة إلى الله تعالىٰ وابتغاء رضاه، لكن على كراهة لأنه يوهم بالفرح في يوم حزن النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنه صلى الله عليه وآله وسلم يحزن في مثل هذا اليوم الذي فقد فيه ريحانته وولده وبقية أهل بيته وأصحابهم.. يحزن فيه لمقتل السبط الذي قال فيه وفي أخيه الحسن عليه السلام: «اللهم إني أُحبّهما، فأحبّهما»[٤]. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «من أحبّهما فقد أحبّني، ومن أحبّني فقد أحبّ الله، ومن أبغضهما فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله»[٥] وقال: «أحبّ الله من أحبّ حسيناً، وأبغض الله من أبغض حسيناً»[٦].

وهكذا فإن صوم يوم عاشوراء إن جاء بنيّة معاندة أهل البيت عليهم السلام وفرحاً بمصائبهم كان صوماً باطلاً؛ لأن معاندة أهل البيت عليهم السلام معاندة لحملة

---

(١) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ٢٠، ٥٨، ٧٦، مسند أحمد ٣: ٣، ٦٢، ٦٤، ٨٢، ٥: ٣٩١، ٣٩٢، سنن ابن ماجة ١: ٤٤، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢١، ٣٢٦، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٦٧، ١٦٧، ١٦٧، ٣٨١، صحيح مسلم بشرح النووي ١٦: ٤١، وغيرها كثير.

(٢) حيث أمرنا بمودّة أهل بيت النبي وطاعتهم.

(٣) حياة الحيوان ١: ٦١٣ ـ ٦١٤، ونقل عن الحاكم أنه من وضع قتلة الإمام الحسين عليه السلام.

(٤) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢: ٢٦.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) مسند أحمد ٤: ١٧٢، سنن ابن ماجة ١: ٥١، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢٤، وغيرها كثير.

الإسلام والقرآن بل ومعاندة للإسلام والقرآن أنفسهما، ومراغمة لرسول الله صلى الله عليه وآله، وبهذا يكون خارجاً عن الدين والملّة. أمّا إذا كان صوم عاشوراء لسرّ ما يطمئن إليه الصائم ويتقرّب به إلى الله تعالى دون أن يُشم منه رائحة المراغمة لرسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام فلا بأس؛ ذلك أنّ الصوم شعيرة مستحبّة.

ثالثاً: الاعتبار بهذه الليلة ويومها والإفادة من دروس النهضة

وفي مثل هذه الليلة وصبيحتها يمكن أن نستجلي التاريخ لنستفيد منه نعتبر به، ولنتّعظ، ونتذكّر أهداف هذه الثورة المباركة والنهضة الشريفة. إن الواجب على كل مسلم ألّا ينساق وراء الجانب العاطفي فقط، وألّا يقع تحت طائلته أو يكون فريسة له دون أن يغلب عليه الجانب الواقعي ويحقّق الأهداف الكريمة والنبيلة التي من أجلها قام الإمام الحسين عليه السلام بنهضته المباركة هذه، ودون أن نتأسّى بما يواسي رسول الله صلى الله عليه وآله ويتأسّى به. إنّ الجانب العاطفي مطلوب هنا لكن ليُقتصر منه بما نعبّر عنه بقولنا ونحن نزوره عليه السلام: «السلام على الحسين بن علي المظلوم الشهيد، قتيل العبرات وأسير الكربات»[1]. وقد قال الإمام الحسين عليه السلام مصوّراً هذه الحال: «أنا قتيل العبرة». ومعناه ما ذكرت عند أحد إلّا استعبر وبكى[2].

فنحن نستعبر ونبكي لمصيبة سبط الرسول صلى الله عليه وآله؛ لأن الجانب العاطفي جذوة لا يمكن إخمادها أو تجاهلها مهما امتد الزمن، لكن هل نقتصر من هذه النهضة النبيلة على البكاء فقط دون أن نستجلي أبعادها ومضامينها؟

(١) المزار (المشهدي): ٤٢٤. الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ٣٤٢.

(٢) مجمع البحرين ٣: ١١١ ـ عبر. قال: ومنه حديث الحسين عليه السلام.

طبعاً لا؛ إذ أننا لابدّ أن نستجلي الموقف الذي وقفه أبو الشهداء والأحرار عليه السلام يوم العاشر من المحرّم، وأن نستفيد من دروس هذه النهضة المباركة في حياتنا الجهادية والدينية والاجتماعية. ودروس هذه المدرسة وهذه الحركة الحسينية كثيرة، نذكر منها:

الدرس الأوّل: الصبر

يذكر المؤرّخون أن الإمام الحسين عليه السلام كان يصبّر نفسه على ما سيقع عليه يوم العاشر من المحرّم الحرام؛ لأنه يعلم ما سيقع عليه، فضرب لنا أسمىٰ المواقف وأروع الأمثلة في ذلك، كان عليه السلام يشير برأسه الشريف إلى السماء ويقول: «اللهم أنت ثقتي في كلّ كرب، ورجائي في كلّ شدة، وأنت لي في كلّ أمر نزل بي ثقة وعدّة، كم كرب يضعف منه الفؤاد، وتقلّ فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق، ويشمت فيه العدوّ، أنزلته بك وشكوته إليك؛ رغبة مني فيه إليك عمن سواك، ففرّجته وكشفته وكفيته! فأنت ولي كلّ نعمة، وصاحب كلّ حسنة، ومنتهى كلّ رغبة»[1].

وبهذا فإن الإمام الحسين عليه السلام أعطى درساً عظيماً بالغ الأهمية في التضحية والفداء والتسليم لله تعالى والرضا بقضائه وقدره عند نزول النكبات بنا؛ كي نلجأ إلى الله سبحانه وتعالىٰ ونزرع الثقة في نفوسنا به، ونضرع إليه تعالى عند حدوث ذلك.

وهكذا وقف الإمام السبط الشهيد وصبر وتحمّل مع علمه بكل ما سيجري عليه وعلى عائلته.. العائلة التي كانت معه والتي تعرّضت لأقسى المواقف وأعتاها من قبل زمر يزيد وأزلامه.

---

(١) الإقبال بالأعمال الحسنة ١: ٣٢٢.

الدرس الثاني: المفاداة

لقد قدّم الحسين عليه السلام نفسه وأهل بيته وأصحابه وعائلته فداءً لدين الله تعالى ونصرة للحقّ، وقد وضع ثقته كلّها بأخته العقيلة زينب عليها السلام لتحمل أعباء هذه النهضة بعد مصرعه وأصحابه وأهل بيته؛ لعلمه بما سيقع عليه وعليهم، ولعلمه بأن جذوة هذه النهضة لن تنطفئ، ولأنه عليه السلام عزم على ألّا تنطفئ وتذهب هذه التضحيات سدى؛ ولذا فإنّه عليه السلام جلس في ليلة العاشر من المحرم إلى أخته زينب عليها السلام يوصيها بما ينبغي أن تقوم به من بعده حيث إنها عليها السلام كان لها نيابة خاصّة عنه عليه السلام وكان مما أوصاها به أن قال على ما يرويه الشيخ الصدوق رحمه الله: «دخلت زينب على الحسين عليه السلام ليلة العاشر وهو يقرأ القرآن، فوضع القرآن على المحراب وتوجّه إليها واشترك معها في المصائب. ثم أوصاها، يقول السجّاد عليه السلام: «فلمّا سمعت ما سمعت وهي امرأة، ومن شأن النساء الرقّة والجزع، لم تملك نفسها أن وثبت تجرّ ثوبها حتى انتهت إليه، فقالت: واثكلاه! ليت الموت أعدمني الحياة، اليوم ماتت أُمّي فاطمة وأبي علي وأخي الحسن، يا خليفة الماضي وثمال الباقي. فنظر إليها الحسين عليه السلام وقال لها: يا أُخية، تعزّي بعزاء الله، لا يذهبن بحلمك الشيطان. وترقرقت عيناه بالدموع، وقال: ولو ترك القطا ليلاً لناما»[١].

فهو عليه السلام قد وضع زينب أمام الصورة الحقيقيّة وأخبرها بأنها ستواجه نهار العاشر من المحرّم أمرين: الأول أجساد صرعى ودماء، وأنها ستراه قتيلاً

---

(١) الأمالي (الصدوق): ٢٢١، وانظر: الإرشاد ٢: ٩١ ـ ٩٢، روضة الواعظين: ١٨٣، الخرائج والجرائح ١: ٢٥٤، اللهوف في قتلى الطفوف: ٨٨، بحار الأنوار ٤٤: ٣٩١، تاريخ الطبري ٤: ٣١٤ ـ ٣١٩، الكامل في التاريخ ٢: ٥٥٨، البداية والنهاية ٨: ١٩٠ ـ ١٩٢، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٤٤، مقتل الحسين (الخوارزمي) ١: ٢٤٩.

على التراب مغسّلاً بدمه، والثاني السبي وآلام السياط.

فهو عليه السلام يريد منها أن تقف إلى جانبه كما وقفت جدّتها خديجة الكبرى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وكما وقفت أمها فاطمة الزهراء مع أمير المؤمنين عليه السلام، وطلب إليها أن تشرح أسباب النهضة ودواعيها، ثم أوصاها بألّا تخاطبه بلغة الدمع. وكانت فعلاً على مستوى المسؤولية التي أناطها بها أخوها الشهيد عليه السلام، ووقفت مواقف صلبة ينهار فيها وأمامها أشدّ الرجال:

لا يـــنشغل بـالك عليه وحقك لارج الغـاضريه

وكان لها موقف عظيم حتى قبل أن يستشهد الحسين عليه السلام؛ فقد كان عليه السلام يأتي بالقتلى من بني هاشم في اليوم العاشر من المحرم إلى خيمتها، وهي صامدة لا يعتريها شيء من الوهن.

وكان عليه السلام قد قصد خيمة السجّاد عليه السلام بعد أن أوصى زينب، وبيّن له بأنه الامتداد لخطّ رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام وخط الحسنين عليهما السلام، وأن عليه أن يرعى العائلة من بعده. ثم خرج من عنده تحت جنح الليل قاصداً خيمة أصحابه، ليصارحهم بحقيقة الموقف، فجلس إليهم وقال لهم: «اجلسوا جزاكم الله خيراً، هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً... الطريق غير خطير، والليل ستير، والوقت غير هجير، وأنتم في حلّ من بيعتي. إن القوم يطلبونني، ولو ظفروا بي لذهلوا عن طلب سواي»[1].

فأجابه أصحابه بما أدخل السرورر على قلب الرسول صلى الله عليه وآله، وقال له ابنه الأكبر: وما قيمة الحياة بعدك يابن رسول الله؟

فخرج الحسين عليه السلام وهو مملوء ثقة بأهل بيته وأصحابه، فأحيا هذه الليلة

---

(١) انظر: الدمعة الساكبة ٤: ٢٧٢، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المقرّم): ٢٦٢ ـ ٢٦٥.

معهم، وكان لهم فيها دوي كدوي النحل وهم بين قائم وقاعد وراكع وساجد.

ثم جاء دور الدموع، فمرَّ على ابنته سكينة ورآها مطرقة واضعة رأسها بين ركبتيها فقال لها: «بنية ما هذا؟» قالت: أبه وكيف لا أبكي وسيرحل عنا كفيل الأرامل والأيتام؟ فقال ﷺ لها:

«سيطول بعدي يا سكينه فاعلمي ... منك البكاء إذا الحمام دهاني
لا تحرقي قلبي بدمعك حسرة ... ما دام مني الروح في جثماني
وإذا قتلت فأنت أولى بالذي ... تأتينه يا خيرة النسوان»[1]

مسح ﷺ دموعها وأمرها بالتعزّي والصبر، ثم رجع إلى الخيمة ليودّع زينب، فتعلّقت بثوبه وانفجرت بالدموع والبكاء:

وصيت من ياحسين بينه ... من تجبل الغاره علينه
حريم وغرب شنهو حچينه ... لا تعتذر يابو سكينه

* * *

يا خويه وصوا بنا گبلن ترحلون ... گبلن على الغبره تنامون
يا حسين منته نور العيون

وكانت له جلسه مع الرباب، فأخذ رضيعها وقال: «غداً ستفارقينه، وترينه مضروباً بسهم حرملة».

ثم مرّ ﷺ بأصحابه فسمعهم يقولون: أنحن نتقدّم بني هاشم، أم ندع ساداتنا يتقدّمونا؟ فقال لهم حبيب: إنما طلّقتم حلائلكم وأعرضتم عن

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٧، ينابيع المودة ٣: ٧٩ ـ ٨٠.

زهرة دنياكم من أجل أن تفدوا الحسين عليه السلام وأهل بيته، إني أُحبّ أن أرى دماءكم دون دماء ساداتكم. ثم مرّ بمخيّم بني عبد المطلب فسمع العباس يقول: ليس بينكم وبين لقاء القوم إلّا سواد هذه الليلة، فإذا أُصبح الصباح فتقدّموا أصحابكم، ولا تجعلوهم يتقدمونكم. فلما سمعوا ذلك رموا عمائمهم، وأخذوا صوارمهم، وقالوا: إنما خرجنا لنضحّي بين يدي أبي عبد الله. فقال: هلمّوا معي لنسكّن رعب النساء. وتبعه حبيب ومن ورائه الرجال، ووقفوا عند مخيم الحوراء زينب:

آه يــاليل كـلّك ولم ونـياح عسى لا يمرّ عليك مـصباح

عدنا اشبدال حسين لو راح

﴿٣٢﴾

السبط المخلّد عليه السلام

تُسامرني والكائناتُ هجوعُ	بدنياك في قلبِ الظلام شموعُ
سهرتُ عليها الليلَ أستلهمُ الرُّؤى	فألهمني ممّا وهبتَ نجيعُ
نجيعٌ مشى عبر القرونِ بخِصبِهِ	فلا دهرَ إلّا من حَباهُ ربيعُ
تفجّر فيه العنفوان فللدما	شموخ وللسيف المذلّ خضوعُ
وعند الرمال السمر من دم ثائر	عبير إذا هبّ النسيم يضوعُ
تنشّقه شمّ الأنوف ولم يكن	لينشقه أنف أذلّ جديعُ
أبا الشهداء الواهبين وجوههم	نجوماً لها عند القتامِ طلوعُ
همُ من جذور الأنبياء وشائج	ومن شجرات الأنبياء فروعُ
غرست بهم أرضَ الطفوفِ فبرعموا	وهاهُمُ قد جدّ الزمان فروعُ
توعّدهم دنيا الفداءِ فيستوي	بها طاعنٌ في سنّه ورضيعُ

المباحث العامّة للموضوع

المبحث الأوّل: سرّ خلود الحسين عليه السلام

لابدّ لنا من وقفة في هذه الليلة الكبيرة بعطائها؛ لنجتلي سرّ خلود الإمام أبي الأحرار وأبيّ الضيم أبي عبد الله الحسين عليه السلام الذي يمتدّ في كل أبعاد الدنيا. وهذا كلام حقّ وواقع ليس فيه أدنى مبالغة؛ فما من بلد فيه

مجموعة من المسلمين أو جبهة إسلامية، أو جماعة حتّى لو كانوا ممّن لا يحسب على شيعة الحسين عليه السلام من باقي الفرق والمذاهب الإسلامية إلّا وللحسين عليه السلام دويّ فيه يردّد أصداءه تأثّرهم وتفاعلهم مع حركته عليه السلام. ولابدّ أن يكون لهذا سرّ يدفع الناس لفعلهم هذا، ولتجاوبهم مع أصداء هذه الحركة المباركة.

وهذا الخلود لم تكن الطرق إليه معبّدة سهلة؛ لما وضع فيها من صوارف كثيرة، ومحاولات مضادّة حاولت جهد إمكانها أن تبعد الحسين عليه السلام عن الساحة الإسلامية، لكنه عليه السلام أصرّ فتجذّر وتعمّق وامتدّ إلى تخوم الساحة. ولنا أن نسأل الآن: ما هو سرّ هذا الخلود مع كل المحاولات التي بذلت لإعاقته كما سيمرّ علينا؟ إنّ هناك عدة أمور تفسّر لنا سرّ هذا الخلود، نذكر منها:

الأوّل: إرادة الله تعالى في تخليد رسالات الأنبياء وأوصيائهم عليهم السلام

لقد شاءت الإرادة الإلهية المقدّسة أن تخلّد رسالات الأنبياء وأدوار أوصيائهم عليهم السلام والمصلحين من بعدهم، أي ما هو من سنخ رسالات الأنبياء عليهم السلام التي يلخّصها القرآن الكريم بقوله: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[1]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[2].

فمهمة رسالات الأنبياء عليهم السلام هي إحياء البشر وإنقاذهم وهذا لا يكون ولا يستمرّ إلّا بتخليد تلك الرسالات؛ ولذا فإنّه تعالى آلى على نفسه أن

---

(١) الحجّ: ٤١.
(٢) الأنفال: ٢٤.

يخلّد رسالاتهم عليهم السلام لهذا الغرض. وبطبيعة الحال إنّ رسالات الأنبياء عليهم السلام تنبع من صميم الحياة، وكل مجتمع يريد الحياة ويرغب في البقاء ويصارع من أجله، وهذا مايجعل هذه الرسالات خالدة وإلّا لم تكن كذلك. فضلاً عن أن أهم وسيلة من وسائل التمسّك بالحياة والدفاع عنها، ووسائل الصراع من أجل البقاء هي وسيلة التمسك بالفكر والرأي اللذين يعتقدهما الإنسان ويعتنقهما.

ورسالات الأنبياء عليهم السلام لا تخرج عن هذا الخطّ، لأنّها عبارة عن منظومة فكرية وسياسية واقتصادية متكاملة تستهدف حياة المجتمعات إصلاحاً وتعبئة وتنمية؛ ولذا كانت في طليعة الحركات التي تقف بوجه ظلم الإنسان أخاه الإنسان، واستغلاله واستغلال حقوقه، ولتوفّرَ للناس الرغيف والكرامة والحرّية. فهذه هي رسالات الأنبياء عليهم السلام وقد جعل الله تعالى لها وسائلها الخاصّة والتي وضعها فيها لتحقيق ذلك.

فكل رسالة من هذا النوع لابدّ أن تخلّد لتحقيق هذه الأهداف السامية، وكل رسالة من رسالات السماء لها أهدافها التي تقوم من أجلها ومبرّراتها التي تدفعها لذلك القيام، والتي تجيب عن أي تساؤل ربما يخطر في ذهن البعض. وهذا هو شأن ثورة الإمام الحسين عليه السلام، فهي ثورة رسالية لها أهدافها التي قامت من أجلها. وبمعرفة هذا الأهداف التي تمثّل وجه الحقّ نعرف سرّ خلود هذا الثائر العظيم. فهل ثار الإمام الحسين لأجل كرسي هو عينه الذي جلس عليه مروان؟ وهل مثل هذا الكرسي يمكن أن يكون فيه رجاء؟ يقول أحد الشعراء:

إنـي أتـيتُك أجتليك وأبـتغي ... وِرداً فـعندك للـعطاش مـعينُ

وأغضُّ من طرفي أمام شوامخٍ ... وقـع الزمـان وأُسُّـهُنّ مـتينُ

وأراك أكبرَ من حديث خلافةٍ يستامُها مروانُ أو هارونُ

لك بالنفوس إمامةٌ فيهونُ لو عصفت بك الشورى أو التعيينُ

فدع المعاول تزبئرّ قساوة وضراوة إن البناء متينُ[(١)]

الثاني : إخلاص الإمام الحسين عليه السلام في حركته

لقد كان همّ الإمام الحسين عليه السلام أن يوصل مضامين رسالة جده صلى الله عليه وآله التي هي رسالة السماء إلى النفوس ، وهذه المضامين لا يمكن أن تأتي أو توصل إلى الناس عن طريق عروش زائفة ، وإنما عن طريق القنوات الروحية التي تعانق القلوب والعقول والنفوس فتفعل فيها فعلها . والإمام الحسين عليه السلام هو ابن الرسالة وابن بيت النبوّة ؛ ولذا فإنّ بمقدوره أن يشق قنوات عدّة إلى الأرواح دون أن يكون بحاجة إلى عرش أو كرسي لإيصال تلك المضامين إليها .

وهذا تاريخ المسلمين على امتداده شاهد على ما نقول ، فمن من الخلفاء استطاع أن يوصل رسالة السماء إلى الناس عن طريق كرسيّه أو عرشه؟ هل استطاع ذلك عبد الملك أم ابنه الوليد أم الوليد بن يزيد أم مروان الحمار أم الواثق العبّاسي أو غيره من الخلفاء؟ إنّ هؤلاء في حقيقة الأمر لم يكن يهمّهم سوى أن يكونوا على قمة الهرم ليس إلّا ، أما إيصال مضامين الإسلام إلى الناس وفتح نفوسهم أمام رسالة السماء وفتح الآفاق أمام رسالات الأنبياء كي تلج تلك النفوس وتصل إليها فليس هذا من همّهم[(٢)] ، وهي أُمور لا تصل إلينا إلّا عن طريق القنوات الروحية كما

---

(١) ديوان المحاضر ١ : ٢٠ .

(٢) وكدليل على هذا ما فعله المنصور مع ابن هرمة الشاعر ، وكان صديقاً له ، فقد وفد على المنصور وسأله : أن يوعز إلى الشرطة والولاة بألّا يلاحقوه على شربه الخمرة وألّا يقيموا

أسلفنا.

أهداف نهضة الإمام الحسين عليه السلام

وإذا تحقّق هذا فعندها نقول بلغة الواثق المطمئن: لا يعني الحسين عليه السلام أن يجلس على كرسي أو لا يجلس، والدليل على هذا أنّ التاريخ يحدّثنا أنّ هشام بن عبد الملك مثلاً كان لا يخرج في سفر له إلّا ويخرج معه ستمئة جمل يحمّلها بزينته وثيابه، أمّا علي بن أبي طالب عليه السلام فيقول: «ولقد رقعت مدرعتي حتىٰ استحييت من راقعها، وحتىٰ قال لي قائل: ألا تنبذها عنك؟ فقلت اعزب عني، فعند الصباح يحمد القوم السرىٰ»[1].

ولم يكن القميص الذي كان يلبسه سوىٰ قطيفة جاء بها معه من المدينة، وهو الذي خرج به من الدنيا، وقال له هارون بن عنترة وقد رآه يرعد تحت سمل قطيفة: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قد جعل لك ولأهل بيتك في هذا المال ما يعمّ، وأنت تصنع بنفسك ما تصنع؟ فقال عليه السلام: «والله ما أرزأكم من أموالكم شيئاً، وإن هذه لقطيفتي التي خرجت بها من منزلي من المدينة ما عندي غيرها»[2]. فهو عليه السلام يقول لهم: إن خرجت من الدنيا بغيرها فأنا خائن لكم.

عليه الحدّ فيها، فقال المنصور: لا أستطيع أن أعطّل حدّاً من حدود الله أمام الناس، ولكن اذهب وسأحتال لك.

ثم بعث المنصور إلى الوالي بأن إذا جاءك من يشهد عندك أن ابن هرمة شرب الخمرة، فاجلد ابن هرمة الحدّ ثمانين سوطاً، واجلد من شهد عليه مئة سوط. فراح ابن هرمة يسكر علانية وينادي: من يشتري ثمانين بمئة؟ فلم يتجرّأ عليه أحد. جواهر المطالب ٢: ٣١١، تاريخ مدينة دمشق ٧: ٧٣.

(١) نهج البلاغة / الخطبة: ١٦٠، عيون المواعظ والحكم: ٤٠٥.

(٢) كشف الغمّة ١: ١٧٢، بحار الأنوار ٤٠: ٣٣٥ - ٣٣٤ / ١٥.

وهذا هو الذي كان يريده أميرالمؤمنين من الخلافة[١]، وليس الطعام الهنيء أو اللباس الناعم أو السلطان، بل إنه عليه السلام كان يكدّ ويتعب، ثم يتصدّق بما يكسبه على الفقراء والمساكين، ويقنع بقليل من الخبز أو بشيء من التمر يأكله، ثم يمسح بيده على بطنه ويقول: «من أدخله بطنه النار فأبعده اللّه»[٢].

يقول سويد بن غفلة: دخلت عليه وهو في طريقه إلى الحجاز، فوجدت جراباً معلقاً ومختوماً، فلما حان وقت الظهر أنزل ذلك الجراب ومد يده فيه ثم أخرج شيئاً من السويق، فقلت: يا سيدي، أراك قد أغلقته! قال عليه السلام: «أوَتظن ذلك لبخل؟ لا واللّه ولكن هذا طعامٌ من أرض أنا أزرعها منذ كنت بالحجاز، والآن يزرعها أهلي ثم يبعثون لي منها، وأنا آكل منه ولا أُحبّ أن يدخل بطني إلّا الطعام الطيب»[٣].

---

(١) فهو عليه السلام يقول: «لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ اللّه على العلماء ألّا يقارّوا على كظّة ظالم ولا سغب مظلوم لألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز». نهج البلاغة / الخطبة: ٣ المعروفة بالشقشقية.
ودخل عليه ابن عباس رضي الله عنه فوجده يخصف نعلاً، فقال له: نحن إلى أن تصلح أمرنا أحوجُ منّا إلى ما تصنع. فلم يجبه حتى فرغ من نعله، ثمّ ضمّها إلى صاحبتها ثم قال عليه السلام له: «قوّمهما». فقال له: ليس لهما قيمة. قال: «على ذاك». قال: كسر درهم. فقال عليه السلام: «واللّه لهما أحبّ إليّ من أمركم هذا إلّا أن أُقيم حقّاً أو أدفع باطلاً». الإرشاد ١: ٢٤٧، الجمل: ١١٣.

(٢) الدعوات: ١٣٨ / ٣٤٠، مناقب أمير المؤمنين عليه السلام (محمد بن سليمان) ٢: ٨٢ / ٥٦٧، بحار الأنوار ٤٠: ٣٤٠ / ٢٦، كنز العمال ٣: ٧٨٢ / ٨٧٤١، تاريخ مدينة دمشق ٤٨: ٢٣٠.

(٣) بل إن الأمر تعدّاه عليه السلام إلى أصحابه: فقد أرسل معاوية هدية ضخمة فيها شيء من الحلواء، أبي الأسود الدؤلي، وكتب معها كتاباً يطلب منه فيه ألّا يساعد عليه إن لم يشأ أن يساعده. فلما قدمت الهدية تناولت منها ابنته لقمة من الحلواء، فقال لها أبوها: ألقيها يا بنيّة؛ فإنها السم من معاوية يريد به أن يخدعنا عن أمير المؤمنين عليه السلام. فقالت: قبّحه اللّه، يريد أن

فهذا طعامه وهذه ثيابه، أمّا بيته فكان عبارة عن كوخ إذا قام ضرب السقفَ رأسُه، مسيّج بالبواري والحصر، أمّا ما خلّفه حين وفاته عليه السلام فكان سبعمئة درهم أراد أن يشتري بها خادماً لأهله؛ لتعينهم على أمور الطحن وأعمال البيت، فعاجلته الشهادة[1]، فهل هذا شأن طامع بالخلافة[2]؟ فالإمام الحسين عليه السلام لو كان يطلب الخلافة لما عدا فعله فعل أبيه أمير المؤمنين عليه السلام هذا، ولما جاوزه، ولما تفاوت منهجه وهذا المنهج قيد أنملة؛ لأنه منهج جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله ومنهج أخيه الحسن عليه السلام كذلك. وعلى هذا فإننا نخرج بنتيجة هي أنّ الحسين عليه السلام لم يخرج طلباً للدنيا[3]، ولم يكن الدافع وراء نهضته المباركة الوصول إلى الكرسي؛ فالأحداث كلها تبرهن على خلاف هذا. إننا بعد أن نستقرئ التاريخ بدقة نجد أن الإمام الحسين عليه السلام؟ لم يكان يريد مكانة في نفوس المسلمين، ولم يبغِ

يخدعنا بالشهد المزعفر عن السيد المطهر؟ تبّاً لمرسله وآكله، ثم عالجت نفسها حتى قاءت ما ابتلعته، وأنشدت تقول:

أبالعسل المصفّى يا بن هندٍ | نبيع عليك أحساباً ودينا
معاذ الله كيف يكون هذا | ومولانا أمير المؤمنينا

الكنى والألقاب ١: ١٠.

(١) الإمامة والسياسة ١: ١٦٢، الفتوح (ابن أعثم) ٤: ١٤٦، الاستيعاب (هامش الإصابة) ٣: ٤٨، تاريخ الإسلام ٢: ٢٠٧. وقد أمر عليه السلام بردّه إلى بيت المال بعد وفاته كما في الفتوح ٤: ١٤٦.

(٢) قد مرّ ما تركه بعض الصحابة من أموال عظيمة تسدّ ما بين الرجلين الواقفين، أو ما يكسر بالفؤوس من الذهب والفضة في محاضرة (أمّية الرسول صلى الله عليه وآله) ج ٤ من كتابنا هذا.

(٣) وهاهي قولته الشهيرة التي شقت الأجواء صارخة: «إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا ظالماً ولا مفسداً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدّي صلى الله عليه وآله، وأن أسير فيهم بسيرة الحقّ: فمن قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بقبول الحقّ. ومن ردّ عليّ هذا أصبر حتى يحكم الله وهو أحكم الحاكمين». بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩.

ذلك؛ لأنّه عليه السلام سيّد شباب أهل الجنة[١]، وله في قلب كل مسلم طاهر عرش؛ فهو حبيب رسول الله صلى الله عليه وآله، ومن أحبّه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يجب علينا أن نحبّه[٢]، وهو صلى الله عليه وآله القائل: «لا يؤمن عبد حتى أكون أحبّ إليه من نفسه وولده»[٣].

والإمام الحسين جزء من رسول الله صلى الله عليه وآله[٤] الذي كان يعتبره ريحانته من الدنيا[٥].

إذن حبّ النبي صلى الله عليه وآله هو حبّ الحسين عليه السلام، وحبّ الحسين عليه السلام هو حبّ النبي صلى الله عليه وآله[٦].

---

(١) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ٢٠، ٥٨، ٧٦، مسند أحمد ٣: ٣، ٦٢، ٦٤، ٨٢، ٥: ٣٩١، ٣٩٢، سنن ابن ماجة ١: ٤٤، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢١، ٣٢٦، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٦٧، ١٦٧، ١٦٧، ٣٨١، صحيح مسلم بشرح النووي ١٦: ٤١، وغيرها كثير.

(٢) قال القاضي عياض: «قال رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله في الحسن والحسين: «اللهم إني أحبّهما فأحبّهما»... وقال: «من أحبّهما فقد أحبّني، ومن أحبّني فقد أحبّ الله، ومن أبغضهما فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله»...». الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢: ٢٦.

(٣) الأمالي (الصدوق): ٤١٤ / ٥٤٢، وزاد: «وأهلي أحبّ إليه من أهله، وعترتي أحب إليه من عترته، وذاتي أحبّ إليه من ذاته». صحيح البخاري ١: ٩.

(٤) فقال صلى الله عليه وآله: «حسين منّي وأنا من حسين». المصنف (ابن أبي شيبة). وسيأتي تخريجه بعد قليل.

(٥) سئل عبد الله بن عمر عن المحرم: يقتل الذباب؟ فقال: أهل العراق يسألون عن الذباب، وقد قتلوا ابن ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد قال صلى الله عليه وآله: «هما ريحانتاي من الدنيا». صحيح البخاري ٤: ٢١٧، ٧: ٧٤، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢٢ / ٣٨٥٩، مسند أبي داود الطيالسي: ٢٦٠ - ٢٦١، مسند أبي يعلى ١٠: ١٠٥ / ٥٧٣٩، المعجم الكبير ٣: ١٢٧، ٤: ١٥٥ - ١٥٦، أسد الغابة ٢: ١٩، تهذيب الكمال ٦: ٤٠٠ - ٤٠١، سير أعلام النبلاء ٣: ٢٨١ - ٢٨٣، تاريخ الإسلام ٥: ٩٩ - ١٠٠، الإصابة ٢: ٦٨ - ٦٩.

(٦) يقول صلى الله عليه وآله: «أحبّ الله من أحبّ حسيناً، وأبغض الله من أبغض حسيناً». مسند أحمد

وبعد أن عرفنا أن عرش الإمام الحسين عليه السلام في قلوب الناس، فلنا أن نسأل: أي عرش يسعى إليه أفضل من تلك القلوب الطاهرة؟ ليس هناك من عرش في الدنيا مهما كان يمكن أن يفضل عروش القلوب، فكل العروش التي حكمت في هذه الدنيا انهارت مع أصحابها ولم يبقَ لها من أثر أبداً، أما عروش القلوب فهي المخلّدة، وساكنوها هم الذين لا يبارحون حَدَق الدنيا ولا تفكير الناس؛ لأنهم جزء منهم،فاحتلّوا قلوبهم ونفوسهم، ومن يحتلّ القلوب والمشاعر لا يمت أبداً.

إذن فالإمام الحسين عليه السلام لم يكن يريد جاهاً ولا مكانة دنيوية؛ لأن الجاه لم يكن يعنيه بشيء، والمكانة مغروسة له في قلوب المؤمنين بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله منذ كان صغيراً، كما أنه لم يكن يريد الأموال أمّا الكرسي فهو أرفع من أن ينظر إليه؛ لأنه يهتزّ كل يوم لرجل بعد أن يفارقه رجل آخر[1].

ونخلص من كل هذا إلى أنّ هدف الإمام عليه السلام من النهضة هو إقامة العدل وحمل رسالة السماء التي جاء بها جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله، والقضاء على مبادئ الجاهلية وقيمها التي بدأت تعود إلى المجتمع وتتجذّر فيه بموافقة السلطة الأُمويّة ومباركتها ورعايتها. وهدف كهذا لابدّ أن يخلّد، وأن يخلّد معه صاحبه؛ لأنّه امتداد للرسالة الإلهية. ونحن حينما نقرأ: «حسين منّي وأنا من حسين»[2] فيجب أن نلتفت إلى أن «من» هنا ليست

٤: ١٧٢، سنن ابن ماجة ١: ٥١، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢٤، وغيرها كثير.

(١) وحال الناس في كل زمان وكل مكان: مات الملك عاش الملك.

(٢) المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٥١٥، صحيح ابن حبان ١٥: ٤٢٨، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٧٧، تحفة الأحوذي ١٠: ١٩٠، المعجم الكبير ٣: ٣٣، ٢٢: ٢٧٤، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ١٤٩، تهذيب الكمال ٦: ٤٠٢، ١٠: ٤٢٧، تهذيب التهذيب ٢: ٢٩٩، البداية والنهاية ٨: ٢٢٤.

للتبعيض؛ فكل واحد منا يعرف أنّ الولد بعض أبيه، بل هي لبيان الجنس والسنخيّة، أي أنه من سنخي.. أنّه امتداد لرسالتي. وفعلاً فإنه عليه السلام لم يكن يريد غير تفتيت مظاهر الجاهلية التي بدأت تظهر على الساحة من جديد وتبرز فيها.. الجاهلية التي حاربها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله منذ بواكير دعوته المباركة الشريفة.. الجاهلية التي راح الأُمويّون وأتباعهم منذ وصولهم إلى السلطة، يعملون جاهدين على إعادتها إلى المجتمع ونشرها بوجه المبادئ الإسلامية المتمثّلة بأمير المؤمنين عليه السلام والحسنين عليهما السلام من بعده ثم بالأئمّة عليهم السلام.

المبحث الثاني: أبعاد وقوف الأمويين في وجه النهضة الحسينية

إن وقوف الإمام الحسين عليه السلام بوجه هذا المدّ الجاهلي المتنامي على أيدي الأُمويّين لا بد أن يعيش في فكر كل حرّ حتى مع وجود الصوارف التي حاولت إبعاد فكر الحسين ومبدئه عن عقول الناس وساحة المجتمع. وهذه الصوارف تتمثّل في أنّ الأُمويّين لم يتركوا بعداً من الأبعاد يدخل ضمن دائرة قدرتهم إلّا وجنّدوه ضد الإمام الحسين عليه السلام وفكره وامتداد خطّه؛ لإخراجه من الساحة جسداً وفكراً وروحاً. ويمكن حصر هذه الأبعاد بالتالي:

البعد الأوّل: أنّ الحسين عليه السلام ابن بنت الرسول صلى الله عليه وآله وليس ابنه

لقد استغلّ أعداء الإمام الحسين عليه السلام هذه النقطة، فأشاعوا بين الناس فكرة أنه عليه السلام ليس الابن الصلبي للنبي صلى الله عليه وآله، بل إنّه ابن ابنته، وابن الابنة لا علاقة له بجدّه لأُمّه ولا يعتبر ولداً له، بل إنّه يتبع أباه وجدّه لأبيه[1]. وقد سبق

---

(١) ويستدلّون بقول الشاعر:

أن عالجت هذا الموضوع فيما مرّ من محاضرات[1]، وقلت هناك: إنّ العلماء يعتبرون ابن البنت كابن الولد من ناحية جملة من الأحكام المترتّبة عليه. ثم إن جواب الإمام الكاظم عليه السلام للرشيد يكفي في المقام[2]؛ فقد سأله عليه السلام: لمَ جوّزتم للعامّة والخاصّة أن ينسبوكم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، ويقولوا لكم: يا بني رسول الله، وأنتم بنو علي، وإنما ينسب المرء إلى

بنونا بنو أبنائنا وبناتُنا　　بنوهن أبناءُ الرجالِ الأباعدِ

الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٧٩، شرح نهج البلاغة ١١: ٢٨. وقد مرّ في محاضرة (البناء الأسري في الإسلام) ج ٤ من كتابنا هذا ردّ القرطبي على الاستدلال به، وعدم صحّته.

وكذلك ببيت عمران بن حفصة:

أنّى يكون وليس ذاك بكائنٍ　　لبني البنات وراثة الأعمامِ

عيون أخبار الرضا ٧: ١٨٩، تاريخ بغداد ١٣: ١٤٥، تاريخ مدينة دمشق ٥٧: ٢٩٢.

(١) في القسم المطبوع منها انظر ما ورد في الهامش السابق.

(٢) وكذا روي عن الباقر أنه قال: «يا أبا الجارود، ما يقولون لكم في الحسن والحسين عليهما السلام؟». قلت: ينكرون علينا أنهما ابنا رسول الله صلى الله عليه وآله. قال: «فأي شيء احتججتم عليهم؟». قلت: احتججنا عليهم بقول الله عزّ وجلّ في عيسى بن مريم عليه السلام: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى﴾ الأنعام: ٨٤ ـ ٨٥. قال: «فأي شيء قالوا لكم؟». قلت: قالوا: قد يكون ولد الابنة من الولد ولا يكون من الصلب. قال: «فأي شيء احتججتم عليهم؟». قلت: احتججنا عليهم بقول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ آل عمران: ٦١. قال: «فأي شيء قالوا؟». قلت: قالوا: قد يكون في كلام العرب أبناء رجل وآخر يقول: أبناؤنا.

قال: فقال أبو جعفر عليه السلام: «يا أبا الجارود، لأعطينّكها من كتاب الله عزّ وجلّ أنّهما من صلب رسول الله صلى الله عليه وآله لا يردّها إلّا كافر». قلت: فأين ذلك جعلت فداك؟ قال: «من حيث قال الله عزّ وجلّ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ الآية إلى أن انتهى إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ النساء: ٢٣. فسلهم يا أبا الجارود: هل كان لرسول الله صلى الله عليه وآله نكاح حليلتهما؟ فإن قالوا: نعم كذبوا وفجروا، وإن قالوا: لا، فهما ابناه لصلبه». الكافي ٨: ٢٦٣ ـ ٢٦٤ / ٥٠١.

أبيه، وفاطمة إنما هي وعاء، والنبي صلى الله عليه وآله جدّكم من قبل أمّكم. فقال عليه السلام له: «لو أن النبي نشر فخطب إليك كريمتك، هل كنت تجيبه؟». قال: سبحان الله! ولم لا أجيبه، بل أفتخر على العرب والعجم وقريش بذلك؟ فقال عليه السلام له: «لكنه لا يخطب إليّ، ولا أزوّجه». فقال: ولم؟ فقال عليه السلام: «لأنه ولدني»[١]. وقد وضع النبي صلى الله عليه وآله احتياطه لهذه المسألة من أيامه الأولى؛ لما كان صلى الله عليه وآله يعرفه من محاولات الأمويين وغيرهم من أعداء البيت النبوي لتشويه الحقائق وتزويرها، ودفع الثوابت لأغراضهم الشخصية. وكان صلى الله عليه وآله يعلم أيضاً أنهم سيثيرون مثل قضية أن الحسنين عليهما السلام سبطا رسول الله صلى الله عليه وآله وليسا ولديه، فكان يكرّر أمام الملأ عنهما: «ابناي»[٢]، ويقول صلى الله عليه وآله: «كلّ بني أمّ ينتمون إلى عصبتهم إلّا بني فاطمة فإنني أنا أبوهم»[٣]. وهو صلى الله عليه وآله لم يكن بالذي يلقي الكلام جزافاً حينما أكّد على هذا المعنى وعلى هذا الجانب، بل إنه صلى الله عليه وآله كان يعرف أنّ هذا الجانب سوف يعتّم عليه ويتعرّض

---

(١) الاحتجاج ٢: ١٦٤، بحار الأنوار ٤٨: ١٢٨، ٩٣: ٢٤٠. ومثلها مناظرة الإمام الرضا عليه السلام والمأمون. بحار الأنوار ١٠: ٣٤٩ / ٩، ٩٤: ١٨٧ / ١٩.

(٢) تحفة الأحوذي ١٠: ١٨٧، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٥١٢ / ٢٢، خصائص أمير المؤمنين (النسائي): ١٢٣، صحيح ابن حبان ١٥: ٤٢٣، المعجم الصغير ١: ٢٠٠، كنز العمّال ١٣: ٦٧١ / ٣٧٧١١، تاريخ مدينة دمشق ١٣: ٢٥، ٢٦، ١٩٩، ١٤: ١٥١، ١٥٥ تهذيب الكمال ٦: ٥٥، وغيرها كثير.

(٣) مجمع الزوائد ٤: ٩٩، المعجم الكبير ٣: ٤٤ / ٢٦٣٢، تهذيب الكمال ١٩: ٤٨٣، ٤٨٤، وغيرها كثير.

وقال صلى الله عليه وآله: «إن الله لم يبعث نبياً إلّا جعل ذريته من صلبه غيري: فإن الله جعل ذريتي من صلب علي». انظر: كشف القناع (البهوتي) ٥: ٣٢، الفقيه ٤: ٣٦٥. وقال: «لكلّ بني أب عصبة ينتمون إليه إلّا ولد فاطمة أنا عصبتهم». نيل الأوطار ٦: ١٣٩، كنز العمّال ١٢: ٩٨ / ٣٤١٦٨، تاريخ مدينة دمشق ٣٦: ٣١٣.

إلى هزة تحاول زعزعته في النفوس. وهكذا فشلت هذه المحاولات، وظلّت الحقيقة قائمة.

البعد الثاني: استعمال مبدأي الترهيب والترغيب

وكذلك لجأ هؤلاء إلى تجنيد الأموال الطائلة والسجون الكثيرة والكبيرة لإغراء الناس وجذبهم إليهم وإبعادهم عن أهل الحقّ، ولتعذيب من يقف بوجههم ويرفض أساليب الإغراء التي يحاولون استدراج الناس بها وشراء ذممهم. فسجنوا كل من كان يميل لأهل البيت عليهم السلام؛ فقد كبسوا بيت سعيد ليلاً وأرعبوا عائلته لا لسبب سوى أنه يوالي علي بن أبي طالب عليه السلام.

وطورد عمرو بن الحمق الخزاعي ولوحق حتى الكهف الذي التجأ إليه حيث هجموا عليه، وأخذوه وضربوا عنقه وحملوا رأسه من الموصل إلى بلاد الشام[1]، وكذلك فُعل بحجر بن عدي الكندي حيث أُخذ هو وجماعته إلى الشام ثم ذبحوا في مرج عذراء؛ لأنّهم استنكروا شتم أميرالمؤمنين عليه السلام ورفضوا أن يسبّوه. وخلاصة الأمر أنّ كل من كان يحب أمير المؤمنين عليه السلام، وكل من كان يتّهم بحبه تعمد السلطة إليه فتسجنه وتذيقه أليم العذاب ثم تقتله، وكان المقصود من هذه الممارسات إبعاد الإمام الحسين عليه السلام عن الساحة، واستهداف حركته وفكره.

البعد الثالث: تجنيد الأقلام المأجورة

لقد عمدت السلطة من ضمن ما عمدت إليه لمحاربة الإمام الحسين عليه السلام وفكره إلى تجنيد جملة من حملة الأقلام المحسوبين على الإسلام، مع

(١) الاستيعاب ٣: ١١٧٤ / ١٩٠٩، البداية والنهاية ٨: ٥٢.

أنـنا لا نسـتطيع أن نـعطيها شـرف الانـتساب إلى الإسلام. إنّ تلك المحاولات كانت محاولات يائسة غير ناهضة، غير أنّ الإصرار عليها يبعث على لفت النظر إليها؛ لأن بعض هذه الأقلام بدأت تركّز على أسباب خروج الإمام الحسينعليه السلام، وتؤكّد على أنه باغ خرج على إمام زمانه، فقتل. لكن لنا أن نسأل: من هو إمام زمانه؟ طبعاً يقصدون به يزيد، مع أنّ هؤلاء أنفسهم يروون أنه كان يصعد على منبر المسلمين والخمرة ترنّح أعطافه ويقول:

أقول لصحب ضمّت الكأس شملهم … وداعي صبابات الهوى يترنّمُ
خذوا بنصيب من نعيم ولذّة … فكلٌ وإن طال المدى يتصرّمُ[1]

ومن أحبّ أن يطّلع على حاله أكثر فليرجع إلى كتاب (حياة الحيوان)[2] للدميري في باب (فهد)، ولينظر إلى آراء العلماء في يزيد وما الذي يقولونه فيه. وكذلك لينظر مقدمة كتاب مقتل الحسينعليه السلام) للسيد عبد الرزاق المقرّم؛ حيث عقد فيها فصلاً خاصاً ذكر فيها آراء علماء المسلمين في نهضة الإمام الحسينعليه السلام ضد يزيد، وما هي حقيقة يزيد. وكذلك لينظر مؤلفات جملة من أصحاب الأقلام الحرّة التي تناولت الإمام الحسينعليه السلام وكيف وصفت خروجه على يزيد وكيف هي الحالة التي كان عليها يزيد قبل تسنمه الحكم وبعده. إنّ هؤلاء يذكرون أنّ يزيد

---

(١) جواهر المطالب (الدمشقي) ٢: ٣٠١. والقائل:

اسقني شربة تروّي فؤادي … ثمّ قم واسقِ مثلها ابن زيادِ
موضع العدل والأمانة مني … ولتنفيذ مغرمي ومرادي

تاريخ مدينة دمشق ٢٢: ١٤٣ ـ ١٤٤، النصائح الكافية: ٧٩.

(٢) حياة الحيوان ٢: ١٧٥ ـ ١٧٦.

لم يترك حرمة للّه لم ينتهكها(1).

لكن كما قلنا يأتي البعض من أصحاب الأقلام الرخيصة وغير النزيهة فيصف سيد شباب أهل الجنة بأنه باغٍ(2). وهذا عبور على الحقيقة وظلم التاريخ والخلق الإسلاميّين.

البعد الرابع: التعتيم على ذكرىٰ استشهاده

وهذا البعد قد اتّخذ عدة أشكال وأطوار، ذلك أنّ السلطات الحاكمة حينما رأت أن هذه الفرية لم تنطلِ على الناس ـ حيث إنّهم راحوا يتتبّعون سيرة الحسين عليه السلام، وأثرها في واقعهم، وعرفوا أنه خرج للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولتجسيد مبادئ الإسلام اتجهوا إلى أبعاد اُخرىٰ منها التمويه على ذكراه ليخرجوه من الأفكار ومن دنيا الواقع وليطردوه من أذهان الناس. وأرادوا لذكراه أن تمرّ بشكل بارد دون أن تشوبها شائبة الحركة والحرارة الثورية أو حرارة الحمية والانفعال من أجل علم من أعلام المسلمين. وقد حاولوا فعل ذلك عبر عدّة أشكال منها:

---

(1) وأبرز تلك الحرمات التي انتهكها وأشدها حرق الكعبة، كما في سنن ابن ماجة ١: ٦٢٣ / ١٩٣٦، الأخبار الطوال: ٣١٤، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥١ - ٢٥٢، ٢٦٦، تاريخ الطبري ٥: ٣٠، تهذيب التهذيب ٢: ١٨٤ / ٣٨٨، ١٨٧ / ٣٣٨، ١٠: ١٤١ / ٢٩٧، ١١: ٣١٦ / ٦٠٠، الكامل في التاريخ ٢: ١٣٥ / ٣، البداية والنهاية ٨: ٣٦٣، سبل الهدىٰ والرشاد (الشامي) ٦: ٢١٤، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٨٥، تهذيب الكمال ٦: ٥٤٨ / ١٣٧٦، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٧٤، فتح الباري ٨: ٢٤٥، ينابيع المودّة ٣: ٣٦.

وهتك حرمة المدينة وقتل (٧٠٠) من القرّاء كما في تاريخ مدينة دمشق ٥٤: ١٨١ ـ ١٨٢.

(2) ويا ترىٰ حينما قال فيه رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ذلك ـ بأنه سيد شباب أهل الجنة ـ هل كان يعلم بأنه سيخرج على يزيد أم لم يكن يعلم؟ والنتيجة في كلا الحالين ممّا يجب أن ينزّه رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم عن وصفه بها.

الأوّل: أنّ شعار الثورات المستوحاة منها فيه استعانة بغير الله

وهكذا أخذوا يشكلون عل نوع الشعارات، فشعار «ياحسين» فيه استعانة بغير اللّه تعالىٰ من وجهة نظرهم، وهو شرك.

معنى الاستعانة ومشروعيّتها

لكن لنا أن نسأل: ما معنى الاستعانة؟ وهل نحن نستعين بالحسين عليه السلام بما أنه لحم ودم؟ إننا نقف في المكان الذي أراد اللّه عزّوجلّ له أن يعظّم، ألم يأمرنا اللّه تعالى بتعظيم الشعائر[1]؟ وألم يكن من جملة شعائر اللّه تكريم الشهيد والإشادة بدمه؟ إننا حينما نقف على ضريح الإمام الحسين عليه السلام فإنّما نقف على مربض من مرابض الشهادة المهمّة في تاريخ المسلمين، ونستوحي من اللّه رحمته، ونقول: يارب بحق هذا الدم الطاهر، وبحقّ هذا الموقف الكريم للذي ترسّم خطّ نبيّك محمد صلى الله عليه وآله واقتفىٰ خطاه الكريمة، ارحمني ولا تحرمني من رحمتك. فأين هي الاستعانة بغير اللّه تعالى؟

ثم إنّ هؤلاء قد كرّروا هذه النغمة على مدىٰ ألف وأربعمئة سنة، ونحن أجبناهم عليها بقدر أسئلتهم بالدليل القاطع والبرهان الساطع، أفلا يكفي هذا؟ وأنا أعرف أنّ هذه النغمة لن تتوقف، وهذه التهمة لن تنتهي لسبب بسيط هو أنّ هناك أسواق مفتوحة لهذه البضاعة البائرة لتي تدعو إلى إثارة النعرات وبثّ التفرقة.

الثاني: ادّعاء استحباب صوم يوم عاشوراء

ومن هذه البضائع ما يروّج له من ندب صوم يوم عاشوراء، ويروون في

---

(١) في قوله عزّ من قائل: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ الحجّ: ٣٢.

ذلك أنّ النبي صلى الله عليه وآله دخل المدينة فوجد أهلها يصومون يوم عاشوراء، فقال صلى الله عليه وآله: «ما هذا من الصوم؟». قالوا: هذا اليوم الذي نجّى الله فيه نبيّه موسى بن عمران عليه السلام، وبني إسرائيل من الغرق، وغرق فيه فرعون، فصامه موسى عليه السلام شكراً. فقال صلى الله عليه وآله: «أنا أحقّ بموسى، وأحقّ بصوم هذا اليوم»[1].

ثم قالوا بعد ذلك: إن هذا الصوم نسخ بصوم شهر رمضان[2].

وأقول: إذا كان هذا الصوم قد نسخ كما تروون، فلماذا تدعون له؟

فإن أجابوا بأنهم يدعون له لا على نحو الوجوب بل على نحو الاستحباب.

فنقول: نحن لا نقول بأنّ الصوم أكثر من أن يكون عبادة، فإذا كان الغرض الاستحباب والتقرّب إلى الله تعالى فكل يوم هو لله، فلماذا الإصرار على هذا اليوم؟

فالاستحباب حينئذٍ بعد نسخ الصوم هذا بصوم شهر رمضان لا وجه لتخصيصه بهذا اليوم وإن كان قد نجّى الله تعالى فيه نبيّه موسى بن عمران عليه السلام. أمّا إذا كان صيامه بعنوان التشفّي من الإمام الحسين عليه السلام، أو بأي صورة تعطي هذا المعنى فهو حرام بلا كلام؛ لأنّه حينئذٍ سيؤول إلى كونه نصباً، وإذا وصل إلى كونه نصباً أصبح إنكاراً لضرورة من ضرورات الدين؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾[3]، ومادام أمر الله متوجّهاً إلينا بهذه المودّة، وما دام من مظاهر مودّتهم هو الحزن لحزنهم[4] فالواجب إذن ألا

---

(١) مسند أحمد ٢: ٣٥٩، باختلاف.

(٢) المجموع شرح المهذّب ٦: ٣٠١، ٣٨٣ - ٣٨٤. وقد نقل عن الماوردي عليه الإجماع.

(٣) الشورى: ٢٣.

(٤) قال الصادق عليه السلام: «رحم الله شيعتنا؛ خلقوا من فاضل طينتنا، وعجنوا بماء ولايتنا، يحزنون لحزننا ويفرحون لفرحنا». شجرة طوبى ١: ٣ - ٦.

يُظهر أحد التشفّي بهم، بل لا يضمره أصلاً.

في أنّ مصرع الإمام الحسين عليه السلام أبكى رسول الله صلى الله عليه وآله

فصوم عاشوراء إن كان بعنوان التقرّب إلى الله تعالىٰ فقط فهذا الاعتبار علّة لصحّته، أما إذا كان في صومه إيماءة أو إشارة تعطي لوناً من الشماتة فهو صوم محرّم؛ لأنّه هذا اليوم يوم عزاء لرسول الله صلى الله عليه وآله. وليس من مسلم يشكّ في أن مقتل الإمام الحسين عليه السلام قد آذىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وآلمه أشدّ إيلام وأفجعه أي فجيعة.

مشروعية البكاء على الحسين عليه السلام وإقامة المآتم عليه

ويمكن الاستدلال لهذا بالكثير من الروايات التي يرويها علماء المذاهب الأربعة في خصوص بكاء الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله على الإمام الحسين عليه السلام أو في بكائه على غيره من أصحابه، فهذه كتب علماء أبناء المذاهب الأربعة غنية بالروايات التي تصبّ في هذا المجال، وهي متوفّرة بين أيدينا.

وهكذا فنحن حينما نقيم مأتم على الإمام الحسين عليه السلام نذكر فيها مواقفه البطولية وأهداف حركته السامية ونبكي لما أصابه، فإننا إنما نمشي مع السنّة وعلى خطّها في هذا، ولا نخالفها في شيء. ولست أدري لماذا يعبّر البعض عن إقامة مثل هذه المآتم بأنها بدعة وأنها مخالفة للسنة؛ فهناك الكثير من الروايات في هذا المضمار كما ذكرنا، ومنها ما يرويه ابن الصبّاغ المالكي في (الفصول المهمّة): عن أمّ الفضل بنت الحارث زوجة

وهو أعم من الفرح والحزن المألوفين عندنا؛ لأنهم عليهم السلام يفرحهم أن يطاع الله تعالى، ويحزنهم أن يعصى. وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «كل يوم لا يعصى الله فيه فهو عيد». روضة الواعظين: ٣٥٤، شرح نهج البلاغة ٢٠: ٧٣. أي يوم فرح. فهو صلى الله عليه وآله وآله الأطهار عليهم السلام يفرحون إن أطيع الله تعالى ويحزنون إن عصي.

العبّاس بن عبد المطلب، أنّها دخلت على رسول اللّه صلى الله عليه وآله فقالت: يارسول اللّه إنّي رأيت حلماً منكراً الليلة. قال صلى الله عليه وآله: «وما هو؟». قالت: إنّه شديد. قال: «وما هو؟». قالت: رأيت كأنّ قطعة من جسدك قطعت ووضعت في حجري. فقال صلى الله عليه وآله: «رأيتِ خيراً، تلد فاطمة إن شاء اللّه غلاماً فيكون في حجرك».

وفعلاً ولدت الزهراء عليها السلام الإمام الحسين وأرضعته أمّ الفضل التي تذكر ذلك فتقول: فولدت فاطمة الحسين عليه السلام، فكان في حجري، كما قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله ،فدخلت يوماً على رسول اللّه صلى الله عليه وآله، فوضعته في حجره، ثم حانت مني التفاتة، فإذا عينا رسول اللّه صلى الله عليه وآله تهريقان من الدموع، فقلت: يا نبيّ اللّه، بأبي أنت وأمّي، مابك؟ قال: «أتاني جبرائيل فأخبرني أنّ أمّتي ستقتل ابني هذا». فقلت: أيكون هذا؟ فقال صلى الله عليه وآله: «نعم، وأتاني بتربة من تربته حمراء»[1].

وهذه التربة أودعها رسول اللّه صلى الله عليه وآله عند أمّ سلمة وقال لها: «يا أمّ سلمة، جاءني جبرئيل فأخبرني أنّ ولدي حسيناً يُقتل بأرض العراق، وأتاني بهذه التربة من موضع قتله، فخذيها وضعيها في قارورة، فإذا صارت دماً عبيطاً فاعلمي أنه قد قتل»[2].

ومن أحبّ فإني أرشده إلى عشرات المصادر عند المذاهب الأربعة في

---

(1) انظر: المستدرك على الصحيحين ٣: ١٧٦ ـ ١٧٧. قال الحاكم: «وهذا حديث صحيح على شرط الشيخين». وقد مرّ التنبيه في ج ١ ص ٣١ من كتابنا هذا إلى أن صاحبة الرؤيا هي أمّ سلمة وليست أمّ الفضل، ويدلّ عليه أن رسول اللّه صلى الله عليه وآله قد أودع التربة التي أتاه جبرائيل عليه السلام بها من كربلاء عند أمّ سلمة.

(2) بحار الأنوار ٤٤: ٢٣٨، ٢٦٨، المعجم الكبير ٣: ١٠٨ ـ ١٠٩ / ٢٨١٩، ٢٣: ٢٨٩ / ٦٣٧، كنز العمّال ١٣: ٦٥٦ / ٣٧٦٦٦.

هذا المضمار، ودونه كتاب (إقناع اللائم في إقامة المآتم)[1]، وهو مطبوع ومتوفر، وكل مصادره من كتب المذاهب الأربعة.

بكاؤه صلى الله عليه وآله على شهداء مؤتة

إن على المعترض على أمثال هذه الأمور أن يرجع إلى (الموسوعة الفقهية) في الكويت ولينظر في باب (مأتم) كيف أنه صلى الله عليه وآله بكى لما قُتل جعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة بمؤتة، وقال: «المرء كثير بأخيه»[2]. وقال صلى الله عليه وآله «على مثل جعفر فلتبكِ البواكي»[3].

الثالثة: تحريم أكل الطعام الذي يصنع على شرف الحسين عليه السلام

ثم عمد هؤلاء إلى الدعوة إلى الامتناع عن أكل الأطعمة التي تصنع في ذكرى الإمام الحسين عليه السلام، معلّلين ذلك بأنّها محرّمة، مع أنّها تجمع كل شرائط التذكية الصحيحة التي أرادها اللّه تعالى من كون الذابح مسلماً، وتوجيه الذبيحة إلى القبلة، والتسمية عليها عند الذبح، وغيرها. فهذا الذي يصنع الطعام على شرف الإمام الحسين عليه السلام إنما يدعو الناس إلى الأكل منه ابتغاءً لوجه اللّه تعالىٰ وطلباً لرضوانه؛ لأنّه يبعث ثوابه إلى روح الإمام الحسين عليه السلام. وهو بهذا لا يعدو أن يكون عمله كباقي أنوع البرّ التي يعملها المسلمون لأمواتهم.

هذا مع أننا نعتقد بأن الإمام الحسين عليه السلام ليس بميت[4]، لكننا نريد أن نسرّ

---

(١) للسيّد محسن الأمين رحمه الله. (٢) شرح نهج البلاغة ١٨: ١١٢.

(٣) الاستيعاب ١: ٢٤٣، أسد الغابة ١: ٢٨٩، وأضاف فيه: ودخل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله من ذلك همّ شديد، حتى أتاه جبريل فأخبره أن الله قد جعل لجعفر جناحين مضرّجين بالدم، يطير بهما مع الملائكة.

(٤) قال تعالىٰ: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾

رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم بتقديم الطعام على مائدة ولده، وجعل ثوابه له. فما هو وجه الحرمة إذن؟ ومن أين جاءت، وليس إطعام الطعام هنا كما قلنا إلّا محاولة لإهداء ثوابه إلى الإمام الحسين عليه السلام؟

وأنا أؤكد من على هذا المنبر أن طرح مثل هذه المسلّمات على الساحة والنقاش فيها ليس إلّا مضيعة للوقت، لأن من يطرحها ليس طالب حقيقة، بل هو طالب عناد ومجانف للحقيقة. إن المسلمين اليوم بحاجة إلى الهدوء لتصفية مشاكلهم؛ لأنهم بحاجة إلى الوئام والتكاتف والتآزر، فلدينا كمسلمين من المشاكل مع الآخرين في العالم المحيط بنا ما يكفينا ويكون حرضاً لنا وسبباً لأن نتّحد ونتكاتف في وجه هذه المشاكل التي يراد من ورائها أن يحاق بنا. وإن كان لابدّ من مناقشة مثل هذه الأمور، فالعالم مليء بالمنكرات التي ترتكب كلّ يوم علانية فلتحارَب تلك المنكرات بعيداً عن الأمور التي تشحن الأجواء، وتؤجّج المشاكل والصراعات، وتشغل المسلمين عما يدور حولهم مما يراد بهم.

فمن يرد وجه اللّه تعالى فلينكر ذلك المنكَر ولا يظلّ يدور حول هذه الدائرة التي ليس لها مخرج وليس منها مفرّ، أمّا أن يشيع أنّ اللّه تعالى سيعاقب من يصنع هذا الطعام على شرف سيد الشهداء عليه السلام طلباً لمغفرته ولرضوانه وسيعاقب آكله الذي سيذكر مصيبة ابن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ويستعبر لها، فلا أظنه مقتنعاً بما يشيع ويقول، وإنما هو العناد والعزّة بالإثم.

إننا نعرف طريقنا الذي نسير عليه[1] وواثقون منه، ونحن على هذي الذين

آل عمران: ١٦٩.

(١) قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا

قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وآله : «إني مخلّف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً. ولقد نبّأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليَّ الحوض»[١]، وعلى هداهم وحبّهم ومودّتهم (نسأل الله تعالىٰ أن يجعلنا دائماً من المتمسّكين بكتابه ونبيه صلى الله عليه وآله وأهل بيته عترته عليهم السلام)، وإن شاء الله سوف لن نضل ما دمنا على هذا الطريق أبداً، فلا يعنينا أنّ هناك من يوزّع الكفر والإيمان اعتباطاً[٢]، ولا يعنينا أنّ هناك من جعل كل رسالته وهدفه في الحياة تمزيق وحدة المسلمين وشقّ صفوفهم بما يصدر عنهم من فتاوى[٣] وتكفير لمذاهب إسلامية أُخرى[٤].

مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ يوسف: ١٠٨.

(١) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، وغيرها كثير.

(٢) فالمتوكّل عندهم محيي السنة، ومميت البدعة كما في البداية والنهاية ١٣: ٢٣٩، مع أنهم يروون أن لحمه وقع في كؤوس الخمرة، ومات بين أحضان الغانيات، ثمار القلوب (الثعالبي) ١: ١٩١ ـ ١٩٠.

(٣) فقد أفتىٰ الشيخ نوح الحنفي في حلب مثلاً بإباحة دماء الشيعة، وباستحلال فروج نسائهم، ونهب أموالهم. خاتمة مستدرك وسائل الشيعة ٢: ١٥٩، الكنى والألقاب ٢: ٣٣١.

(٤) مع أن الأشعري يقول: «أنا لا أُكفّر أحداً من أهل القبلة؛ فالآية الكريمة تقول: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾؛ لأن الكلّ يشيرون إلى معبود واحد، وإنما هذا اختلاف العبارات». السنن الكبرى ١٠: ٢٠٧، سير أعلام النبلاء ١٥: ٨٨، ثم قال الذهبي: وبنحو هذا أدين. وحول هذا انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير ٥: ١٥ / ٦٢٦٨.

وهذه الظاهرة امتدّت إلى المذاهب كافّة، فمثلاً يقول الحافظ أبو حاتم بن خاموش: كلّ من لم يكن حنبليّاً فليس بمسلم. انظر: تذكرة الحفّاظ ٣: ١١٨٦، سير أعلام النبلاء ١٧: ٦٢٥، ١٨: ٥٠٨. ويقول: عبد الله بن محمد بن عقيل الباوردي ـ وكان من بقايا الصحابة على رأي الذهبي ـ: من لم يكن معتزليّا فليس بمسلم. ميزان الاعتدال ٢: ٤٩٨ / ٤٥٨٣، لسان

فاللّه اللّه على وحدة الإسلام والمسلمين، ولتكن أعمالنا نابعة من هدي القرآن الكريم ووحيه، ومن إرشاد السنة النبوية المطهّرة (على صاحبها وآله أفضل الصلاة والسلام وأتم التحية والإكرام).

المبحث الثالث: لماذا فشلت محاولات طمس ثورة الحسين عليه السلام؟

إذن يتّضح من كل ما سبق أنّ جميع الصوارف التي وضعها أعداء الإمام الحسين عليه السلام وأعداء رسول اللّه صلى الله عليه وآله قد فشلت، وظلت ثورة الإمام الحسين ومعالم نهضته المباركة واضحة عالية تتسامى مع الزمن، وتزداد رفعة وعلوّاً كلما ازدادت محاولات طمسها. وهكذا راحت تناطح السماء شموخاً ورفعة، وذلك يرجع للأسباب التالية:

أوّلاً: أن ثورة الحسين عليه السلام امتداد لإرادة السماء

فهذه النهضة الكريمة التي أبت على كلّ المحاولات أن تُقتلع من نفوس الناس، مع ما بذل الطغاة الحاكمون من محاولات ترهيب وترغيب، وتجويع وقتل وتشريد وتعذيب، ومع كل ما جنّدت لها من أموال وأقلام وأزلام، استطاعت أن تصمد بوجه كل تلك المحاولات لا لشيء إلّا لأنها امتداد لإرادة السماء المقدّسة، وامتداد لوحي السماء ورسالتها. وهذا مما لا شكّ فيه؛ لأن هذه النهضة هي امتداد لحركة رسول صلى الله عليه وآله التغييرية التصحيحية.

ثانياً: أنّ صوت الحسين عليه السلام هو صوت المحرومين في كل زمان

إن نهضة الإمام الحسين عليه السلام هي صوت كل معذّب على الأرض يتطلّع إلى الحريّة ورفض الذلّ والعبودية، وصوت المعذّب لا يمكن أن يموت

الميزان ٣: ٣٥٣ / ١٤٣٠.

أبداً. فالإمام الحسين عليه السلام حمل آلام الأمة وهمومها وحمل ألم الناس الجياع والمضطهدين. ومن يقرأ تاريخ الكوفة أو تاريخ أي بلد توجد فيه معارضة لبني أمية فسيجد أن الرغيف قد مُنع عنها مع أن الإمام الحسن عليه السلام حينما صالح معاوية كان قد صالحه على بنود وشروط كان منها أن يدفع معاوية مليوني درهم أو خراج «أزدجرد» لمن قُتل آباؤهم مع الإمام علي عليه السلام في معركة صفين[1].

ومع هذا نجد أن الأمر قد وصل مع هؤلاء الايتام أن أحدهم كان لا يجد رغيفاً يأكله، وكان يطلب الثوب ليلبسه فلا يجده، بل إنّ السجون قد ملئت بهم بعد أن حوربوا في رغيفهم واضطهدتهم السلطة وتتبعتهم في كل مكان لتنكل بهم، فأذاقتهم ضروب الذلّ والهوان. وبطبيعة الحال فإن أصوات هؤلاء هي أصوات المعذّبين التي لا يحجبها عن السماء حجاب، وأصوات كل مظلوم ومضطهد. فالإمام الحسين عليه السلام عندما خرج فإنّما خرج ليطالب بحقوق هؤلاء وليرفع أصواتهم إلى الدنيا، وبما أنه حمل هذه الأصوات وهي أصوات لا تموت فإنّه عليه السلام لا يمكن أن يموت أو أن تستنفد ثورته ونهضته بل ستبقى خالدة مع الدهر.

إننا حينما نعبر عن الحسين بأنه ضمير المعذّبين فلأنّه عبر عنهم وعن ضمائرهم بموقفه البطولي الرسالي، وهذا الموقف لا يمكن أن يموت وإن حاول الأمويون خنقه وقتله؛ ظانّين أن بمقدورهم فعل ذلك، وأنهم بفعلهم هذا سيدفنونه تحت التراب، وبالنتيجة أنه عليه السلام سينتهي بهذا. غير أنّ الواقع يصرخ بأن الحسين عليه السلام قد تمرد على التراب فلم يستطع التراب

---

(١) وقد مرّ بنا كيف أنه حرّك جماعة وأمرهم أن يذهبوا إلى الركب لينتهبوه، ففعلوا، وأرجعوه إلى معاوية، فكان يقول: ماذا أفعل؟ إن الناس هم الذين نهبوا هذا المال.

أن يضمّه، يقول الشاعر.

امْرُر على جدث الحسيـ	ـن وقل لأعظمه الزكية
يا أعظماً رضّتك قو	م بالجياد الأصبحية
وإذا مررت بقبره	فأطل به وقف المطيّة
وابكِ المطهر للمطهـ	ـر والمطهّرة النقيّة [1]

فهذا الصوت الثائر قد تبرعم ونما وأصبح أقوىٰ من أن تضمه دائرة ضيقة، وهكذا ركب الموجة الكبرىٰ ومشى ليمتد مع الأفق الواسع، وأصبحنا نسمع الإمام الشافعي يرثي الإمام الحسين عليه السلام بصوتٍ عالٍ ينشره بين المسلمين فيقول:

ذبيح بلا جرم كأن قميصه	صبيغ بماء الأرجوان خضيبُ [2]

---

(١) الأبيات للسيد الحميري. كامل الزيارات: ٢١١ / ٣٠١، مثير الأحزان: ٦٤، الغدير ٢: ٢٣٦.

(٢) البيت للإمام الشافعي رحمه الله من ضمن جملة أبيات له معبّرة يقول فيها:

تأوّه قلبي والفؤادُ كئيبُ	وأرّق نومي فالسهاد عجيبُ
فمن مبلغ عني الحسين رسالة	وإن كرهتها أنفس وقلوبُ
ذبيح بلا جرم كأن قميصه	صبيغ بماء الأرجوان خضيبُ
فللسيف إعوال وللرمح رنّة	وللخيل من بعد الصهيل نحيبُ
تزلزلت الدنيا لآل محمد	وكادت لهم صمّ الجبال تذوبُ
وغارت نجوم واقشعرّت كواكب	وهتّك أستار وشقّ جيوبُ
يُصلّىٰ على المبعوث من آل هاشم	ويُغزىٰ بنوه إن ذا لعجيبُ
لئن كان ذنبي حبّ آل محمد	فذلك ذنب لست عنه أتوبُ
همُ شفعائي يوم حشري وموقفي	إذا ما بدت للناظرين خطوبُ

وروي البيت الأخير هكذا:

نعم شفعائي يوم حشري وموقفي	وحبّهمُ للشافعي ذنوب

مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٦٩، بحار الأنوار ٤٥: ٢٥٣ / ١٢، ٢٧٣ - ٢٧٤، معارج الوصول

وكذلك نسمع صوت الحسن البصري مرتفعاً يبكي حتى يصطك صدغاه، وهو يقول: «أذلّ اللّه أمّةً قتلت ابن بنت نبيّها»[١].

وأخذ هذا الصوت يتسع ويتسع حتىٰ تطور إلى مقاومة مسلحة؛ فكانت ثورة التوابين وحركة العباسيين الذين رفعوا أول أمرهم شعار «يالثارات الحسين». وبدأ الإمام الحسين عليه السلام يأخذ طريقه إلى التجذر في هذه الحياة.. انطلق من فكرة إلى دمعة، ثم تطورت الدمعة إلى موقف فكري وموقف مسلح.. إلى قتالٍ ضد الطغاة والجبابرة حتىٰ وصل الأمر إلى يومنا هذا؛ حيث إننا نسمع أنّ للإمام الحسين عليه السلام في كل بلد إسلامي أثراً ومأتماً، ولا زالت الأصوات ترتفع وهي تحمل الإمام الحسين عليه السلام شعاراً وألقاً ومواقف.

فنحن لا نمجد عضواً انقطع ولا جسداً تمزق وإن كان أهلاً لأن يمجد، لكننا نمجّد موقفاً، وهيهات أن تتمزّق المواقف. وهذا هو الذي أراده أبو الأحرار الإمام الحسين عليه السلام حينما وقف على رملة الطفّ ورفع صوته: «ألا وإن الدنيا قد أدبرت وتنكَّرَ معروفُها، ولم يبقَ منها إلّا صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا تنظرون إلى الحق لا يُعمل به، وإلى الباطل لا يُتناهى عنه؟ ليرغب امرؤ في لقاء ربه مُحقًّا. إني لا أرى الموت إلّا سعادة، والحياة مع الظالمين إلّا شقاءً وبرماً»[٢].

فسلام اللّه عليك يا أبا عبد اللّه، فواللّه كأنك كنت تنظر بعين الغيب من بعيد، فها أنت قد سحقت كلّ أبعاد الغيظ، وأنت ترىٰ الناس في هذا

إلى معرفة فضل آل الرسول صلى الله عليه وآله (الزرندي الشافعي): ١٠١، ينابيع المودّة ٣: ٤٨ - ٤٩.

(١) ينابيع المودّة ٢: ٣٩٨.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٢٤، المعجم الكبير ٣: ١١٤ ـ ١١٥، نزهة الناظر: ٨٨.

اليوم ترفعك شعاراً على ألسنتها، وحميةً إلهية في نفوسها، ودمعةً في أعينها. إذن فإن من أسرار خلود الإمام الحسين عليه السلام أنه صوت المعذّبين، وضمير الإنسانية التي تعرضت للاضطهاد والظلم، وصوتٌ كهذا كما قلنا لا يموت أبداً.

ثالثاً: أنّ الحسين عليه السلام فكرة لا تقارع بالضغط

إنّ الأمر الثالث الذي خلد الحسين عليه السلام في حركته هذه هو أنه فكرة، والفكرة لا يمكن أن تقارع بالضغط، بل إن الأمر على العكس فكلما اضطُهدت الأفكار نمت وترعرعت وترسّخت في الواقع وفي نفوس الناس. وهكذا فإننا لو تتبعنا التاريخ فإننا سنجد محاولات كبيرة جداً من قبل الأمويين والعباسيين وأتباعهم وذيولهم والتتار والأتراك قد بُذلت لإخماد فكرة الحسين عليه السلام عند الناس واقتلاعها من أنفسهم بالجبر والقوة والسيف وسفك الدماء والإرهاب وما إلى ذلك من وسائل الظلم والاضطهاد.

وكمثال على ذلك ما فعله المتوكّل بضريح الإمام الحسين عليه السلام وبزوّاره حيث إنه رأى أن يفرض ضريبة من الدماء على من يزوره، فكان يقتل من كل عشرة واحداً، فكانت الأعناق تتسابق للقتل لتصل إلى ضريح الحسين عليه السلام وزيارته. ثم تضاعفت الضريبة حتى وصلت إلى أن يُقتل تسعة من عشرة من الزائرين، ومع ذلك ظلّت الأعناق تمتدّ وتتسابق لتصل إلى القبر. فكانت النتيجة أنه لم يستطع أن يقتل الإمام الحسين عليه السلام في نفوسهم أو يبعده عنها، ولم يستطع أن يمنع الإمام الحسين عليه السلام من أن يتجذّر في نفوس الناس وقلوبهم وواقعهم، كلا لم يستطع أن يفعل هذا،

والتاريخ شاهد.

فالفكر لا يقمع بالضغط[١]، وكل تجارب التاريخ وحقائقه التي بين أيدينا تؤكّد هذا. وعليه فإنه لا يقرع الفكر إلّا الفكر، فإذا أراد أحد أن يستبعد الإمام الحسين عليه السلام من الساحة فعليه أن يثبت أن رسالته ليست حقّة، وأنه لم يحمل رسالة السماء ورسالة الخير والعطاء، ويبرهن على أن الذين قاتلوا الإمام الحسين عليه السلام هم أناس على حق وعلى صلة بالإسلام. أمّا أن تكون هذه الأمور مجرّد ادعاءات فهذا ما لا يقبّله عاقل ولا يرتضيه عالم؛ فالادّعاء وحده لا يثبت الحقائق أبداً.

فالحسين عليه السلام صوت الإسلام وفكره المتوهّج في هذه الحياة، وصوت المعذّبين الذي لا يتحطّم، وهذه الأمور المارّ ذكرها هي التي فرضت خلوده عليه السلام على ذمّة الزمان، وفرضت تجذّره في نفوس الثائرين والأحرار من أبناء الجنس البشري.

المبحث الرابع: الحسين عليه السلام والليلة الأخيرة

وإذا أدركنا ما مرّ حول سرّ خلود أبيّ الضيم على الرغم من محاولات معاديه ومناوئيه لوأد فكره ونهضته ومبادئ الحرية التي كان يطالب بها، فلنحاول أن نتعرّف عليه (سلام الله عليه) في ليلته الأخيرة، وما الذي كان يصنعه فيها مع معرفته عليه السلام بأن هذه الليلة هي الليلة الفاصلة بين الفناء والخلود.. بين الذلّ والعزة. لقد مارس الإمام الحسين عليه السلام في هذه الليلة عدة مظاهر منها:

---

(١) والمرء حريص على ما منع.

الأوّل: أنه لم يفارق الكتاب العزيز

لقد بشّر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أمّته وعترته بأن عترته أهل بيته لا يفارقون القرآن الكريم ولا يفارقهم مادياً ومعنوياً، قولاً وعملاً[١]، وفعلاً لم يفارق الإمام الحسين عليه السلام القرآن طيلة حياته سيما تلك الليلة التي استشهد في صبيحتها، فكان ساهراً يقرأ القرآن حتى حان موعد صلاة الفجر، وكان عليه السلام له وأصحابه دوي كدوي النحل، وهم بين قائم وقاعد وراكع وساجد.

الثاني: إعطاء المرأة دورها الكامل في هذه النهضة

إنّ الإمام الحسين عليه السلام حينما خرج من المدينة إلى العراق اصطحب معه عائلته نساءً وأطفالاً إضافة الى عوائل الهاشميين.

أسباب اصطحابه عليه السلام بنات الرسالة

ولهذا الأمر مبرّرات عدّة ووجيهة على الرغم من اعتراضات البعض على هذا الإجراء، وأنه أدّىٰ إلى سبي العائلة وهتك حرمتها والتسبّب في جلب الأذىٰ لها. لكن كما قلنا: إنّ هذا الإجراء مبرّر بما هو أهم من سبي العائلة وأوجه من تعرّضها للأذىٰ، وبما هو موازٍ لذلك الأذىٰ فيما لو خلفهم في المدينة المنوّرة، ومن هذه الأسباب:

الأوّل: أنّ الأمويين سيعتقلونهم ولو لم يخرجوا

إنّ أوّل الأسباب التي حدت بالإمام الحسين عليه السلام أن يخرج عائلته معه هو

---

(١) فقال فيهم رسول الله صلى الله عليه وآله: «إني مخلّف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً. ولقد نبّأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليَّ الحوض» وقد مرّ تخريجه قبل قليل.

علمه المسبق ومعرفته بأنّ الأُمويين سيعتقلون عائلته حتى ولو لم يخرجهم معه. والأُمويون هذا شأنهم، فقد كبسوا على عائلة عمرو بن الحمق الخزاعي بيتهم، وكذلك دار سعد بن أبي سرح، فكيف سيكون الأمر مع عائلة من خرج ثائراً على دولتهم وسلطانهم؟ فهو عليه السلام يعرف أنه لو ترك عائلته في مدينة جدّه لكان مصيرها الاعتقال والسبي، فالأمر سيان؛ خرجوا معه أو بقوا في المدينة.

الثاني: إبراز دور المرأة في معركة الطف

ثم إنّ سيد الشهداء عليه السلام كان ينظر إلى أمر هو أبعد من مرمىٰ نظر القاعدين غيره ممّن يعترضون على إبراز بنات الرسالة معه إلى المعركة، فهو عليه السلام يريد أن يبرهن على أن المرأة التي يربيها الإسلام لا تقل خطراً وصلاحية عن الرجل فيما يمكن أن يضطلع به ويقوم بتنفيذه. فهذه المرأة المسلمة إذا وضعت في الأجواء التي يريدها الإسلام فإنها ستُلفىٰ طاقة تتفجّر. وهكذا كانت الحوراء زينب (سلام اللّه عليها)، فقد كانت طاقة متفجّرة لا حدود لها، ولا تخشىٰ الظالمين ولا تخاف من قرع سياطهم، وكان الإمام الحسين عليه السلام قد أخرجها معه لمعرفته بما يمكن أن تقوم به من دور بعد استشهاده.

ثم إنه عليه السلام يريد أن يبرهن خطأ ما في أذهان البعض من الناس من وهم أن المرأة لا تستطيع أن تقوم بالأعمال التي يقوم بها الرجل. وهذا ما قامت به زينب عليها السلام وأخواتها، حيث قمن بأداء هذه الأدوار على أتم وجه وأكمل صورة.

الثالث: أن تكون الواجهة الإعلامية لمرحلة ما بعد الثورة

وكذلك من دواعي إخراج الإمام عليه السلام عائلته معه وزينب بالذات أن يكنّ

اللسان المعبّر لنهضته عليه السلام بعد الثورة. وهذا أمر ضروري جداً، لأنّ الإعلام الأموي إبّان الثورة الحسينية المباركة وبعدها كان في أوج قوّته ونشاطه وشدّته. وفعلاً انخدع المغفّلون بما وصفوهم به من أنهم خوارج بغاة على إمام زمانهم.. أُدخلت العائلة الهاشمية في أسوأ حال إلى مجلس يزيد وهم ينعتونهم بالخوارج، وكان عنده رسول قيصر، وكان من أشراف الروم وعظمائهم، فلمّا أُتي برأس الحسين عليه السلام سأله قائلاً: هذا رأس من؟ فقال له يزيد: هذا رأس الحسين بن علي بن أبي طالب. فقال الرومي: ومن أُمّه؟ فقال: فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله. فقال النصراني: أُفّ لك ولدينك، لي دين أحسن من دينكم.

ثم قال ليزيد: هل سمعت حديث كنيسة الحافر؟ فقال له: قل حتى أسمع. فقال: هي كنيسة في محرابها حقّة ذهب معلّق فيها حافر يقولون: إن هذا حافر حمار كان يركبه عيسى عليه السلام، وقد زيّنوا ما حول الحقّة بالديباج، ويقصدها في كل عام عالم من النصارى ويطوفون حولها ويقبّلونها، ويرفعون حوائجهم إلى الله تعالى عندها، هذا شأنهم ورأيهم بحافر حمار يزعمون أنه حافر حمار كان يركبه عيسى عليه السلام، وأنتم تقتلون ابن بنت نبيّكم؟ فلا بارك الله تعالى فيكم ولا في دينكم. فقال يزيد: اقتلوا هذا النصراني لئلا يفضحني في بلاده. فقُتل[1].

---

(١) اللهوف في قتلى الطفوف: ١١٠ - ١١٢، ينابيع المودّة ٣: ٢٩، وكان قد قال له من ضمن ما قال: إن أبي من حوافد داود عليه السلام، وبيني وبينه آباء كثيرة، والنصارى يعظّمونني ويأخذون من تراب قدمي تبرّكا بأني من حوافد داود عليه السلام، وأنتم تقتلون ابن بنت نبيّكم، وما بينه وبين نبيّكم إلّا أم واحدة؟ فأي دين دينكم؟ ثم إنه بعد أن أمر به فقتل، قال له: اعلم أني رأيت البارحة نبيّكم في المنام يقول لي: يا نصراني، أنت من أهل الجنّة. فتعجّبت من كلامه، وإني أشهد أن لا إله إلّا الله، وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله. ثم وثب إلى رأس الإمام الحسين عليه السلام

فهذا الرسول يريد أن يبيّن له أن بيت النبي صلى الله عليه وآله لا يمكن أن يفرز خوارج.

إذن كان مراد الإمام عليه السلام من زينب أن تكون الصوت المعبّر لأهداف الثورة وعنها؛ لأنّها أهل لذلك، ولأنّها الامتداد الطبيعي لموقف النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، ولأنها صوت الإسلام كلّه، ولأنّه لا سبيل إلى بلوغ ذلك - نشر أهداف الثورة - إلّا باللسان المعبّر الذي لا يحصر ولا يعتريه العيّ.. لسان أمير المؤمنين عليه السلام الهادر كالسيل حتى وإن كان مصير ذلك هو القتل، وحتى لو ترتب على أداء هذا الدور وهذه الرسالة السبي والضرب؛ لأنّ الحسين عليه السلام ينتمي لموكب الشهداء.. إلى الألسن المعبّرة عن رسالة الإسلام، وكذلك أهله.

وآباء الإمام الحسين عليه السلام لم يمت منهم أحد على فراشه[1]؛ فأبوه عليه السلام قد قتل، وأعمامه قتلوا وإخوانه وأبناء أعمامه وأبناؤهم كلهم قتلوا في ساحات الشرف والدفاع عن الإسلام ورسالته. يروى أنّ الإمام السجّاد عليه السلام كان كثير البكاء، وكلما ذكر واقعة الطف اشتدّ حزنه وزداد بكاؤه، فدخل عليه أبو حمزة وقال: سيدي إن القتل لكم عادة، وكرامتكم من اللّه الشهادة، إن جدّك صلى الله عليه وآله قتل وأباك عليه السلام قتل، فقال له: «شكر اللّه سعيك يا أبا حمزة، ولكن واللّه ما نظرت عيناي إلى عمّاتي وأخواتي إلّا وذكرت فرارهن يوم عاشوراء من خباء إلى خباء، ومن خيمة إلى خيمة، والمنادي ينادي: أحرقوا بيوت الظالمين».

وفعلاً كانت مواكب الشهداء تزدهر بنجوم أهل بيت النبوّة، وكانت

فضمّه إلى صدره وجعل يقبّله ويبكي حتى قتل.

(١) يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إن أكرم الموت القتل. والذي نفس علي بن أبي طالب بيده، لألف ضربة بالسيف أهون عليّ من ميتة على فراش». نهج البلاغة / الكلام: ١٢٣.

قوافلهم متوّجة بشهدائهم وأبطالهم، فأناروا للإنسانية طريقها، وصنعوا لواءً يرفرف للأحرار في كل مكان وزمان:

فَـدمٌ أرَقْتَ كأنـــه مـــن جِـدْةٍ ... بَــلآن يــعبقُ بــالثرى ويُــخضّبُ

وتَــركتَ للأجــيالِ جــينَ يَــلزُّهَا ... عَنَتُ السُّرى ويضيقُ عنها المَهرَبُ

جُــثَثَ الضَّــحَايَا مـن بَـنيكَ تُـريهُمُ ... أنَّ الحُــقوقَ بِــمثلِ ذلكَ تُــطلَبُ

فقافلة شهداء البيت الهاشمي وموكب شهداء البيت النبوي المطهّر وضعت دماءها على أكفّها وبين يدي اللّه لتريقها في سبيله، وهي قافلة اختطّت التضحية من أجل إبلاغ رسالة الإسلام:

اترعتني دنياك حتى إذا جئـ ... ـت أُنـاجيك أجفلت ألواحـي

وتهاوى شعري أمام خطيب ... عـبقري أقمته مـن جراحـي

لم تـفجّر لظـاك يـهدر بـالحـ ... ـقّ لتـروي قـرائـح المـدّاحِ

رُدّنــا إنّــنا ظِـماء إلى طـ ... ـفٍ جديد يـعيدنا للكـفاحِ [(١)]

فسلام اللّه عليك أبا الشهداء الأحرار، ما أكبر روحك وأعظم تضحيتك! ما أكبر تلك الروح التي كانت أعظم من كل الخطوب، والتي تتّسع لكل الخطوب، وسلام عليك وأنت تصارع الظلم والطغيان لوجه اللّه تعالى.. سلام اللّه تعالى وسلام ملائكته المقرّبين وأنبيائه المرسلين على روحك التي وقفت في مثل هذه الليلة والخطوب تحتشد أمامها، لكنها تعملقت على تلك الخطوب وقفزت عليها واستطاعت أن تجتازها دون أن تدعها تقف في وجهها.

---

(١) ديوان المحاضر ٢: ١٨.

وسلام عليك يا سيّدي وأنت تغالب دمعة في عينيك أن تراها أُختك التي ستتحمل العبء من بعدك.. وسلام عليك وأنت تضع يدك على قلب ملئ شفقة ورحمة وهو يرى صغاره ينشجون نشيجاً خفيّاً.. وسلام عليك وأنت ترى رملة الطف التي تعلم أن غداً ستتراقص عليها أشلاؤك وأشلاء إخوانك وأصحابك وأبنائك.. وسلام عليك وأنت ترى من بعد دياراً لآل محمد ستبقى من بعدك خالية من أهلها.. وسلام عليك إذ كل ذلك لم يقف حائلاً بينك وبين أن تضمّخ رسالة السماء بطاهر دمك.. بينك وبين الصلابة والإقدام على الموت من أجل تحقيق هذا الهدف الكريم.

لقد وقف أبو الشهداء الأحرار الإمام الحسين عليه السلام في مثل هذه الليلة واستدعى أُخته زينب و مجموعة من النساء وأوصاهن وعزّاهن وأوكل إلى زينب عليها السلام وأخواتها مهمة قيادة المرحلة الجديدة التي تعقب استشهاده عليه السلام. وهكذا يكون قد وضع الحوراء زينب عليها السلام أمام الحقيقة وهي حقيقة مرّة وقال لها: «يا أُختاه، اتقي الله وتعزّي بعزاء الله»[1]، فكأن لسان حاله عليه السلام يقول لها: أُخية البكاء أمامك، فسيصبح صباح غد وسترينني جديلاً وبدمي غسيلاً، فعليك بهؤلاء المذاعير من الأطفال والنساء، وأدنين عليكن من جلابيبكن.

ثم عزّاها وسلّاها، وبعض التسلية تورية.. ونظر إلى دمعة تترقرق في عينيها، يقول الشيخان المفيد والصدوق: دخلت عليه أُخته زينب ليلاً وهو يقرأ القرآن الكريم، فوضع القرآن الكريم على الأرض وقام إجلالاً

(١) الإرشاد ٢: ٩٤، تاريخ الطبري ٤: ٣١٩، البداية والنهاية ٨: ١٩٢.

لها وأجلسها إلى جانبه، ورأى في عينيها دمعة، فمدّ يده إلى منديله ومسح دمعتها وقال: «يا أُخية، تعزّي بعزاء الله، لا يذهبن بحلمك الشيطان»[١].

فلقد وضع يدها على المصائب التي ستلاقيها، وأخبرها بأنها ثقته التي ستتحمل العبء من بعده.. جلس معها طويلاً وجلس مع الإمام زين العابدين عليه السلام كذلك، وترك العنان للنساء يودّعن أحبّتهن وأبناءهن وإخوانهن.. تعلّقت كلّ واحدة منهن بابنها أو ابن أخيها تشمّه وتضمّه، ثم خرج الإمام الحسين عليه السلام بعد ذلك يتفقّد أرض المعركة ويستعلم حال أصحابه ويستظهر نيّاتهم. ثم عاود توديعهم قبل أن يلج المعركة، فقد رجع إلى المخيّم ليودّع عياله وأطفاله للمرّة الأخيرة.. دخل خيمته، فجاءته أُخته زينب عليها السلام والدمع يترقرق في عينيها:

بعد هيهات دهري بيكم يعود   أرد اشيل راسي بيكم اردود

---

١) الأمالي (الصدوق): ٢٢١، الإرشاد ٢: ٩١ ـ ٩٢، وانظر: روضة الواعظين: ١٨٣، الخرائج والجرائح ١: ٢٥٤، اللهوف في قتلى الطفوف: ٨٨، بحار الأنوار ٤٤: ٣٩١، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٤٤، تاريخ الطبري ٤: ٣١٤ ـ ٣١٩، الكامل في التاريخ ٢: ٥٥٨، البداية والنهاية ٨: ١٩٠ ـ ١٩٢، مقتل الحسين (الخوارزمي) ١: ٢٤٩.



﴿٣٣﴾

الإمامة في القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

هناك محاولة لتفسير هذه الآية بحيث تُصرف عن مضمونها الأساسي؛ لأن مضمونها ضخم جداً، فهي يمكن أن تعتبر من الفقه السياسي في الإسلام. وهذه المحاولة قد تكون غير مقصودة أو أنها إسرائيلية بحيث لا يشعر المفسر بها.

وإبراهيم هو اسم سرياني أما بالعربية فهو (أب رحيم) فيقلبون الحاء هاء فيصبح إبرهيمو. وهو ابن ناحور، أما آزر الذي ذكر في القرآن فليس أباه وإنما هو عمّه، والعم يسمىٰ أباً. فأبوه لم يكن مشركاً وإنما كان موحّداً علىٰ الفطرة.

---

(١) البقرة: ١٢٤.

المبحث الأوّل: آراء في الكلمات الواردة في الآية

وإبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء، ورسالته عامة، وأراد الله أن يمتحنه بكلمات، فما هي الكلمات التي اختبر بها الله تعالىٰ نبيّه إبراهيم عليه السلام؟ هناك عدّة آراء:

الرأي الأوّل: أنها التكاليف

وهذا الرأي يرويه المسلمون جميعاً دون استثناء، باعتبار أن التكاليف تنزل بكلمات. وهذه التكاليف عشرة[١]: خمسة في الرأس وخمسة في الجسم؛ فالخمسة التي في الرأس: المضمضة والاستنشاق؛ واحدة لتطهير الفم، وواحدة لتطهير المجاري التنفسية، ثم السواك، وقد وردت أحاديث كثيرة في فضله[٢]. ويعلل تطهير الفم واللثة والأسنان علىٰ أنها المعبر الذي يمرّ منه القرآن[٣]، وهو مكان الملكين[٤] باعتبار أنه ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[٥]. والرابع من الخمسة قص الشارب؛ لأنه يحمل في طياته الكثير من المكاره، فهو على مدخل الفم الذي هو الطريق إلىٰ المعدة، وقد يكون مكمناً لآثار ضارة. والخامس فرق الرأس[٦].

أما الخمسة التي في البدن فهي قص الظفر، فلا يبقىٰ الظفر فيمنع إيصال

---

(١) انظر: مجمع البيان ١: ٢٧٤ ـ ٢٧٥، تحرير الأحكام ١: ٧١ ـ ٧٣، المستدرك علىٰ الصحيحين ٢: ٢٦٦، الجامع لأحكام القرآن ٢: ٩٨، باختلاف فيها في هذه السنن العشرة.

(٢) انظر وسائل الشيعة ٢: ٥ ـ ٢٧/ب ١ ـ ١٣، كنز العمال ٩: ٣١٠ ـ ٣٢١/٢٦١٥٦ ـ ٢٦٢٢٨.

(٣) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إن أفواهكم طرق القرآن: فطهّروها». الفقيه ١: ٥٢ / ١١٢، كنز العمّال ١: ٦٠٣ / ٢٧٥١.

(٤) قال الرسول صلى الله عليه وآله: «نقّوا أفواهكم بالخلال؛ فإنها مسكن الملكين الحافظين الكاتبين». بحار الأنوار ٥٦: ٢٠٢ / ٨٢.

(٥) ق: ١٨.

(٦) فرق الرأس: المفرق، وهو ما بين الجبين إلىٰ الدائرة. لسان العرب ١٠: ٣٠١، ٣٠٢ ـ فرق، ١٢: ٦٢٤ ـ هوم.

الماء إلى البشرة، ويكون مكمناً للجراثيم أيضاً، وإزالة الشعر من مواضع الشعر؛ كيلا تكون مكمناً للأمراض، والثالث الختان، ويستحبّ في الأيام الأولى. ومن كرامة نبيّنا صلى الله عليه وآله على الله أنه ولد مختوناً، فقد قال صلى الله عليه وآله: «من كرامتي على ربي أنني ولدت مختوناً ولم يرَ أحد سوأتي»[1]. فالأغلف الذي لم يُختن طوافه باطل، وصلاته باطلة؛ لأن الغلفة تمنع وصول الماء إلى العضو فلا تتحقّق الطهارة. وإذا قطعت هذه الغلفة فيجب أن تدفن؛ لأنها جزء حي مبان من جزء حي. ثم الرابع الاستجمار بالماء، فموضع البول متعيّن فيه الاستجمار بالماء، لكن الغائط إذا تعدّى موضعه كان استعمال الماء واجباً، وإلّا فيخيّر بينه وبين الاستجمار بالحجارة ثلاثاً[2]، والخامس الغسل من الجنابة.

وأنا أستغرب أن يوقف الله تعالى أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام ليبتليه بكلمات وموضوع ضخم، فيكون هذا الموضوع هو قصّ الظفر والشارب والاستجمار وغيره. ولكن هذا الرأي على كلّ حال مروي عند المفسّرين، وإلّا فإن جوّ الآية يوحي بموضوع كبير، ويبدو أن المفسّرين المسلمين أحسنوا الظن بالرواية، فجاءهم البلاء منها.

الرأي الثاني: أنها ذبح ولده إسماعيل عليه السلام

وذلك لما أمره الله بذبحه[3]. وهذا موضوع ضخم؛ لأن إقدام الإنسان على ذبح ابنه أصعب حتى من إقدامه على قتل نفسه، فيمكن أن يقتل الإنسان نفسه ولا يقتل ولده؛ لأن علاقة البنوّة والأبوّة لا يمكن أن تبرزها

---

(١) المعجم الصغير ٢: ٥٩ / ٩٣٦، المعجم الأوسط ٦: ١٨٨، كنز العمّال ١١: ٤١١ / ٣١٩٢٤.

(٢) انظر المعتبر ١: ١٢٤ ـ ١٢٥.

(٣) تفسير القمي ١: ٥٩، جامع البيان، المجلد ١، ج ١: ٧٣٤ / ١٥٩٢.

الكلمات، فالله تعالى أراد أن يختبر نبيه عليه السلام بهذا الفعل، ليظهر جوهر النبوة. وقد امتثل إبراهيم عليه السلام وأتم الكلمات، فاستدعى ولده إسماعيل عليه السلام[1]، وهو ذو المكانة الكبيرة في نفسه؛ لأنه الولد الأوّل، فلم تكن سارة أم إسحاق تلد، فلما تزوّج مولاتها هاجر غارت فحملت بإسحاق. فإسماعيل عليه السلام هو الوليد الأوّل الذي كُحلت به مقلة النبي ابراهيم عليه السلام، ففداه الله تعالى بكبش.

ويقول المفسرون من غير الشيعة: إن هذا الكبش من كباش الجنة، وقد نزل مع آدم عليه السلام من الجنة[2]. في حين أن المدة بين نزوله مع آدم عليه السلام وبين ابراهيم عليه السلام هي آلاف السنين، فهل يمكن أن يعيش هذا الكبش آلاف السنين؟ مع أننا نحن الشيعة عندما نروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية»[3]، ونقول: فلابد أن يكون إمام الزمان حياً؛ لذا فإن الإمام المهدي (عج) حيّ، عندما نقول ذلك يقولون لنا: أنتم مخرّفون، فكيف يعيش الإنسان كلّ هذه المدّة؟ لكنهم يصدقون أن يعيش كبش لآلاف السنين، فلماذا يرفضون فكرة أن يعيش تلك الفترةَ الطويلةَ إمام يتعبّد الله البشرَ بطاعته، ويرون ذلك خرافة؟ فأين هي الموضوعية؟

لقد أتى الأمر إلى إبراهيم عليه السلام بذبح ولده، وهذا هو التكليف الشاقّ الذي لا

---

(١) يشار إلى أن هناك خلافاً بين المفسرين حول المأمور بذبحه من ولد النبي إبراهيم عليه السلام، وهل هو إسماعيل عليه السلام أو إسحاق، انظر التبيان ٨: ٥١٨، جامع البيان، المجلد ١٢، ج٢٣: ٩١ـ١٠٣.

(٢) انظر جامع البيان، المجلد ١٢، ج٢٣: ١٠٤ / ٢٢٦٥٥، تفسير القرآن العظيم ٤: ١٧، وفيهما كبش من الجنة قد رعاها قبل ذلك أربعين خريفاً.

(٣) الإمامة والتبصرة (ابن بابويه): ١٥٢، كمال الدين: ٤٠٩ / ٩.

يقدم عليه الإنسان إلّا أن يكون فاقداً للعقل. ولذا أُلفت النظر هنا إلىٰ أن الوالد لا يقاد بولده، فلو أقدم أب علىٰ ذبح ولده فلا يقاد النفسَ بالنفسِ؛ لأنه لا يمكن أن يقدم أب علىٰ قتل ولده إلّا أن يكون فاقد العقل. فلا يمكن أن يكون هناك شيء أعزّ من الولد أبداً. فالوالد يرىٰ نفسه بولده ولا يراها بأبيه؛ ذلك أن الولد هو الامتداد الطبيعي للوالد. فالاختبار ـ هذه الكلمة الضخمة ـ الوارد في الآية يناسبه هذا الموضوع، وهو موضوع مهم.

الرأي الثالث: أنها تكاليف النبوة وأعباء الإمامة

فمن أعباء الإمامة أن الإمام يتعرض للاضطهاد والاستهزاء والسخرية والمضايقة، فالمطلوب منه أن يحمل قلباً يسع الدنيا، ويتحسّس آلام البشرية. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «أأقنع من نفسي أن يقال: أمير المؤمنين، ولا أُشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أُسوة لهم في جشوبة العيش؟ فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همّها علفها، أو المرسلة شغلها تقمّمها. ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص»[١].

فهو يرىٰ نفسه مسؤولاً عن هذا الذي هو بالحجاز أو اليمامة الذي يبيت وهو لا طمع له بالقرص. وهذه ليست مسألة ترف يريد الإمام عليه السلام منها أن يبين لنا معنىً من المعاني الأخلاقية، وإنما ذلك لازم من لوازم الإمام، فهو يجب عليه أن يتحسّس الناس وآلامَهم.

فأعباء النبوّة والإمامة هي التي ابتلىٰ الله بها إبراهيم عليه السلام[٢]، وهذا هو الذي

(١) نهج البلاغة / الكتاب: ٤٥.

(٢) انظر جامع البيان، المجلد ١، ج١: ٧٢٥ / ١٥٨٧، ١٥٨٨.

يتناسب مع جوّ الآية؛ لأن أعباء الإمامة تحتاج إلىٰ قابليات لا حدود لها، ولا يقوم بها أيّ كان. فالإمام عليه السلام يرىٰ أنه لابدّ أن يصهر نفسه تماماً في سبيل تحقيق العدل، فتراه يقف في السوق مع يهودي يدّعي عليه في درع، ثم يقدمه إلىٰ القضاء[1]. وهو عليه السلام يساوي أبسط الرعية في الثوب الذي يلبسه[2]، ويتحمّل من أُناس ليس لهم وزن[3]. فلابد للإمام إذن من أن يحمل نفسية كبيرة وحلماً واسعاً.

كما أن الإمام يتعرض أيضاً إلىٰ الابتلاءات هو وعائلته، فهو يتعرّض إلىٰ الجرح أو القتل أو الإبادة لعائلته أو الشدائد التي لا حدود لها. فهذه هي التكاليف التي ابتلىٰ الله تعالىٰ بها إبراهيم عليه السلام، فلما أتمّها ووفىٰ بها صار

(١) المغني :١١: ٤٤٤، جواهر المطالب (ابن الدمشقي) ٢: ١٢٧ ـ ١٢٨.
ثم قال في المغني: وقد روي عن علي (كرم الله وجهه) أنه نزل به رجل، فقال له: «إنك خصم؟». قال: نعم. قال: «تحول عنا؛ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: لا تضيفوا أحد الخصمين إلّا ومعه خصمه».
ثم قال: لأن ذلك يوهم الخصم ميل الحاكم إلى من أضافه، ولا يلقن أحدهما حجّته ولا ما فيه ضرر على خصمه.
المغني :١١: ٤٤٤ ـ ٤٤٥.
(٢) انظر: كشف الغمة ١: ١٧٣، كشف اليقين: ٨٨، بحار الأنوار ٤٤: ٣٣٤ / ١٥.
(٣) وعلى ذلك شواهد كثيرة منها قول أحدهم له: لا أُصلي معك في عيد ولا في جمعة ولا في جماعة، ولا أخرج معك إلىٰ جهاد. فيقول له عليه السلام: «وأنا لا أضيرك ما دام المسلمون منك في أمان».
أو ما في (الإصابة) في ترجمة سلمان بن ثمامة بن شراحيل بن الأصهب الجعفي حيث قال عنه: وقال ابن الكلبي: كان سلمان اعتزل القتال في الفتنة هو وقوم ارتابوا بالقتال، فأقاموا بالرقّة، فكان علي يرسل إليهم الأعطية ويقول: «لا نمنعكم حقّكم من الفيء لأنكم مسلمون وإن امتنعتم من نصرتنا». الإصابة ٣: ١١٦ / ٣٣٦٤.
وقد مرّا.

موضع المدح من القرآن الكريم: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾[١].

الرأي الصواب من هذه الوجوه الثلاثة

وهذا هو المعنى الضخم الذي جاءت الآية لتقريره، فهي نزلت لتبيّن لنا أن الإمام يجب أن يتحلّى بالعدل والفضل والإحسان والصدق والحلم والعلم والشجاعة وصفات الكمال، كي يكون مؤهّلاً للإمامة، وإلّا فما معنى أن الله يختبر إبراهيم عليه السلام؟ فالإمامة ليست مجرّد جلوس على العرش دون النظر إلى أحوال الدنيا والرعيّة، وإلى تحقّق العدل والصدق والخير فيها وإلّا فهي ليست إمامة. فالقرآن الكريم يريد أن يبين لنا في هذه الآية أعباء الإمامة.

إذن فما هو الداعي إلى صرف الآية من هذا المعنى الضخم إلى أن المراد بها هو التكاليف من قص الشعر أو الاختتان أو السواك أو غيره؟ هذه محاولة غريبة، ويجب أن توضع عليها علامة استفهام. والغريب هنا أن هذا المعنى ترويه المذاهب الإسلامية كافّة! خصوصاً أن هذا التفسير يوجد عند العباقرة من المفسرين.

ولكن أغلب الظن أن المفسّرين أحسنوا الظنّ بهذه الرواية، وهي مروية عن ابن عباس والراوي هو عكرمة[٢] المعروف بالكذب[٣].

---

(١) النجم: ٣٧.

(٢) انظر جامع البيان، المجلد ١، ج ١: ٧٣٠ / ١٥٧٧ ـ ١٥٧٩، تفسير القرآن العظيم ١: ١٧٠.

(٣) روى ابن قتيبة عن علي بن عبد الله بن عباس أنه قال عن عكرمة: إن هذا يكذب على أبي. المعارف: ٢٠١.

وقال ابن سعد: ليس يحتجّ بحديثه. الطبقات الكبرى ٥: ٢٩٣.

وذكر ابن تيمية في مقدمة أصول التفسير: ٣٩ أن رجلاً سأل سعيد بن المسيب عن آيات من القرآن، فقال له: لا تسألني عن القرآن، وسل من يزعم أنه لا يخفى عليه منه شيء! يعني

المبحث الثاني: هل العامة مؤهلون لانتخاب الخليفة؟

ثم انتقلت الآية فقالت: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ وهذا أوضح في كون الكلمات هي أعباء الإمامة، حيث جاء هذا المعنىٰ بعد الكلمات مباشرة. وهذا المعنىٰ يؤشر إلىٰ نصوص أُخرىٰ في القرآن، منها: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1]، ومنها: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[2]. وإذا رجعت إلىٰ نظريات القرآن في هذا المجال وجدتها جميعاً تدور حول التعيين والجعل، فالنظرية صريحة في الجعل والتعيين وليس الانتخاب، فالله ينصّ علىٰ الأنبياء، والأنبياء ينصّون علىٰ الأيمة من بعدهم. وهكذا يبقىٰ الإمام منصوصاً عليه من قبل النبي صلى الله عليه وآله. يقول تعالىٰ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[3].

فإذا نصّ الله علىٰ الإمام فلا مجال للاختيار؛ لأن مثل هذه المسألة المهمّة الخطيرة لا يمكن أن يذرها الله تعالىٰ لمن هم ليسوا أهلاً لها، ولا يمكن أن

عكرمة.

أما ابن حجر في مقدمة (فتح الباري) فقد ذكر كل ما قيل فيه من مدح وذم، ثم دفع جميع الطعون عليه وصحّح مدحه وعدالته، مع أن الصحيح كما نصّ ابن الصلاح أن الجرح مقدّم على كل حال. مقدمة ابن الصلاح: ١٩٤ - ١٩٢.

ومما نقل ابن حجر فيه أنه كان خفيف العقل. تهذيب التهذيب ٧: ٢٣٧.

وأن المسلمين قد نبذوه وجفوه، وقد توفي هو وكثير عزة في يوم واحد، فشهد الناس جنازة كثير ولم يشهدوا جنازته. تهذيب التهذيب ٧: ٢٤٠.

وأن ابن المسيب قال لمولاه برد: لا تكذب عليّ كما كذب عكرمة على ابن عباس. تهذيب التهذيب ٧: ٢٣٧ - ٢٣٨، وانظر ميزان الاعتدال ٣: ٩٣ - ٩٧، إكمال الكمال ١: ٢٥٥، تهذيب الكمال ٢٠: ٢٧٩.

ونقل الذهبي أن مالكاً ومسلماً تركاه. ميزان الاعتدال ٣: ٩٣.

(١) البقرة: ٣٠. (٢) الأنبياء: ٧٣.

(٣) الأحزاب: ٣٦.

يُحَكِّم فيها العامّة التي نسميها الشعب. فالشعب رأي عام، والرأي العام قليل الإدراك لا يمكن أن يحدّد الإمامة والقيادة. وحتىٰ لو كان ذا ثقافة وإدراك فهو لا يدري ما بداخل الفرد المنتخب من الإيمان وغيره. فالرأي العام قد يقوده شيء بسيط، وقد يتأثّر بعاطفة، وقد يُشترىٰ بشيء ما، وهذه أمانة ضخمة لا توكل لهؤلاء العامة.

قاضي القضاة وقرطبة

وقد قرأت للكاتب خالد محمد ما أضحكني، فقد روىٰ هذا الكاتب أنه دعي القضاة في الأزهر في يوم من الأيام إلىٰ امتحان عام لغرض تعيين قاضي القضاة، وكان من جملة الأسئلة: عَرِّف قرطبة (وهي مدينة). فكتب أحد القضاة الممتحنين: قرطبة علىٰ وزن فُعْلُلَة، امرأة صحابية تزوّجها رجل من التابعين في عهد النبي ﷺ فولدت له أولاداً صالحين. فكيف نترك انتخاب الإمام إلىٰ أمثال هؤلاء العامة إذا كان القاضي هذا مبلغ علمه؟

دليل الشورىٰ غير ناهض

والآيتان اللتان يستدلّون بهما علىٰ الانتخاب ليستا صالحتين للاستدلال، فالأولىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[1]، وقد نزلت في مدح الأنصار الذين كانوا يتشاورون في حلّ مشاكلهم[2].

والثانية: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾[3]، فالبعض يقول: إن هذه المشاورة هي لاستجلاب مودّتهم لا لحاجة إلىٰ رأيهم؛ لأنه مسدّد بالوحي[4]، فليس

---

(١) الشورىٰ: ٣٨.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٣٦.
(٣) آل عمران: ١٥٩.
(٤) فتح القدير ١: ٣٩٢.

فيهما دليل ناهض. ولا أريد هنا مناقشة هذه الآراء التي ترد حتىٰ عند الشيعة في حال عدم وجود الإمام، فلابد من وجود الأفضل من حملة العلم الذي يرشحه الجوّ العلمي من الأُمّة.

إشكال حول نظرية الشورىٰ

ولو سلمنا علىٰ فرض المحال أن نظرية الانتخاب موجودة، فهذا الانتخاب متىٰ حدث في الأُمّة؟ إذا قلنا: إن الخلافة شورىٰ وانتخاب، فمعنىٰ ذلك أن خلافة الخليفة الثاني ليست صحيحة؛ لأنها حصلت بتعيين من الخليفة الأوّل. وكذلك خلافة الخليفة الثالث غير صحيحة لأنه لم ينتخبه إلّا ثلاثة. فأين الانتخاب؟ ومتىٰ تم؟ وعندما نسأل عمّن ينتخب الإمام يقال: إنهم أهل الحل والعقد. ونسأل عن عددهم فيقال: اثنان بل حتىٰ واحد. فهل هذا انتخاب؟ إنه سخافة في مقابل رأي الإسلام الصريح الذي يقول: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾. فالله ينصّ علىٰ النبيّ، والنبيّ ينصّ علىٰ الوصيّ، وإلىٰ هنا لا نقاش في نظرية النص.

المبحث الثالث: صفات الإمام

ثم طلب إبراهيم من الله أن يؤهّل ذرّيته إلىٰ حمل الإمامة: ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، فجاءه الجواب أن الإمامة لا تنتهي إلىٰ ظالم: ﴿قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾. فالإمامة لا تنال الظالم؛ لأن من أول شروط الإمامة العدل.

دخل جماعة من الصوفية يوماً علىٰ الإمام الرضا عليه السلام، فوجدوه جالساً علىٰ فراش نظيف، وكان يتكئ علىٰ وسادة وعليه ملابس رقيقة وثمينة، فقال له أحدهم: جدك رسول الله صلى الله عليه وآله ما شبع من خبز الشعير، وأبوك كان يلبس الكراديس الغليظة ويأكل الطعام الجشب، وأنت تجلس علىٰ هذه

المرقّعات وتلبس الملابس الناعمة؟ فاستوىٰ الإمام جالساً، ثم قال: «أما علمت أن يوسف عليه السلام نبي ابن نبي كان يلبس أقبية الديباج مزرورة بالذهب، ويجلس في مجالس آل فرعون يحكم، فلم يحتجِ الناس إلى لباسه وإنما احتاجوا إلى قسطه. وإنما يُحتاج من الإمام في أن إذا قال صدق، وإذا وعد أنجز، وإذا حكم عدل، إن الله لا يحرّم طعاماً ولا شراباً من حلال وإنما حرّم الحرام قلّ أو كثر، وقد قال الله عزّ وجل: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[1]»[2].

فالنبي صلى الله عليه وآله والإمام عليه السلام كانا في وقت عسر.

وإذا أنعم الله علىٰ عبد نعمة أحب أن يرىٰ أثر نعمته عليه. يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إن الله جميل يحب الجمال، البس وتجمّل وليكن ذلك من حلال».

وإذا كان العدل هو المطلب الأوّل من الإمام، فالظالم لا يكون إماماً؛ لأنه لا عدل عنده ولا صلاح فيه ولا تقوىٰ. ومعنىٰ ذلك أن الإمامة لا تصل إلىٰ الظالم شرعاً، وإلّا ففي الواقع قد وصل الظالمون إليها وسيطروا على الحكم، وقد وصل الأمر بالوليد ـ كما يذكر الدميري في (حياة الحيوان) ـ أنه فجر يوماً بجارية، ثم أخرجها وهي نجسة متنكّرة بلبس العمامة، وأنزلها الفجر لتصلي بالمسلمين. ومع ذلك يسميه التأريخ: الخليفة الوليد ويثني عليه ويحترمه؛ لأنه أصلح مسجداً بأموال نهبها من الناس.

ونذكر هنا التفاتة جميلة لقتادة نقلها عنه القرطبي في تفسيره وهي أنه قال: «وصل الظالمون إلىٰ الحكم وعاشوا وأكلوا وتمتعوا»[3].

ولا زال البعض يتباكىٰ علىٰ الخلافة العثمانية، ويعتبرها إسلامية، مع أن خلفاءهم لا يختلفون عمّن سبقهم من العباسيين والترك والأُمويّين

---

(١) الأعراف: ٣٢. (٢) الكافي ٦: ٤٥٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢: ١٠٨.

وغيرهم، هؤلاء الذين نهبوا المسلمين واستعبدوهم[١]، وحولوا قصورهم إلىٰ بؤر للانحطاط والرذيلة، والذين وصل سفك الدماء في أيامهم إلىٰ ما لا يمكن للإنسان أن يتصوّره.

فالإمامة شرعاً لا تصل إلىٰ الظالم، أما مقاييس الدنيا وواقعها فشيء آخر، فقد تجد من لا يعقل أي طرفيه أطول يسبح بالأموال، وقد تجد من مُلئ علماً لكنه لا طمع له في الرغيف. وقد رأيت أحد العلماء الأزهريين، وهو الشيخ علي الخفيف رحمه الله ـ وكان أحد الأساتذة الذين أشرفوا علىٰ رسالتي في جامعة بغداد ـ رأيته لمّا مات لم يحضر جنازته سوىٰ عدد قليل لا يتجاوز المئتين والخمسين، ومات أحد المغنيين ـ وكنت آنذاك في القاهرة ـ فخرج وراءه أكثر من مليون. هذه هي مقاييس الدنيا التي لا مقاييس فيها لولا الشريعة.

القرطبي يدعم خروج الحسين عليه السلام علىٰ يزيد

فالإمامة في الواقع كما ينقل القرطبي في تفسيره عن قتادة وصلت إلىٰ الظالم، وذلك بالخديعة والغشّ والحيلة[٢] والخروج على الإمام الحقّ. ثم قال القرطبي بعد ذكر قول قتادة المارّ: «ولذا خرج الحسين عليه السلام وعبدالله بن الزبير علىٰ يزيد؛ لأنه فاسق»[٣].

وجزىٰ الله هذا المفسّر خيراً علىٰ هذا، فهو علىٰ الأقلّ لم يقل: قتل الإمام

---

(١) قال ابن أبي الحديد: وكانت بنو أُميّة تختم في أعناق المسلمين كما توسم الخيل؛ علامة لاستعبادهم. شرح نهج البلاغة ١٥: ٢٤٢.

(٢) قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «والله ما معاويةُ بأدهَىٰ منّي، ولكنَّهُ يغدرُ ويفجرُ، ولولا كراهية الغَدر لكنت من أدهَىٰ النّاس». نهج البلاغة /الكلام: ٢٠٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢: ١٠٩.

الحسين بسيف جدّه كما يقول المفسر ابن عربي[١].

لكن القرطبي مع إيمانه بكونه فاسقاً يعود فيقول: «لكن الأولىٰ كان عدم الخروج؛ لأن في الخروج سفك الدم واستبدال الأمن بالخوف، فيكون الصبر علىٰ الظلم أفضل»[٢].

ويخالف المعتزلة والخوارج في هذا الرأي، وقد أخذ المعتزلة هذا الرأي من الإمامية؛ لأن المعتزلة متأخرون عن الإمامية، فالرأي في وجوب الخروج علىٰ الظالم هو للإمامية لا للمعتزلة. وهذه الغلطة تتكرر عند الكتّاب دائماً فيتصوّرون أن الإمامية أخذوا آراءهم من المعتزلة، لكن الحال بالعكس فالمعتزلة متأخّرون عقوداً من السنين عن الإمامية.

الحسين عليه السلام يبرر تعجله الخروج

وقد أشار الإمام الحسين عليه السلام إلىٰ هذا الموقف لمّا خرج يوم التروية من مكة المكرمة، فقال له الفرزدق: القلوب معك والسيوف عليك. قال عليه السلام: «صدق والله أخو تميم». ثم قال: «إن نزل القضاء بما نحبّ فله الحمد علىٰ آلائه ونعمائه، وإن حال القضاء دون الرجاء فلم يبعد من كان الحق سيرته والتقوىٰ سريرته». فقال له الفرزدق: ما أعجلك علىٰ الخروج في هذا الوقت؟ قال: «لو لم أُعجّل لأُخذت»[٣]. فكأنه عليه السلام يقول له: إن بني أُميّة طلبوا دمي، والله أمرني بحفظ النفس حتىٰ أصل المكان الذي أرىٰ فيه أن التضحية واجبة.

---

(١) انظر فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ٢٦٥ ـ ٢٦٦، ٥: ٣١٣. وقد مرّ في ج ٢ ص ٦٣، من المحاضرات.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢: ١٠٩.

(٣) مثير الأحزان: ٢٨. وفيها قال أيضاً: «إن أبي حدّثني أن بها كبشاً يستحلّ حرمتها، فما أُحبّ أن أكون ذلك الكبش». شجرة طوبى ١: ١٢٥، تاريخ الطبري ٤: ٢٨٩، البداية والنهاية ٨: ١٧٩، مقتل الحسين عليه السلام (أبو مخنف): ٦٦.

وقد كان ذلك، فأقدم على التضحية.

وكان عليه السلام يعرف ذلك سلفاً، فقد قال: «والله لا يدعوني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي، فإذا فعلوا سلّط الله عليهم من يذلّهم حتى يكونوا أذلّ من فرام[1] المرأة»[2].

وأراد الإمام الحسين عليه السلام تجسيد الموقف أمامهم لمّا خطبهم في اليوم العاشر فقال: «تباً لكم أيتها الجماعة وترحاً، أحين استصرختمونا ولهين، فأصرخناكم موجفين، سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم، واحتطبتم علينا ناراً اقتدحناها لعدوّنا وعدوكم، فكنتم بذلك ألباً لأعدائكم على أوليائكم من غير عدل أنشوه فيكم ولا أمل أصبح لكم فيهم؟ فهلا ـ لكم الويلات ـ تركتمونا والسيف مشيم، والجأش طامن، والرأي لما يستحصف! ولكن أسرعتم إليها كطيرة الدبا، وتداعيتم عليها كتهافت الفراش، فسحقاً لكم يا عبيد الأمّة وشذّاذ الأحزاب ونبذة الكتاب، أعنا تتخاذلون، وهؤلاء تنصرون؟ أجل والله غدر قديم وشجت عليه أصولكم، وتآزرت عليه فروعكم، فكنتم بذلك أخبث ثمرة؛ شجا للناظر وأكلة للغاصب. ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين، بين السلّة والذلة، وهيهات منّا مأخذ الذلّة يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون وحجور طابت وطهرت ونفوس أبية وأُنوف حمية من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام». ثم رمق السماء بطرفه وقال: «اللهم إني زاحف بهذه الأسرة على قلّة العدد وخذلان الناصر». وتمثل بأبيات فروة بن مسيك المرادي:

«فإن نهزم فهزّامون قدماً وإن نُهزم فغير مُهزّمينا

(١) فرام المرأة: خرقة الحيض. لسان العرب ١٢: ٤٥١ ـ فرم.

(٢) الكامل في التاريخ ٣: ٤٠١، لواعج الأشجان: ٧٢.

وما إن طبّنا جُبن ولكن ... منايانا ودولةُ آخرينا
إذا ما الموتُ رفّع عن أُناس ... كلاكِلَهُ أناخ بآخَرينا
فأفنى ذلكم سَرَوات قومي ... كما أفنى القُرونَ الأوّلينا
فقُل للشامتين بنا أفيقوا ... سَيلقَى الشامتُونَ كما لَقِينا »[1]

ثم رجع، حتىٰ إذا كان آخر الأمر تلفّت في المخيم حوله فوجده خالياً، وخرجت إليه طفلة من أبناء عبد الرحمن بن عقيل فتمسّكت بطرف ثوبه، وقالت: إن أبي وعمي بكّرا إلىٰ الماء وقد وعداني أن يأتياني به وإلىٰ الآن لم يرجعا، وإن العطش فتت قلبي. قال عليه السلام: «بنية وأين الماء وقد حيل بيننا وبينه»؟ قالت: عم إن كنت لا تقدر علىٰ جلب الماء خذني إلىٰ القوم واعرضني عليهم لعلهم يرقّون لحالي. قال: «نعم، ولكن إذا أخذتك من يردك؟» ثم صاح لأُخته زينب عليها السلام: «خذيها لقد أحرقت قلبي».

أقول له: يا أبا الشهداء، صبية واحدة أخذت منك كلّ هذا الأثر، فما حالك لو رأيت أُختك ظهيرة عاشوراء، يوم خرجت وقد تعلّق بثوبها أكثر من عشرين صبياً وصبية يسألونها عن آبائهم وإخوانهم وأعمامهم، وهي تجول ما بين اليتامىٰ؟

كم حرة لما أحاط بها العدى ... برزت تُخفّ العذوَ وهي وقورُ[2]

---

(١) الاحتجاج ٢: ٢٥، بحار الأنوار ٤٥: ٨٣.
(٢) وفيات الأئمة عليهم السلام: ١٥٩.



﴿ ٣٤ ﴾

أصحاب النار وأصحاب الجنّة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: بواعث الأمويّين وأهدافهم وراء معركة الطفّ

منذ خلق الله الأرض ومن عليها والبشريةُ لم تكن على وتيرة واحدة، ويتّضح ذلك من خلال مراجعتنا التاريخ، حيث إننا سنجد صراعاً واضحاً بين قوىٰ الخير وقوىٰ الشرّ. فالأرض لا يمكن لها يوماً أن تتمحّض للخير أو أن تتمحّض للشرّ؛ إذ أن فيها الشياطين والملائكة على امتداد خطّ الحياة ومسيرتها. والقرآن يلخّص لنا ذلك بقوله: ﴿لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾، فأصحاب الجنة هم معسكر الخير، وأصحاب النار هم معسكر الشرّ، والتعبئة قائمة فيهما على قدم وساق.

وسنحاول هنا أن نعطي بعض الملامح عن هذه التعبئة في مثل هذا

---

(١) الحشر: ٢٠.

اليوم، حيث إن عمر بن سعد قد عبّأ جيشه لقتال الحقّ المتمثّل بالإمام الحسين عليه السلام في مثل هذا اليوم، وكذلك فعل الإمام الحسين عليه السلام، فقد هيّأ الأسرة ـ كما عبّر عليه السلام بهذا عن ذلك بنفسه ـ لمقارعة الباطل، حيث قال عليه السلام: «اللهم إني زاحف بهذه الأسرة علىٰ قلّة العدد وخذلان الناصر»[١].

الملامح العامّة لمعسكري الهاشميّين والأمويّين

وهنا أودّ أن أروي حادثة تلقي الضوء على معسكري الهاشميّين والأمويّين، وهي أن عقيل بن أبي طالب دخل ذات يوم علىٰ معاوية فقال له: لقد دخلت علىٰ معسكر أخيك علي بن أبي طالب ودخلت على معسكري، فما هو الفرق الذي وجدته بين المعسكرين؟ فقال عقيل: دخلت إلىٰ معسكر أخي علي فرأيت ليلهم كليل رسول الله صلى الله عليه وآله ونهارهم كنهار رسول الله صلى الله عليه وآله، فهم بين قائم وقاعد، وراكع وساجد، وذاكر وصائم، إلّا إن رسول الله صلى الله عليه وآله ليس فيهم، ودخلت إلىٰ معسكرك فما وجدت فيه إلّا قوماً ممن نفّر ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله ليلة العقبة[٢].

فهو يقول له: إن مجموعتك تحمل تراث الجاهليّة، وتقف ضدّ الإسلام، وتحمل الأحقاد، وتنادي: يا لثارات بدر.

---

(١) وتمثل بأبيات فروة بن مسيك المرادي:

«فإن نهزم فهزّامون قدماً ... وان نُهزم فغير مُهزّمينا
وما إن طبّنا جُبن ولكن ... منايانا ودولةُ آخرينا
إذا ما الموتُ رفّع عن أُناس ... كَلاكِلَهُ أناخ بآخرينا
فأفنىٰ ذلكم سَرَواتِ قومي ... كما أفنىٰ القُرونَ الأوّلينا
فقُل للشّامِتين بِنا أفيقُوا ... سَيلقىٰ الشّامِتُونَ كَما لَقِينا»

الاحتجاج ٢: ٢٥، بحار الأنوار ٤٥: ٨٣.

(٢) بحار الأنوار ٤٢: ١١٣، شرح نهج البلاغة: ١٨٤ ـ ١٨٥.

دوافع الصراع الهاشمي ـ الأموي عند المؤرّخين

وهذا تصوير صحيح لذلك الواقع المخزي، فكيف ذلك؟ عند التأمّل فيما وصف به الأُمويّون الصراع في واقعة الطفّ نعرف أن المسألة لم تكن صراعاً يتجسّد بأشخاص، وإنما هو صراع يتجسّد بمبادئ، فالأُمويّون يكفرون بما جاء به رسول الله‹ص› وبمقدّسات المسلمين التي يجب أن تُستهدف بنظرهم؛ ليعيدوا نفوذهم وما كانوا عليه من رئاسة. وهذا المعنى كان يطفح على ألسنتهم في كل مناسبة[1]، فما هي الأشياء التي استهدفوها؟ وما هي البواعث لهم على ذلك؟ هناك نقطة أغفلها من كتب في واقعة الطفّ؛ فهؤلاء انقسموا على أنفسهم إزاء تحليل بواعث هذا الصراع إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أصحاب الدافع القبلي

فهذا البعض يقول: إن هذا هو مظهر من مظاهر الصراع القبلي، فبين بني هاشم وبني أُميّة عداء مستحكم في الجاهلية، وقد استمرّت أُميّة بهذا العداء وهذا الصراع القبلي حتى سقوط دولتها.

القسم الثاني: أصحاب الدافع الشخصي

أمّا هؤلاء فيقولون: إن المسألة شخصيّة، حيث ذكروا قضية أُرينب بنت إسحاق[2]، وأنها هي السبب في الصراع الذي وقع فيما بعد بين الإمام الحسين‹ع› ويزيد. وهذا رأي تافه لايستحقّ أن يناقش.

---

(١) ومنه قول أبي سفيان: تلاقفوها يابني أُميّة تلاقف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان، مامن عذاب ولا حساب، ولا جنة ولا نار، ولا بعث ولا قيامة، وإنما هو المسلك. شرح نهج البلاغة ٢: ٤٥، ٩: ٥٣ ـ ٥٤.

(٢) قصص العرب ٤: ٢٩١ / الرقم: ٩٤.

القسم الثالث: أصحاب الدافع الاجتماعي

وهؤلاء يقولون: إن جذور الصراع تاريخية، وباصطلاحنا هو صراع بين طبقة من المحرومين وبين طبقة كانت تستأثر بمقدّسات الناس وتنتهكها، فكانت النهضة اجتماعية، فاراد الحسين عليه السلام أن يستردّ للمسلمين حقوقهم[١].

الدافع الحقيقي وراء الصراع

ولكل واحد من هؤلاء الدارسين اتّجاهه في تفسير هذه الواقعة، لكنهم جميعاً غفلوا عن ناحية اُخرى هامّة جداً، ولم يكتبوا عنها، أو لم يشبعوها دراسة، هذه الناحية هي أن يزيد قد ربّاه النساطرة، والنساطرة مسيحيون، وكذلك اُمّه ميسون الكلابية فقد كانت مسيحية، وبهذا يكون أخواله ومعلّموه مسيحيّين. ولمّا تزوّجها معاوية وأدخلها الشام، دخل عليها يوماً من الأيام فسمعها تنشد:

لبيتٌ تخفق الأرواحُ فيه ... أحبُّ إليَّ من قصرٍ منيفِ

وكلبٍ ينبح الطرّاقَ دوني ... أحبُّ إليَّ من قطٍّ أليفِ

ولبسُ عباءةٍ وتقرّ عيني ... أحبُّ إليَّ من لبسِ الشفوفِ

وخرقٌ من بني عمّي نحيفٌ ... احبُّ إليَّ من عجلٍ عليفِ[٢]

فطلّقها معاوية وأرسلها إلى أهلها في البادية، فخرجت إليها وهي حامل بيزيد، فوضعته هناك، وفيها نشأ بين أخواله الذين علّموه الخطّ

---

(١) أي كما فعل أبوه أمير المؤمنين عليه السلام الذي قال: «والله لو وجدته قد تُزُوِّج به النساء ومُلِك به الإماء لرددته: فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق». نهج البلاغة / الكلام: ١٥.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٧٠: ١٣٣ ـ ١٣٤

المسيحي في التربية، فكان يتناول الخمرة بشكل طبيعي كما يشرب الماء، ولم يتربَّ علىٰ النظام العائلي في الإسلام.

والنساطرة قد عرفوا هذا الأمر عند يزيد، وهم يحملون علىٰ الإسلام حقداً، وأوروبّا المسيحية لا زالت حتىٰ الآن تحمل حقداً دفيناً علىٰ الإسلام، ولا يمكن لأحد أن يتصوّر مدى حقدها علىٰ الإسلام، فالكاتب المسيحي متوتّر جدّاً إزاء قضايا الإسلام، وهو ينفجر انفجاراً عنيفاً عليه. وهذا مع توفّر فنون العلم والمعرفة، وقد عرفت سيرة الرسول صلى الله عليه وآله وأنه يحمل التيار الإنساني، وموقفه من أهل الكتاب كان غاية في الرقّة واللين والاحترام، لكن ذلك لم يمنعهم عن أن يحملوا الحقد علىٰ الإسلام، ويقذفوه بكل نقيصة، ويعبرّوا عنه بأنه هجمة همجيّة بدوية اجتاحت الحضارات وقضت علىٰ التقدّم. وإذا مرّوا بجميع ما يرتبط بالإسلام فإنهم يزيّفونه ويجعلونه تافهاً في نظر الناس، حتى وصل الأمر بأحد المستشرقين أن يقول: إذا قرأت القرآن فإني أشعر بالغثيان.

ونحن نقول له: ما الذي يجعلك هكذا، والقرآن هو الذي يحمل كلّ هذه المبادئ السامية والقيم الإنسانيّة؟ أليس هو الذي يقول: ﴿وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[1]، و ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً﴾[2]، و ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[3]؟ فهل هذا اللون من المبادئ يلجئ الإنسان إلى أن يشعر بالغثيان عند قراءتها؟

فهذه تيارات متدفّقة من الفكر الإنساني، وقد وصلت به الجرأة إلىٰ

---

(١) لقمان: ١٨. (٢) الفرقان: ٦٣.

(٣) النحل: ٩٠.

التهجّم على القرآن، بل يقول: إن محمداً كان جالساً في بيته ويأكل من أموال النهب والسلب وبطنه متكرّشة، وهذا حقد مروّع. وليعلم أن هذا الكلام صادر في قرننا هذا قرن التنوّر والعلم والأحكام القائمة على أساس الحقائق العلميّة لا الادّعاءات والتحكّمات، أعني القرن العشرين، فكيف هم إذن آنذاك؟ وكيف هي أحقادهم؟

إن أُولئك الذين ربي يزيد عندهم كانوا يعرفون تركيبة يزيد، ويعرفون أنه ولي العهد وسيصبح هو المتولّي لشؤون المسلمين؛ ولذا عمدوا إلى أن يملؤوه بالحقد على الإسلام والمسلمين. ولهذا السبب نجد أن مستشاريه كانوا من الأجانب، وكان أحدهم «سرجون» مولى معاوية، وهو من النساطرة. فمن مجموع هذه الملابسات نشعر بوجود تيار أجنبي له دخل في التعبئة ضدّ الإسلام.

فالمربي يصوغ الشخصيّة أكثر من الأب، ويزيد كان المجوس والنساطرة أساتذته ومستشاريه، وكان الحضن الذي ربي فيه مسيحيّاً. فكل هذه العوامل تفسر لنا الموقف الذي وقفه يزيد بن معاوية من الإسلام، وضدّ مقدّساته.

ولو كان باقياً على التيار الجاهلي الذي كان عليه أجداده لكان أفضل من التيار الذي عادى الإسلام؛ لأن التيار المسيحي منظم ومخطّط له، أمّا التيار الجاهلي فبدوي وتستطيع أن تغيره بشيء من العوامل البسيطة، لكن التيار المسيحي كان مدروساً ومنبعثاً عن وعي وعلم.

المبحث الثاني: مقدّسات المسلمين التي استهدفها يزيد

والذي يؤيد هذا المعنى أن كل شيء مقدّس في نفوس المسلمين قد استهدفه يزيد بن معاوية. فما هي هذه المقدسات عند المسلمين؟

المقدّس الأول: الكتاب الكريم

إن أول المقدسات عند المسلمين هو القرآن الكريم، كتاب الله عزّ وجلّ الذي تلتقي عليه مشاعر المسلمين، وهو إمام المسلمين، والذي يقودهم فكرياً، وسلوكهم يتأثر بمفاهيمه غاية التأثر. فهذا الرجل استهدف هذا الكتاب بكل تعاليمه؛ حيث ضرب فكرة العدل، وسفك الدم، وانتهك حرمة الأُسرة، وعُرف بالانحلال حتى مع المحارم، ووصل الأمر إلى درجة أن يضع الأُمويون القرآن بين رماح منصوبة ويقذفونه بالسهام ويمزّقونه(١).

المقدّس الثاني: الكعبة

أمّا المقدس الثاني الذي تلتقي حوله مقاصد المسلمين ومشاعرهم في شرق الأرض وغربها فهو الكعبة الشريفة، وقد استهدفها الأُمويون استهدافاً لا حدود له. هذا في حين أن الجاهلي حتى لو كان له ثأر عند أحد، فإنه لا يمدّ إليه يداً لو كان في الأشهر الحرم، أو في الكعبة؛ حيث إنه يحترم الأشهر الحرم ويحترم الكعبة. والإسلام أكد هذا المعنى، ففرض علينا فيما لو أن شخصاً ارتكب جريمة توجب الحد ثم التجأ إلى الكعبة ألّا نخرجه منها، بل يبقىٰ فيها؛ لأنه قد لاذ بها، لكن يضيّق عليه

---

(١) قال القرطبي: حكى الماوردي في كتاب (أدب الدنيا والدين) أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك تفاءل يوماً في المصحف فخرج له قوله عز وجل: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ إبراهيم: ١٥. فمزّق المصحف وأنشأ يقول:

أتوعد كل جبار عنيد ... فها أنا ذاك جبار عنيدُ
إذا ما جئت ربك يوم حشر ... فقل يا رب مزقني الوليد

فلم يلبث إلا أيّاماً حتى قتل شرّ قتلة، وصلب رأسه على قصره، ثم على سور البلدة. الجامع لأحكام القرآن ٩: ٣٥٠.

بالطعام والشراب حتىٰ يخرج، فيقام عليه الحد.

فالإسلام دعم ما كان عليه العرب من أمر تقديس الكعبة ومراعاة حرمتها. والكعبة موضع قداسة حتىٰ ممن لا يعبد الله، فحتى عبّاد الأصنام كانت الكعبة مقدسة عندهم، أما الأُمويون فقد هتكوا حرمتها مادياً ومعنوياً: مادياً حين سلطوا عليها المنجنيق و الأحجار وأحرقوها، ولمّا حاصر الأُمويون عبد الله بن الزبير فيها، دخلت عليه أُمه وقالت: مابك؟ قال: هؤلاء ليس عندهم وازع من أن يجرّوا الحرب إلىٰ الكعبة، وأنا أرى أني لا أسلم حتىٰ بعد موتي. فقالت: إن الشاة لا يضرّها السلخ بعد الذبح[1].

فكان الرجل يعرف نفس الأُمويين، وفعلاً هدموا الكعبة، ثم قتلوه، ولم يكتفوا بقتله، بل صلبوه داخل الكعبة حتى سالت الدماء فيها[2].

وهؤلاء قد استهدفوا الكعبة مرّتين[3] ولم يبقوا لها حرمة في النفوس، مع أنها مركز من مراكز المسلمين، بل من أهم مراكزهم، فلذا هم يقدّسونها. وكانت هذه الحرمة التي أضفاها الله تعالى على الكعبة مصدر

---

(١) شجرة طوبى ١: ١٢٤، بلاغات النساء: ١٣٧.

(٢) انظر: التاريخ الكبير ٣: ٤ / ١٢، وقد ضعّف السند، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥١ - ٢٥٢، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٨٥، تهذيب الكمال ٦: ٥٤٨ / ١٣٧٦، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٧٤، فتح الباري ٨: ٢٤٥، تهذيب التهذيب ٢: ١٨٧ / ٣٣٨، ١٠: ١٤١ / ٢٩٧، ١١: ٣١٦ / ٦٠٠، ينابيع المودّة ٣: ٣٦.

(٣) ذكرت الأُولى في الهامش السابق، أما الثانية فحينما أعدّ الحجّاج جنده ورماها حتى هدم جدرانها. سنن ابن ماجة ١: ٦٢٣ / ١٩٣٦، الأخبار الطوال: ٣١٤، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٦٦، تاريخ الطبري ٥: ٣٠، تهذيب التهذيب ٢: ١٨٤ / ٣٨٨، ١٠: ١٤١ / ٢٩٧، الكامل في التاريخ ٢: ١٣٥ / ٣، البداية والنهاية ٨: ٢٦٣، سبل الهدىٰ والرشاد (الشامي) ٦: ٢١٤.

حقد الأمويين عليها؛ ولذا فإنهم يرون أن من واجبهم أن يقضوا عليها ويهينوها. وفعلاً عرّضوها للهوان.

المقدّس الثالث: عترة النبي صلى الله عليه وآله

ولهذا خرج الإمام الحسين عليه السلام يوم الثامن (يوم التروية) من مكّة، حيث إنه عليه السلام حل إحرامه وجعلها عمرة مفردة، وعلّل ذلك للمتسائلين بأنه يحترم الكعبة المقدّسة، ولا يريد لها أن تهتك حرمتها بسببه. ونحن نؤكّد أنه لو كان الإمام الحسين عليه السلام داخل الكعبة لقتلوه؛ لأن في كتاب الوليد إلى عامل مكّة أن اقتل الحسين عليه السلام ولو كان متعلّقاً بأستار الكعبة.

فهذا العظيم -الإمام الحسين عليه السلام- هو أحد أفراد الطرف المقدّس الثالث في الإسلام، وهم العترة الطاهرة، بعد الله تعالى ورسوله الكريم صلى الله عليه وآله الذي يقول: «إني مخلّف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً. ولقد نبّأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»[1].

وقال صلى الله عليه وآله: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً، ولقد نبّأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»[2].

وهذا المعنى يأخذه الإمام الشافعي حيث يقول:

ولمّا رأيتُ الناسَ قد ذهبت بهم	مذاهبُهم في أبحُرِ الغيّ والجهلِ
ركبتُ على اسمِ اللهِ في سُفُنِ النّجا	وهم آلُ بيتِ المصطفى سيّدِ الرسلِ

(١) شرح نهج البلاغة ١٠: ٢٧٠، ينابيع المودّة ٣: ٦٥.

(٢) انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، وغيرها.

وأمسكتُ حبلَ الله وهو ولاؤهم كما قد أُمرنا بالتمسُّكِ بالحبلِ[١]

فهذا هو الولاء للعترة، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «النجوم أمان لأهل السماء فإذا ذهبت النجوم أتىٰ للسماء مايكرهون، وأهل بيتي أمان لاهل الأرض فإذا ذهب أهل بيتي أتىٰ أهل الأرض مايكرهون»[٢].

وهذا المقدّس استهدفه الأمويّون بكل ما أُوتوا من قوّة وطاقة، وقتلوا أشياء كثيرة من الأخلاق الكريمة التي كان العرب يشعرون بالعار منها، فالعربي مثلاً كان إذا شتمته امرأة أو قاتلته فإنه يستحي أن يردّ عليها أو يقاتلها؛ لأن قتل المرأة يشكّل عاراً في حضارة العرب وكذلك ضربها. أمّا الأمويّون فقد ضربوا النساء وقتلوا الأطفال. وحتى في الأحكام الإسلاميّة عندنا فإن المرأة في حالات معيّنة تحبس حبساً مؤبّداً، غير أن الإسلام أعفاها (في حالات معيّنة من الفقه الجنائي) من القتل، فالرجل يُقتل بها أمّا المرأة فلا تُقتل به[٣].

فالأمويون قد استهدفوا حرمة العترة وحرم رسول الله صلى الله عليه وآله، فقد قتلوا الرجال وانتهت المعركة، فلماذا أحرقوا الخيم علىٰ طفل ذي سنتين أو

---

(١) بحار الأنوار ٢٩: ٧٧، رشفة الصادي: ٢٥.

(٢) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، المعجم الكبير ٧: ٢٢ ـ ٢٣، نوادر الأُصول (الحكيم الترمذي) ٣: ٦٣،٦٦ / الأصل: ٢٢٢، ينابيع المودّة ١: ٧٢ / ٤.

(٣) لم ينقل من طرقنا إلّا عن ابن الجنيد وفاقاً لأهل السنّة، كما في جواهر الكلام ٤٢: ١٧٠. وكذلك لا تقتل المرأة ولو ارتدّت كما في الخلاف ٥: ٣٥١ / المسألة: ١، المجموع شرح المهذّب ١٩: ٢٢٨، ولا عند الحرب إلّا إذا شهرت السلاح وقاتلت كما في مواهب الجليل ٤: ٥٤٣.

أربع سنين؟ فهل هذه قيم إسلاميّة، أو حتى عربية[١]؟ إن هذه التصرّفات تنمّ عن حقد، ودافعها الأول هو إزالة مكانة العترة وحبّهم من النفوس.

المقدّس الرابع: المدينة المنوّرة

ومن المقدّسات التي استهدفها الأُمويّون المدينة المنورة، والأُمويّون لهم موقف سلبي خاصّ من مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله، وذلك يعود لسببين:

السبب الأول: أنها تحمل شعار: لا لخلافة الأمويّين

فلا تجد لبنة من جدران المدينة إلّا وتحمل شعار رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن الخلافة محرّمة على ولد أبي سفيان»[٢]، فالمدينة كلّها سمعت صوت النبي صلى الله عليه وآله على المنبر حينما كان واجماً، فقال له أصحابه: يارسول الله مابالك؟ قال: «رأيت بني أُميّة ينزون على منبري نزو القردة يردّون الناس عن الدين القهقرى»[٣].

وقد رأى النبي صلى الله عليه وآله ذات يوم أبا سفيان راكباً ومعاوية يقوده ويزيد

---

(١) وقد قال لهم الإمام الحسين عليه السلام: «إن لم يكن لكم دين وكنتم لا تخافون المعاد، فكونوا أحراراً في دنياكم هذه، وارجعوا إلى أحسابكم إن كنتم عرباً كما تزعمون». اللهوف في قتلى الطفوف: ٧١.

(٢) الأمالي (الصدوق): ٢١٦، اللهوف في قتلى الطفوف: ١٨، بحار الأنوار ٤٤: ٣١٢، ٣٢٦، حياة الحيوان ١: ٨٨ ـ ٨٩.

(٣) جامع البيان: المجلّد ٩ ج ١٥: ١٤١، الجامع لأحكام القرآن ١٠: ٢٨٢، سير أعلام النبلاء: ٢١٠٨. فهبط عليه جبرئيل عليه السلام يحمل سورة القدر، وأخبره أن ما رآه حقّ، وأن مدّة ملك بني أُميّة ألف شهر.

وروى الفخر الرازي وغيره عن ابن عباس قوله: إن الشجرة الملعونة في القرآن هم بنو أُميّة. وروى السيوطي عن عائشة أنها قالت لمروان بن الحكم: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لأبيك وجدك: «إنّكم الشجرة الملعونة في القرآن». انظر: التفسير الكبير ٢٠: ١٨٩، تفسير غرائب القرآن ٤: ٣٦٢، الدر المنثور ٤: ٣٤٦.

يسوقه، فقال صلى الله عليه وآله: «لعن الله السائق والراكب والقائد»[١].

فكل هذه الشعارات سمعها أهل المدينة، وكانت تعجّ بها جدرانها.

السبب الثاني: أنها معقل أنصار رسول الله صلى الله عليه وآله

فالمدينة معقل الأنصار الذين يعبّر رسول الله صلى الله عليه وآله عنهم بقوله: «إن الأنصار عيبتي وكرشي»[٢]، حيث إنه صلى الله عليه وآله كان يعتبرهم أهله؛ فقد وقفوا كلّهم إلى جانبه صلى الله عليه وآله إلّا واحداً من الأراذل وهو النعمان بن بشير، وكذلك كانوا إلى جانب الإمام علي عليه السلام. ولذلك فإن المدينة المنوّرة كانت تحتضن كلّ من يقف بوجه الأمويّين، وهي تحمل شعار الإسلام. فدخل في خلد هؤلاء أن المدينة أخذت الزعامة من مكّة، فقد كانوا لا يعرفون مسألة النبوّة، بل كل ما يهمهم هو السلطة، فحينما دخل النبي صلى الله عليه وآله في فتح مكّة قال لعمه العباس: «احبس أبا سفيان في مضيق الوادي، ولتمرّ عليه كتائب المسلمين». فلمّا رأى الكتائب قال: لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً. فقال له: ويحك، ليس هو الملك وإنما هي النبوة[٣].

---

(١) المعجم الكبير ٣: ٧٣، ترجمة الإمام الحسن عليه السلام (ابن عساكر): ١٩١، شرح نهج البلاغة ١٥: ١٧٥.

(٢) بحار الأنوار ٣٨: ١٧٧، مسند أحمد ٣: ١٦٢، ٥٠٠، ٥: ٢٢٤.

(٣) تاريخ الطبري ٢: ٣٣٢، أسد الغابة ٥: ٢١٦، البداية والنهاية ٤: ٣٣٢، تاريخ مدينة دمشق ٣: ٤٥٤. ويروى أنه جاء به العبّاس بن عبد المطّلب إبّان فتح مكّة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال له: «ألم يأنِ لك أن تعلم أنه لا إله إلّا الله؟». فقال: بأبي أنت وأمّي، ما أحلمك وأكرمك! لقد علمت أنه لو كان معه غيره، لأغنى عنّا شيئاً يوم بدر. فقال صلى الله عليه وآله: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يأنِ لك أن تعلم أني رسول الله؟». فقال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك! أما هذه، ففي النفس منها شيء. فقال له العبّاس: ويحك أسلم قبل أن تُضرب عنقُك. فأظهر الإسلام حينئذ؛ حقناً لدمه، فقبل النبي صلى الله عليه وآله منه ذلك.

ولمّا دخل النبي صلى الله عليه وآله مكّة، خرج على أبي سفيان وهو في المسجد الحرام، فلمّا نظر إليه أبو

وهكذا فإن هؤلاء يظنّون أنه صراع على الملك، وأن النبي صلى الله عليه وآله قد انتزع الملك لنفسه[1]:

لعبت هاشمُ بالملكِ فلا   خبرٌ جاء ولا وحيٌ نزل[2]

فالمدينة المنورة مقدّسة بما حملت من آثار الوحي، وبما تزعّمته من قيادة للجزيرة ولمجتمع المسلمين، وبما سمعته من قول الوحي والرسول صلى الله عليه وآله فيهم. وكان أن استهدفها الأُمويون لهذين السببين، حتى وصلت الأُمور إلى درجة مزرية، حيث أباحوها ثلاثة أيام، وهُتكت أعراض المسلمين؛ إذ أُبيحت لجنود أهل الشام، وكان الجندي يأخذ الطفل من صدر أُمه ويضرب به الجدار حتى ينتثر مخّه على الأرض،

سفيان، قال في نفسه: ليت شعري، بأي شيء غلبني محمّد؟ فأقبل إليه رسول الله صلى الله عليه وآله، وضرب بيده بين كتفيه، وقال: «بالله غلبتك». بغية الباحث (ابن أبي أُسامة): ٢٨٤ / ٩٤٣.
وحينما رأى الناس يطؤون عقب رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الفتح، حسده، وقال في نفسه: لو عاودت الجمع لهذا الرجل. فجاءه النبي صلى الله عليه وآله، فضرب بيده في صدره، وقال له: «إذن يخزيك الله». الإصابة ٢: ١٧٩ / ٤٠٤٦، البداية والنهاية ٤: ٣٤٨.

(١) روي أن أبا سفيان قال لعثمان: بأبي أنت، أنفق ولا تكن كأبي حجر، وتداولوها يا بني أُميّة تداول الولدان الكرة، فو الله ما من جنّة ولا نار. وكان الزبير حاضراً. فقال عثمان لأبي سفيان: اعزب. فقال: يا بني أهاهنا أحد. قال الزبير: نعم، والله لأكتمنّها عليك. شرح نهج البلاغة ٢: ٤٥.
وروي أنه لما بويع لعثمان دخل رحله فدخل إليه بنو أُميّة حتى امتلأت بهم الدار، ثم أغلقوها عليهم، فقال أبو سفيان بن حرب: أعندكم أحد من غيركم؟ قالوا: لا. قال: يا بني أُميّة، تلقّفوها تلقّف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان، مامن عذاب ولا حساب، ولا جنة ولا نار، ولا بعث ولا قيامة. فانتهره عثمان، وساءه بما قال، وأمر بإخراجه. شرح نهج البلاغة ٩: ٥٣ ـ ٥٤.

(٢) البيت لابن الزبعرى، وقد تمثّل به يزيد مرّتين كما سبق أن أشرنا. انظر: الأخبار الطوال: ٢٦٧، تاريخ الطبري ٨: ١٩٣، البداية والنهاية ٨: ٢٠٩، شرح نهج البلاغة ١٥: ١٧٨.

وتركوا الخيل تبول داخل القبر النبوي الشريف، وسالت الدماء التي سفكوها أنهاراً، ونهبت الأموال، ثم بعد ذلك يجلس مسرف بن عقبة ويقول: ايتوني بأهل المدينة يبايعوا على أنهم عبيد أقنان نتحكّم بدمائهم وأموالهم وأعراضهم[١].

فهذه هي بصماتهم التي خلّفوها في المدينة التي هي موضع قداسة عند المسلمين، والمنطلق الذي بزغت منه الحضارة الإسلاميّة، وعلى التراب الذي وطئه رسول الله صلى الله عليه وآله. فالنعرة الجاهليّة لا يروق لها ذلك التطوّر، فهذه ليست مسألة حقد شخصي، ولو كانت المسألة مسألة دم فإنه يكفيها أن آلتهم القمعيّة بسر بن أرطاة قتل ثلاثين ألفاً، وهذا ما ذكره المؤرّخون، كما في (تاريخ الطبري)[٢] و(الكامل) لابن الأثير[٣] و(مروج الذهب)[٤] للمسعودي، وذلك من المدن التي مرَّ بها حينما أرسله معاوية إلى المدينة واليمن. وقد سبى الكثير من النساء المسلمات من همدان، فكنّ أوّل نساء يسبين في الإسلام، وبعد سبيهن أُقمن في الأسواق ليبعن[٥]. فالمسألة إذن كانت استهدافاً للإسلام.

فظائعهم في وقعة الطف

وكذلك كانت الساحة في الطف، فقد شكّلت صراعاً كبيراً بين أهل «لا إله إلّا الله» وبين أهل عبادة الأصنام، وتجسّد هذا الصراع في أشخاص، فهنا معسكر رسول الله صلى الله عليه وآله، وهناك معسكر الجاهلية.

فالقضيّة اليومَ إذن هي تعبئة بين قوى الجاهلية والباطل وبين قوى

---

(١) انظر: تاريخ الطبري ٤: ٣٨١، مروج الذهب ٢: ٨٢، تاريخ مدينة دمشق ٥٤: ١٨١ ـ ١٨٢.
(٢) تاريخ الطبري ٤: ١٠٦ ـ ١٠٧.
(٣) الكامل في التأريخ ٣: ٣٨٤ ـ ٣٨٥.
(٤) مروج الذهب ٣: ٣١ ـ ٣٢.
(٥) الاستيعاب ١: ٢٤٣ / ١٧٥.

الإسلام والحق؛ ففي اليوم التاسع من المحرّم عبّأ عمر بن سعد أصحابه؛ لأن جيوش الأمويّين قد تكاملت فيه.

حجم الجيش الأموي

وقد يتساءل متسائل فيقول: ألا توجد مبالغة في تصوير العدد الذي خرج لقتال الحسين؟ فإن يزيد حتماً يملك جهاز استخبارات، وبالتالي فإنه يعرف الحجم الحقيقي لجيش الإمام الحسين عليه السلام، وأن عدده لايتجاوز السبعين؛ فيكفي حينها جيش قوامه ألف نسمة مثلاً لقتالهم، فلماذا أخرج كلّ هذا العدد الضخم؟

ونقول: إن الأمويّين كانوا يظنّون أن جيش الإمام الحسين عليه السلام سوف لن يقتصر على هذا العدد القليل، فقد كانوا يتوقّعون أن الدنيا كلّها ستنقلب معه عليهم؛ لأنهم يدركون جيّداً ماالذي فعلوه في الدنيا، وهذا شاعر يقوم إلى معاوية ويخاطبه (في أيامه) ويقول له:

معاويَ إننا بشرٌ فأسجِحْ ... فلسنا بالجبالِ ولا الحديدِ
أكلتم أرضَنا فجردتموها ... فهل من قائمٍ أو من حصيدِ
ذروا جوزَ الإمارةِ واستقيموا ... وتأميرَ الأراذلِ والعبيدِ
فهبنا أمّةً ذهبت ضياعاً ... يزيدُ أميرُها وأبو يزيدِ
أتطمعُ في الخلافةِ إذ هلكنا ... وليس لنا ولا لك من خلودِ
وأعطونا السويّةَ لا تزركم ... جنودٌ مردفاتٌ بالجنودِ[1]

أمّا الآخر فيقول:

شربنا الغيظَ حتى لو سُقينا ... دماءَ بني أميّةَ ما روينا

(١) الأبيات لعقيبة الأسدي. تاريخ مدينة دمشق ٢٦: ٤٧.

لقد ضاعت رعيّتكم وأنتم تصيدون الأرانبَ غافلينا[1]

فإنهم يعرفون مافعلوا بالمسلمين، وكانوا يتوقّعون أن تخرج جيوش جرّارة مع الإمام الحسين عليه السلام ؛ ولذلك عبؤوا أكثر عدد يستطيعون تعبئته، وهو ثلاثون ألفاً كما تقول الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام : «أُزلف إلىٰ قتال جدي الحسين ثلاثون ألفاً». أو سبعون ألفاً علىٰ الروايات المختلفة. ففي مثل هذا اليوم تمّت التعبئة الكاملة لقتال الإمام الحسين عليه السلام ، أمّا هو (سلام الله عليه) فقد عبّأ جيشه، وهو عبارة عن صفوة الدنيا.

يقول المؤرّخون: زحفت الخيل إلىٰ الحسين عليه السلام ، وهو جالس أمام الخباء فاحتمىٰ بسيفه، وجاءت الخيل والرجال، ونادىٰ منادي ابن سعد: إن الأمير عبيد الله أمرنا أن نعرض عليكم الاستسلام أو القتال؛ فإن استسلمتم بعثنا بكم إليهم سلماً، وإن أبيتم ناجزناكم القتال. ولما جنّ عليهم الليل استدعىٰ الإمام الحسين عليه السلام أصحابه وقال: «هذا الليل قد غشيكم فاتّخذوه جملاً، وتفرّقوا في سواده؛ الطريق غير خطير، والليل ستير، والوقت غير هجير، وأنتم في حلّ من بيعتي. فإن القوم إنما يطلبونني، ولو ظفروا بي لذهلوا عن طلب سواي»[2].

فهو عليه السلام يطلب منهم أن يتركوه ليواجه مصيره وحده، لكن طيب منبتهم أثبتهم معه، فعبّأ عليه السلام معسكره وحمل علىٰ يده رسالة القرآن، وعبّأ عبيد

---

(١) الأبيات لعبد الله بن همام، وقيل: حمام العطّار. تاريخ مدينة دمشق ٣٣: ٣٥٢ ـ ٣٥٣، البداية والنهاية ٨: ٣٦٢.

(٢) روضة الواعظين: ١٨٣، الإرشاد ٢: ٩٢، الخرائج والجرائح ١: ٢٥٤، الدمعة الساكبة ٤: ٢٧٢، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المقرّم): ٢٦٢ ـ ٢٦٥، تاريخ الطبري ٤: ٣١٨، البداية والنهاية ٨: ١٩١.

الله بن زياد جيشه وحمل على يديه نعرات الجاهليّة، فالصراع يبتدئ اليوم. وهنا موقف لزينب أُخت الحسين ﷺ وشريكته في الكفاح، ذلك أنها لمحت على وجه أخيها غمامة من الحزن، فأقبلت إليه وقالت: فداؤك نفسي أبا عبد الله، فأنت ابن علي بن أبي طالب الذي يقول: «لا يزيدني كثرة الناس حولي عزّة، ولا تفرُّقهم عنّي وحشة»[١]. وأنت ابن حمزة بن عبد المطلب، وأنت ابن جعفر الذي يقول:

يــا نفس اقسمت لتنزلنّ ... طوعاً وإلّا سوف تُكرَهنّ[٢]

فأنت ابن هذا البيت والأُسرة، فما هذا الحزن؟ فقال الحسين ﷺ: «لا حيث ظننت»، فلا تظنّي أن هذا الجيش يرعبني، فقد خرجت وأنا عارف بمصيري، «ولكن أُخيّة أنا أبكي لهذا الجيش الذي سيدخل النار من أجلي».

وهذا سمو عجيب:

ورأيتك النفس الكبيرة لم تكن ... حتى على من قاتلوك حقودا

وعلمت أنك نائل ماتبتغي ... حتماً وإن يكُ شلوُك المقدودا

ظنّوا بأن يزيدهم قتل الحسيـ ... ـنِ وإنما قتل الحسينُ يزيدا

فمبادئ الجاهلية هذه قد قتلها الإمام الحسين ﷺ، فدخلت زينب ﷺ للمخيّم، وقد طلب الإمام الحسين ﷺ منهم إمهاله هذه الليلة، فتراجع معسكر عمرو بن سعد وتراجع الإمام الحسين ﷺ بمن معه، ودخل خيمته، فأحسّت النساء بما سيحصل غداً، فبدأت بعض الدموع تلوح على وجوه بنات الزهراء ﷺ، فبادر الإمام الحسين ﷺ إليهن والتفت إلى

---

(١) نهج البلاغة / الكتاب: ٣٦.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٢٨: ١٢٣، ونسبه لعبد الله بن رواحة.

أخته زينب وقال لها: «أخيّة أسكتيهن؛ فسيكثر البكاء من بعدنا». فأنا الآن لا أريد دمعة وإنما أريد صموداً وموقفاً، وفعلاً صمدت هي وأخواتها، لكن عندما جن عليها الليل في الليلة الحادية عشرة من المحرّم، وهدأ بعض العيال والأطفال راحت تشتكي لأخيها مامرّ عليها:

شصار بأهالينا ونسونه بديار غربه ضيعونه
نشچي التعب ما يرحمونه

ففي هذا اليوم وقع عليها عبء القافلة ومسؤولية العائلة، يقول أحد الكتّاب: إنها كانت تحمل على يد ضيافة الرجال، وعلى يد أخرى رعاية العيال، وتتحمل آلام المعركة. وهي المسؤولة الوحيدة عن هذا العدد الضخم، ولهذا كان لها ساعات تنفرد بها مع الحسين تبثّه آلامها:

وحائراتٍ أطارَ القومُ أعينَها رُعباً غَداةَ عَليها خدرَها هجموا
عجّتْ بهم مُذْ على أبرادِها اختَلَفتْ أيدي العدوّ ولكن من لها بِهُمُ[١]

* * *

نايم يخو زينب بواعي ما هيجنك هالنواعي

---

(١) ديوان السيّد حيدر الحلّي ٢: ١٠٣.

﴿٣٥﴾

فلسفة السجود

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: الوسائل التعبيريّة للتعظيم

للتعظيم وسائل تعبيريّة كثيرة؛ فهي تارة تكون وسائل لفظية وأُخرىٰ تكون وسائل حركية، لأن اللغة عبارة عن لغة لفظية ولغة إشارة. فالأخرس مثلاً لا يستطيع النطق، فإذا أردنا أن نجري معه تعاقداً علىٰ شيء فإننا إما أن نكتب له أو أن نستخدم معه لغة الإشارة؛ فإذا هزّ رأسه كان ذلك دليلاً علىٰ أنه موافق أو غير موافق حسب مدلول هزة الرأس التي تعتبر لغة. ومثال آخر إن مَن يريد أن يشتري قماشاً من بزّاز، فإنه حينما يقيس المقدار الذي يريده المشتري يقول له: هذا ستة أمتار وثمنه (١٠٠) دينار، فإن المشتري دون أن يتكلّم يخرج له الـ(١٠٠)

---

(١) البقرة: ٣٤.

دينار ويعطيه إياها. وهذه العملية تعني أنه راضٍ بالثمن والمثمّن. وهذا التحرّك هو لغة بحدّ ذاته.

المبحث الثاني: سجود العبادة وسجود التعظيم

ونأتي الآن للسجود؛ لنرىٰ أي شيء هو، فالسجود حركة، وهذه الحركة تحتمل أكثر من معنىٰ، فهي تحتمل معنىٰ العبادة كما أنها تحتمل معنىٰ التعظيم. ومن خلال القرائن يمكننا أن نميز بين السجود العبادي والسجود التعظيمي، ولدىٰ الناس قواعد عرفية يتعاملون بها، ففي بعض المناطق تستعمل حركات معينة لوسائل التعظيم والتكريم لا تستعمل في مناطق غيرها، كأن يضرب أحدهم علىٰ كتف الآخر معظّماً له، في حين أنه في مناطق أُخرىٰ تستخدم حركات غيرها للدلالة علىٰ ذلك.

والسجود من هذا النوع، لأنه تارة يكون دالاّ علىٰ العبادة وعنواناً لها، وأُخرىٰ يكون مدلوله التعظيم والتكريم.

ومعنىٰ العبادة أن يسجد أحد لغيره؛ لأنه يراه أهلاً للعبادة. وهذا المعنىٰ لا يصحّ إلّا للّه عزّ وجلّ. وأما إذا كان الانحناء أو السجود لأجل التعظيم فلا بأس به إن كان عن أمر الله تعالى.

أقسام التعظيم عند الفقهاء

وبعده هذا البيان نرجع إلىٰ وسائل التعظيم من وجهة نظر الفقهاء ومن ميزانهم، وكيف أنهم يقسمونها. يقول الفقهاء: إن الخضوع والتعظيم له ثلاثة أقسام:

الأول: أن يكون منشؤه الدوافع الفطرية

أي أن يكون الخضوع والتعظيم لأُناس بدوافع فطرية، كخضوع المتعلّم للمعلم، فعندما يجلس طالب العلم أمام الفقيه فإنه يتواضع له ويخضع. وهذا ليس بعنوان أن هذا الفقيه متّقٍ للّه ومنتقىً منه، بل لأن المعلم سوف يبني المجتمع بناءً فكرياً، وهو بناء أهمّ من البناء الجسدي الذي يوفّره ويقوم به الأبوان؛ لأنهما يبنيان دماً ولحماً. ومع كون بنائهما بناء جسدياً محدوداً باعتبار أنه سيموت يوماً وينتهي، والجسد يذهب إلىٰ القبر، لكنهما يستحقّان كل ذلك التعظيم والتكريم، فالمعلم الذي يبني بناء فكرياً وعقيدياً وهو بناء أهمّ فإنه يجب أن يعظّم ويكرّم لأجله.

فهذا التعظيم فطري كما قلنا، أي أنه موجود عند الإنسان بالفطرة. وهذا التعظيم مباح كما يقول الفقهاء، وليس فيه إشكال.

الثاني: أن يدّعىٰ أنه للّه وهو ليس له

كالخضوع والتعظيم للصنم، فهؤلاء الذين يخضعون للصنم يدّعون بأن تعظيمه مرتبط بتعظيم اللّه، مع أنه في واقع الأمر غير مرتبط به ولا يُنمىٰ إليه بأية علاقة. ومن هذا التعظيم الخضوع للآراء الباطلة تعصّباً.

وهذا النوع من التعظيم باطل، فكل تعظيم لصنم أو للأديان الفاسدة والعقائد الباطلة، وما سوىٰ الدين الإلهي هو تعظيم باطل وحرام؛ لأن هذا نوع من أنواع الإشراك في العبادة.

الثالث: أن يكون بأمر من اللّه تعالىٰ

وفي هذه الحالة يكون الخضوع لمن أمر اللّه عزّ وجلّ، وهو بالنتيجة خضوع له تعالى، فاللّه عزّ وجلّ قد أمرنا بالخضوع للمساجد مثلاً

وللأولياء والأنبياء والكعبة الشريفة وأداء بعض الحركات بها بما يُشعر بمعنى العبادة. ولهذا الأمر يكون خضوعنا لهؤلاء الأشخاص وهذه الأماكن خضوعاً لله تعالى؛ لأن هذا الأمر من الله عزّ وجلّ.

وعليه فخضوعنا في حقيقته ليس خضوعاً للكعبة بل لأمر الله، وكذلك الأمر مع الأنبياء عليهم السلام، فنحن لا نعظم النبي صلى الله عليه وآله باعتباره دماً ولحماً، بل باعتبار أنه نبي الله، ومعنى كونه نبي الله: أن الله تعالى أرسله للبشر، وأمره بتعظيمه وبتكريمه. فتعظيمه صلى الله عليه وآله وتكريمه تعظيم لأمر الله تعالى وتكريم له.

ويندرج تحت تعظيم النبي صلى الله عليه وآله تعظيم الأيمّة عليهم السلام؛ لأنه بالنتيجة تعظيم لأمر الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[١]، وأولو الأمر قطعاً هم الأيمّة عليهم السلام.

حقيقة السجود لآدم عليه السلام

ومن هذا القسم كان السجود لآدم عليه السلام، فهو بأمر من الله جلّ وعلا، أي أن تعظيم آدم عليه السلام هو بالتالي تعظيم لله تعالى.

ومن هنا نقول: إنه ليس كلّ سجود عبادة، فقد يكون رمزاً للتعظيم، وكلّ عمل منوط بالنية: «إنما الأعمال بالنيات»[٢]. فإذا كانت الأعمال بالنيات، فسجود الإنسان تُحدّد طبيعته ويُناط جوازه وعدم جوازه بنيّته لا غير. فالنيّة هي التي تحدّد فيما إذا كان سجوده سجود عبادة أو سجود تعظيم.

---

(١) النساء: ٥٩.

(٢) تهذيب الأحكام ١: ٨٣ / ٢١٨، ٤: ١٨٦ / ٥١٨ ـ ٥١٩، صحيح البخاري ١: ٢.

محاولات رمي الشيعة بالشرك والنيل منهم

وفي هذا الخضمّ تجد من يتّهم الشيعة بالشرك، ويرميهم به من غير أن يعلم حقيقة نيّاتهم؛ من قبيل الوقوف على القبور، والتمسّك والتمسّح بها، مصوّرين ذلك ـ بدوافع الحقد ـ للآخرين بأنه سجود لغير الله، وبالنتيجة فإن فاعله مشرك. لكن من قال ذلك؟ ومن منّا قال: أنا أعبد غير الله؟ وهل دخل ذلك المدّعي قلوبنا ومشاعرنا؟ ونحن حينما نقف على قبر إمام فإنما نقف عليه ونحن نعتقد بأننا نقيم عند عبد من عباد الله تعالى، ونقف على ضريح ولي من أوليائه. ويشهد بهذا قولنا مخاطبين إياه في زيارته: «أشهد أنك قد أقمت الصلاة»[1] فهل المعبود يصلي؟

فنحن إذن نخاطب عبداً من عباد الله وحجّة من حججه.. نخاطب الإمام الحقّ. فوقوفنا على المشاهد المشرّفة والمراقد المقدّسة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والأيمّة المعصومين عليهم السلام، ليس فيه أي قرينة تدلّ على أننا عندما نقف هناك فإننا إنما نعبد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو الإمام عليه السلام، لا أبداً، فليس في وقوفنا هناك شائبة عبادة أو الاستعانة بغير الله البتة.

إننا نستعين بالله، ونعرف أن هذا محلّ من محالّ رحماته، لأن رحمة الله قريب من المحسنين[2]، وهؤلاء محسنون، فنحن حينما نقف في هذا المقام فإن في تصورنا أننا سنكون أقرب ما تكون إلى الله في مقام

---

(١) الكافي ٤: ٥٧٠، ٥٧٣ / ١. كامل الزيارات: ٣٧١، ٤٠٩. وفي الزيارة عينها: «أشهد أنك عبد الله وأمينه». المصدر نفسه. بل إن أمير المؤمنين عليه السلام جعل من نفسه الشريفة الطاهرة عبداً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وذلك حينما سأله أحد اليهود فقال له: أفنبي أنت؟ فقال له: «ويلك، إنما أنا عبد من عبيد محمد صلى الله عليه وآله وسلم». الكافي ١: ٨٦ / ٥، ٩٠ / ٨. التوحيد: ١٧٤ / ٣.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الأعراف: ٥٦.

مؤهّل بأن يقبل فيه الدعاء[1].

تساؤل مشروع

ولنا أن نتساءل ونقول: لماذا هذا الإصرار على تكفير طائفة بأكملها؟ ولماذا هذا الإصرار على قول: إن هذا مشرك؟ وما هي المصلحة من تكفير مسلم؟ فهذا المسلم قد جاء قاطعاً مراحل طويلة، وبذل أموالاً طائلة؛ كي يصل إلى قبر الرسول صلى الله عليه وآله ويقف عليه، والرسول صلى الله عليه وآله نفسه ندبنا إلى زيارة القبور، وقال: «من زارني وجبت له شفاعتي»[2].

يقول عبد الله بن مليكة: كنت يوماً واقفاً على باب السيدة عائشة زوج النبي صلى الله عليه وآله، فجاءت من الخارج، فقلت لها: أين كنت يا خالتي؟ فقالت: كنت عند قبر أخي عبد الرحمن. فقلت لها: أليس قد نهى رسول الله صلى الله عليه وآله عن زيارة القبور؟ قال: نعم، نهى ثمّ نُسخ هذا النهي، وأمرنا بزيارتها؛ لأنها تُرقّق القلب، وتُذكّر الآخرة[3].

---

(١) لقد خصّ الله تعالى الإمام الحسين عليه السلام بأربع خصال: جعل استجابة الدعاء تحت قبته الشريفة، والإمامة في ذرّيته، والشفاء في تربته، وألّا يعدّ أيّام زائريه من أعمارهم. عدة الداعي: ٤٨.

(٢) كامل الزيارات: ٤٤ / ١٤، المغني ٣: ٥٨٨، كنز العمّال ١٥: ٣٨٣ / ٤١٤٨٦.

(٣) المستدرك على الصحيحين ١: ٣٧٦، السنن الكبرى (البيهقي) ٤: ٧٨، فتح الباري ٣: ١١٨. وقال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «زوروا القبور فإنها تذكّركم الآخرة». سنن ابن ماجة ١: ٥٠٠ / ١٥٦٩، المعجم الصغير ٢: ٤٣ وغيرهما، وفي تلخيص الحبيّد ٥: ٢٤٧ ما نصّه: «كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ثم بدا لي أنّها تُرقّ القلب، وتُدمع العين، وتُذكّر الآخرة: فزوروها». وانظر: الموطأ ٢: ٤٨٥، المجموع شرح المهذّب ٥: ٣١٠، مغني المحتاج ١: ٣٦٥، وغيرها.

قال المناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير ٤: ٨٨ ـ بعد أن نقل قوله صلى الله عليه وآله: «زوروا القبور فإنها تذكّركم الآخرة» ـ ما نصه: «فزيارتها مندوبة للرجال بهذا القصد، والنهي منسوخ».

الآثار الإيجابيّة لزيارة القبور

إن الوقوف على القبور له عدّة مردودات إيجابيّة على الإنسان، منها:

الأول: الاتّعاظ بالموت وعدم الاغترار بالدنيا

فالإنسان عندما يقف على القبر يشعر بتفاهة الدنيا، ويؤول إلى نتيجة يناجي بها نفسه: إننا بعد هذه الأموال الطائلة والقصور وغيرها سندفن هنا بين أربعة أحجار. فيأخذ الإنسان بالتفكير في مصيره ونهايته وما سيكون عليه أمره في نهاية المطاف، فيخضع ويخشع[1].

الثاني: ذكر الميت بما يرجع عليه حسناتٍ عند الله

فالإنسان حينما يقف على قبر المؤمن ويقرأ له شيئاً من القرآن، أو يهدي له ثوابه فإن هذا مما سينفعه عند الحساب ويردّ عنه وحشة القبر؛ لأن الإنسان عندما يموت فإن جسده هو الذي يبلى بموته، أما روحه فهو باقٍ لا يموت، بل يبقى يلتذّ ويعذّب بما فعل صاحبه في الدنيا، وبما يصل إليه من أهله وذويه.

وعليه فهذا الرأي ـ أنه سجود تعظيم ـ هو الذي عليه علماء المسلمين كافّة. ونحن إنما نملك رافداً من روافد الفكر في الإسلام، وهو الفهم الظاهري الذي يثبت بظواهر الألفاظ؛ إذ أننا عندما نقرأ الآية ونعرف منها أن الله عزّ وجلّ أمر بالسجود لآدم فإننا نفهم من هذا الظهور اللفظي أن

وفي كشف القناع ٢: ١٧٤، بعد أن نقل الأحاديث المارّة، أورد عبارة الماتن: «ولا يمنع كافر من زيارة قريبه المسلم». ثمّ علّق قائلاً: حيّاً كان أو ميّتاً. ثمّ نقل كراهتها للنساء دون حرمتها. وقال في كشف القناع ٤: ٣٠١ مانصّه: فإن زيارة القبور للرجال سنّة.

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «كفى بالموت واعظاً». الكافي ٢: ٨٥ / ١. وفيه: موعظة، بدل: واعظاً. تحف العقول: ٣٥.

هذا السجود ليس معناه العبادة، بل هو تعظيم لآدم لما يحمل في طياته من امتثال لأمر اللّه، حيث إنّ اللّه لو علم أن في هذا شائبة عبادة لما أمر به؛ لأنه تعالىٰ لا يأمر بالمعصية مطلقاً.

وقد يقول قائل: إن اللّه ليس فقط لا يمنع من أمر المعصية، بل يأمر بها ويخلقها أيضاً.

والجواب: أن هذا قول عجيب، ويعذّب عليه قائله؛ لأن الذي يزني سيقول: إن اللّه هو الذي خلق فيّ طبع الزنا. وإذا كان اللّه قد خلق فيه طبع الزنا فما هو ذنبه إذن لكي يعذبه عليه؟

وقد يجيب هذا المدّعي بأن اللّه تعالىٰ يقول: **﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾**[1]، ونحن لا نستطيع أن نقترح علىٰ اللّه.

ونقول: إن هذا صحيح، وهو أننا لا نستطيع أن نقترح علىٰ اللّه تعالىٰ ما الذي يفعله، ولكن اللّه لا يفعل القبيح، ولا يمكن أن يأمر بفعل القبيح ثم يعذّبنا عليه، حاشا للّه.

إذن كان أمر اللّه عزّ وجلّ بالسجود لآدم تعظيماً له، ولذا كان امتثال هذا الأمر طاعةً للّه جل وعلا، وليس فيه أي شائبة معصية. وكذلك عندما أمر الله تعالى بتعظيم الأولياء، فنحن لا نعبد الولي؛ لأن الولي نفسه محتاج إلىٰ رحمة اللّه تعالىٰ، وهو عبد من عبيد اللّه يتأثر بالضرر والنفع، وبحاجة إلىٰ عطاء اللّه. فليس من أحد فينا يعتقد بأن هؤلاء الأولياء يضرّون وينفعون من دون اللّه. ولكن لا أدري لماذا يتّهمنا هؤلاء بالشرك والعبادة لغير اللّه، ولا يقنعون بهذا الكلام وهذه الأدلة؟

---

(١) الأنبياء: ٢٣.

فنحن نقول لهم: اعرضوا هذه المسألة على المقاييس الشرعيّة والعقليّة، فإذا خضع إيرادكم لها، فهو مقبول! أما أن تفتروا تهمة على شريحة من المسلمين وتكفّروهم بدون دليل، فهذا مما لا يرضى به اللّه عزّ وجلّ، ولا يرتضيه العقل.

المبحث الثالث: تداعيات خلق الإنسان من تراب

ولنرجع إلى الآية الكريمة حيث إنها تقول: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾.

سبب تسمية آدم عليه السلام

وهنا يرد سؤال وهو: ما هو السبب في تسمية آدم عليه السلام بهذا الاسم؟

والجواب: هو أن كلمة آدم مأخوذة من أديم الأرض، أي وجه الأرض، ومعنى هذا أنه عليه السلام خلق من التربة. وهذا الإنسان الذي خلقه اللّه من التراب ـ بصورة مباشرة أو غير مباشرة ـ يترتّب عليه أمور، منها:

الأمر الأوّل: ارتباطه بتربته ووطنه

فالإنسان يلاحظ أنه غالباً ما يكون ملتصقاً بتربته ووطنه الذي ولد فيه ونشأ به. فهو مأخوذ من أديم الأرض، وأصله هذا يوحي إليه بضرورة الدفاع عنها، يقول القرآن الكريم: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا﴾[1].

ونفهم من هذه الآية أن الذي يُخرج من دياره يجب أن يجاهد في سبيل استعادتها واستعادة أرضه ووطنه، ولا يصحّ أن يجلس في بيته ويقول: إلهي خلصني من هذا الذي أخرجني من وطني ودياري، بل

(١) البقرة: ٢٤٦.

عليه الجهاد في سبيل الله واستعادة كرامته. ينقل التاريخ أن أحد ملوك الأندلس عندما أخرجه الروم من أهله وملكه بكى، وكانت والدته جالسة فقالت له:

ابكِ مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تدافع عنه دفاع الرجال

فالأرض لها مكانة في النفوس، وليس للإنسان أمّ حنونة تحتويه مثل الأرض، فعليها يصبح ومنها يأكل، وفي نهاية الأمر تضمّه وتحتويه. ولذا فإن الإنسان إذا مات ولم يوضع في باطن التراب فإنه يصبح مرعب المنظر وتفوح منه رائحة كريهة.

ولأهمية الأرض عندنا كان لها حكم في موضوع الإرث بالنسبة للزوجة عندما يموت زوجها، فهي لا ترث الأرض منه. والسبب هو: منع الأجنبي عن دخول هذه الأرض. فالشابّة التي يتوفّى زوجها عندما تريد أن تتزوّج فإن هذه الأرض التي ورثتها من زوجها ـ لو قيل بتوريثها منها ـ قد يأخذها الزوج الجديد، وبالتالي تصبح ملكاً للأجنبي.

وقد يسأل البعض ويقول: إن البنت أيضاً من الممكن أن تتزوّج، وبالتالي تنقل الأرض إلى الأجنبي؟

فنقول له: الأمر يختلف هنا؛ لأن البنت لازالت تحمل اسم الوالد، ووجوده ممتدّ فيها، غير أن الزوجة ليست كذلك؛ إذ أن وجوده غير ممتدّ فيها، وتنتهي العلاقة بينه وبينها بالموت أو بالطلاق مثلاً[1].

(١) قال الإمام الرضا عليه السلام: «علّة المرأة أنها لا ترث من العقار شيئاً إلّا قيمة الطوب والنقض؛ لأن العقار لا يمكن تغييره وقلبه، والمرأة يجوز أن ينقطع ما بينها وبينه (الزوج) من العصمة ويجوز تغييرها وتبديلها، وليس الولد والوالد كذلك؛ لأنه لا يمكن التفصّي بينهما، والمرأة يمكن الاستبدال بها. فما يجوز أن يجيء ويذهب كان ميراثه فيما يجوز تغييره وتبديله إذا

إذن فالإنسان يحنّ إلىٰ أرضه التي ولد فيها، ويبقىٰ كذلك وإن كانت هذه الأرض صحراء قاحلة، وهذا شيء فطري.

الأمر الثاني: إشعار الإنسان بضرورة تواضعه

فإن في خلق آدم من أديم الأرض معنىً يجعله يشعر بشيء من التواضع، فهناك من الناس من لا يستطيع أن يتحمّل النعم التي أنعم اللّٰه بها عليه، من مال أو جاه؛ سواء كان اجتماعياً أو غيره. وهذا البعض قد يخرج عن طوره الإنساني، وربما ادّعى الربوبية والعياذ باللّٰه. ولهذا كانت هذه الضرورة. فالإنسان عندما يعرف أنه من التراب ويرجع إلىٰ التراب، ويستشعر هذه الحقيقة ويتيقّن بها، فإن ذلك يجعله يذعن ويتواضع.

ولهذا المعنىٰ لقّب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بـ«أبي تراب»؛ لأن التراب كان يخلص إلىٰ جسده. وفي هذا دلالة علىٰ تواضعه. وهناك رواية تقول: «يا علي أنا أوّل من ينفض التراب عن رأسه وأنت، ثم الخلائق»[1]. وهذا بالطبع بعد الأنبياء وبعد النبي صلى الله عليه وآله. فـ«أبو تراب» يعني المتواضع.

وأقول: لو كانت واحدة من مؤهّلات علي بن أبي طالب عند غيره لرفعوه إلىٰ السماوات العُلىٰ. انظر إلىٰ تاريخ المسلمين وتأمّله هل عرف رجلاً أشجع من علي بن أبي طالب عليه السلام؟ ثم لاحظ الحقائق الواقعيّة والميدانية فيه؛ إن هذا الرجل كان سيف المسلمين المصلت المدافع عنهم، الذي كان وما يزال يتغنّىٰ به الدهر وبسيفه. يقول أحد الشعراء:

بسيف أبي رغوان سيفِ مُجاشعٍ ضربتَ ولم تضرب بسيف ابن طالبِ[2]

أشبههما، وكان الثابت المقيم على حاله كمن كان مثله في الثبات والقيام». الاستبصار ٤: ١٥٣ / ٥٧٩.

(١) الأمالي (الصدوق): ٦٥٦ / ٨٩١، مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٠٦.

(٢) البيت للفرزدق، قاله لمّا ضرب عنق رومي فنبا السيف عنه، فقال: كأني وابن اليقين وقد

فهذا هو الرجل الذي كانت الأمثال تضرب به، كانوا إذا جاء علي عليه السلام قالوا: احذروا الحطم، احذروا القضم[١]؛ إذ لم يكن أحد يستطيع أن يدني نفسه منه؛ لأن رأسه حينئذٍ سيفارق بدنه.

هذه شجاعته، وأما علمه فيكفي أن نأخذ بقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»[٢]. وهذه الرواية ترويها العشرات من كتب المذاهب المختلفة. ولكن يدّعي مدّعٍ فيقول: لا وجود لهذا الحديث[٣]. فأليس هذا شيئاً غريباً؟

أو من يحاول أن يقلّل من فصاحته فيقول: إن ما هو موجود في (نهج البلاغة) ركيك! ولنا أن نسأله: ارجع إلىٰ كتب الأدب وكتب العرب، فهل ستجد ديباجة مشرقة ورائعة مثل ديباجة (نهج البلاغة)؟ وهل هناك ما هو أفصح ممّا في هذا الكتاب؟ وهل سمعت كلاماً أفصح من كلام أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول في دعائه عند الصباح: «اللهمّ يا من دلع لسان

هجاني، ثمّ أنشد البيت. انظر مناقب آل أبي طالب ٣: ٨٣، وروي البيت ومناسبة قوله بشكل آخر في تاريخ الطبري ٥: ٣٠٦، شرح نهج البلاغة ٥: ٢٢.

(١) لأنه عليه السلام كان يحمل ساعداً يُعبَّر عنه بالحاطم والقاضم. شرح الأخبار ٢: ٤٢٨، مناقب آل أبي طالب ٣: ٩١.

قال ابن الأثير وابن منظور في مادة قضم: «كان علي بن أبي طالب عليه السلام إذا نزل إلى الحرب تَنادىٰ الجيش وصاحوا: احذروا الحطم، احذروا القضم». النهاية في غريب الحديث والأثر ٤: ٧٨ـ قضم، لسان العرب ١٢ ـ ٤٨٨ ـ قضم.

وقال الراوندي وابن الأثير: «كانت ضربات علي عليه السلام بكراً؛ إذا علا قدّ، وإذا توسّط قطّ». الخرائج والجرائح ٢: ٥٤٢ / ٣، النهاية في غريب الحديث والأثر ٤: ٨١ ـ قط.

(٢) المستدرك علىٰ الصحيحين ٣: ١٢٧، مسند أبي يعلي ٢: ٥٨ / ٦٦٩، المعجم الكبير ١١: ٥٥.

(٣) العلل (الدار قطني): ٣: ٢٤٧، كشف الخفاء ١: ٢٠٣ / ٦١٨. ونقل المتقي في كنز العمّال ١٣: ١٤٧ / ٣٦٤٦٢ عن الترمذي قوله: إنه منكر.

الصباح بنطق تبلّجه، وسرّح قطع الليل المظلم بغياهب تلجلجه، وأتقن صنع الفلك الدوار في مقادير تبرّجه، وشعشع ضياء الشمس بنور تأججه، يا من دلّ على ذاته بذاته، وتنزّه عن مجانسة مخلوقاته وجلّ عن ملاءمة كيفيّاته»[1]؟ فتأمّل هذا النوع الرائع من العطاء والأداء! وهكذا جميع خطبه.

فعلي بن أبي طالب‏ عليه السلام كان يملك من الصفات: الفصاحة والشجاعة والبلاغة والعطاء والكرامة والاعتزاز بالنفس والنبل الذي لا حدود له. فأي نبل سامٍ هذا الذي يدفعه ليدخل مباشرة بعد واقعة الجمل على أم المؤمنين ليطمئن على أوضاعها؛ لأنها زوج النبي‏ صلى الله عليه وآله[2]؟ وأي نبل كريم هو حيث إنه‏ عليه السلام يصفح عن مثيري الفتنة، إذ وقفت له امرأة بباب دار أحد البيوت، وقالت له: يا قاتل الأحبّة، أيتمت ولدنا أيتم اللّه ولدك. فقال‏ عليه السلام: «لو كنت قاتل الأحبّة لقتلت من في هذه الحجرة»[3]، وكان فيها مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير والوليد بن عقبة بن أبي معيط؟ إن هذا اللون من النبل هو الذي دأب عليه علي بن أبي طالب وأهل بيته (صلوات الله وسلامه على رسوله وعليهم أجمعين).

خلقٌ أقلُّ نعوتِه وصفاتِه   أن الجلالَ بمثلِه مقرونُ[4]

---

(١) قطعة شريفة من دعائه‏ عليه السلام عند الصباح. انظر: بحار الأنوار ٨٤: ٢٣٩ / ١٩، ٩١: ٢٤٣ / ١١.

(٢) وإضافة إلى ذلك أمر الجيش بالكف عنها كما في تفسير العياشي ٢: ٢٠ / ٥٢، وأمر أخاها محمداً بإكرامها وإيصالها إلى بيتها، ثم هيّأ لها يوم الجمل أربعين خادمة يخدمنها. تاريخ الطبري ٥: ٢٠٤ ـ ٢٠٥، الفتوح (ابن أعثم) ٢: ٣٤١، الفتنة ووقعة الجمل: ١٨٢.

(٣) هي صفيّة بنت الحرث الثقفيّة امرأة عبد الله بن خلف الخزاعي. دعائم الإسلام ١: ٣٩٤، مناقب آل أبي طالب ٢: ٩٨، الجمل (ضامر بن شدقم): ١٤٧، تاريخ الطبري ٣: ٥٤٣، شرح نهج البلاغة ١٥: ١٠٥. وقد مر في ج ٢ ص ٣٠.

(٤) ديوان المحاضر ١: ١٩.

ومع كل هذه المزايا الموجودة لدىٰ هذا الرجل يأتي التاريخ ويضعه بجانب الطليق معاوية، ويقول لكليهما (رضي الله عنه).

فسلام الله عليه حين قال: «أنزلني الدهر حتىٰ قيل: معاوية وعلي»[١].

وأقول: إن نقل هذه الأمور في التاريخ سوف يخلق من يشكل علىٰ مقاييسنا هذه:

ألم تـرَ أن السيف يـزري بحدّه مقالةُ أن السيفَ أمضى من العصا[٢]

رجع

نعود إلىٰ موضوعنا: فآدم عليه السلام سمي بهذا؛ لأنه من أديم الأرض، ذلك ليتعظ ويعود إلىٰ التواضع. وأيضاً من أهداف خلق آدم من أديم الأرض هو تكريم الأرض أيضاً، يقال: لديك أُم، وأُمك هذا التراب أو هذه التربة.

المبحث الرابع: تساؤلات حول الدين

التساؤل الأول: هل يحرّم الإسلام الاعتداء علىٰ البيئة؟

وقد يسأل أحدهم ويقول: هل توجد أوليات في الشريعة الإسلاميّة توحي بعدم الاعتداء علىٰ البيئة؟

فيقال له: عندما ترجع إلىٰ الروايات وفي مختلف الأبعاد فستجد هناك العديد منها تذكر المياه والتراب وغيرها، وكلها تشريعات إسلامية في هذا المجال، وستجد فيها آراء مختلفة. والمهم أن هذه الروايات تشعر بأن الإنسان يجب أن يكرم أُمه، وأنه أولىٰ بتكريمها. وعليه فإن امتناع

---

(١) الإمام جعفر الصادق عليه السلام: ٤٥.

(٢) بيت من جملة أبيات استظهر البعض نسبتها إلى الإمام المهدي عليه السلام. انظر: بحار الأنوار ١٠٥: ١١٧، المناظرات في الإمامة: ٣٤٥.

إبليس من السجود لآدم كان امتناعاً عنصرياً: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[١].

التساؤل الثاني: لا يخلو المكلّف عن أحد ثلاثة

إن المجتمع الإسلامي ينقسم حسب فهمه الدليل وعدم فهمه له، وحسب قابليّته على الاستنباط وعدمها إلىٰ ثلاثة أقسام:

الأول: المجتهد، وهو من يعرف الدليل العلمي ولا يحتاج إلىٰ تقليد أحد، بل إنه يستخرج الحكم الشرعي من مداركه نتيجة معرفته بالدليل.

الثاني: المحتاط، وهو من يعرف الدليل العلمي ولكنه لا يستطيع أن يستنبط الحكم الشرعي، فهو يحتاط في الحكم.

الثالث: المقلّد أو العامّي، وهو من لا قابليّة له على فهم الدليل العلمي، ولا معرفة له بهذه الأمور؛ فهو يقلّد العالم المجتهد الجامع للشرائط الذي وضع لنا الشرع الإسلامي مقياساً خاصّاً له للرجوع إليه، مثل الورع والتقوىٰ والعلم إلىٰ آخره.

فالشرع وضع لنا هذه الشروط لنستنير بها في رحلة الالتزام بتكاليفنا، ولكن للأسف هناك من الناس يقلّد العالم الفلاني؛ لأنه من جنسيته أو من قوميته، وهذا خلاف ما شرع لنا الإسلام، فالإسلام يرفض العنصرية والتعنصر، فـ«كلّكم لآدم، وآدم من تراب»[٢]، والآية الكريمة تقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٣]. وقد وقع إبليس في هذا المدخل إذ قال:

---

(١) الأعراف: ١٢.

(٢) تحف العقول: ٣٤، شرح نهج البلاغة ١: ١٢٨.

(٣) الحجر: ١٣.

«أأسجد لبشر خلقته من طين»[١].

التساؤل الثالث: هل إن الذكر أفضل من الأنثى؟

وقد يقول البعض: إن الذكر أفضل من الأنثىٰ؛ استناداً إلىٰ تقديم الذكر علىٰ الأنثىٰ في الآية الكريمة: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾[٢].

والحال أنه ليس هناك أفضلية بينهما، بل أن هذا التصنيف حسب الوظائف، وحتىٰ بالنسبة إلىٰ الأحكام فالمرأة لديها أحكام تتناسب مع طبيعتها والرجل كذلك. فلا يفهم من هذه الأمور وجود الأفضليّة بين الرجل والمرأة؛ لأن الباري عزّ وجلّ وضع الأشياء في موضعها الصحيح بمقتضى عدله وحكمته، وأعطىٰ كلاً حسب مستواه.

التساؤل الرابع: هل يعدّ إبليس عاصياً؟

وعليه فامتناع إبليس عن السجود لآدم امتناع عنصري. والغريب أن القاضي في تفسيره يلبس الحوار الذي دار بين الباري عزّ وجلّ وبين إبليس معنىٰ صوفياً؛ حيث إنه يقول: «قال اللّه عزّ وجلّ لإبليس: اسجد. فقال: لا، أنا أنأىٰ وأرتفع بشرف السجود علىٰ أن يكون لغيرك، إن كنت أمرتني فقد نهيتني عن أن أسجد لغيرك».

وهذا أمر عجيب حقاً! ويا لها من محاورة بلهاء، كأن اللّه عزّ وجلّ يأمره أن يعبد غيره حاشا للّه.

ثم يضيف القاضي في تفسيره قائلاً: «فقال اللّه: أعذبك عذاب الأبد.

---

(١) إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾ الإسراء: ٦١، أو إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ الحجر: ٣٣.

(٢) النجم: ٤٥.

فقال: إذا عذبتني فهل تراني في العذاب؟ قال: أراك. فقال: إنّ رؤيتك إياي تخفّف عني ألم العذاب».

وهذا خطأ طبعاً؛ لأن الله عزّ وجلّ ينعم من أطاعه ويعذّب من عصاه، ولا يأمر إلّا لوجود حكمة ومصلحة، فحينما أمر الملائكة وإبليس أن يسجدوا لآدم كان لغرض تعظيم آدم وليس لعبادته.

التساؤل الخامس: ما الذي يصحّ السجود عليه؟ وما دليله؟

ويأتي من يقول: إنكم عندما تسجدون على التربة فإنما تعبدونها. وطبعاً لا واقع لهذا الأمر؛ لأن التربة موضع سجود لا أكثر، وسجودنا في الواقع هو للّه سبحانه وتعالى. والنبي أمرنا أن نسجد على الأرض[1]، ولم يقل لنا: اسجدوا على السجادة. فنحن نحتجّ عليكم بهذا؛ لأن الألفاظ لها ظواهر، وظاهر اللفظ حجّة. فاللّه أمرنا أن نسجد على الأرض، وإذا سألنا العرف: ما هي الأرض؟ فسيقول لنا: إنها قطعة من التراب. كما أننا نحتج بأن نقول للخصم: ايتنا بدليل واحد أو نصّ صحيح يصرّح بجواز السجود على السجادة.

أما دليلنا على ضرورة السجود على الأرض فهو من الكتاب والسنة، والإجماع والعقل اللذين يعودان إلى السنة. والإجماع دليل يكشف عن رأي المعصوم، وهو قسم من أقسام السنة. وإنما قلنا بدليل العقل باعتبار أن الشارع داخل مع العقلاء فالشارع سيد العقلاء.

---

(١) قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً». الخلاف ١: ٤٩٦ / المسألة: ٢٣٦، جامع الخلاف والوفاق: ٤٢. وعن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث يذكر فيه مناقب رسول الله صلى الله عليه وآله أنه عليه السلام قال عن لسان الله تعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وآله: «وقد جعلت الأرض كلّها لأمّتك مسجداً وطهوراً». الاحتجاج ١: ٥٢١ ـ ٥٢٧ / ١٢٧.

ودليل فعلنا من السنة هو أن النبي صلى الله عليه وآله كان يسجد على الأرض والصحابة كذلك، ولذا كانوا في أيام الصيف يبرّدون الحصاة قبل السجود عليها. ويذكر التاريخ أن بعضاً من المسلمين اشتكوا أيام الخليفة الثاني من السجود على الأرض في أيام المطر لأن الأرض تصبح طيناً ويلتصق بجباههم، فأمر أن يفرش المسجد بالحصاة؛ لأن الحصاة يجوز السجود عليها. وكل هذه أدلة على صحّة أفعالنا.

التساؤل السادس: هل كان موقف الحسين عليه السلام خالصاً لله؟

فالسجود إذن لغير اللّه عزّ وجلّ لا يصحّ، وكل عمل يجب أن يتعلّق بوجه اللّه سبحانه وتعالىٰ وإلّا فهو باطل. فيجب على الإنسان المسلم أن يجعل وجه اللّه نصب عينيه في كلّ عمل يقوم به. وهذا عين ما كان عليه أبو الشهداء عليه السلام في يوم الطف؛ فإننا إذا تأمّلنا موقف أبي عبد اللّه عليه السلام في هذا اليوم، وأمعنا النظر فيه، فسنعرف أنه كان متعلّقاً باللّه عزّ وجلّ بكلّ وجوده. وهذا التعلّق هو الذي منحه هذا الخلود الذي نراه اليوم، فلم يشغله منظر أهله وأصحابه المقطّعين إرباً إرباً، ولا منظر الخيام المشتعلة، ولا صياح ونياح النساء والأطفال، فعندما نظر إلى كلّ هذه المناظر رمق السماء بطرفه وقال: «صبراً على قضائك يارب، ياغياث المستغيثين، لا معبود سواك، لك العتبىٰ يارب»[1].

فلسانه عليه السلام كان مشغولاً بذكر اللّه، وذهنه متعلّقاً بالملأ الأعلىٰ وهو في النزع الأخير، لكن كيف كان حاله عليه السلام وهو يسمع صوت أخته زينب عليها السلام وهي تنادي: «يابن أمي يا حسين، نور عيني يا حسين، إن كنت حياً

---

(١) شجرة طوبى ٢: ٤٠٩، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المقرّم): ٣٥٧، ينابيع المودّة ٣: ٨٣.

فأدركنا؛ فهذه الخيل قد هجمت علينا، وإن كنت ميتاً فأمرنا وأمرك إلى الله»[١].

يقول الراوي: جعل ينوء برقبته يميناً وشمالاً يحاول الحركة، لكنه لم يستطيع.. نهض وسقط ثم نهض وسقط، ثم خضع لأمر الله وهو يسمع أصوات العيال تنبعث إليه:

خويه المن بعد يا حسين منواي ... ظني انكطع وانكطع رجواي

أناجيك مايشجيك اندا ي ... ولا تسمع عتابي ونخواي

شتهيّس يخويه بونتك هاي

لقد كان لهذه المرأة لحظات لا يمكن أن تنسى مع أخيها الحسين عليه السلام، فمنذ أن نشأت وهي مع الحسين عليه السلام لم تفارقه، إلى أن فارقها في كربلاء. فهي على امتداد هذا العمر كانت إلى جانبه عليه السلام؛ ولذلك كانت صورة أخيها الإمام الحسين عليه السلام ملازمة لذهنها ولم تبارح خيالها؛ ولذا عندما جنّ عليها الليل بادرت إلى مصرع أبي عبد الله:

خويه بحليب أمي عليك ... بطّل الونّة ورفس رجليك



(١) المصدر نفسه.



﴿٣٦﴾

فلسفة زيارة الحسين عليه السلام

المباحث العامّة في الموضوع

ما هي العوامل التي دعت إلىٰ زيارة الحسين عليه السلام؟ سوف نبحث عن هذه العوامل التي دعت إلىٰ تثبيت هذا الجانب عند الشيعة بالذات، وعند المسلمين بصورة عامّة.

هناك عدّة عوامل ساعدت علىٰ زيارة الحسين عليه السلام بهذا الشكل، كما ساعدت على أخذها بالتوسّع بالشكل الذي نراه الآن. وسنتناول مبدئيّاً بعض هذه العوامل التي سبقت منها مقتل الحسين عليه السلام والتي استجدّت بعد مقتله عليه السلام.

المبحث الأوّل: عوامل تأكيد زيارة الحسين عليه السلام عند المسلمين

فالعوامل صنفان: صنف عام بالنسبة إلىٰ الأولياء بصورة عامّة، والصنف الآخر: تبرعم زيارة الحسين عليه السلام بالذات.

فمن العوامل العامّة حصول البركة من الأولياء، وهذا المعنىٰ كان موجوداً عند زيارة قبورهم، حيث إنّنا نعتقد ببقاء النفس بعد الموت، كما هو عند غيرنا أيضاً، كالإغريق والرومان واليونانيين فهم يعتقدون أيضاً

أن النفس لا يعتريها فناء.

وتختلف المدارس الروحيّة عن غيرها، فالمدارس الماديّة تعتقد أن الإنسان ينتهي بموته كلّ شيء؛ فلا يوجد هناك كيان منفصل يتميّز عن الجسد. ويعتقد بعض فلاسفة المسلمين أن الروح وظيفة عليا للجسد، أي أن آخر ما يترقّىٰ إليه الجسد يصل إلىٰ المستوىٰ الروحي.

وعموماً فإن الزيارة تتفرّع من هنا حيث إن المسلمين يعتقدون أنهم حين يأتون إلىٰ زيارة الولي فإنهم إنما يستمدّون البركة من روحه التي ترفرف فوق القبر. هذا من جانب والجانب الآخر أنهم يحصلون على الثواب لزيارتهم الأولياء، والله يحبّ أن يزار أولياؤه.

وفكرة زيارة القبور موجودة قبل الإسلام وإن كانت هناك أهداف غير هذه التي أشرنا إليها؛ فإن هناك هدفاً عند الأُمم يسمىٰ عبادة الأرواح، وهو الذي يستند إليه البعض عندما يدعو إلىٰ محو القبور.

وكان الذي يقوم بذلك بالخصوص في العراق الآشوريون والبابليون وأُمم أُخرىٰ حيث يصل الأمر إلىٰ تقديم القرابين للمزور مع وجود روح عبادة تلك القبور. ولذلك لمّا أرسل أمير المؤمنين عليه السلام أبا الهَياج إلى العراق قبل أن ينقل العاصمة من المدينة إلى الكوفة أوّل خلافته، أمره أن يمحو تلك القبور[1] للقضاء علىٰ روح العبادة تلك، فأخذ البعض فعل الإمام هذا دليلاً ومستنداً علىٰ أن كلّ زيارة للقبور تعتبر عبادة وشركاً، مع العلم أن الأمر كان بهدم القبور التي كانت تعبد لا غير.

وزيادة علىٰ ذلك أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «زوروا القبور فإنها ترقّق القلوب»[2].

---

(١) علل الدارقطني ٤: ١٨٤.

(٢) سنن ابن ماجة ١: ٥٠٠/١٥٦٩، المعجم الصغير ٢: ٤٣ وغيرهما، وفيهما: فإنها تذكركم

و«نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها»[١].

وهو هدف الموعظة؛ فإن الإنسان إذا يقف على القبر يأخذ عظة وعبرة؛ لأنه «كفىٰ بالموت واعظاً»[٢]، فيعرف أن هذا هو المصير الحتمي لكلّ إنسان، والمنظر يوحي له بشيء من تصوّر الآخرة والموت، وهو تصوّر ينعكس علىٰ سلوكه، ويترك أثراً في أخلاقه. ولذلك نشأ ما يسمىٰ بـ(أدب القبور)، وكأنما أخذ الناس هذا من أمر الرسول ﷺ، ونشأ عندهم الوعظ عن طريق القبر بكتابة موعظة أو شعر يؤدي إلىٰ الخوف من الله، مثلاً قول أحدهم:

ياواقفين ألم تكونوا تعلموا	أن الحِمام بكم علينا قادمُ
لا تستعزّوا بالحياة فإنكم	تبنون والموت المفرق هادمُ
ساوىٰ الردىٰ ما بيننا في حفرة	حيث المخدّم واحد والخادمُ

روي أنه مرّ رجل علىٰ رجل يبكي فوق قبر فقال له: أتبكي علىٰ عزيز أو صديق؟ قال: بل علىٰ أعزّ منهما، فقال: من؟ قال: نفسي. فقال: كيف؟ قال: هذا عدوّي وأردت أن أشمت به، فرأيت هذا البيت علىٰ قبره:

وما نحن إلّا مثلهم غير أننا	أقمنا قليلاً بعدهم ثم نرحل[٣]

الآخرة، وفي تلخيص الجيّد ٥: ٢٤٧ ما نصّه: كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ثم بدا لي أنّها تُرقّ القلب وتُدمع العين وتُذكّر الآخرة؛ فزوروها. قال المناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير ٤: ٨٨ ـ بعد أن نقل قوله ﷺ: «زوروا القبور فإنها تذكّركم الآخرة» ـ ما نصه: «فزيارتها مندوبة للرجال بهذا القصد، والنهي منسوخ».

(١) الموطّأ ٢: ٤٨٥، المجموع شرح المهذب ٥: ٣١٠، مغني المحتاج ١: ٣٦٥، وغيرها.

(٢) الكافي ٢: ٨٥ / ١، وفيه: موعظة، بدل: واعظاً، تحف العقول: ٣٥، وسائل الشيعة ١: ٨٣ / ١٩٤.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٨: ٤٣.

المبحث الثاني: أهداف زيارة الحسين عليه السلام

فهذه الأسباب نعتبرها أسباباً رئيسة لزيارة القبور. أما بعد مقتل الحسين عليه السلام فقد استجدّت أهداف أُخرىٰ مع حصول الأهداف الآنفة:

الهدف الأول: الندم على عدم نصرة الحسين عليه السلام

وقد نشأ بعد مقتله عليه السلام، فأخذ الناس يبحثون عن الطريقة التي تزيل عنهم الإثم من عدم نصرته. وقد اتّخذ هذا الأمر عدّة مظاهر:

المظهر الأول: ثورة التوّابين، وقد كانت بسبب الشعور بالندم علىٰ عدم النصرة.

المظهر الثاني: إيلام النفس وحملها على الألم تطهيراً لها من الإثم، فظهرت بعض الطقوس التي يراد لها أن تُقنع الفاعل بشعور التطهير من الذنوب، كالتطبير الذي أخذناه بشكل تقليدي.

المظهر الثالث: الزيارة، فبدأ أهل الكوفة خاصّة وأهل العراق عامّة يتوافدون علىٰ زيارة الحسين عليه السلام التي يعتبرونها نوعاً من أنواع التطهير، وأول شخصيّة زارت الحسين عليه السلام كانت بهذا الدافع.

الهدف الثاني: استشعار أن هذا فيه محبوبيّة للرسول صلى الله عليه وآله

فالروايات التي كانت ترد على ألسنة أهل البيت عليهم السلام وعلى ألسنة غيرهم من الأصحاب حول هذا الأمر بدأت تأخذ صدىً بين الناس وتذيع بأن زيارة الحسين عليه السلام من الأعمال التي تحقق للنبي صلى الله عليه وآله رضاً وسروراً، مثلاً ورد عن الصادق عليه السلام: «**من أحبّ أن يكون في ظلّ الله يوم القيامة وفي شفاعة محمد صلى الله عليه وآله فليزر الحسين**»[1].

---

(١) لم نعثر عليه بنصّه، والذي وقفنا عليه: «من أحبّ أن يصافحه مئة ألف نبي وأربعة وعشرون

الهدف الثالث: تحصيل الأجر والثواب بها

فالروايات تؤكد على أن الله تعالى قد عوّض الإمام الحسين عليه السلام بثلاث خصال: استجابة الدعاء تحت قبته، وجعل الإمامة في ذريته، والشفاء في تربته[١].

وقد أخذت هذه المسألة تتعمّق أكثر فأكثر في زمن الأيمّة عليهم السلام بالذات؛ لأنهم مارسوها أمام الناس[٢].

الهدف الرابع: أن بتربة كربلاء يتضاعف الثواب

فالمسلمون يرون أن تربة كربلاء عامل من عوامل مضاعفة الثواب مثل مكّة والمدينة والنجف. ويمكن الاستدلال له بأن تراب المدينة أفضل من الكعبة؛ لأنه لامسَ جسد النبي صلى الله عليه وآله، وهذا له علّة وهي أن النبي صلى الله عليه وآله أشرف الموجودات، والملامس للأشرف أشرف؛ فعليه هي أشرف من الكعبة. فالحسين عليه السلام جزء من النبي صلى الله عليه وآله روحاً وجسداً: «حسين مني وأنا من حسين»[٣]؛ فالتراب الذي يلامس جسد الحسين عليه السلام يأخذ حكم

ألف نبي فليزر الحسين عليه السلام». انظر منتهى المطلب ٢: ٨٩٢، الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ٣٣٩.

(١) عدة الداعي: ٤٨. وأضاف: وألّا يعدّ أيّام زائريه من أعمارهم.

(٢) قال أبو هاشم الجعفريّ رحمه الله: دخلت على أبي الحسن الهادي ـ صلوات الله عليه ـ وهو محموم عليل، فقال: «يا أبا هاشم، ابعث رجلاً من موالينا إلى الحائر يدعو الله لي بالعافية». فخرجت من عنده واستقبلني عليّ بن بلال فأعلمته ما قال الإمام عليه السلام، وسألته أن يكون هو الرجل الّذي يخرج، فقال: السمع والطاعة، ولكنني أقول: إنّه أفضل من الحائر إذ كان بمنزلة من في الحائر، ودعاؤه لنفسه أفضل من دعائي له بالحائر.

فأعلمته ـ صلوات الله عليه ـ ما قال لي عليّ بن بلال، فقال لي: «قل له: كان رسول الله صلى الله عليه وآله أفضل من البيت والحجر، وكان يطوف بالبيت ويستلم الحجر، وإن لله تعالى بقاعاً يُحبّ أن يدعى فيها فيستجيب لمن دعاه، والحائر منها». بحار الأنوار ٩٨: ١١٣ / ٣٤.

(٣) المستدرك على الصحيحين ٣: ١٧٧، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٥١٥.

الملامس لجسد الرسول ﷺ.

الهدف الخامس: حرص الأيمة عليهم السلام على زيارته عليه السلام

فكانوا عليهم السلام وخاصة أصحابهم؛ يداومون على هذه الزيارة لكي يتأثروا بروح الحسين عليه السلام، باعتبار أن الشيعة تعرّضوا للضغط في مختلف العصور، فأراد الأيمة عليهم السلام صنع رجال على مستوى المسؤوليّة، بأن يعيش أهل البيت عليهم السلام في فكرهم بشكل حي، فكانوا يستهدفون صنع رجال من نمط يتفاعل مع الحسين عليه السلام وأهدافه وآدابه ليجدوا عند ملامستهم كربلاء سبب إراقة الدماء والتضحية. فماذا رسم الحسين عليه السلام؟ لقد رسم البطولة والصبر والكرامة والإباء والمثل العليا والفداء والمبدأ الصحيح.

المبحث الثالث: وسائل الأمويين للقضاء على زيارة الحسين عليه السلام

وهذا هو الذي حمل الأمويين على منع زيارته باعتبار أن هذا عامل إيجابي وفعّال؛ لذلك لمّا ارعبتهم زيارة الحسين عليه السلام عمدوا إلى القضاء عليها بالتدريج، ووضعوا لها وسائل مكافحة على مختلف الأسس والمستويات:

١ ـ فعلى المستوى العقائدي راحوا يركّزون على أن زيارة القبور بدعة، يقول الأعمش: جلسنا ليلة نتذاكر فضل زيارة الحسين عليه السلام فقال أحد الجيران: هي بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار. فرأيته في اليوم الثاني عند الحسين فسألته عن السبب فقال: رأيت رسول الله ﷺ في المنام مع ركب جاؤوا لزيارة الحسين، وأنا قد تبت.

٢ ـ ادّعاؤهم أنهم عند زيارة الحسين يفعلون ما ينافي الدين، كشتم الصحابة، وهؤلاء عندهم حتى معاوية صحابي محترم، فالغزالي يقول:

لعلّه تاب أو ندم، ولا يجوز شتم المسلم. فهو لذلك يستشكل في شتمه.

٣ ـ إزالة هذا الهدف بإمحاء معالم القبر، وكان أوّل من وضع أساسه الشريف كما يقول بعض المؤرّخين جماعة من بني أسد، حيث وضعوا عليه بعض المعالم بعد مقتله عليه السلام بأيّام. والبعض يقول: أُسس سنة (٦٥)هـ في عهد المختار إذ وُضع بناء بسيط على القبر الشريف وقبور الشهداء، واستمر إلىٰ أن علاه الشيعة وجعلوا له سقفاً، ووسّعوه وجعلوا له أبواباً. ولذلك فإن بعض الروايات تنقل أن الإمام الصادق عليه السلام يعلّم صفوان الجمّال كيفيّة الزيارة حيث أمره بأنه إذا وضع رجله على باب الحائر فليقل كذا وعلىٰ باب القبة فليقل كذا كما في كتب الزيارات[1]؛ مما يدلّ علىٰ أن البناء كان موجوداً في أيّامه عليه السلام.

فأخذ الأُمويّون يهدمون كلّ بناء يشيّد أو يجدّد، ووضعوا الحواجز على القبر لمنع السائل عنه، فكان الناس يأتون إلىٰ الزيارة ليلاً بالتخفّي، حيث يسيرون في النهار، ويزورون في الليل ثم يرجعون فوراً.

ثم جاء دور العباسيين وأول ما جاء دور الرشيد فقطع السدرة التي إلىٰ جانب القبر وهدم البناء والمسجد فوضع الشيعة عليه أحجار وكان اشبه بالبقيع حالياً.

ثم جاء المأمون فبنىٰ على القبر بناءً بسيطاً ثم تجدّد الوفود إلىٰ القبر، فجاء دور المتوكّل فلم يكتفِ بهدم القبر فقط بل أزال ملكيّة ميل مربع من حول القبر، وحرث المنطقة وأدخل عليها الماء، وأمر بأن يزرع في المنطقة، يقول الديزج: أرسلني مع جماعة وقال: انظر هذا القبر الذي

---

(١) انظر مصباح المتهجّد: ٤٩٩ ـ ٥٠٤، بحار الأنوار ٩٨: ١٩٧ ـ ٢٠٢، والحديث طويل.

افتتن به الناس وانبشه وانثر عظامه في الهواء، وكتب معي إلى جعفر بن محمد بن عمار القاضي: اعلمك أني قد بعثت إبراهيم الديزج إلى كربلاء لنبش قبر الحسين، فإذا قرأت كتابي فقف على الأمر حتى تعرف فعل أو لم يفعل.

قال الديزج: فعرفني جعفر بن محمد بن عمار ما كتب به إليه، ففعلت ما أمرني به جعفر بن محمد بن عمار ثم أتيته فقال لي: ما صنعت؟ فقلت: قد فعلت ما أمرت به، فلم أرَ شيئاً ولم أجد شيئاً. فقال لي: أفلا عمّقته؟ قلت: قد فعلت وما رأيت. فكتب إلى السلطان: إن إبراهيم الديزج قد نبش فلم يجد شيئاً، وأمرته فمخره بالماء، وكربه بالبقر.

قال أبو علي العماري: فحدّثني إبراهيم الديزج، وسألته عن صورة الأمر، فقال لي: أتيت في خاصّة غلماني فقط، وإني نبشت فوجدت بارية جديدة وعليها بدن الحسين بن علي، ووجدت منه رائحة المسك، والدم ينبج منه، فتركت البارية على حالتها وبدن الحسين على البارية، وأمرت بطرح التراب عليه، وأطلقت عليه الماء، وأمرت بالبقر لتمخره وتحرثه، فلم تطأه البقر، وكانت إذا جاءت إلى الموضع رجعت عنه، فحلفت لغلماني بالله وبالأيمان المغلّظة لئن ذكر أحد هذا لا قتلنه[1]. ولكن الشيعة لم يكترثوا، وكان عندهم بعض العلامات، وكانت زيارتهم ليلاً، وكانوا إذا جاء العسكر يرمونهم بالسهام، فكانوا يعتقدون أن هذا من فعل الملائكة أو الجن، حتى امتنعوا.

وبعد هذه الحادثة قتل الأتراك المتوكّل، فجاء المنتصر وأمر ببناء القبر

---

(١) الديزج كان يهودياً ثم أسلم. انظر الحادثة في الأمالي (الطوسي): ٣٢٦ / ٦٥٣، مقاتل الطالبيين: ٣٩٥.

وإعادة العمارة في الأرض التي زرعت، وبقيت إلى زمن المعتضد في سنة (٢٨٥) هـ، فأرسل المهندسين وأقام البناء عند ضريحي أمير المؤمنين والحسين عليهما السلام.

ثم جاءت عمارة عضد الدولة البويهي، وكانت عمارة فخمة في الضريحين، ثم جاءت عمارة الوزير محمد الرهارمُوزي التي رآها الرحالة ابن بطّوطة. ثم جاءت عمارة أُويس الإيلخاني وهي الموجودة حاليّاً، وقد جرىٰ عليها الكثير من الإصلاحات.

وكان أوّل زائر للحسين عليه السلام عبيد الله بن الحرّ الجعفي، وكانت بدافع الندم؛ لأن الحسين عليه السلام رآه في قصر بني مقاتل وقال له: «لو تلتحق بي كان ذلك خيراً لك في دينك ودنياك». ولكن غلبت عليه شقوته، فلمّا جاء القبرَ قال:

فيالك حسرة ما دمت حيّاً ... تردّد بين صدري والتراقي
حسين حين يطلب بذل نصري ... على أهل الضلالة والشقاقِ
غداة يقول لي بالقصر قولاً ... أتتركنا وتزمع بالفراقِ
فلو أنّي أُواسيه بنفسي ... لنلت كرامةً يوم التلاقي

إلى أن قال:

لقد فاز الألى نصروا حسيناً ... وخاب الآخرون إلى الشقاقِ[1]

والثاني هو سليمان بن قتة:

مررت على أبيات آل محمد ... فلم أرَها أمثالها يوم حلّتِ

(١) ذوب النضار: ٧٢، ذكر بيتين. بحار الأنوار ٤٥: ٢٥٤. الفوائد الرجاليّة ١: ٣٢٨، ٣: ٧١. ولم تذكر هذه المصادر نصّ قول الحسين عليه السلام لعبيد الله.

فلا يبعد الله الديار وأهلها وإن أصبحت منهم برغمي تخلتِ

وإن قتيل الطف من آل هاشم أذل رقاب المسلمين فذلتِ(١)

والثالث هو جابر بن عبد الله الأنصاري الذي راح يقطع الطريق إلى أن وصل في أربعين الحسين عليه السلام.

(١) بحار الأنوار ٤٥: ٢٤٤، ٢٩٠، ٢٩٣، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٦، أسد الغابة ٢: ٢٢، الإصابة ٧: ١٢٦.

﴿٣٧﴾

المحاولات الأُموية والعباسية
لمنع صوت الحسين عليه السلام

عثر الدهر ويرجو أن يقالا	تربت كفّك من راجٍ محالا
قبلتْ عذرك إذ نازلتها	بالذرا من هاشم تدعو نزالا
أزلال العفو ترجو وعلى	آل حوض اللّه حرّمت الزلالا
فتراجع وتنصّل ندماً	وتخادع واطلب المكر احتيالا
أنزوعاً بعدما جئت بها	تنزع الأكباد وجداً واشتعالا

المباحث العامة للموضوع

المبحث الأوّل: عثرة الأمويين ومعنى تلافيها

لقد ارتكب الأُمويون أبشع مجزرة في تاريخ البشرية بقتلهم الإمام السبط عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، فكانت أعظم عثرة في تاريخ الدنيا كله، وليس في تاريخهم فقط. لكن لم أُسندت العثرة إلى الدهر؟

مقدّمة في الإسناد المجازي

إن إسناد العثور إلى الدهر هو إسناد مجازي وليس إسناداً حقيقيّاً، فالدهر وحدة زمنية، والعاثر هو الذي عاش في ذلك الدهر المسند إليه

العثرة. والمراد بهم: الأمويون، وإنما نسبت العثرة إلىٰ الدهر؛ لأنه الظرف الذي عاشوا فيه لحظة عثرتهم تلك[١].

لكن ما هي هذه العثرة؟ العثرة هي خذلانهم الحسين عليه السلام وقتله في واقعة الطفّ. وهم فعلاً حاولوا تلافي هذه العثرة، لكن لا من باب توبيخ الضمير والرجوع إلىٰ الحق عبر الندم والتوبة، بل هو تلافٍ سلبي، أي أنهم قرّروا أن يتلافوا أثرها المستمرّ في الناس. وهذا ما يمكن أن نسميه (تلافي ذيول الحادثة). فبعد الحادثة ظهرت أُمور وبوادر توحي باستمرار أثر الثورة الحسينيّة، وكان أوّل هذه البوادر صوت ندب الحسين عليه السلام وأهل بيته وصحابته، فجندت السلطات القمعية أجنادها لإخماد هذه البادرة.. بادرة الاحتفال بذكرىٰ ثورة الحسين عليه السلام، في محاولة لكبت هذا الصوت وجعله ينطوي علىٰ جراحه، وذلك لما يمكن أن تترتّب عليه من آثار، فحتماً إن كل من يسمع شيئاً من هذا القبيل فإنه سيستعلم عن السبب الداعي إلىٰ هذا البكاء والنوح، وإلى أسباب سرد هذا التاريخ.

---

(١) فائدة بلاغيّة: للعلماء في (أنبت الربيعُ البقلَ) أقوال أربعة: مجاز في الإسناد، أو في (أنبت)، أو في (الربيع)، أو أن المجموع كلّه مجاز. وأقسام الحقيقة العقلية أربعة:

الأوّل: ما يطابق الواقع والاعتقاد جميعاً، وهو الإسناد الحقيقي، كقول المؤمن: أنبت الله البقل.

الثاني: ما يطابق الاعتقاد فقط، وهو الإسناد المجازي، كقول الجاهل: أنبت الربيع البقل.

الثالث: ما يطابق الواقع فقط، كقول المعتزلي لمن لا يعرف حاله وهو يخفيها عنه: خلق الله تعالى الأفعال كلّها.

الرابع: ما لا يطابق الواقع والاعتقاد، نحو قولك: جاء زيد، وأنت تعلم أنه لم يجئ.

انظر: شرح سنن النسائي ٢: ١٥، مختصر المعاني: ٣٧.

المبحث الثاني: المحاولات اليائسة لكبت نهضة الحسين ﷺ

ولهذا فإن واقعة الطف أيام الأمويين كانت يحتفل بذكراها بشكل محدود جداً، فكان الكميت ﷺ مثلاً يجتمع بمجموعة صغيرة من الشيعة في مكان بعيد عن العيون فيلهب مشاعرهم بقصيدة يودعها مشاعره وأحاسيسه تجاه القضية الحسينية المباركة.

المحاولة الأولى: خنق أصوات نادبيه

فإن زاد الأمر عن هذا قليلاً فإن بني أمية سرعان ما يخنقون هذا الصوت ويقضون عليه. ومحاولة الأمويين في الحدّ من هذه الظاهرة قد فشلت فشلاً ذريعاً عند هذا الحد؛ فالأصوات التي كانت تستعرض واقعة الطف شعراً ونثراً، فتنشر هذه الظلامة الحسينية وتشير بأصابع الاتهام إلى الأمويّين وُوجهت أول الأمر بشدّة بالغة وقسوة كبيرة، لكن الأمر لم ينجح، وانطلق صوت الحقّ هادراً يعبر الآفاق لا يقف عند شيء أبداً. وهكذا فشلت محاولة كبت عواطف الناس، بل ازدادت العاطفة تجاه هذه القضية، وكثرت قصائد الرثاء في الحسين ﷺ وأصحابه (رضوان الله عليهم).

المحاولة الثانية: تشويه النهضة

إن هذه المحاولة قامت على أساس تشويه أهداف النهضة الحسينية المباركة بتجنيد الأقلام والمشاعر لهذا الهدف. والأقلام المأجورة موجودة في كل زمان وفي كل مكان، فلا يخلو زمان أو مكان من قلم

يستأجر ولو لتشويه الحق. وقد انتشرت هذه الحالة بعد واقعة الطف بشكل ملحوظ ، فكان يؤتىٰ بأصحاب الأقلام ويطلب منهم إيجاد مبرّر شرعي لقتل الحسين عليه السلام ، كأن يطلب منهم إعلان وإيضاح أن الحسين لم يكن لخروجه أي مسوّغ شرعي أو مستند ودليل عقلي ، وأنه قد تسرّع في خروجه ، وأنه كان عليه ألّا ينجرف وراء هدفه بهذا الشكل ؛ لأنه كان يعلم أن جيشه لا يقاس بجيش السلطة[١]. فالعملية لا تعدو كونها انتحارية وإلقاء النفس في التهلكة مع أن اللّه تعالى يقول: ﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[٢].

ومن هذا المنطلق بدأت هذه الأقلام دورها التخريبي والمنحرف لتشويه معالم النهضة الحسينية . وقد لا يختلف اثنان في أنها أكبر محاولة آثمة ومشبوهة عرفها التاريخ ، وأكثرها جرماً ، وإلّا فهل هناك أفظع من أن يأتي جاهل ليعلّم سبط رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ونجل مدينة علمه ما هو تكليفه الشرعي هنا، وما الذي يجب عليه فعله، وما الذي يجب عليه تركه؟ إنها محاولة عجيبة في بابها؛ فأن ترفع أقلام الضلال عقيرتها منادية أن لا تثريب علىٰ يزيد في قتله الحسين عليه السلام؛ لأن يزيد ـ في نظرهم ونظر نفسه ـ إمام العصر ، ومن يخرج عليه يجب أن يردّ إلىٰ الجماعة ، لهو أمر مشبوه ، وعليه أكثر من علامة استفهام .

---

(١) سيأتي دور كل من ابن عربي والحسن البصري وغيرهما في تفعيل هذا المطلب الأموي . انظر ج ٥ ص ٣٦ ، ج ٦ ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦ ، ٣٣٢ .

(٢) البقرة : ١٩٥ .

ووفق هذا المنطق المخادع والمضلل يكون سيد شباب أهل الجنة عليه السلام باغياً (حاشاه من ذلك)! و هذا المنطق لا يرجع إلى أيام يزيد فقط، بل إنّه يمتدّ إلىٰ أمد أبعد منه، وكمثال علىٰ ذلك لمّا قتل عمّار بن ياسر ـ وما أدراك ما عمّار ابن ياسر رضي الله عنه، هذا الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن عماراً مُلِئ إيماناً من قرنه إلى قدمه»[1]. وقال فيه أيضاً: «يدعوهم إلىٰ الجنة ويدعونه إلىٰ النار»[2]. وقال له: «يا عمار، تقتلك الفئة الباغية، وآخر شرابك من الدنيا ضياح من اللبن»[3] ـ انتشر الحديث الأخير هذا بمجرد سقوطه في ساحة المعركة شهيداً، وبدأ يُتناقل علىٰ ألسن جيش معاوية؛ حيث بدأت تبرز حالة من التذمّر كونهم وفق منطوق الحديث هم الفئة الباغية التي قتلت عماراً رضي الله عنه. لكن معاوية استطاع بذلك المنطق المخادع أن يضلل الناس؛ وساعده علىٰ ذلك أن في الأرض كثيراً من الناس ممّن تنطلي عليهم هذه الأساليب الملتوية لجهلهم وسذاجتهم، فأعلن في معسكره أن الفئة الباغية هي جماعة علي بن أبي طالب؛ لأنه هو الذي أتىٰ به وألقاه بين لهوات الحرب، وعليه يكون هو الذي قتله بالاشتراك مع جيشه.

ويترتّب علىٰ هذه الأكاذيب تخطئة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأنه قد ألقىٰ بخيرة أصحابه بين سيوف المشركين فاستشهدوا، كحمزة وحميّ الدبر وغيره ممّن قتل بين يديه صلى الله عليه وآله وسلم، ولابد من تحميله صلى الله عليه وآله وسلم تبعة استشهاد هؤلاء كلّهم.

---

(١) مجمع البيان ٦: ٢٠٣، تفسير القرآن (الصنعاني) ٢: ٣٦٠، ولم يذكر الحديث.

(٢) وقعة صفّين: ٣٤٢.

(٣) انظر: دعائم الإسلام ١: ٣٩٢، الاختصاص: ١٤، مسند أحمد ٢: ١٦١، ١٦٤، ٢٠٦، ٣: ٥، ٢٢، ٢٨، ٩١، ٤: ١٩٧، ١٩٩، ٥: ٢١٥، ٣٠٦، ٣٠٧، ٦: ٢٨٩، ٣٠٠، ٣١١، ٣١٥، صحيح البخاري ٣: ٢٠٧، صحيح مسلم ٨: ١٨٦، البداية والنهاية ٣: ٢٦٣ ـ ٢٦٤، وغيرها كثير.

وبهذا تكون الأقلام قد لعبت دورها التخريبي على أكمل وجه في تضليل الرأي العام وإفساد معتقداته، بل أن ذلك امتدّ حتىٰ لوعّاظ السلاطين من العلماء الذين أفتوا يزيد بجواز قتل الحسين عليه السلام. وهي أنماط من الفتاوىٰ الجاهزة الغريبة في بابها؛ فهي تحلل الحرام وتحرم الحلال من أجل الدنيا وحطامها. ونحن نعلم يقيناً أن هذا يترتّب عليه أخطر شيء في الوجود؛ لأن ما يترتّب عليه هو خسران الدين والعقيدة اللذين لا يعوّضهما شيء ولا يعدلهما عوض. وأمثال هؤلاء يحسن الناس الظن بهم؛ لما يملكون من فكر وقلم، وبالتالي يسهل انخداعهم بهم.

ومثال آخر على ذلك أنهم جاؤوا إلىٰ يوم النكبة ـ يوم العاشر من المحرّم ـ الذي يعدّ يوم حزن، وحاولوا تدليس هذه الحقيقة باختراع واختلاق روايات في فضله واتخاذه عيداً، فلفّقوا فيه أنّه اليوم الذي رست به سفينة نوح[1]، وهو اليوم الذي نزلت به التوراة علىٰ موسىٰ عليه السلام، وهو اليوم الذي رفع فيه عيسىٰ عليه السلام[2]، وأنّه يستحبّ صيامه[3]، وهكذا أخذت الروايات تترىٰ وتتوالى؛ حتىٰ أصبح هذا اليوم المشؤوم يوم فرح وسرور وحبور تخضب به الأيدي بالحناء، حتىٰ قال الشاعر:

كانت مآتم بالعراق تعدها أموية بالشام من أعيادها[4]

فهذه محاولة أُخرىٰ لتغطية الحقيقة وتضييع الجريمة البشعة التي ارتكبوها في حق الحسين عليه السلام وأهل بيته عليهم السلام، وسلب الفادحة آثارَها.

---

(١) تاريخ الطبري ١: ١٣١، المعجم الكبير ٦: ٦٩. وقد رواه الصدوق أيضاً، انظر المقنع: ٢٠٨.

(٢) فضائل الأوقات (البيهقي): ٤٤١.

(٣) مسند أحمد ١: ٢٣٩، ٢: ٤.

(٤) ديوان الشريف الرضي: ٣٩١.

المحاولة الثالثة: تحريم كل تحرّك مماثل لها

ثمّ جاءت محاولة سدّ الباب أمام كل نهضة مماثلة لنهضة أبي عبد اللّه الحسين عليه السلام عبر تحريم القيام بها تحريماً قطعياً. ولنأخذ القرطبي كمثال، وهو أحد العلماء المعروفين الذين يقل نظيرهم، وعلمه وفضله ظاهران فيما أودعه في تفسيره، فهذا المفسر حينما يأتي إلىٰ ثورة الحسين عليه السلام يصوّبها لأنه عليه السلام إمام العصر، لكن يقول: كان الأولىٰ أن يترك الخروج؛ لأنه يستلزم سفك الدماء. وهذا يعني أنها تصبح محاذَرة ومزاحَمة بين مهمّ وأهم، فنهضة الحسين وإن كانت مهمة لكن الأهم منها هو حقن الدماء؛ لأن سفكها يوجب فقد الأمن؛ ولذا كان الأجدر بالإنسان أن يجلس في بيته في مثل هذه الحالات.

وهذا أمر عجيب؛ لأن لازمه ترك الدفاع عن كل المقدّسات لما في ذلك من إراقة دم، وبهذا نحكم علىٰ بطلان الثورة الفلسطينية لأنها حركة أُريق فيها الكثير من دماء الفلسطينيين بسبب العنجهية الإسرائيلية. وهل هذا إلّا تحكّم وتعطيل للأحكام؟

وكأن معنىٰ هذا توجيه خطاب للفلسطينيين يقال فيه: كونوا جليسي بيوتكم ولا تقاوموا اليهود الذين يتحكّمون فيكم، ويأخذون أموالكم وبيوتكم، ويستحلّون منكم ما حرّم اللّه.

ومن هذا يجب أن نوقف كل النهضات التحرّرية في العالم الإسلامي ضد الاستعمار والظلم، وأن نطالبها بالخضوع للذل والقهر، وإلّا فقد الأمان.

ومثل هذا اللون من الفتاوىٰ موجود عند المذاهب الأربعة[1]، وإلّا

---

(1) كما مرّ ـ إضافة إلىٰ مواقف الحسن البصري وابن عربي إزاء ثورة الإمام الحسين عليه السلام ـ من

كيف يمكن الموافقة على فتوى تطالب المسلمين بالخضوع وعدم التحرك ضد الحاكم الذي يأتي من بلد آخر أو من البلد نفسه وليس له مؤهل غير القوة فيثب إلى السلطة ويأخذها ويمارس كل الوان الظلم والتعسف ضد أبناء هذا البلد؟ بل إنهم يذهبون إلى أن من بات ولم يبايعه ثم مات مات كافراً [١].

وهو رأي غريب جداً، وإلّا فلماذا ندب الله الأنبياء للوقوف بوجه الظلم والطغاة والبغي: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [٢]؟ وكيف يلتئم ما يذهبون إليه مع الأدلّة؟

نعم إن ما يذهبون إليه منصبّ في الدرجة الأولى على ستر الواقعة الحسينية بما جنّد الأمويون لذلك من أقلام.

ويتعدّى الأمر إلى ما هو أبعد من ذلك، فكان كل من يحاول أن يقوم بمثل هذا التحرك فلابد من أن يقتلع من جذوره وأن يعدم من الوجود. ولكن هل نجح الأمر؟ بالطبع لا، فسقوط الأمويين كان باسم الدم الذي أراقوه؛ إذ كان شعار العباسيين الذي رفعوه إبان الثورة (يا لثارات الحسين)، وهو شعار كان الأمويون يخشونه أشدّ الخشية، حتى إنهم حرّكوا مجموعة من الفقهاء ـ كما أسلفنا ـ لإصدار فتاوى بشرعية قتل الحسين عليه السلام. وأنا في هذا المقام لا أريد أن أقدح في علماء المسلمين لكن ما أريد قوله هو أن بعض هؤلاء إما أنه لم يكن له دليل ناهض، أو أنّه أُخذ على حين غفلة فأفتاهم بما أرادوا [٣].

موقف وابن عمر إزاء ثورة الحرّة، فراجع.

(١) انظر صحيح البخاري ٨: ٩٩، صحيح مسلم ٦: ٢٠ ـ ٢٢.

(٢) طه: ٢٤.

(٣) فكان ابن عربي يقول: إن الحسين قد قتل بسيف جدّه: انظر فيض القدير شرح الجامع

وهكذا سقطت دولة الجور بشعار الدماء التي أراقتها، مع أن العباسيين قد وقعوا في هذه المفارقة أيضاً، وتجددت المطاردة خلف أشياع الأيمة(ع) وأصحابهم، وعاد شبح الحسين(ع) يهددهم، وكان كل ما يخشونه أن الحسن والحسين(ع) ولدا رسول الله؛ فهما أحق بالخلافة. وهذا يعني أنهم ـ العباسيين ـ مغتصبوها من أصحابها الشرعيين؛ سواء من منظار النظرية العربية القائلة بوراثة الحكم، أو النظرية الشرعية التي نصّت عبر سنة رسول الله(ص) على إمامة الحسن والحسين(ع).

ولأجل تلافي هذه المشكلة لجأ العباسيون إلى عدّة محاولات منها ادّعاؤهم أن الحسن والحسين(ع) ليسا ولدي رسول الله(ص)، بل هما ابنا بنته، وأولاد البنت ليسوا أولاداً حقيقيين، وإنما هم أبناء مجازيون، حتى قال أحد الشعراء المتزلّفين:

لكم رحم يا بني بنته	ولكن بنو العم أولى بها
قتلنا أمية في غابها	فنحن أحق بأسلابها
ونحن ورثنا ثياب النبي	فكم تجذبون بأهدابها[1]

وهكذا انتشرت هذه الفكرة وهي أن الأم مجرد مستودع يوضع فيه الولد لا غير، واقتنع بها المأمون فكان يردد:

لا تَزدَرِينَ فتىً من أن تكونَ لهُ	أمٌّ من الرومِ أو سوداءُ عجماءُ
فإنّما أمّهاتُ النّاسِ أوعيةٌ	مستودعاتٌ وللأنسابِ آباءُ[2]

واستمرت الملاحقات والمطاردات حتى عمدوا إلى القبر الذي يرون

الصغير ١: ٢٦٥ ـ ٢٦٦، ٥: ٣١٣. (١) ديوان ابن المعتزّ: ٢٩.

(٢) السيَر الكبير (الشيباني) ١: ٣٢٧ / ٤٦٦.

أنّه منبع لهذه الصرخات فسوّوه بالأرض، بل حرثوا القبر وما حوله، وسلطوا الماء عليه كي تضيع معالمه. وحينما حاول الناس الاهتداء إلىٰ القبر عبر شجرة كانت قريبة منه، عمدوا إلىٰ الشجرة واقتلعوها؛ لأنها بنظرهم تمثل خطّ صاحب القبر، قال الشاعر:

مولاي يومك ما يزال كأنه ... في الدهر ريان المدىٰ يتأشب

إلىٰ أن يقول:

فدمٌ أريق كأنه من جدّة ... للآن يعبق في الثرىٰ ويخضّبُ

فكانت فكرة محو القبر أفضل وسيلة للقضاء علىٰ هذا الدم النبوي الذي يتجدد في هذه الأرض كل يوم ويسري بها فيخضّبها، واختفىٰ كل أثر للقبر:

تالله إن كانت أميّةُ قد أتت ... قتل ابن بنت نبيها مظلوما

فلقد أتاه بنو أبيه بمثله ... هذا لعمرك قبرُه مهدوما

أسفوا علىٰ ألّا يكونوا شاركوا ... في قتله فتتبعوه رميما[1]

وكل ذلك لأجل ألّا توحي تلك الدماء الزاكية بمبادئ ثورته المباركة وأنها رفْضٌ للظلم والقهر والباطل، وقد وقفت بوجه الطغاة. لكن هذه المحاولة فشلت أيضاً، فكانوا يمنعون الناس من زيارة المكان نهاراً فيقصده الناس ليلاً، وكانوا يرمون الحرس الذين يمنعون الناس عن الزيارة بنبالهم، حتىٰ إن بعض الروايات قد نقلت أن الجن أو الملائكة هم

(١) الأبيات للبسّامي أبي الحسين علي بن محمد بن نصر. سير أعلام النبلاء ١٢: ٣٥، وقد نقل البيت الثالث فقط. البداية والنهاية ١١: ١٤٣.

الذين يرمونهم [١]، مع أن الأمر خلاف هذا.

وهكذا كانوا يقفون عند القبر الشريف فيبردون غليلهم بأن يسكبوا عواطفهم ومشاعرهم أمامه، فيستوحوا الثورة منه.

وما إن جاء العهد العثماني حتىٰ تجددت المأساة، فكانت لفظة الحسين مرعبة لهم. وقد يقول قائل إن من العثمانيين من يحب الحسين، فنقول له: نعم هو كذلك، لكن هؤلاء صوفية ولا يزال منهم مجاميع إلىٰ الآن في تركية وهم يحبون الحسين حباً شديداً لكن لا من حيث يتوجّب، بل هو حبّ لا علاقة له بموضوعنا الذي نتكلم عنه الآن.

المحاولة الرابعة: تسفيه القضية وتفريغها من محتواها

علىٰ أية حال نحا العثمانيون منحىٰ العباسيين والأمويين، وكان من محاولاتهم أن حالوا تفريغ قضية الإقبال علىٰ الدين من رؤوس الناس؛ فبدلاً من أن يحملوا فكر الحسين وفكر الرسول صلى الله عليه وآله أرادوا لهم أن يحملوا المظاهر منها، وأن يكون هذا الأمر مجرد معنىٰ ظاهري في أذهانهم. ولأجل تفريغ هذا المحتوىٰ جاؤوا بملابس ووضعوها في صندوق ونسبوها لرسول الله صلى الله عليه وآله، ودعوا الناس إلىٰ التبرك بها، ثم جاؤوا بشعرة وعصا فنسبوهما للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أيضاً. وكلّ ذلك لأجل إبعاد الناس عن حقيقة تعلّقهم بأهل البيت عليهم السلام.

وبهذا اللون من الشكليات ـ أي بدلاً من أن نقدس الحسين كفكرة أو جذوة تتقد ضد الظلم أو نور يضيء لنا طريق الحرية نقدسه كرداء نتبرّك به ـ كانت الدولة العثمانية تدفع الناس إلىٰ التمسّك بالقشريات.

---

(١) انظر: الأمالي (الطوسي): ٣٢٦ / ٦٥٣، مقاتل الطالبيين: ٣٩٥.

وجاء الاستعمار ونحا المنحىٰ نفسه لكن بشكل آخر، فقد حاول إظهار الشعائر الحسينية علىٰ أنها مجموعة شكليات ممجوجة. ويجب هنا أن أنوه إلىٰ أننا نساهم مساهمة فعلية في تجسيد هذه النظرة عندهم، وكمثال علىٰ ذلك جاءني جماعة قبل فترة وجيزة بكتاب، وكان عندهم مأتم سنوي، ومما كان في هذا الكتاب أن دين الله لا يستقيم إلّا باستخدام (التطبير) وكأن هذا الدين متوقف لا علىٰ أسبابه التي رهنه الله بها بل فقط علىٰ التطبير. وهذه قمّة المأساة، ومن هذا القبيل أُمور كثيرة، بل وأكثر من هذا كانوا قد عزموا هذه السنة علىٰ شراء بعير وتمثيل قضية العليل مكبّلاً ثم يدورون به في «الهايدپارك»، فما رأيك بهذه المصيبة؟

إن هؤلاء يريدون أن يحوّلوا الحسين عليه السلام إلىٰ سخرية. وكانوا قد جاؤوني طالبين رأيي في هذا الكتاب، فقلت لهم: لو كان الأمر بيدي لارتأيت قتلهم. فبأي عصر يعيش هؤلاء؟ إنهم يرقصون علىٰ جراحنا ويستغلون مأساتنا، وإلّا فأين واقعنا وجراحنا مما يفعله هؤلاء؟ إنني أُريد من هؤلاء أن يتأدبوا بآداب الحسين عليه السلام، وأن يتخلقوا بأخلاقه، وأن يحملوا عزيمته وفكره. دخل أحدهم علىٰ الإمام الصادق عليه السلام فقال له: سيدي، إن هؤلاء يعيّروننا ويقولون لنا: يا جعفريّة. فردّ عليه الإمام عليه السلام قائلاً: «والله ما أقل من يتّبع جعفراً منكم!»[1]:

وتسامت بالموت حتى أحالتـ	ـه فتوحاً سخيّة الأرداحِ
لم تفجّر لظاك يهدر بالحـ	ـقّ لتروي قرائح المُدّاحِ
بل لتحيا سعيرةً مارداً يبـ	ـعث للموت سلّماً من أضاحِ

(١) الكافي ٢: ٧٧ / ٦.

فالحسين لم يجئ من أجل أن يتحول إلى وسيلة من وسائل الابتزاز والخرافات وأمثال هذه ممّا هي محاولات تقف وراءها أيدٍ مشبوهة، بل جاء من أجل أن يكون فكراً معطاءً بل عطاءً شاملاً؛ فلا ينبغي أن ندخل في مجالس عزائه إلّا تحليل شخصيّته العظيمة تحليلاً منطقيّاً، وفهم الدوافع والأسباب الكامنة وراء حركته الكريمة، وتسليط الضوء على مفاهيمها وأركانها؛ كي نخلق عالماً حسينياً بهذا، لا بتلك المظاهر المشبوهة التي تعكس صورة سيئة عنها.

ومن هذه المظاهر ما يحاول بعضهم إبرازه من تضخيم عدد الذين قتلهم الحسين عليه السلام، وهي عملية مقصودة لتسفيه الحركة والتاريخ، قبل فترة ذكر أحد المؤلّفين أن الحسين قتل يوم عاشوراء اثني عشر ألف رجلاً، ولما التقيته قلت له: لو أردت ذبح إنسان واقف دون أن يقاومك فكم يستغرق ذلك، أنه حتماً سيستغرق زمناً لا يقل عن نصف دقيقة، فعلى هذا كم يستغرق قتل ١٢٫٠٠٠ ألف شخص؟ قال: ستة آلاف دقيقة. فقلت: أي ما يعادل (١٠٠) ساعة، فكيف قتل في ست ساعات المعركة ـ وربما أقل من هذا ـ ما يقتل في (١٠٠)ساعة، بل في أكثر من ذلك إذا لاحظنا مقاومة الكثير منهم؟ فلماذا الركون إلى عدم التثبّت هذا؟

ومما ينبغي التنويه إليه أن الحسين عليه السلام لم يقاتل بمعجزة ولو كان كذلك لكانت كفة المعركة على غيرما انتهت عليه. إذن فهو عليه السلام قاتل بشيء طبيعي، ومادام شيئاً طبيعياً فلماذا لم تلتزم به؟ إن كنت تريد خدمة الحسين فأنت قد أسأت إلى حركته؛ لأن كل من يقرأ هذا فإنه سيرمي فكرنا بالخرافة والتفاهة.

فإذا أردنا أن نصف شجاعة الحسين عليه السلام فيكفينا أن نقول: إنّه عليه السلام إن نزل

إلىٰ المعركة تحاشته الأبطال[١]. وبهذا نكون قد أعطيناه النعت الصحيح، المناسب له دون أن نستخدم مثل هذه الألفاظ، فنجعلها عاراً علينا وسبّة، وإلّا فوجودنا ومبادئنا أعلىٰ وأسمىٰ وأهم من هذه الترهات، ونهضة الحسين عليه السلام أكبر من كل ذلك:

وضعناك في الأعناق حرزاً وإنما خلقت لكي تُنضىٰ حساماً فتُشرعُ
وصفناك من دمع وتلك نفوسنا نصوّرها لا أنت إنك أرفعُ[٢]

فيجب إذن أن نحلل مواقف الإمام الحسين عليه السلام وعطاءه ونهضته تحليلاً منطقياً عقلانياً، فكل موقف من مواقفه عليه السلام يوم الطف هو دنيا ضخمة، وإن هو عليه السلام إلّا روح إنساني كبير:

ورأيتك النفس الكبيرة لم تكن حتىٰ علىٰ من قاتلوك حقوداً

فالإمام الحسين عليه السلام سيبقىٰ مناراً ومنبع فكر، والطفّ سيبقىٰ يحمل ذلك الدم شُعَلاً وصوتاً هادراً:

أيا كربلا يا هدير الجراح وزهو الدم العلوي الأبيّ
ويا صرح مجد بناه الحسين وأبدع في رصفه المعجبِ
ويا عبقاً في ثرى العلقميّ يشدّ الأنوف إلى الأطيبِ
سيبقى الحسين شعاراً علىٰ أصيلك والشفق المذهبِ[٣]

---

(١) يقول عبد الله بن عمّار: شاهدت الحسين عليه السلام يوم الطفّ، فما رأيت مكثوراً قطّ أربط جأشاً منه. وكان في غاية الصلابة وكان بين يديه ثلاثون ألفاً يشدّ فيهم كالأسد الهصور فينكسرون بين يديه كالجراد المنتشر وينهزمون بين يديه انهزام المعزى إذا شدّ فيها الذئب. مثير الأحزان: ٥٤، البداية والنهاية ٨: ٢٠٤. (٢) ديوان المحاضر ١: ٣٢.
(٣) ديوان المحاضر ٢: ٢٥.

نعم إنها تربة إذا وُقف عليها انطلق منها ذلك الصوت: «والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقرّ لكم إقرار العبيد»[١]. وهو الصوت الذي كان يخشاه الظالمون، ويمنعون الناس من الوقوف على قبر صاحبه؛ لأنّهم إذا وقفوا على القبر نظروا إلى نحور مقطوعة، ودماء سائلة، وكف تحمل رضيعاً:

يا رجواي عگبك ما بعد لوليت   اخلاف حسين عيب أگعد تحت ظل بيت

---

(١) الإرشاد ٢: ٩٨، تاريخ الطبري ٤: ٣٢٣، البداية والنهاية ٨: ١٩٤.



﴿٣٨﴾

الحسين ﷺ نبراس الحق

أبا المُعطياتِ البيضِ لا العُجْبُ مُتبِعٌ
كرائــمَ ما أُعـطي ولا المَـنُّ مُتبِـعُ
غداةَ استزادَتْكَ الوغى وهي ساغبٌ
فأسـرعتَ تُلهي بالضَّـحايا وتُشـبِعُ

المباحث العامّة للموضوع

المبحث الأوّل: ثورة الحسين ﷺ وعنصر الألم

كل ما أُريد بيانه هذه الليلة أن أنقل مشاعر هذا المجتمع ؛ لنكون على أعتاب الحسين ﷺ ، ولنستلهم دنيا الحسين ﷺ ، وفي الوقت ذاته أُريد من روح الحسين ﷺ أن تمدَّ هذا المجتمع بما حملته من عطاء وما تحفل به من ميزات أهّلتها للريادة والقيادة .

إن الحسين ﷺ حمل على يديه آلام الإنسانية وآمالها على حد سواء ، وقُتل من أجل الإنسان ؛ فيجب أن نتعرف على رسالته الإنسانية ، كما يجب أن نأسى لقتل الإنسانية بقتله . والشيء الأخير الذي يجب أن نمرَّ به في هذه الأُمسية هو عطاء الحسين ﷺ للإنسانية ، أي ماذا أعطت نهضة الإمام الحسين ﷺ وثورته للإنسان ؟

أما أن الحسين عليه السلام حمل آلام الإنسان وآماله، فذلك واضح من كونه عليه السلام في نهضته لم يحمل إلاّ مبادئ الإسلام، فلم يستهدف شيئاً غيرها يمكن أن يمرّ به التاريخ فيقول: إنه عليه السلام نهض من أجله. ولا شكّ أن الحسين عليه السلام قتل، وهناك من يقدّسه وهناك من يحقد عليه، وهناك من يقيّمه، وهناك من يُحلّل مواقفه، فما استطاع لسان، ولم يجرؤ قلم على أن يقول: إن الحسين عليه السلام قتل من أجل رغائب مؤقّتة، ولم يقل أحد: إن الحسين عليه السلام استهدف مالاً أو استهدف حكماً أو منزلة، وإنما استهدف أن يعيد للإنسان كرامته المسحوقة التي وُطِئت تحت الأرجل، وذلك هدف الإسلام الأول من الرسالة.

أما الأموال فما كان الحسين عليه السلام بذلك الإنسان الذي يعوزه المال، فقد تركت له صدقات أبيه أموالاً ضخمة، وهذا التاريخ بين أيدينا ينص على أن للإمام علي عليه السلام من الصدقات ما لو أراد الحسين عليه السلام احتواءه لألّف بذلك أموالاً كثيرة، ومن تلك الأموال سبع من الحوائط، وعين أبي نيزر والبغيبغة[1]، وأرض العوالي، والكثير من العيون التي استنبطت وزرعت. وكان بوسع الإمام الحسين عليه السلام أن يأخذ منها ما يريد من الأموال، وكانت الحوائط السبع تغلّ أموالاً طائلة.

وهو عليه السلام إلى ذلك لو أراد الأموال لانفتحت له خزائن الأمويّين على مصراعيها، وقد رأينا خزائنهم تفتح لمُهَرِّج أو لشاعر يحمل مدحاً كذوباً لهم، أو يحمل نبرة مملوءة بالنفاق، فلا يكاد يدخل عليهم حتى تفتح له تلك الخزائن. ولو سكت الإمام الحسين عليه السلام لانصبّ عليه الذهب،

(١) مرّ تعريفهما في ج ٣ ص ١٧٨.

ولو صانع أو داهن لأتته الأموال، ولو أغضى على القذى لبذلت له الكنوز، ولكنه ابن أبيه عليه السلام الذي يقول وهو يبعثر الذهب يميناً وشمالاً: «يا بيضاء يا صفراء، غرّي غيري»[1]، والقائل للدنيا: «أإلي تعرّضت، أم إلي تشوّفت؟»[2]، والقائل للأموال: «هيهات هيهات أيها المال ما خدعت علياً، حسبه منك بلغة لعشائه». وهو ابن رسول الله صلى الله عليه وآله الذي يقول لعمه: «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذه الدعوة ما فعلت»[3].

وكانت قريش قد قالت له: خذ ما تريد منا واسكت، إن شئت النساء زوّجناك بمن تحب، وإن شئت الحكم ملّكناك، وإن شئت الأموال أعطيناك. فقال لهم: «والله ما أنا بتارك ما بعثت من أجله، إنما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق»[4].

فالحسين عليه السلام ابن هذين العظيمين، ولا يمكن أن يستميله بريق الذهب، وهذا الذهب الذي ركله الحسين عليه السلام برجله مازال يتراكم على ثراه، وفي خزائن من حوله، وهو في نفس تمرّ على التبر فيتساوى لديها مع التراب. إنه ابن الألق والمبدأ والفكرة، إنه ابن الإسلام الذي حمل للإنسانية آمالها وآلامها ليعبّر بها عن الألم، ويوصلها إلى محطة الأمل، وليصنع لها الحياة المثلى. كلّ ذلك استهدفه الحسين عليه السلام دون أن يغرّه الذهب.

---

(١) مناقب أمير المؤمنين (محمد بن سليمان) ٢: ٣٤.

(٢) نهج البلاغة / الحكمة: ٧٧.

(٣) بحار الأنوار ١٨: ١٨٢، وقريب منه ما في تاريخ الطبري ٢: ٦٧، البداية والنهاية ٣: ٦٣.

(٤) المصدر نفسه.

المبحث الثاني: الحسين عليه السلام يتربع عرش قلوب الناس

وماذا بعد؟ أيريد الحسين عليه السلام الحكم وأن يصل إلى كرسي؟ وما قيمة كرسي تقوم قوائمه على عظام الناس وجماجم البشر؟ وما قيمة كرسي تجري من تحته الدماء، وهو خدوع كذوب يحمل فوقه دمية يمر عليها الليل فتغرق في الرغائب المؤقتة واللذائذ، ويمر عليها الصبح فتنصرف إلى الفهود والقرود؟ ذلك شأن الكرسي الذي كان في عصر الحسين عليه السلام، فلم يطلبه لأنه كان أكبر من الرغائب المؤقتة.

إن للحسين عليه السلام عرشاً في القلوب[1]، وإن له مكانة في النفوس، وكل منزلة دون النفوس تتلاشى، فكم من العروش بقيت بعد موت أصحابها؟ لقد ذهبت العروش بذهاب أصحابها، ولكن من لم يتربّع على العروش الزائفة صنع له عرشاً في القلوب. وهؤلاء هم الذين يبقون فيصنعون لهم عروشاً في قلوب الناس من الإنسانية والرحمة واللطف والشفقة:

إن الأمـــير هـــو الذي ... يُمسي أميراً يوم فصلة
إن زالَ سُـــلطانُ الولا ... يةِ لم يَزُل سُلطانُ فضلهْ

إذن فللحسين عليه السلام عرشٌ في القلوب ومكانٌ في النفوس، وذلك عرش لن تمحوه الليالي والأيام، فالإنسانية احتفلت بالحسين عليه السلام فصنعت له عرشاً من قلوبها؛ لأنها عاشت في قلبه النابض بها، وقد قتل مضحّياً من أجلها. فهو عليه السلام أكبر من عرش يمكن أن يتزلزل بعد أيام.

---

(١) قال الشاعر:

لا تطلـبوا قبـر الحسيـ ... ـنِ بشـرق أرضٍ أو بغربِ
ودعـوا الجميع وعرّجوا ... نحـوي فمشـهده بـقلـبي

وهل كان الحسين عليه السلام يريد الجاه وهو سيد شباب أهل الجنة[١]؟ إنه الأُنشودة التي وعاها تاريخ الإسلام على لسان النبي صلى الله عليه وآله وهو يأخذ بضبعيه ويقول: «حزقة حزقة ترقّ عين بقة»[٢]، ثم يحمله ليتكئ بشفتيه على شفتيه. وهذه منزلة وعاها له تاريخ الإسلام.

فالحسين عليه السلام أُنشودة المسلمين، وهم يسمعون النبي صلى الله عليه وآله يقول: «حسين مني وأنا من حسين»[٣]. فأي منزلة يمكن أن تكون أسمى من هذه المنزلة؟ وأي مكان أكبر من قلب الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله؟ وأية روح يمكن أن تحنو على روح الحسين عليه السلام أعظم من روح الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله؟

والحسين عليه السلام في غنىً من نفسه، وفي غنىً بما احتلّ من مكانة في نفوس الناس، وفي الوقت نفسه فهو أُنشودة على فم الأجيال، وقد مرّت الأجيال وما تزال تهزج بها، وسيبقى ما بقي الوجود:

لِمْ لا يلذُّ على أنغامي السمَرُ	وأنت لي في نشيدي رائعٍ وتَرُ
غنّيتُ باسمك فاهتزّ الوجودُ إلى	دنياً يُمتّعُ فيها السمعُ والبصرُ
إلى فتىً ليس مجدُ الواهبين سوى	قدرٍ ضئيلٍ إلى جدواهُ يفتقرُ
إلى البطولةِ يستضري بها وَهَجٌ	وعي الشعوب إذا استشرى بها الخورُ
إلى الصلابة من أجل الحسين ترى	حربَ المقاديرِ أو يستسلمُ القدرُ
إلى الحسين وهل مثلُ الحسين إذا	ما التاثَ فكرٌ وضاع الوِردُ والصَدَرُ

---

(١) مسند أحمد ٣: ٣، ٦٢، ٦٤، ٨٤، وغيرها كثير.

(٢) كفاية الأثر: ٨٢، معرفة علوم الحديث (الحاكم): ٨٩، شرح نهج البلاغة ٦: ٣٣١، كنز العمال ١٢: ٦٤٩ ـ ٦٥٠ / ٣٧٦٤٣.

(٣) المستدرك على الصحيحين ٣: ١٧٧، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٥١٥.

آمـــنت انك حـــقلٌ مـــا تـــمنّعَ إذ يُستاف عِـطرٌ وإذ يُستَقطفُ الثّمرُ[(١)]

المبحث الثالث: أسباب النهضة ومحاولات طمس معالمها

إذن لم يخرج الحسين عليه السلام طلباً لحكم أو مال أو منزلة ، فقد كان له من ذلك النصيب الأوفر ، فلماذا خرج إذن؟ لقد خرج ليعلن هذه المقولة التي كانت وماتزال شعاراً يحمله الأحرار: «ألا وإن الدنيا قد أدبرت وتنكّرَ معروفُها ، وذهبت حذّاء ، ولم يبقَ منها إلّا صبابة كصبابة الإناء ، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل ، ألا تنظرون إلى الحق لا يُعمل به ، و إلى الباطل لا يُتناهى عنه؟ ليرغب امرؤ في لقاء ربه مُحقًّا . إني لا أرى الموت إلّا سعادة ، والحياة مع الظالمين إلّا شقاءً وبرماً »[(٢)] .

ولم تمت أبا الشهداء ولن تموت ، إنك لن تموت وما يزال في الأسماع نبرة من صوتك وأنت تقول:

«وإن تكـن الأبـدانُ للـموت أنشـئت فقتل امرئٍ بالسيف في الله أفضلُ»[(٣)]

وكيف يموت الصوت الهادر الذي هو أملٌ للإنسانية ، وقد انبعث ليحقق آمالها؟ ولأن الحسين عليه السلام كان صوتاً للإنسانية فقد حاول يومئذ الظلم والظالمون أن يحولوا بين هذا الصوت وبين الوصول إلى أسماع الإنسان .

---

(١) ديوان المحاضر ٢: ٣٦.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٢٤ ، المعجم الكبير ٣: ١١٤ ، نزهة الناظر: ٨٨.

(٣) بيت له عليه السلام من ضمن أربعة أبيات ، وهناك من رواها ثمانية . مناقب آل أبي طالب ٤: ١٠٤ ، البداية والنهاية ٨: ٢٢٨ ، مختصر تاريخ مدينة دمشق ٧: ١٣٣ ، حماسة الظرفاء ١: ١٨١ ، الفتوح ٥: ٧٢ ، ينابيع المودّة ٣: ٨١.

محاولات القضاء على ثورة الحسين﵇

لقد كان صوت الحسين﵇ يُخيف الظالمين ويرعبهم، فحاولوا ألّا يصل هذا الصوت إلى أسماع الإنسان، فماذا صنعوا من محاولات لإسكاته؟

المحاولة الأولى: وأد صوت الحسين﵇

لقد حاول الأُمويّون دفن هذا الصوت الذي كان يشدو بفكر الإمام الحسين﵇ تحت التراب، ولكنه تمرَّدَ على التراب، وحاولوا ألّا يقربه أحد؛ لأن في الدنوّ منه خطراً يخشاه الظالمون، فماذا صنعوا؟ إن أول ما يمكن أن يوصل للحسين﵇ هو ذكرُه والاحتفال به؛ ولذا صبت عليه القوة كلّ ما تملك من وسائل الإرهاب لتمنع من الاحتفال بذكره. فكان المسلمون في أيام الأُمويين إذا أراد منهم أحد أن يحتفل بذكرى الحسين﵇ فإنه لا يقوى على ذلك إلّا في طيّ الكتمان والأقباء المظلمة، ولكن هذا الصوت ارتفع رويداً رويداً وأخذ يدوي وينبعث، وإذا به يتمثّل به الشعراء ويقوله الأُدباء ويتناقله الحكماء، ولا يكاد يمر عام إلّا وتجد ذكره في أسماع الناس في أغلب أصقاع المسلمين، وإذا بنا نسمع من يقول:

مَن لقلبٍ متيمٍ مستهامِ ... غير ما صبوةٍ ولا أحلامِ

أخلصَ اللهُ لي هواي فما أغـ ... ـرقُ نزعاً ولا تَطيش سهامي

إلى أن يقول:

وقتيلٍ بالطفِّ غودرَ منهم ... بين غوغاءِ أمّةٍ وطَغامِ[1]

---

(١) الأبيات للكميت الأسدي من قصيدة أنشدها بين يدي الإمام الصادق﵇. مناقب آل أبي

فما إن فُرض على هذه المجالس أن تكون سرّيّة حتى خرج ذلك الصوت من قمقمه وانطلق ثائراً متمرّداً على استبدادهم. فهو لم يبقَ في طيّ الكتمان، بل إنه ارتفع عالياً مطالباً بدم الحسين عليه السلام.

الثانية: منع زيارة قبره عليه السلام

ثمّ انتقلوا من مرحلة منع الصوت إلى مرحلة منع الاتّصال الحسي بالحسين عليه السلام، فحيل بين قبره وبين زائريه، وأُوقف الحرس على تراب كربلاء ليمنعوهم من الوصول إلى القبر الشريف. وكأن مجرد الوقوف على القبر يؤدّي إلى استلهام الثورة منه عليه السلام والاتّصال بروحه، وتكهرب نفسية الزائر، فأرادوا منع حصول هذا عبر منع هؤلاء من زيارته؛ لئلا يحصل هذا الأثر غير المرغوب فيه، فوضعت المسالح على أرض كربلاء، وزرعت الجيوش في الطريق، وبعث الإرهاب، وشنت الحملات ضد كل من يدين له عليه السلام بالحب والولاء[(١)].

ولا أستطيع أن أصف لك ما جرى، فهذه القطع منذ أن وضعت في القبر وإلى الآن تومئ إلى الأحرار من قرب أو بعد، والناس تنثال عليه، والدويّ كان وما زال يرتفع: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾[(٢)]. وقد حاول المتوكل أن يمنع الزائرين بشتى الوسائل فلم يستطع[(٣)].

طالب ٣: ٣٣٧، الهاشميات والعلويات: ٢٠.

(١) انظر: الأمالي (الطوسي): ٣٢٦ / ٦٥٣، مقاتل الطالبيين: ٣٩٥.

(٢) إبراهيم: ٣٧، وانظر تأويل الآيات الباهرة ١: ٢٤٦ / ٨.

(٣) انظر: الأمالي (الطوسي): ٣٢٦ / ٦٥٣، مقاتل الطالبيين: ٣٩٥، وفيهما قصّة إبراهيم الديزج، وهي مشهورة، وقد مرّت في ج١ ص٩٧ ـ ٩٨.

امرأة تدفع الضريبة لزيارة الإمام الحسين عليه السلام

وها هي الشمس تشرق كل يوم على مشهد كان وما يزال إذا تملّته النفوس الكبيرة عرفت قيمته.. امرأة عجوز حنى الدهر ظهرها، تتوكّأ على عصا وتحمل بيدها صرّة أثقلها حملها، فيها ألف دينار، وتقف على المسلحة فتقول لأصحابها: بلغني أنكم منعتم الزائرين فلا يصل أحد إلى قبر الحسين عليه السلام حتى يدفع ألف دينار، وهذه الألف قد جمعتها من ألم وكدّ منذ صغري وأنا أغزل لأجمع لأيام فقري وفاقتي، فخذوها مني، ودعوني أصل إلى قبر الحسين عليه السلام. ويقشعرّ جلد رئيس المسلحة، ويتساءل: أي دافع يدفع هذه المرأة لتضحّي بأغلى أمل في حياتها لتصل إلى الحسين عليه السلام؟

إنه صوت الحسين عليه السلام الذي يصل إلى الأعماق والمشاعر.. إنها جاذبية الحسين عليه السلام التي تنجذب نحوها النفوس وتدور حولها، ولا لوم على الفَراش إذا عشق السراج، ولا لوم على النفس إذا هفت للطيب، ولا لوم على الإنسانية إذا رنَّ في سمعها صوت البطولة فطربت له، فتلك سجايا خلقها اللّه تعالى في النفوس، وما تزال تعيش في النفوس.

ضريبة الدم لقاء زيارته عليه السلام

ثم رأى المتوكل أن الأموال يسهل دفعها ففرض ضريبة من الدماء، وكان يقتل من كل مئة عشرة، وكانت الأعناق تتسابق للقتل أو زيارة الحسين عليه السلام. ثم تضاعفت الضريبة حتى وصلت إلى أن يُقتل (٩٠٪) من الزائرين، ومع ذلك تمتدّ الأعناق وتتسابق لتصل إلى القبر، فكان الزائر يصل إلى القبر بعد أن يعبر على تسع من الجثث، ليلتمس القبر ويقول:

«لبيك داعي الله، إن كان لم يجبك بدني عند استغاثتك، ولساني عند استنصارك، فقد أجابك سمعي وبصري»[١].

ولم يكن هذا الزائر بالأبله، فهو لا يقدّس الأحجار، إن المسلم عندما يستلم الحجر الأسود المقدّس فهو لا يقدّس فيه حجراً، إنما يقدّس فيه أمراً لله من وراء الحجر، ومعنىً سامياً، وإلّا فلا فرق بين حجر وحجر. إن من يمسك قبر الحسين عليه السلام لا يقدّس حجراً ولا ذهباً وُضع على القبر، ولا هيكلاً أخذ بريقُه ببصره، كلا إنما يقدّس روحاً مرفرفة على جسد وُزِّعَ أشلاءً في ميدان البطولة، وإنساناً قتل في معترك الحق من أجل الإنسانية.

إذن ما استطاعت الوسائل التي وضعها المتوكل في طريق الزائرين أن تقف حجر عثرة في طريقهم إلى الحسين عليه السلام، وإنما قُدمت الأعناق وضربت وسالت الدماء من أجل الوصول إلى هذا القبر المطهّر.

المبحث الرابع: ما الذي يريده الزائر من القبر الشريف؟

ماذا يجد الإنسان في هذا القبر؟ كلّ إنسان يتحرّك من أجل إشباع شيء ما عنده، فالتاجر يتحرك ليشبع عنده غريزة جمع المال، ومن يرد الأكل يتحرك لإشباع المعدة، والأديب المفكر يتحرك ليشبع تطلعه إلى المعرفة، فماذا يريد هذا الزائر من وقوفه على قبر الحسين عليه السلام؟ إنه يريد إشباع حاجة عظيمة، وهي أن يقدّس الدم الذي أُهرق من أجل الإنسانية، ويستوحي الدم الذي صرخت كلّ قطرة منه في وجه الظلم: «والله لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفر فرار العبيد»[٢].

---

(١) الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ٣٤٢، بحار الأنوار ٩٨: ٣٢٧.

(٢) الإرشاد ٢: ٩٨، تاريخ الطبري ٤: ٣٢٣، البداية والنهاية ٨: ١٩٤، وفيها: أقرّ إقرار.

والزيارة الشريفة تقول: «أشهد لقد اقشعرت لدمائكم أظلة العرش مع أظلة الخلائق»[١]. فما هي أظلة الخلائق التي اقشعرت؟ إنها المشاعر التي تلتفّ حول هذا الدم.. إنها المشاعر التي يستقطبها الجسد، ولكنه لا يستقطبها جسداً، وإنما يستقطبها موقفاً، وإصبعاً ما زال يشير من وراء القرون الطويلة منذ ألف وأربعمئة سنة وهو يومئ للأحرار: إن هذا هو الدرب الذي يجب أن يسلكه الشهداء والمضحّون:

وتركتَ للأجيال حين يلزُّها غنَتُ السُّرى ويضيقُ عنها المهربُ
جثث الضحايا من بنيك تُريهمُ أن الحقوق بمثل ذلك تُطلب

إن الحسين عليه السلام هو الإنسان الذي تمرّد على التراب وعاش ألقاً وفكراً، وقتل من أجل الإنسانية. ونحن في هذه الليلة نستجلي موقف إنسان حمل تطلّعات الإنسانية وآلامها، وكان خطراً على الظالمين؛ لأن آمال الإنسانية حملتها النبوّات، وحملها القادة والمضحّون، فضحّوا من أجلها. أما الظالمون فهم نبت مسموم في الدنيا، وغريب على طبع الإنسانية، يخاف أن يزحف إليه صوتها فيجتثّه؛ لذلك وقفوا بوجهه ليمنعوا وصوله إليهم. فماذا صنع المتوكّل؟ جاء لبقايا الأثر المادي، فهدم قبر الحسين عليه السلام وحرثه، ثم جاء إلى سدرة كانت على القبر فأبى إلّا أن يقتلعها؛ لأنها علامة تُوصل الى القبر، فقطع السدرة، وأجرى الماء على القبر حتى خفيت معالمه[٢].

لكن تلك العظام أبت أن يضيع ذلك الأثر، وتلك الأجزاء التي تحت

---

(١) الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ٣٤٢، المزار: ١٤٤.
(٢) انظر ج ٤ ص ١٩٠.

التراب أبت أن تكون جزءاً من التراب لا يُعرَف، ندَّ به العطر، وإذا بأعرابي يزحف إلى القبر، وكلّما وصل إلىٰ مكان أخذ شيئاً من التراب فشمه، إلى أن وصل إليه، فتناول منه حفنة ثم شمّها وألقاها وأنشأ يقول:

أرادوا ليُخفوا قبرَهُ عن مُحبّه — وطيبُ تراب القبر دلّ على القبر[١]

وكم حاول الظالمون أن يُبعدوا الأنظار عن هذا القبر، ولكن حتى لو قدّر لهذا القبر أن يُمحى فإن الحسين عليه السلام لا يُمحى من النفوس. إن له في كلّ قلب قبراً على حد تعبير الشاعر[٢]. وأنا لا أستطيع أن أُسميه قبراً وإنما أُسميه معبداً أو مسجداً؛ إذ أن للحسين عليه السلام في كلّ نفس معبد ومسجد؛ لأن النفوس ما زالت تقدّس البطولة وتعشقها، فهو عليه السلام عنوان مجد في مسجد البطولة، ومعبد الكرامة.

فإن كان الحسين عليه السلام قد قتل من أجل الإنسان فلماذا نأسى عليه؟ وهل يعتبر هذا الاجتماع أسى على الحسين عليه السلام؟ أنا لا أعتبره كذلك، لأننا إنما نأتي إلى هنا لنستلهم الحسين عليه السلام، أما المأساة فهي أمر قهري، فنحن لسنا أقوى نفساً وأعصاباً من النبي صلى الله عليه وآله، فقد مر على بيت فاطمة عليها السلام يوماً، فصاح: «أثمَّ لَكَع؟ أثمَّ لكع؟»[٣]. (اللكع هو الطفل الصغير، وإن

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٤٥، تهذيب الكمال ٦: ٤٤٤، سير أعلام النبلاء ٣: ٣١٧.

(٢) وهو قوله:

لا تطلبوا قبر الحسيـ — ـنِ بشرق أرضٍ أو بغربِ
ودعوا الجميع وعرّجوا — نحوي فمشهده بقلبي

وقد مرّ قبل قليل.

(٣) العمدة: ٤٠٣، صحيح مسلم ٧: ١٣٠، فتح الباري (المقدمة)، ١٧٩، ثم قال ابن حجر: قوله: «أثم لكع؟». قال الهروي: هو الصغير في لغة بني تميم، وقيل: الجحش الراضع، وقال ذلك للحسن على سبيل الإشفاق والرحمة.

أطلق على الكبير فيعني: القليل العقل[١]. فخرجت له فاطمة عليها السلام تحمل حسناً وحسيناً، فأخذهما فقبلهما، ثم وضع يده تحت حنك الحسين عليه السلام وأقعى بوجهه إليه فقبله، ولحظ المسلمون في عينيه دمعة، فقال له بعض أصحابه: نراك تبكي يا رسول الله، قال: «ذكرت ما يتعرض له هذا الجبين».

ويقول لأم سلمة: «يا أمَّ سلمة، جاءني جبرئيل فأخبرني أنّ ولدي حسيناً يُقتل بأرض العراق، وأتاني بهذه التربة من موضع قتله، فخذيها وضعيها في قارورة، فإذا صارت دماً عبيطاً فاعلمي أنه قد قتل»[٢].

هذا موقف النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ومهما بلغنا من قوة أعصاب فلن نستطيع أن نتعداه. ففي الوقت الذي نستلهم فيه الحسين عليه السلام فكراً وفكرة وشعاراً، فإننا لا ننسى أن ننظر إليه ونحن دمعة، ونتصوّره ونحن لوعة؛ فهو قتيل العبرة، وما ذكر عند مؤمن إلّا دمعت عيناه[٣]. وليس هو للدمع فقط إنما هو للبطولة، ونحن إن كنا صنعناه من دمع فلأن الدمع أمر قسري.

المبحث الخامس: معطيات ثورة الحسين عليه السلام

بعد ذلك كلّه نتساءل: ماذا أعطى الحسين عليه السلام للإنسانية بنهضته؟ إن الظلم الأمويّ وصل إلى درجة أشعر فيها كلّ مسلم بفقدان الثقة بنفسه، فالأجيال التي عاصرت الأمويين ماتت في نفسها البطولة وطأطأت للذلّ، وديست رؤوسها[٤]، فأي مجتمع هذا الذي يتقدّم ليبايع يزيد على أنه

---

(١) لسان العرب ٨: ٣٢٢ـ لكع.

(٢) بحار الأنوار ٤٤: ٢٣٨، ٢٦٨، المعجم الكبير ٣: ١٠٨ ـ ١٠٩ / ٢٨١٩، ٢٣: ٢٨٩ / ٦٣٧، كنز العمّال ١٣: ٦٥٦ / ٣٧٦٦٦.

(٣) كامل الزيارات: ٢١٤ / ٣٠٧.

(٤) وقد مر قول ابن أبي الحديد: «وكانت بنو أميّة تختم في أعناق المسلمين كما توسم الخيل؛ علامة لاستعبادهم». شرح نهج البلاغة ١٥: ٢٤٢.

عبد قن له يتحكّم بماله ونفسه وعرضه[1]؟ نقّل طرفك في مثل هذا المجتمع وانظر، هل تسميه مجتمعاً إنسانياً؟

بالطبع كلا، فالمجتمع الذي لا تنبض فيه داوعي الرجولة، ولا يقف دفاعاً عن مقدّساته، لا تستطيع أن تسميه مجتمعاً. وهذا ما فعله الأُمويون؛ فلقد سحقوا نخوة المسلمين ورجولتهم، وسلّطوا عليهم السيف والإرهاب، فأخذتهم الذلّة وغطّتهم موجة من الشعوز بالخذلان، فمات كلّ نبض فيهم، وسكت كلّ همس عندهم.

فالحسين عليه السلام رأى المجتمع الذي صنعه جده ألقاً قد بدأ يتحوّل إلى ظلام، فرفع مشعل الحرية، وأراد أن يعطي المجتمع الثقة بالنفس. وهكذا أعاد عليه السلام للمجتمع الثقة بالنفس، وبرهن على أن الأُمة لا تموت، وأن الشعب لا يموت، وإذا سكت فإنما يسكت مؤقتاً ولن يبقىٰ كذلك، وإذا غلب عليه الظلم فهو سيتمرد يوماً ما على الظلم، وسيحمل على يديه آماله وآلامه ثم يسلك منهج الحسين عليه السلام.

وهكذا تكون هذه النهضة المباركة قد أعطت عطاء عظيماً ولم تأخذ شيئاً، ومن معطيات هذه النهضة المباركة:

الأوّل: إعادة الثقة للأمة الإسلامية بنفسها

فأول إنجازات الحسين عليه السلام إذن أنه أعاد للأُمة الإسلامية الثقة بنفسها، وأشعرها أن فيها زاداً وذخيرة، ومهما مرّت عليها أيام الذلّ فسوف لن تبقى ذليلة. فهذا أول عطاء حمله الإمام الحسين عليه السلام للإنسان المسلم، بل

(١) انظر تاريخ مدينة دمشق ٥٤: ١٨١ ـ ١٨٢.

وغير المسلم أيضاً[١].

الثاني: أن الحقّ ينتصر وإن قلّ ناصروه

فثورة الحسين عليه السلام بعد أن أعادت إلى الأُمّة الثقة بنفسها أوعزت إلى الظالمين بأن وسائل القوّة مهما كانت جبارة وعاتية فقد تطردها محجمة من الدماء. وهذا الموقف من الإمام الحسين عليه السلام يلخّص موقف النبي صلى الله عليه وآله يوم خرجت قريش بكبريائها وغرورها ومعها ألف فارس، وآلاف أُخرى من المسلحين، وخرج النبي صلى الله عليه وآله وسلاح أصحابه جريد النخل ليس إلّا، فهزم أسلحة قريش بذلك الجريد، بل بالإيمان الذي وراء الجريد[٢]. وحمل الحسين عليه السلام على يديه إيماناً يقاتل به أسلحة الأُمويين بعد أن جاءه الجيش من كلّ جانب ومكان، يقول السيد حيدر الحلي رحمه الله:

وطى الوحشَ إذ لم يجدْ مهرباً ... ولازمت الطيرُ أوكانَها
وحفَّتْ بمن حيثُ يلقى الجموعَ ... يُثنّي بماضيه وحدانَها
فسامتْهُ يركبُ إحدى اثنتين ... وقد صرَّت الحربُ أسنانَها
فإمّا يُرى مُذعِناً أو تموتَ ... نفسٌ أبى العِزُّ إذعانَها
فقال لها اعتصمي بالإباء ... فنفسُ الأبيِّ وما زانَها
إذا لم تجدْ غيرَ لبس الهوان ... فبالموت تنزع جسمانَها
ركينٌ وللأرض تحت الكُماة ... رجيفٌ يُزلزلُ ثهلانَها

---

(١) كما مرّ من أمر غاندي واعترافه بأنه تعلم من الحسين عليه السلام.

(٢) قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِئَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ * الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾. الأنفال: ٦٥.

أقــرّ عـلى الأرض مِـن ظـهرها … إذا زلزل الرُّعبُ أقــرانَــها[١]

حمل الحسين عليه السلام إيمانه وعزيمته وموقفه فقاتل به أسلحة الأمويين وجيوشهم، وما أروع ما قال شاعر الطف:

قــومٌ إذا نــودوا لدفــع مُـلِمَّةٍ … والقــوم بــين مُـدَعَّسٍ ومُكَـردَسِ
لبســوا القلوبَ عـلى الدّروعِ وأقبلوا … يـتهافتون عـلى ذهـاب الأنـفُسِ[٢]

لقد لبس الحسين عليه السلام قلبه على درعه، وهو يهزأ بالسلاح ويهزم كل قوة؛ لأنه تجلبب بقوة الإيمان والعزيمة، واستطاع أن يعطينا درساً، ويعيد إلينا نبرة القرآن الكريم: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[٣].

الثالث: أنها المحرّك الوحيد لما بعدها من ثورات

لقد تركت لنا هذه الحركة المباركة تياراً ثورياً وداعياً إلى الجماعة امتدّ من يوم الطف إلى يوم الناس هذا، فإذا مر المحرم فلن تجد جالية إسلامية في شرق الأرض وغربها إلّا وتحتفل بذكرى الحسين عليه السلام. ولو أنه لم يقتل في واقعة الطف، كم يمكن له عليه السلام أن يعيش؟ عاش جده صلى الله عليه وآله ثلاثة وستين عاماً، وعاش أبوه عليه السلام ثلاثة وستين أيضاً، والحسين عليه السلام في يوم الطف كان عمره سبعاً وخمسين سنة، فلو قدّر له أن يعيش كما عاش جده، فهل سيعيش (سلام الله عليه) أكثر من ست سنوات أو عشر أخرى؟

---

(١) ديوان السيد حيدر الحلي: ١٠٨.
(٢) عمدة الطالب: ٣٥٦، اللهوف في قتلى الطفوف: ٧٧.
(٣) البقرة: ٢٤٩.

فلو سكت عن الظلم ومات موتاً طبيعياً هل كان سيعيش أكثر من عشر سنوات؟ ولكنه الآن يعيش منذ أكثر من ألف وأربعمئة سنة، وسيبقى يعيش والدنيا إلى جانبه، وستمتدّ الأجيال وللحسين ﷺ فيها صوت وتيار، ولفكره ﷺ فيها مسيرة:

ورأيتك الفكرَ الحصيفَ يشُقُّ أسـ	ـتار الغُيوبِ ويستَشِفُّ بعيدا
فـإذا أراقَ اليومَ زاكيةَ الدّما	فـغداً سترفعُها الشُّعُوبُ بنودا

وأنتقل بك الآن إلى الدويّ حول هذا القبر في مثل هذه اللحظات، هذا الدوي الذي يؤكّد لك أن الحسين ﷺ مات جسداً ولم يمت روحاً:

أرجفُوا أنك القتيلُ المُدمّى	أوَمَن يُنشِئُ الحياةَ قتيلُ
كـذبوا ليس يُقتَلُ المبدأ الحـ	ـرُّ ولا يَخدَعُ النُّهى التّضليلُ
كذبوا كلُّ بارقٍ من سيوفِ الـ	ـحَقِّ في فاحمِ الدُّجى قِنديلُ
ويموتُ الرّسولُ جسماً ولكن	بالرّسالات لن يموتَ الرسولُ

هلم معي لنعيد إلى أذهاننا ذكريات هذه الليلة، فقد بات الحسين ﷺ هذه الليلة هو وأصحابه ولهم دويّ كدوي النحل بين قائم وقاعد، وراكع وساجد. وفي هذه الليلة لا يمكننا أن نُعرض عن الجانب المأساوي في هذا الموقف، دخلت عليه أُخته زينب ﷺ وهو جالس يقرأ القرآن، يقول الشيخ الصدوق: فوضع القرآن في المحراب، وقام إجلالاً لها، وكان إلى جانبه جون مولى أبي ذر يُصلح السيف، والحسين ﷺ يقول:

«يادهرُ أُفٍّ لك من خليلِ	كم لك بالإشراق والأصيلِ
من طالبٍ بحقّه قتيلِ	والدهرُ لا يقنعُ بالبديلِ
وإنّما الأمرُ إلى الجليلِ	وكلُّ حيٍّ سالكٌ سبيلي»

يقول الإمام السجاد عليه السلام: «فأعادها مرّتين أو ثلاثاً حتى فهمتها وعرفت ما أراد، فخنقتني العبرة، فرددتها ولزمت السكوت، وعلمت أن البلاء قد نزل، وأمّا عمّتي فإنها سمعت ما سمعت وهي امرأة، ومن شأن النساء الرقّة والجزع، فلم تملك نفسها أن وثبت تجرّ ثوبها حتى انتهت إليه، فقالت: واثكلاه! ليت الموت أعدمني الحياة، اليوم ماتت أُمّي فاطمة وأبي علي وأخي الحسن، يا خليفة الماضي وثمال الباقي. فنظر إليها الحسين عليه السلام وقال لها: يا أُخية، تعزّي بعزاء الله، لايذهبن بحلمك الشيطان. وترقرقت عيناه بالدموع وقال: ولو ترك القطا ليلاً لناما»[1]. وعند ذلك غالبتها دموعها فتوجّهت إليه:

وصيت من يحسين بينه   من تجبل الغارة علينه

لا تعتذر يابو سكينه   حريم وغُرب شنهو حچينه

حانت التفاتة من الحسين عليه السلام فرأى ابنته سكينة مطرقة، فقال لها: «بنية، ارفعي رأسك، مالي أراك مطرقة؟». فكأن لسان حالها: أبه، وبمن أرفع رأسي وأنت غداً تفارقني؟

وصوا بنه گبلن ترحلون   گبلن على الغبره تنامون

يحسين منته نور العيون

---

(١) الأمالي: ٢٢١، وانظر: الإرشاد ٢: ٩١ ـ ٩٢، روضة الواعظين: ١٨٣، الخرائج والجرائح ١: ٢٥٤، اللهوف في قتلى الطفوف: ٨٨، بحار الأنوار ٤٤: ٣٩١، تاريخ الطبري ٤: ٣١٤، ٣١٩، الكامل في التاريخ ٢: ٥٥٨، البداية والنهاية ٨: ١٩٠، ١٩٢، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٤٤، مقتل الحسين (الخوارزمي) ١: ٣٤٩، وقد مرّ مفصّلاً في ج ٢ ص ٩١ من كتابنا هذا.
وقوله عليه السلام: «ولو ترك القطا ليلاً لناما» هو عجز بيت لحذام بنت الريان، وصدره:
ألا يا قومنا ارتحلوا وسيروا
أي أن القطا لو ترك ما طار هذه الساعة، وعليه فقد أتاكم القوم. مجمع الأمثال ٢: ١٧٤ ـ ١٧٥.

وكان للحسين عليه السلام في هذه الليلة موقف مأساوي آخر، فقد نظر إلى رملة وقد تعلقت بالقاسم، ونظر إلى ليلى وقد تعلقت بعلي الأكبر، ونظر إلى الرباب وقد احتضنت رضيعها، وكلّهن يعلمن أن غداً سيفارقْنَ الأعزّة، ونظر إلى زينب عليها السلام تجول من خباء إلى خباء، تودّع هذا، وتودّع هذا، وتصل إليه لتعتنقه:

خويه نروح كلّ احنه فدايـاك　　　　إخـذنه للـحرب يـحسين ويـاك

مهـي غيـبه بخـويه واگـعـد اتنـاك



﴿٣٩﴾

دور الأدب في كشف أسرار النهضة الحسينية

إن تُمسِ منكسر اللوا ... مُلقىً على وجه الرُّمولِ
فلقد قُتلتَ مُبرَّأً ... عن كلِّ عيبٍ بالقتيلِ
يُهدى لك الذِّكرُ الجميـ ... ـلُ على الزّمان بمستطيلِ

المباحث العامّة للموضوع

المبحث الأوّل: الأدب العربي يعمّق مفاهيم واقعة الطف

من أبرز الظواهر في واقعة الطف أن الأدب العربي لعب فيها دوراً كبيراً في تعميق المفاهيم التي كانت هدفاً من أهداف هذه الواقعة. ولتوضيح الفكرة نقول: لا شك أن الأحداث التي وقعت في الطف فيها مادعا الأيمّة عليهم السلام إلى تسجيلها بالشعر، والشعر تأريخ ثانٍ، وهو ديوان العرب كما يقال. وهذا المنهج في التعبير لعب دوراً كبيراً في واقعة الطف على مختلف الأبعاد، وقد حاول الأيمّة؛ بكل صورة تغذية هذا الجانب ـ أي استخدام الشعر كوسيلة للتعبير عن أحداث الطفّ ـ فلماذا كان هذا المنهج؟

نحن نعرف أن الشعر طاقة، وهذه الطاقة كانت وما تزال فعّالة، فأنت عندما تأتي إلى تأريخ العرب تجد أن الشعر لعب دوراً كبيراً في

حضارتهم. وقد تقول: إن الشعر عندهم منتزع من بيئتهم التي تقوم على القتل والقتال والتفاخر، وهذه البيئة تحتاج إلىٰ ألسنة معبّرة، والشعر والأدب وسيلةٌ تعبير سريعة تتلقّفها الجماهير. ولكن الشعر لم يلعب هذا الدور عند العرب فقط، إنما لعبه عند الأمم الأُخرىٰ، فهو يلعب دوره في الحضارة الأوربية حتى الآن.

لقد استطاع الكثير من الشعراء في أوروبا بقسميها الشرقي والغربي تخليد ثورات بكاملها، والشاعر يعتبر مؤشراً من مؤشرات الثقافة العالية، وللشعر دوره ودويّه وآثاره على الجماهير في مختلف الأبعاد، وعلى امتداد التأريخ. فليست المسألة إذن أن البيئة العربية أفرزت هذه الظاهرة كما يقول البعض.

ويبدو أن الشعر سِجلٌ يضغط الفكرة ضغطاً كافياً، ويقدمها نموذجاً مصغّراً فيسهل على الذهن التهامها والاحتفاظ بها، ويلعب دوراً بارزاً في الدعاية لترسيخ المفاهيم والعقائد؛ لذلك وجدنا أهل البيت عليهم السلام يستهدفون شعراء الشيعة، ويجتمعون بهم، ويُوعزون لهم بتسجيل واقعة الطفّ، وباستعراض ما جرى لأهل البيت عليهم السلام؛ لأن الشعر وسيلة من الوسائل الفعالة، ولذلك وقف الإسلام من الشعراء الذين استخدموا هذه الطاقة الكبيرة ضد الإسلام موقفاً سلبياً، وبالعكس وقف موقفاً إيجابياً من الشعراء الذين سخّروا فكرهم لخدمة أهدافه.

المبحث الثاني: أبعاد الشعر

لقد استُخدم الشعر بادئ الأمر كوسيلة من وسائل الترفيه عن النفس، وهو أشبه بالترانيم التي يعبّر بها الإنسان أحياناً عن أحاسيسه عندما يكون مرتاح البال، ثم تطور ليأخذ أبعاداً مختلفة:

الأوّل: أنه وسيلة للارتزاق

ومن هذه الأبعاد أنه أصبح وسيلة للارتزاق، فنحن نعرف أن عدداً من الشعراء على امتداد التأريخ اتخذوا الشعر وسيلة للارتزاق، وأخذوا في سبيل ذلك يقلبون الحقّ باطلاً، والباطل حقاً، ويعتدون على الكرامات والأعراض. يقف أحد هؤلاء لسيف الدولة فيقول:

لو كان علمُك بالإله مقسّماً ... بالخلق ما بَعث الالهُ رسولا

أو كان لفظُك فيهمُ ما أنزل الـ ... ـتوراةَ والفرقانَ والإنجيلا

هذا الشاعر لا نستطيع أن نقيسه بابن هاني الأندلسي الذي مدح الخليفة الفاطمي بقوله:

وعلى أمير المؤمنين غمامةٌ ... رُفعت تُظلّل تاجَه تظليلا

نهضت بثقل الدر ضوعف نَسجهُ ... وجرت عليه عسجداً مطلولا

أمُديرَها من حيثُ دار لَشدُّما ... زاحمتْ عند ركابه جبريلا

زحمتْ مناكبُه الجبالَ فأعلنت ... شُرُفاتُها التكبيرَ والتهليلا[1]

فهذا اللون من الحرارة والأداء العاطفي المتقن لا أستطيع أن أتّهمه بالارتزاق؛ لأنه كان يعتقد أن هؤلاء أيمّة، فهذا الرجل يقول الصدق من منطلق مفاهيمه وعقيدته هو حتى لو بالغ، لكنه صادق في قوله وفق ما يعتقد. وبمعنى آخر أن الباعث لهذا القول هو المبدأ وليس الارتزاق، ولكن عندما أسمع أحدهم يقف للرشيد فيقول:

خليفةَ الله إنّ الجودَ أوديةٌ ... أحلّك اللهُ منها حيث تجتمعُ

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٢: ١٥٠.

إن أخلف الغيثُ لم تخلف مخائلُه أو ضاق شيءٌ ذكرناه فيتسعُ
من لم يكن ببني العباس مُعتصماً فليس بالصلوات الخمس ينتفعُ(١)

هذا النمط تبدو عليه نبرة الارتزاق واضحة، ويبدو عليه الفناء في الحطام الزائل المؤقت، فهذا لون من الفكر المرتزق الرخيص الذي يمشي في ركاب الجبابرة.

وإلى هذا يشير السيد الحميري من شعراء الشيعة، حيث رأى من يمدح طلباً للحطام بقوله:

أيها المادحُ العباد ليُعطى إن لله ما بأيدي العبادِ
اسألِ الله ما طلبت إليهم وارجُ نفعَ المُنزِّل العوّادِ
لا تقل في الجوادِ ما ليس فيه وتُسمّي البخيلَ باسم الجوادِ(٢)

فهذا النمط من الشعر مال إلى الارتزاق، وهو نمط من الفكر نزل بالشعر إلى حضيض الاستجداء.

الثاني: أنه وسيلة للانتقام

وهناك لون من الفكر تُحرِّكه غريزة الانتقام، فبعض الشعراء لديه شعر تكمن وراءه دوافع الانتقام والحقد، فهو يريد أن يشتم، بغضّ النظر عن كون هذا الذي يريد أن يشتمه يستحق الشتم أو لا، وإلّا فماذا يرجو مروان بن أبي حفصة في شعره عندما يشتم الزهراء عليها السلام وأمير المؤمنين عليه السلام؟ وهل دفعه إلّا الحقد والحسد؟ يقول مروان في شعره: إن

---

(١) الأبيات لمنصور النمري. تاريخ بغداد ٤: ٢٧٢، ١٣: ٦٩، باختلاف في ترتيبها.

(٢) الغدير ٢: ٢٣٨ ـ ٢٣٩، ونسبه في تاريخ مدينة دمشق ٤٣: ٤٩٣، وابن حجر في الإصابة ٥: ٢٣٢ لعمران بن حطان.

أمير المؤمنين عليه السلام خطب بنت أبي جهل، فلما بلغ الخبر النبي صلى الله عليه وآله صعد المنبر وقال: إذا كان علي بن أبي طالب يريد الزواج من بنت أبي جهل فليطلّق ابنتي فإنه لا تجتمع ابنة نبي الله وابنة عدو الله. وكانت الزهراء عليها السلام خرجت وبيدها الحسن والحسين وهي غضبى[1]. كلّ هذا المعنى يصوره مروان ابن أبي حفصة بقوله:

عليٌّ أبوكم كان أفضلَ منكمُ ... أباهُ[2] ذوو الشورى وكانوا ذوي فضلِ

وساءَ رسولَ اللهِ إذ ساء بنتَهُ ... بخطبته بنت اللعين أبي جهلِ[3]

فتصدّى له شعراء الشيعة، فقال أحدهم:

عليٌّ أبونا كان كالطُّهر جدّنا ... له ما له إلّا النبوّة من فضلِ

لئن كانت الشورى أبَته وقبلها ... صحيفتُهم ذاتُ المفاسد والجهلِ

فقد كان أهلُ الرحلتين وندوةٍ ... أبَوا قبلها من جهلهم سيّد الرسلِ[4]

فهذا النمط حاول أن ينزل برسالة الشعر من جوّها النظيف إلى جوّ الحقد.

الثالث: أنه وسيلة لقلب الحقائق

وهناك نمط ثالث من الشعر يريد أن يقلب الحقّ باطلاً والباطل حقّاً، فمثلاً يقول أحدهم:

---

(١) السنن الكبرى (النسائي) ٥: ١٤٧ / ٨٥١٨، صحيح مسلم بشرح النووي ١٦: ٢، الجامع لأحكام القرآن ٢٠: ٢٢٧.

(٢) أي رفضوه.

(٣) شرح نهج البلاغة ٤: ٦٥، الفوائد الرجالية ١: ٨٩.

(٤) والمتصدّي هو السيد الحميري رحمه الله. الفوائد الرجالية ١: ٨٩.

أنّــى يكــون وليس ذاك بكــائنٍ لبني البنات وراثة الأعــمامِ[١]

ومن أمثال هؤلاء عبد الله بن المعتز العباسي الذي يريد أن يقلب الحقّ باطلاً والباطل حقّاً، فيقول: إن علي بن أبي طالب عليه السلام ابن عم، وهو لا يرث مع وجود العم؛ لأن العم يَحجب بناءً على نظرية التعصيب، يقول ابن المعتز:

لكــم رحــمٌ يــا بــني بــنته ولكــن بــنو العــم أولى بــها

قــــتلنا أمــيّة فــي غــابها فـــنحن أحـــقُّ بأســلابها

ونــحن ورثــنا ثــياب النبي فكــم تــجذبون بأهــدابها[٢]

المبحث الثالث: معنى التعصيب

وهذه النظرية في التعصيب ليست صحيحة؛ لأنها تقوم على أساس حرمان البنت من نصيبها، وهذا خلاف رأي الإمامية، فإذا مات الميت، وخلّف ولداً، ذكراً كان أو أنثى، فهو الذي يأخذ الميراث ولو وُجد العم.

وقد تصدّى شعراء الشيعة لهذا المعنى، وممن تصدّى له الصفي الحلي حيث قال:

ألا قــــل لشــــرّ عــــبيد الإله وطــــاغي قــــريش وكــذّابِــها

وبــاغي العــباد وبـاغي العـناد وهــــاجي الكــرام ومــغتابِها

أأنت تُــــــفاخر آلَ النـــــبي وتــــجحدها فــــضل أحسابِها

بكــم بــاهلَ المــصطفى أم بــهم فــــردّ العُــــداة بأوصــــابِها

---

(١) البيت لمران بن حفصة. عيون أخبار الرضا عليه السلام: ١٨٩، تاريخ بغداد ١٣: ١٤٥، تاريخ مدينة دمشق ٥٧: ٢٩٢.

(٢) ديوان ابن المعتزّ: ٢٩، الغدير ٦: ٥٢.

أعنكم نُفي الرجسُ أم عنهمُ ... لطهر النفوس وألبابها
أما اللهو والشرب من دأبكم ... وفرطُ العبادة من دابِها
وقلت ورثنا ثياب النبي ... فكم تجذبون بأهدابِها
وعندك لا تورث الأنبياء ... فكيف حظيتم بأثوابِها
فناقضت نفسك بالحالتين ... ولم تعرف الشهد من صابِها[1]
أجدُّك يرضى بما قلتهُ ... وما كان يوماً بمرتابِها
وكان بصفّين من حزبهم ... لحرب الطغاة وأحزابِها
وأقبل يدعو إلى حيدرٍ ... بإرهابها وبإرغابِها
وقد شمّر الموت عن ساقه ... وكشّرت الحرب عن نابِها
فهلاّ تقمّصها جدّكم ... إذا كان إذّاك أولى بِها
وإذ جُعل الأمر شورى لهم ... فهل كان من بعض أربابِها
أخامسهم كان أم سادساً ... وقد جُليت بين خطّابِها
وقلت بأنّكم القاتلون ... أسود أُميّة في غابِها
كذبت وأسرفت في ما ادّعيت ... ولم تنهَ نفسك عن عابِها
فكم حاولتها سُراةٌ لكم ... فرُدّت على نكص أعقابِها
ولولا سيوف أبي مسلمٍ ... لعزّت على جهد طلّابِها
وذلك عبدٌ لهم لا لكم ... رأى فيكمُ قرب أحسابِها
وكنتم أسارى ببطن الحُبوس ... وقد شفّكم لثم أعتابِها
فأخرجكم وحباكم بها ... وقمّصكم فضل جلبابِها
فجازيتموه بشرّ الجزاء ... لطغوى النفوس وإعجابِها

---

(١) الصاب: شجر مرّ له عصارة بيضاء كاللبن بالغة المرارة، إذا أصابت العين أتلفتها. المعجم الوجيز: ٥٢٧ ـ صاب.

فدع ذكر قوم رضوا بالكفاف ... وجاؤوا الخلافة من بابها
هُمُ العابدون هُمُ الحامدون ... هُمُ الساجدون بمحرابها
عليك بلهوك بالغانيات ... وخلّ المعالي لأربابها
ووصف العذارِ ونعت العقار ... وذات الخمار بألقابها
فذلك دأبك لا دأبهم ... وجَرْيُ الجيادِ بأحسابها[1]

هذا نوع من الشعر الذي يتصدّى لمن يقلب الحق باطلاً والباطل حقّاً. ومن أمثلته أيضاً ما حدث مع الإمام السجاد عليه السلام وهشام الذي تجاهله، فتصدى له الفرزدق بقوله:

هذا الذي تعرفُ البطحاءُ وطأتَه ... والبيتُ يعرفه والحِلُّ والحَرمُ
هذا ابنُ فاطمةٍ إن كنتَ جاهلَه ... بجدِّه أنبياءُ اللهِ قد خُتموا[2]

ولقد لعبت قصيدة واحدة في أوروبا دوراً كبيراً في تحرير العبيد، وهي من شاعر وقف في وجه الرقّ.

فالشعر إذن يلعب دوراً مهماً جدّاً في الميادين الإيجابية.

فالأيمّة عليهم السلام يريدون من الشعر أن يُعرِّف بأهل البيت، فأنت تجد في شعر الكميت ودعبل بن علي الخزاعي ومَن سبقهما من أمثال الوليد بن ظالم الطائي وعدي بن حاتم الطائي تعريفاً بأهل البيت عليهم السلام أنفسهم. وقد تستغرب من أن المسلمين يجهلون أهل البيت عليهم السلام، مع أنه ليس غريباً، فنحن في هذا العصر نرى المسلمين يجهلون أهل البيت عليهم السلام. وقد قرأت كتاباً صدر العام الماضي للدكتور أحمد عطية الله اسمه «القاموس الإسلامي»، فرأيت أنه كتب (٤٢٦) سطراً في الإمام الشافعي، ولكنه

(١) ديوان صفي الدين الحلي: ٩٢. (٢) ديوان الفرزدق: ١٧٨.

عندما يمرّ بالإمام جعفر الصادق عليه السلام يقول عنه: «هو جعفر ابن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، السادس من أيمّة الشيعة، ويقال إنه سمّي الصادق لصدقه».

ويمرّ الدكتور أحمد أمين في كتابه «ضحى الإسلام» بربيعة الرأي الذي لا يمكن أن نعتبره من الفقهاء، غاية ما في الأمر أنه من أساتذة الإمام مالك، وهو من الموالي طبعاً، فيكتب فيه صفحات كثيرة، ولكنه عندما يمرّ بالإمام الصادق عليه السلام يقول: «يقال إنه كان يجلس بالمسجد في المدينة ويتدارس العلم». فكيف يمكن لأبنائنا أن يعرفوا أهل البيت عليهم السلام، وهم وسط هذا اللون من التعمية؟

إذن من الأولى للشعر أن يُندب لهذه المهمّة، وهو الأداة الفعالة في هذا الميدان. وليس المقصود من الشعر أنه يرفع من قدر أهل البيت عليهم السلام، وإنما يجلو الضباب لتتّضح الحقيقة، يقول أحد الشعراء في أمير المؤمنين عليه السلام:

وما مِدحتي تُوليك فخراً وإنما ... أردّ بإطرائي عليك الطّواريا
إذا الملأ الأعلى تحدّرَ بالثّنا ... عليك فما شأني وشأن ثنائيا[1]

يقول عصام بن المصطلق: دخلت إلى المدينة، فمرّ بي الحسن عليه السلام فأعجبني رواؤه وسَمتُه وهديه وما عليه من الوقار، وأثار في نفسي وصدري حسداً كان كامناً لأبيه، فدنوت منه وقلت: أنت ابن أبي تراب؟ قال: نعم، فأبلغت في شتم علي عليه السلام، فنظر إليّ نظرة عاطف، ثم قال: ﴿خُذِ

---

(١) وقد عوتب المتنبي في ترك ذكر المناقب فقال:

وتركت مدحي للوصي تعمداً ... إذ كان نوراً مستطيلاً شاملا
وإذا استطال الشيء قام بذاته ... وكذا صفات الشمس تذهب باطلا

نهج الإيمان: ٦٦٩.

العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيطَانِ تَذَكَّرُوا ... ﴾[١]. ثم قال لي: «يا هذا، استغفر الله مما أنت فيه؛ فلو استطعفتنا لعطفنا عليك، ولو استرشدتنا لأرشدناك، ولو طلبت منا لأعطيناك، فانبسط إلينا بحوائجك، فسوف تجدنا على أفضل ما تروم إن شاء الله».

ثم قال هذا الراوي: فلمح فيّ الندم على ما بدر منّي فقرأ: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾[٢] ثم أخذ بيدي ومال بي إلى الدار، ثم سألني: أنت من أهل الشام؟ قلت: نعم، قال: «شِنْشِنَة أعرِفُها من أخزم». والله لقد خرجت من المدينة وليس على وجه الأرض أحد أحبّ إليّ منه ومن أبيه[٣].

انظر إلى هذا النموذج من التجهيل والتضليل الذي مارسه الأُمويّون بحق أهل البيت عليهم السلام، يقول أحدهم: مررت بمسجد حمص، فسمعت أحداً يسأل رفيقه: من هو علي بن أبي طالب؟ قال: لا أعرفه، ولكن يبدو أنه لصّ من لصوص الفتن[٤].

المبحث الرابع: أهداف زجّ الأئمة عليهم السلام الشعراءَ في ميدان الشعر

لقد كانت هناك تربية ملتزمة في الشام لطمس حقوق أهل البيت عليهم السلام وتشويه صورتهم، فكانت لدى الأئمة عليهم السلام أهداف سعَوا إلى تحقيقها من خلال حثّ الشعراء وندبهم إلى ولوج هذا الميدان، ومن هذه الأهداف:

---

(١) الأعراف: ١٩٩ ـ ٢٠١.

(٢) يوسف: ٩٢.

(٣) الأنساب ٣: ٤٧، شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٧٨.

(٤) مروج الذهب ٣: ٤٢.

الهدف الأوّل: التعريف بأهل البيت عليهم السلام

فعلى الشعراء أن يعرّفوا الناس أن نهضة أهل البيت عليهم السلام إنما كانت دفعاً للباطل، ووقوفاً بوجهه، ودعماً للحق.

الهدف الثاني: رفع المثل الأعلى

فإذا نشر الشاعر الفكرة الخيّرة ركز لواءً يخفق، فالفكرة الخيّرة لواء على طريق النهضات. فأهل البيت عليهم السلام يطلبون من الشعراء أن يرفعوا أهداف الإمام الحسين عليه السلام ليتّخذوا منها لواءً؛ لكي ينظر إليه الناس ويسيروا على هديه، يقول أحمد شوقي:

نشروا دماءك في الصعيد لواءا	يستنهض الوادي صباح مساءا
جرحٌ يضجّ على المدى وضحيّةٌ	تستنهض الحريّة الحمراءا

فإذا أخذ الشاعر أسرار النهضة، ورفعها لواءً، فإنّ الأحرار سوف يهتدون به.

وكان لشعراء الطفّ موقف مشرّف في هذا الميدان، فقد جلّوا الواقعة تجلية تتناسب مع أهمّيّتها، يقول أحد المعاصرين:

يممتُ يومك أستجلي روائعهُ	فاشبعتْ ناظري فوّارةً صورُ
ما رُمتُ رائعةً إلاّ وجدتُ به	كأنّ كلّ سموٍّ فيه منحصرُ
هو المدى ميّزَ الشوط البعيد به	أعنّةَ الرّكب مَن جدّوا ومن قصروا

فهذ الشاعر ينشر موقفاً من مواقف الإمام الحسين عليه السلام يتخذ منه لواءً تتملاه الجماهير، وتهتزّ لعظمته. ولم يكن شعراء أهل البيت عليهم السلام يمدحونهم لأجل الأموال أو الجاه، وإلاّ فكان لهم أن يمدحوا الأحياء، وأهل الحُكم والسلطان، لا أن يمدحوا المقتولين، ومَن وقفت الدنيا

ضدّهم، فهم ينشرون الحق لواءً، ولا ينشدون سوى الحق[١].

الهدف الثالث: عرض جانب الظلامة وأسرار النهضة

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى ما يكتبه بعض الكتّاب في الماضي والحاضر من أن الإمام الحسين عليه السلام هل كان عنده تخطيط في نهضته أم لا؟ وهو ألم يكن يدري أن يزيد يمتلك الدنيا، فالجيوش تحت إمرته، والطاقات من الأموال والجاه والقوة كلّها بيده؟ ألم يكن الإمام الحسين عليه السلام يعرف أنّ سبعين مقاتلاً لا يستطيعون مواجهة هذه القوة؟ ولماذا لم يُصالح ويستسلم ويُقرّ كما فعل غيره؟

وهؤلاء لا يفهمون أسرار نهضة الإمام الحسين عليه السلام، فهو لم يكن يخرج ليفتح بلداً، ففي رسالته عليه السلام لبني هاشم بُعيد نزوله في كربلاء يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد: فمن لحق بنا منكم استشهد، ومن تخلّف لم يبلغ الفتح»[٢]. فما هو الفتح الذي يعنيه هنا؟ الفتح هو ما نراه اليوم من آثار لهذه الثورة، فالإمام الحسين عليه السلام حوّل الموت إلى فتوح:

وتسامت بالموت حتى أحالتـ	ـه فتوحاً سخيّة الأرداحِ
لم تفجّر لظاك يهدر بالحـ	ـقّ لتروي قرائح المُدّاحِ
بل لنحيا سعيرةً مارداً يبـ	ـعث للموت سلّماً من أضاحِ[٣]

---

(١) بل إنهم كانوا يرجعون الأموال التي يعطيها إيّاهم الأئمة عليهم السلام جرّاء مدحهم لهم كما فعل الفرزدق وغيره مع الإمام السجاد عليه السلام، انظر شرح الأخبار ٣: ٢٦٤ ـ ٢٦٥، وكما فعل دعبل مع الإمام الرضا عليه السلام، انظر عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٩٤ ـ ٢٩٥ ـ ٣٣، وكما فعل الكميت مع الباقر عليه السلام، انظر دلائل الإمامة: ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(٢) بصائر الدرجات: ٥٠٢، مثير الأحزان: ٢٧.

(٣) ديوان المحاضر ١: ٣٦.

فهو ﷺ لم يستهدف أن تُستدرّ عبرة، ذلك أنه ﷺ جذوة، كما أنه لم يكن يريد أن يحتلّ بلداً فيفتحه، وإنما أراد أن يريق الدم الطاهر لينتصر على المدى البعيد، ويأخذ طريقه في الدنيا. وهو ﷺ امتداد للنبوّة، والنبوّة جذوة في وجه الظالمين، ولكن هذه الجذوة تعتّم عليها وسائل الإعلام فتنسخ أهدافها ودوافعها، وتصوّرها بصور أخرىٰ. والشعر له القابلية على أن ينهض بمهمّة كبرى في هذا المجال، وأن يلعب دوراً كبيراً:

الشعرُ أجّجَ ألف نارٍ وانبرى	يلوي أنوف الظالمين ويجدعُ
لو شاء ردّ الليل في أسماره	واحات نور تستشفّ فتلمعُ
أو شاء قاد من الشعوب كتائباً	يعنو لها من كلّ أفقٍ مطلعُ

فالشعرُ إذن يكشف أسرار النهضة، ويدافع عنها في وجه من يقول: إن الإمام الحسين ﷺ «قتل بسيف جدّه»[1]، أو لم يكن عنده تخطيط، أو ما استطاع أن يصل إلىٰ النصر.

إن الحياة بمعناها الكريم وسموّها أكبر من أن تلج أمثال هذه الأُدمغة المُنحطّة التي تتصوّر أن النصر هو أن يعيش يزيد بعد قتل الإمام الحسين ﷺ بضعة أيّام، وتحت يديه جارية تسقيه الخمرة، أو إلىٰ جانبه مخنث يُحيل ليله إلىٰ غناء[2].

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ٢٦٥ ـ ٢٦٦، ٥: ٣١٣.

(٢) حيث يروىٰ أن معاوية سمع شخصاً يغنّي عند ابنه يزيد، فقال: من هذا؟ فقال: هذا سائب خاثر ـ أحد المغنين، وسمي كذلك لأنه غنىٰ صوتاً ثقيلاً. فقال من سمعه هذا غناء خاثر، انظر: تاريخ مدينة دمشق ٢٠: ١٢٢، الأعلام ٣: ٦٨ ـ فقال له: فاخثر له بنيّ من برّك وصلتك، فما رأيت في مجالسته بأساً. انظر في هذا وغيره: تاريخ الطبري ٤: ٢٤٩، الأغاني ٨: ٣٢٤، تاريخ مدينة دمشق ٢٠: ١٢٢، ٦٩: ٢٩٣.

ولكن، قد يسأل سائل فيقول: هل للعاطفة دور في هذا المكان أو لا؟ وهل أراد الأيمّة ﷺ من الشعراء أن يُحرّكوا العواطف ويُذكّروا بالفاجعة؟ لا شك أن واقعة الطف أحدثت تأزُّماً كبيراً في تأريخ الشيعة منذ وقوعها وحتّى الآن، فإذا مرّت هذه الأيّام العشرة أحدثت تأزّماً في كيان الفرد الذي ينتمي إلىٰ هذه الطائفة، وهذا يسمّى «الميراث التاريخي» أو «التأريخ الاجتماعي». وقد اهتمّت الدراسات الحديثة بهذا الجانب أيّما اهتمام، وحسبت له ألف حساب. ولذلك تجد الأدب الشيعي حارّاً؛ لأنه تربّى على النكبات والجمر:

والدهر لا يُنشي الرجال صوارماً ... إلّا إذا احترقوا على جمراته

يقول أحد الشعراء:

أرقُّ من دمعةٍ شيعيّةٍ ... تبكي علي بن أبي طالبِ

ذلك لأنّ دمعتها رقيقة صادقة حارّة؛ لأنها تستشعر بحراةِ الألم الذي وقع على أهل البيت ﷺ. وعلى مرّ السنين والأيّام يتحوّل إلىٰ خزين متراكم لا بُدّ له من لون من ألوان التفريغ عن النفس.

كما أن الكثير من الناس يقولون: إن الإمام الحسين ﷺ عملاق مصنوع من طاقة هائلة، مبنيّ من الدم، فلماذا تصنعونه من دموع؟ كلا إنه يبقى مصنوعاً من دم، ويبقى عملاقاً، ولكن الدموع شيء قسري لا طاقة لنا على ردّه، ولذلك يقول جعفر بن عفّان: دخلت على الإمام الصادق ﷺ أول المحرّم، فرفع رأسه إليّ وقال: «بلغني أنك تقول الشعر وتجيده». قلت: نعم، قال: «أنشدني في جدّي الحسين ﷺ». فقلت: سيّدي إنّي أهابك. قال: «لا، أنشدني». فقلت:

امْرُر على جدث الحسيـ ـن وقل لأعظمه الزكيّةْ
يا أعظماً رضّتك قو م بالجياد الأعوجية
وإذا مررت بقبره فأطل به وقف المطيّةْ
وابكِ المطهر للمطهـ ـر والمطهّرة النقيّةْ

فرأيت الإمام أخذ ينشج ويهتزّ، ثم قال لي: «أنشدني»، فقلت:

يا مريمُ قومي اندُبي مولاكِ وعلى الحسين فأسعدي ببكاكِ

يقول: فقال الإمام عليه السلام: «هكذا أنشدني كما تنشدون بالرِّقَّة». وتعالى النحيب من وراء الستار[1].

ودخل الكميت على الإمام الصادق عليه السلام في مكة المكرّمة أيّام التشريق فقال: سيّدي، أُريد أن أُنشدك. قال الامام عليه السلام: «إنّها ليالٍ عظيمة». فقال: إنّها فيكم أهل البيت. قال: «هات». فوقف الكميت ينشد ميميّته العصماء:

مَـن لقلبٍ مُتيّمٍ مستهامِ غير ما صَبوةٍ ولا أحلامِ
أخلص الله لي هواي فما أغـ ـرقُ نزعاً ولا تطيش سهامي

يقول الكميت: فأنشدت إلى أن وصلت إلى قولي:

وقتيلٍ بالطفّ غودر منهم بين غوغاء أمّةٍ وطغامِ

يقول الكميت: فسمعت النشيج من وراء الستر، وخرجت من وراء الستار جارية تحمل على يديها طفلاً رضيعاً وضعته بين يدي الإمام عليه السلام، ويبدو أنها أرادت أن تُذكّر بمشهد من مشاهد الطف المتحرّكة فأخرجت

---

(١) انظر كامل الزيارات: ٢١١ / ٣٠١، مثير الأحزان: ٦٤، الغدير ٢: ٢٣٦، والأبيات الأُول للسيد الحميري.

هذا الرضيع، وما كاد الإمام يقع بصره عليه حتى انفجر بالبكاء، وأخذت دموعه تَكِفُ على كريمته(١).

أقول: سيدي كيف بك لو رأيت جدّك يوم رجع يحمل رضيعه وهو مذبوح من الوريد إلىٰ الوريد:

ولو تــــراه حـــاملاً طـفله رأيت بــدراً يــحمل الفــرقدا
مُـخضّباً مـن فـيض أوداجـه ألبسه سهم الردى مجسدا(٢)

ويقول دعبل بن علي الخزاعي: كنت أنشد عند الإمام الرضا عليه السلام:

تــجاوبنَ بـالإرنانِ والزفـرات نوائحُ عُـجمُ اللـفظِ والنطقاتِ

حتى وصلت إلىٰ قولي:

أفـاطم لو خـلت الحسين مـجدّلاً وقـد مـات ظـمآناً بشـطّ فـراتِ
إذن للـطمت الخـدّ فـاطم عـنده وأجريت دمـع العـين بـالوجناتِ

فبكى الإمام عليه السلام بكاء شديداً(٣).

* * *

يـابه مـا بـعيني دمـع واسـجيك بـــنفسي يــبو السـجّاد اداويك

---

(١) الغدير ٢: ١٨٦ ـ ١٨٧.

(٢) المجسد: الثوب الملاصق للجسد، يريد: أن السهم ألبسه ثوباً من دم. انظر المعجم الوسيط: ١٢٢ ـ جسد.

(٣) بحار الأنوار ٤٩: ٢٤٨.

﴿٤٠﴾

نهضة الإمام الحسين عليه السلام

أيـا كـربلا يـا هـدير الجـراح

وزهـــو الدم العـلوي الأبـــيِّ

وياصرح مـجد بـناه الحسين

وأبــدع فــي وصـفه المـعجبِ

ويـا عــبقاً فــي ثـرى العـلقميّ يشــــدُّ الأنــــوف إلى الأطـــيبِ

ســيبقى الحســين شــعاراً عـلى أصـــيلك والشــفق المــذهبِ[1]

المباحث العامة للموضوع

المبحث الأوّل : ملامح الخليفة الشرعي

من أبرز ملامح النهضة الحسينية (على صاحبها أتم الصلاة وأشرف السلام والتحيّة) أن الأقلام كلّما عاودتها وجدت فيها عطاءً ثرّاً ومـنبعاً جديداً، وهذا خلاف ما عليه الكثير من الموضوعات التي تتطرّق إليـها تلك الأقلام. ومعلوم أن كلّ كاتب عندما يلج موضوعاً ويكتب عنه، أو يتطرّق إلى مضامينه فإنه يستنفد فيه أغراضه كلها مـن أول وهـلة، فـلو

---

(١) ديوان المحاضر ٢ : ٢٥.

حاول أن يكتب فيه ثانيةً أو ثالثة فإنه سيأخذ باجترار المادّة السابقة نفسها؛ لأنه ليس هنالك من مادّة جديدة يستطيع أن ينهل منها. لكن واقعة الطفّ في حقيقتها عطاءٌ ثرٌّ؛ ما إن تعاوَدْها الأقلام حتى تجد فيها ذلك الينبوع المتدفّق المليء بالعطاء.

والسرّ في ذلك أن مضمون هذه النهضة المباركة لا يتعدّى تجسيد الأهداف الإسلاميّة، أي أنها ترمي إلى تجسيد هذه الأهداف ولا تتعداها إلى غيرها. والذي يهمّني في هذا البحث هو إثبات هذه الحقيقة دون أن أُعير التعليلات التي حاول بعض المؤرّخين أن يسم بها ثورة أبيّ الضيم أبي الشهداء عليه السلام، والتي ستمرّ علينا في بحوثنا القادمة إن شاء الله تعالى.

وبعض هذه التعليلات هي اجتهادات فرديّة تتعلق بهذه العشيرة أو تلك، وبعضها يتعلّق بجوانب أُخري. والتعليل الأساس الصحيح البعيد عن التعليلات الشخصيّة القائمة على أساس دوافع بعيدة كلّ البعد عن مبادئ الإسلام ـ وهذا التعليل هو التعليل الوحيد الذي يرتبط بالواقع والذي يعدّ التفسير الحقيقي لقيام هذه الحركة المباركة ـ هو التعليل الذي يوضّح ويبيّن حقيقة أن نهضة الإمام الحسين عليه السلام هي نهضة تستهدف تجسيد الإسلام وأحكامه.

المبحث الثاني: أسباب قيام الحسين عليه السلام بنهضته

وقد يسأل سائل فيقول: وهل تعرّضت أهداف الإسلام إلى شيء من التضييع، أو تعرّض لها بعض ليؤدّي بها إلى الانحراف حتى يحاول الحسين عليه السلام أن يصحّحها بثورته ونهضته؟

والجواب: أن هذا الأمر سيتّضح لنا من خلال هذه اللمحات التي

سأعرض لها إن شاء الله تعالى؛ كي أُوضّح هذا المشكل الذي التبس أمره على هذا المتسائل. إن الإسلام تعرّض إلى الكثير من محاولات الطمس والتضييع وإلى سحق أهدافه، وهذا هو الذي اضطر الإمام الحسين عليه السلام إلى النهوض بثورته المباركة.

المخالفة الصريحة للشريعة

يقول النبي صلى الله عليه وآله عن الله عزّ وجلّ: «إن الله يقول: ثلاثة أنا خصيمهم يوم القيامة، ومن كنت خصمه خصمته: رجل أُعطي بي ثم غدر، ورجل باع حرّاً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يوفّه أجره»[1]. فهذه الأُمور الثلاثة تبدو أنها أهداف رئيسة في الإسلام، بحيث إن الله تعالى يتبرّأ ممن خالفه فيها. وهذا أمر مهم جداً؛ لأنه يعبّر عن إرادة الله جل وعلا في هذه المسألة. وسنستعرض هذه الأهداف لنرى فيما إذا كانت قد تعرضت للضياع أو لا.

أولاً: قوله صلى الله عليه وآله: «رجل أُعطي بي فغدر»

ومعنى هذا أن بعض الناس يتلبس بعنوان من العناوين الدينية ثم يسخّر هذا العنوان الذي تلبس به لأغراضه، مع أن من يتلبّس بلباس الدين يجب عليه أن يكون صادقاً وفياً طاهراً فيكرم هذا العنوان ويحترمه. لكن الذي يلاحظ أن البعض ممن تلبس بهذا قد خالف سيرة الأنبياء والرسل عليهم السلام، واعتدى على أهداف الدين وجعل الدين وسيلة لإذلال غيره وخدمة الظالمين بدل أن يأخذه وسيلة لخلاف هذا. فتعامله هنا تعامل قذر وغير نظيف حيال الدين.

---

(١) عوالي اللآلي ٣: ٢٥٣ / ٣. مسند أحمد ٢: ٣٥٨. صحيح البخاري ٣: ٤١.

معنى الخلافة

والمفروض أن الإنسان خليفة الله تعالى في أرضه، وهذا يعني أن الخلافة امتداد للنبوة؛ لأن من يتربع على كرسي الخلافة فهو إنما يخلف النبي صلى الله عليه وآله في تطبيق أحكام الله تعالى، ويجسد المضامين عينها التي جسدها الرسول صلى الله عليه وآله وأمر باتباعها.

والخلافة عندنا أمر مقيد بمعنى أن الخليفة ليس له الحق في أن يشرع، بل إن مهمته هي أن يأخذ آيات الكتاب الحكيم أو السنة النبوية المطهرة ثم يستنبط منها الحكم الشرعي المناسب لكل موضوع وحادثة. وهذا يعني أنه لا يمكنه التدخل في البنية الاقتصادية للمجتمع الإسلامي؛ لأن أمر تحديدها والتصرف فيها منوط بالقرآن؛ فهو الذي يبين لنا حدودها وضوابطها.

فكل ما عند الخليفة وما له هو أن يطبق هذا المفهوم الإسلامي سواء كان على صعيد المجتمع أو على صعيد نظام الأُسرة، فلو جاء خليفة مثلاً وقال: أُريد أن أُبيح للرجل أن يتزوج بأكثر من أربع نساء فإنه يكون قد خرق الحكم الشرعي، ويجب حينئذٍ أن يخالفه المسلمون في ذلك مادام القرآن قد حرم ذلك وحدد العدد بأربع. وبالنتيجة أنه لا يجوز لأحدٍ مهما كان أن يشرّع قبالة هذا النص وأن يغيّر العدد؛ لأن هذا الوضع هو خلاف الدستور الإسلامي.

فالخليفة إذن هو مطبق للأحكام التي جاء بها النبي صلى الله عليه وآله، وعليه فلا يجوز له أن يخالف ما جاء به النبي صلى الله عليه وآله؛ لأنه خليفته في هذا الأمر. ولنأخذ يزيد بن معاوية كأُنموذج فنرى مدى التزامه بما قررنا آنفاً، إن الكثير من المؤرخين كانوا ومازالوا يعطون يزيد هذا مفهوم الخلافة

الإسلاميّة، بل يعطونه أكثر من هذا بأن يرتبوا له حكماً مفاده أن الخارج عليه خارج على الله تعالى وعاصٍ له؛ لأن يزيد يمثل منصباً دينياً. والمفروض أن هذا المنصب يستمدّ شرعيّته من النصوص الدينيّة، فلا يزيغ عنها صاحبه يميناً أو شمالاً، فيطبّق الدين وأحكامه كما كان الرسول صلى الله عليه وآله يطبّقها.

فإذا أخذ من يُدّعى له أنه الخليفة الشرعي حقّ غيره، وكان أخذه له بالله فقد غدر وأصبح مصداقاً للحديث الشريف.

وهذا الرجل حينما وصلت إليه الخلافة وعُبر عنه بأنه خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله خالف كل ما جاء عن الله تعالى، ونحن إذ نقول هذا لا ننطلق فيه من منطلق عدائنا للأمويين أبداً، بل إنما ننطلق فيه من حقائق تاريخية ثابتة لا يتطرق إليها الشك ولا يمكن أن توصف بالزيف. مع أن تأريخنا ليس فيه تقييم صحيح وواقعي لرجالاتنا، فنحن حينما نمر مثلاً بعمر بن عبد العزيز لا نذكره إلّا بالتقدير والإكبار لأن مواقفه معروفة، وكذلك حينما نمر بأبان بن سعيد فإننا نكبره ونجلّه، هذا مع كونهما أُمويين، وكذلك الحال مع غيرهما كأم حبيبة بنت أبي سفيان.

وهذا معناه أننا لا نعادي شخصاً ما؛ لمجرّد أنه ينتسب إلى البيت الأُموي أو العباسي بل إننا نعاديه بناءً على ضوابط معيّنة تحدّدها مواقفه وما يصدر منه من تصرفات إزاء الدين وحملته من أهل البيت عليهم السلام. وهذا إنما استقيناه من القرآن الكريم الذي وضع لنا مقاييس واضحة نقيّم بها الناس، وعلى ضوئها نمنح هذا تقديراً وذاك ازدراء[1].

---

(١) وقد ورد في الأثر عن أهل الحق والحقيقة: اعرف الرجال بالحق ولا تعرف الحق بالرجال.

ولنرجع إلى يزيد الذي حينما وصل إليه الأمر واستقل به فإنه لم يحترم هذا المنصب الذي شغله فأخذ بالله حق غيره، وقتل وظلم وفعل المنكرات[١]، مع أن وظيفة الخليفة هي أن يحكم بين الناس بالعدل ويرجع إلى الناس حقوقهم ويعالج مشاكل الأمّة. ومن هذه المواقف ما يروى من أنه حينما كان وليّاً للعهد، ذهب إلى مشارف الروم يلهو، فسمع أن جيش أبيه قد أنهكته الحمّى والطاعون فلم يأبه له، وانشغل بالخمر والغناء مع ما كانت عليه أوضاع الجيش والمسلمين آنذاك من حرج وحاجة إلى الكثير من الاهتمام والرعاية.

وقد كان هذا سنة (٤٩) هجريّة؛ حيث إنه كان قد خرج إلى القسطنطينية التي يسميها هو في شعره الفرقدونة، وكانت جيوش المسلمين تقاتل في اسطنبول، وكان أن أصاب جيش المسلمين طاعون وحمّى فتكا به، فأرسل إليه أبوه ـ باعتباره ولي العهد ـ: أن توجهْ إلى

(١) كشرب الخمر جهاراً والتغني بذلك، وتربية الكلاب والفهود والقرود، واتخاذ المغنّين ومصاحبة النصارىٰ والاستهتار بحياة الناس ومقدّراتهم وغير ذلك من المنكرات التي سيمرّ المحاضر ببعضها.

فهو القائل مثلاً:

أقول لصحب ضمّت الكأس شملهم ... وداعي صبابات الهوى يترنّمُ

خذوا بنصيب من نعيم ولّذة ... فكلٌ وإن طال المدى يتصرّمُ

جواهر المطالب (الدمشقي) ٢: ٣٠١. والقائل:

اسقني شربة تروّي فؤادي ... ثمّ قم واسقِ مثلها ابن زياد

موضع العدل والأمانة مني ... ولتنفيذ مغرمي ومرادي

تاريخ مدينة دمشق ٢٢: ١٤٣ ـ ١٤٤، النصائح الكافية: ٧٩.

ويروىٰ أن معاوية سمع شخصاً يغنّي عنده، فسأله عنه فقال: هذا سائب خاثر. فقال له: فاخثر له يا بنيّ من برّك وصلتك، فما رأيت في مجالسته بأساً. الأغاني ٨: ٣٢٤

الجيش لترفع من عزيمته ومعنويّاته. لكنه بقي مع جارية له في دير مَرَّان تغنّيه، حتى بعد أن وصل إليه خبر لجيش وما أصابه، فاندفع يشرب حتى ثمل، ثم أنشأ يقول:

ما إن أبالي بما لاقت جموعُهُمُ ... بالفرقدونة من حمّى ومن شومِ

إذا اتّكأت على الأنماط مرتفقاً ... بدير مُرّان عندي أمّ كلثومِ[1]

ثم بعد ذلك ألحّ عليه أبوه أن يلتحق بالجيش فالتحق.

فمثل هذا الرجل ما الذي يمكن أن تلمسه منه؟ وأي شعور بالمسؤولية يمكن أن يحمله وهو لا يبالي بما تلاقيه جموع المسلمين؟ لقد كان كل همه أن يشبع رغباته وأن يرضي نفسه ولذائذها في أحط شهواتها. فمثل هذا هل يمكن أن ينسحب عليه وصف ديني؟ بل هل يصح أصلاً وصفه بهذا الوصف؟ وهل من الإنصاف والمروءة أن نعطيه لقب خليفة ونضعه في مصاف الخلفاء الراشدين؟ إن هذا ليس من الإنصاف ولا من المروءة في شيء، وليس هذا المقياس بالذي يمكن أن يصححه هذا اللقب.

وهو إلى جانب هذا كان يصبح عليه الصباح في أيام خلافته فيذهب إلى قرد كان عنده أسماه أبا قيس، فيلاعبه تاركاً أمور المسلمين دون أن ينظر فيها ويعالجها. فهو بدلاً من أن يفعل هذا يعد عدته ويروّض قروده وكلابه على الصيد ثم يركب ويُركب قرده على أتان ويسابق بها خيول المسلمين. فهو من الصباح إلى المساء يقضي وقته ما بين القرود والفهود مخلفاً وراءه مشاكل بلد بأكمله وأُمة بحالها. إن من يرتكب مثل هذه

---

(١) معجم البلدان ٢: ٥٣٤، ٤: ١٨٨.

الأمور لا بد أن تعافه مرتبة الخلافة ويعافه الإنسان المحترم الوقور الذي يربأ بنفسه أن تنجر إلى مثل هذا.

إن حقوق المسلمين كانت مضيّعةً يميناً وشمالاً، وهو لا يعلم ولا يدري ماذا حصل أو ماذا سيحصل في بلاد الإسلام، وأين هذا ممن كان يمارس لوناً من الرقابة على نفسه أو على أمراء المسلمين كما كان يفعل أمير المؤمنين عليه السلام وغيره؟ ولقد كان عمر بن الخطاب يقول: إذا فقدت شاة بالعراق فإن الله تعالى سائلي عنها.

أما أمير المؤمنين عليه السلام فيضرب لنا مثلاً سامياً في هذا المجال، فيقول لعثمان ابن حنيف: «أأقنع من نفسي بأن يقال: أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش، فما خلقت ليشغلني أكل الطيّبات كالبهيمة المربوطة، همّها علفها، أو المرسلة شغلها تقمّمها، تكترش من أعلافها، وتلهو عمّا يراد بها؟»[1].

فهذه هي المسؤوليّة الحقيقيّة التي يجب أن يكون عليها الخليفة العادل، وهي مسؤوليّة الضمير ومسؤوليّة الدين. ثم إنه لا يخفى على أحد من هو الذي كان نديم يزيد، إنه الأخطل النصراني الشاعر الذي كان مولعاً بشرب الخمرة، وهو مع ذلك يسمى شاعر البلاط؛ لأنه كان يمدح الأمويين، وكانت صلاحياته الممنوحة له واسعةً فله حق التصرف في كل شيء؛ ولذا كان يعبث عبثاً واضحاً ومنقطع النظير في مقدرات المسلمين. وبعبارة أخرى كان إنساناً منحلاً في غاية السقوط ومع ذلك كان يقود زمام الخليفة بيده يميناً وشمالاً.

---

(١) نهج البلاغة / الكتاب: ٤٥.

هذا هو معنى قوله صلى الله عليه وآله: «أعطي بي فغدر»، فهذا الخليفة بدل أن يكرم هذه الوظيفة غدر بمن أعطاه إياها مع أنه ينبغي عليه أن يقف حيث يوقفه الشرع ويتحرك حيث يحركه القرآن، لكنه كان بمعزلٍ عن هذا بأجمعه؛ ولذا فإن الآلوسي المفسر الشهير حينما يمر بيزيد بن معاوية يشبعه لعناً وينهال عليه به بشكل فظيع حتى بلغ به الأمر أن قال:

يزيد على لعنٍ عريض جنابه ... فأغدو به من لعنه ألعن اللعنا

وينتهي الأمر إلى هذا اللون من الاختيار، وهو اختيار غير نظيف في تاريخ المسلمين، فأن يوضع شخص في مصاف خلفاء المسلمين ويأخذ بالله حق هذا ويعطيه غيره بغير حق لهو حقيق بأن يكون في أدنى طبقة من المجتمع. ذلك أنه يأخذ معالم الدين ويحرفها ويضعها في غير موضعها، ولم يكن بمستوى حسن ظن المجتمع به، بل إنه يمارس ما يجعله ضمن دائرة عكس ظنهم به، وبالتالي يصبح منبوذاً منهم. وينتهي به الأمر إلى هذا اللون من العبث بالمقدسات، وهي كثيرة منها وقعة الطف ووقعة الحرة[1] وهدم الكعبة[2] والتنكيل بأهل البيت عليهم السلام إلى آخره مما يعجز القلم عن تسطيره.

ثانياً: قوله صلى الله عليه وآله: «رجل باع حراً فأكل ثمنه»

فمن الطبيعي أن أي إنسان لا يولد عبداً، ولا يحق للمجتمع أن يحكم

---

(١) انظر: الأخبار الطوال: ٢٦٧، تاريخ الطبري ٨: ١٨٧.

(٢) سنن ابن ماجة ١: ٦٢٣ / ١٩٣٦، الأخبار الطوال: ٣١٤، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٦٦، تاريخ الطبري ٥: ٣٠، تهذيب الكمال ٦: ٥٤٨ / ١٣٧٦، تهذيب التهذيب ٢: ١٨٤، ١٨٧ / ٣٨٨، ١٠: ١٤١ / ٢٩٧، الكامل في التاريخ ٢: ١٣٥ / ٣، البداية والنهاية ٨: ٣٦٢، سبل الهدى والرشاد (الشامي) ٦: ٢١٤.

عليه بالعبودية؛ إذ لا توجد عبودية في نظر الإسلام بالولادة. والإسلام عندما جاء وضع قوانين للرق وشرع نظماً للحد من مسألة العبودية، وهو إنما جاء والرق موجود تتعامل به الشعوب والأمم كافة، ولم يكن هو الذي أوجد الرق. ومنهاجه الذي وضعه لمعالجة هذه المسألة منهاج تدريجي، وإلّا فإن الإسلام لم يكن هو التشريع الوحيد الذي جوز هذا الأمر.

مصادر الرق

إن المصدر الأساس للرق هو الحروب التي كانت تخوضها الأُمم آنذاك، ولذا فإن كل من يتناسل من أبناء الأُسرى يسمون عبيداً. وحينما يرجع الباحث إلى التأريخ الأُوروبي فإنه سيجد أن العبيد هم الذين يديرون المنشآت الاقتصادية؛ من مصانع ومزارع ومطاحن. فنظام الإجارة لم يكن معروفاً آنذاك، وهذا النظام هو الذي يعبر عنه ماركس بأنه نظام عبودية، والحال أنه عكس ذلك؛ إذ ليس فيه أي عبودية بل إنه عبارة عن وضع ثمن قبالة عمل ما. على أية حال فإن الذي كان يدير الحياة في المجتمعات والشعوب هو الرق؛ ولذا فإن الإسلام حاول علاجه تدريجياً؛ إذ أن من الصعب بمكان اجتثاث هذه الظاهرة من جذورها دفعة واحدة.

وما يمكن أن يذكر في المقام أن الإنسان لا يمكن أن يتحول من حر إلى عبد مهما كانت المسببات والظروف؛ لأن هذا خلاف التكريم الذي نص عليه الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ

وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾(١).

فكرامة الإنسان فوق كل شيء وكل اعتبار، وقد صور الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله هذا الأمر بأدق تصوير حينما صدّر الناس في حجة الوداع؛ إذ صعد المنبر وخطبهم قائلاً: «يا أيها الناس، أي يوم هذا؟». قالوا: أعظم الأيام. ثم قال: «يا أيها الناس، فأي شهر هذا؟». قالوا: أعظم الشهور. قال: «أيها الناس، أي بلد هذا؟». قالوا: أعظم البلدان. ثم قال: «وأي بيت هذا؟». قالوا: أعظم البيوت. قال: «إن حرمة المؤمن أعظم عند الله من بيتكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا»(٢).

ولهذا تلاحظ أن مسألة البيعة كانت تأخذ بعداً خاصاً عند المسلمين، فقد كانوا يعتقدون بأنهم حينما يبايعون الخليفة فإنهم إنما يبايعونه على أساس أنه أخ في الله تعالى وأنه خليفة وأنهم مواطنون. وهل يمكن أن يقال: إنه قامت خلافة شرعية في التأريخ على أساس الرق والعبودية؟ والحال أن الذي حصل أيام يزيد عندما انتهت إليه الخلافة هو هذا. والذي حدث في واقعة الحرّة أنهم جلبوا لمسرف بن عقبة الناسَ حتى يجدّدوا البيعة ليزيد، فقال لهم: تبايعون على أساس أنكم عبيد أقنانٌ

---

(١) الإسراء: ٧٠.

(٢) الخصال: ٤٨٧، عوالي اللآلي ١: ١٦١ / ١٥١، بحار الأنوار ٢١: ٣٨١، مجمع الزوائد ٣: ٢٠، صحيح ابن خزيمة ٤: ٢٩٩، المنتقى من السنن المسندة (ابن الجارود النيسابوري): ٢١٢. وفي الجميع بتفاوت: «يا أيها الناس، أي يوم هذا؟». قالوا: يوم حرام. ثم قال: «يا أيها الناس، فأي شهر هذا؟». قالوا: شهر حرام. قال: «أيها الناس، أي بلد هذا؟». قالوا: بلد حرام. قال: «فإن الله عزّ وجل حرّم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقونه».

وقريب منه عن أبي عبد الله عليه السلام. انظر: الاختصاص: ٣٢٥، بحار الأنوار ٤٧: ٩٠.

ليزيد[١]. ومعلوم أن العبد القنّ لا يملك شيئاً إطلاقاً، فدمه وماله وكلّ ما يملك تحت تصرف سيّده، وكذلك يريد هؤلاء أن يكون الناس لهم. فكيف تلتقي هذه المبادئ مع القيم الإسلاميّة؟

وهذا التأريخ بصورة عامة ـ وليس تأريخ المسلمين فقط ـ حينما تستنطقه تجده لا يذكر أن هناك بيعة في الحقّ قامت على أساس أن يبايع الناس السلطانَ على أنهم عبيد له كما فعل ذلك يزيد بن معاوية. والمفروض أن عندنا مفاهيم مسبقة حددها لنا الإسلام حول هذا الموضوع نستقيها من سيرة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وصحابته البررة، وأبسط مثال على ذلك ما يحدثنا التأريخ عنه من أن الإمام علياً عليه السلام طلب يوماً من أحد غلمانه ماء، فلم يجبه، حتىٰ كرّر الطلب ثلاثاً. فقال له: «لمَ لم تجبني؟». قال: أمنت عقوبتك. فقال عليه السلام: «الحمد لله الذي جعل عبدي يأمن عقوبتي، اذهب فأنت حرّ لوجه الله».

فهذا اللون من الخلق الذي نراه هو الذي رسمه لنا الإسلام وقد سار عليه صحابة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ومن تابعهم. وكمثال آخر على ذلك يحدثنا التأريخ أن أبا ذر الغفاري رضي الله عنه ـ وهو تلميذ الإسلام النجيب ـ قد لحقه في إحدى المعارك غلام وفرس وشاة، فكان يكلف الغلام بشراء الكلأ لهما، وجاء في أحد الأيام فوجد ذلك الغلام قد أرسل الفرس على كلأ الشاة، فسأله أبو ذر رضي الله عنه قائلاً: لماذا فعلت ذلك؟ فقال: أردت أن أغيظك. فقال أبو ذر رضي الله عنه: والله لأجمعن لك مع الغيظ أجراً، اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى.

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ٥٤: ١٨١ ـ ١٨٢.

فنحن نعرف أن هذا هو تاريخ الإسلام، وهذه المثل هي التي حملها إلينا وقد أفرزتها لنا مدرسة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله. فالمسلم الحقيقي هو الذي يطلق عبداً ويعتقه لوجه الله تعالى لا أن يأتي إلى الحر فيستعبده ويطلب منه أن يبايعه على أنه قنّ له. وفعلاً لم يخرج مسرف بن عقبة من المدينة حتى أخذ البيعة من الناس ليزيد على هذا النحو.

حركة الزنج أثر طبيعي لهذه الحالة

ولو أن الباحث المنقب في التأريخ الإسلامي الذي صاغه الأُمويون وجلاوزتهم يطلع على هفوات هذا التأريخ فإنه سيجد نكبات سببتها هذه العقدة، ومن ذلك ما يحدثنا التأريخ عنه من مسألة حركة الزنج الذين ثاروا لأسباب هي غير تلك الأسباب التي يحدثنا عنها التاريخ، فالأسباب الحقيقية الكامنة وراء تلك الحركة هي أن الزنوج كانوا يشعرون بالنقص بسبب معاملة المجتمع والسلطة لهم، فأرادوا أن يستعيدوا آدميتهم من الناس الذين سلبوهم إحساسهم هذا وعاملوهم كأنهم متاع حقير وليس كبشر خلقهم الله تعالى وهم مثلهم سواء.

فهؤلاء كانوا لا يعترفون بعواطف الرقيق ولا بمشاعرهم، بل لا يعيرونهم أي اهتمام لمجرد أن ألوانهم سود، كما يحدث اليوم مع الكثير من الشعوب السوداء حيث يمنعون من الدخول إلى مدارس البيض ومطاعمهم والاشتراك معهم في أعمالهم.

وهذا ليس من ديدن الإسلام ولا من خلقه الذي ربى المسلمين عليه، نظر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله إلى جويبر ذات يوم برحمة منه له ورقّة عليه وقال له: «يا جويبر لو تزوّجت امرأة فعففت بها فرجك وأعانتك على دنياك

وآخرتك». فقال له جويبر: يا رسول الله بأبي أنت وأمّي، من يرغب فيّ؟ فوالله ما من حسب ولا نسب ولا مال ولا جمال، فأيّة امرأة ترغب فيّ؟ فقال له رسول الله ﷺ: «يا جويبر، إن الله قد وضع بالإسلام من كان في الجاهلية شريفاً، وشرّف بالإسلام من كان في الجاهليّة وضيعاً، وأعزّ بالإسلام من كان في الجاهليّة ذليلاً».

إلى أن قال له: «فالناس اليوم كلّهم أبيضهم وأسودهم، وقرشيّهم وعربيّهم وعجميّهم من آدم، وإن آدم عليه السلام خلقه الله من طين، وإن أحب الناس إلى الله عزّ وجل يوم القيامة أطوعهم له وأتقاهم. وما أعلم يا جويبر لأحد من المسلمين عليك اليوم فضلاً إلّا لمن كان أتقى لله منك وأطوع».

ثم قال له: «انطلق يا جويبر إلى زياد بن لبيد فإنه من أشرف بني بياضة حسباً فيهم، فقل له: إني رسول رسول الله إليك، وهو يقول لك: زوج جويبراً من ابنتك الدلفاء».

قال: فانطلق جويبر برسالة رسول الله ﷺ فقال له زياد: أرسول الله أرسلك إلي بهذا يا جويبر؟ فقال له: نعم، ما كنت لأكذب على رسول الله ﷺ. فقال له زياد: إنا لا نزوّج فتياتنا إلّا أكفاءنا من الأنصار، فانصرف يا جويبر حتى ألقى رسول الله ﷺ، فأُخبره بعذري. فانصرف جويبر ثم بعث زياد رسولاً فلحق به فقال له زياد: يا جويبر مرحبا بك، اطمئن حتى أعود إليك. ثم انطلق زياد إلى رسول الله ﷺ، فقال له: بأبي أنت وأُمّي إن جويبراً أتاني برسالتك، فرأيت لقاءك، ونحن لا نزوّج إلّا أكفاءنا من الأنصار. فقال له رسول الله ﷺ: «يا زياد، جويبر مؤمن، والمؤمن كفء للمؤمنة، والمسلم كفء للمسلمة، فزوّجه يا زياد ولا ترغب عنه».

فرجع زياد إلى منزله، ودخل على ابنته فقال لها ما سمعه من رسول

الله ﷺ، فقالت له: إنك إن عصيت رسول الله ﷺ كفرت. فزوّج جويبراً من ابنته[١].

فهو ﷺ يبيّن لهم أن مفهوم التفريق بين الحرّ والعبد قد ألغاه الإسلام؛ لأنه لا يوجد إنسان ولد عبداً. فهذه الحالة فرضت على المجتمع فرضاً بسبب الظروف التي كان يعيشها ولما جاء الإسلام أراد أن يسلخه منها. جاء جماعة لرسول الله ﷺ فقالوا: يارسول اللّه، نزوّج بناتنا من غلماننا؟ قال: «بلى». فقالوا: سمعاً وطاعة.

وفي هذا الوقت نفسه يزوّج النبي ﷺ عبداً مملوكاً من ابنة عمّته زينب. فالمسألة إذن لم يعالجها الإسلام على صعيد اللفظ، إنه بل عالجها على صعيد العمل، مبتدئاً بالنبي ﷺ الذي قام بتطبيقها على نفسه، فهل يصحّ بعد أن أينعت ثمار هذا الزرع الذي زرعه الرسول ﷺ، وبعد أن آتى أُكله للإنسانيّة كلّها أن يأتي شخص منحرف ليرجع الناس وعجلة الإسلام إلى الوراء بدلاً من أن يكرمهم ويحترم آدميّتهم، ويطبّق أحكام الإسلام[٢]؟

---

(١) بحار الأنوار ٢٢: ١١٨، أُسد الغابة ٢٠٢ / ١٩٦٥.

(٢) جلس النبي ﷺ يوماً على منبره وهو واجم، فسأله أصحابه عمّا به، قال ﷺ: «رأيت بني أُمية ينزون على منبري نزو القردة؛ يردّون الناس عن الدين القهقرى». جامع البيان: المجلّد ٩ ج ١٥: ١٤١، الجامع لأحكام القرآن ١٠: ٢٨٢، سير أعلام النبلاء: ٨: ٢١٠. فهبط عليه جبرئيل عليه السلام يحمل سورة القدر، وأخبره أن ما رآه حقّ، وأن مدّة ملك بني أُمية ألف شهر.

وروى الفخر الرازي وغيره عن ابن عباس قوله: إن الشجرة الملعونة في القرآن هم بنو أُمية. وروى السيوطي عن عائشة أنها قالت لمروان بن الحكم: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأبيك وجدك: «إنّكم الشجرة الملعونة في القرآن». انظر: التفسير الكبير ٢٠: ١٨٩، تفسير غرائب القرآن ٤: ٣٦٢، الدر المنثور ٤: ٣٤٦.

وهكذا انتهى الأمر إلى أن تؤخذ البيعة ليزيد من الناس على أنهم عبيد أقنان، والوحيد الذي لم يبايع هذه البيعة هو الإمام السجاد عليه السلام؛ فقد بايع على أنه أخو الخليفة فقط وقبلت بيعته على هذا الأساس، ثم جاء من بعده محمد ابن الحسن عليه السلام، فقالوا: لا يبايع إلّا كما بايع ابن عمه.

ثالثاً: قوله صلى الله عليه وآله: «ورجل استأجر أجيراً فبخسه حقه»

قد ذكرت أنه عندما جاء الإسلام فإنه ألغى نظام العبوديّة، وشرّع نظام الإجارة، فقال على لسان الرسول صلى الله عليه وآله: «أعطِ الأجير أجره قبل أن يجفّ عرقه»[1].

نظرية الأجور عند الاشتراكيين والرأسماليين

وألفت نظرك هنا إلى أن نظرية الأجور المعاصرة تقول: «من كل حسب جهده ولكل حسب عمله»، وبعض المعسكرات الشرقيّة تعتبر هذا الشعار مؤقتاً حيث إنها تريد أن تصل إلى شعار «من كل حسب جهده ولكل حسب حاجته». وهذا طبعاً لم يتحقق حتى الآن ولا يمكن تحقّقه؛ لأنه حينما يقرر أنه يعطيه حسب عمله وعمله بالكاد يعيل ثلاثة نفر أو أربعة وهو يعيل أسرة من عشرة أفراد مثلاً فكيف يتمكن من أن يسد هذه الحاجة لبقية أفراد عائلته؟ فمن الطبيعي جداً أن تتعرض إنسانية هؤلاء إلى الهدر وكذلك كرامتهم.

وفي مقابل هذا هناك النظرية الرأسمالية ـ نظرية الكفاف ـ وهي أن يعطى الإنسان مقدار ما يكفيه، فالعامل يعطى أجور الكفاف، وهي الأجور التي تكفي للأكل والشرب والمسكن؛ بدعوى أن هذا الزائد إن

---

(١) الكافي ٥: ٢٨٩ / ٢، سنن ابن ماجة ٢: ٨١٣ / ٢٤٤٣.

أعطوه إيّاه كان له مردودان سلبيّان؛ فهو إن كان ضمن ثمن السلعة فإن ثمن السلعة سيرتفع وعند ذاك لا يمكن المنافسة في الأسواق بسلعة مرتفعة الثمن. ومن ناحية أُخرىٰ أنه يمكن أن يرفّه العامل بهذه الزيادة ـ أي فيما لو أُعطي فوق الكفاف ـ ومعنى هذا زيادة في التوالد عند العاملين، وارتفاع عدد السكان، وبالتالي سوف يزيد عدد العمال ويقلّ الأجر. وهذه كلها دعاوى فارغة وخالية من الإنسانية.

ويتلخّص من هذا أن نظريات الأُجور المعاصرة هي نظريات جائرة لا تنظر إلى إنسانية الإنسان.

نظرية الأُجور في الإسلام

أما في الإسلام فالقانون المعتمد والسائد هو «من كل حسب طاقته ولكل حسب كفايته». ومعنى هذا أنه يؤخذ منه عمله فيعطى بمقداره، فإن لم يكفِه ولم يسدَّ حاجته أُعطي من صندوق الضمان أو صندوق الزكاة أو من الخمس أو غيرها من الموارد المالية المعروفة في الإسلام ما يكمّل حاجته ويتمّمها.

فعرق العامل محترم كثيراً في نظر الإسلام، وهو عرق يجب أن يصان ويحفظ؛ لأنه هو الذي يبني الحياة ويصنعها. فإذا كان العامل صانع الحياة فلا بدّ إذن من أن يحترم وأن يعطى ما يسد حاجته وحاجة أُسرته، وأن تعطى له أُجرته قبل أن يجف عرقه[1].

---

(١) وقد حثّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله على إيفاء الأجير أجره، فقال: «من ظلم أجيراً أجره أحبط اللّه عمله وحرّم عليه الجنة». الأمالي (الصدوق): ٥١٣.

العمالة في المنظار الأموي

وإذا كان الأمر كذلك فلننظر إليه على ضوء تصرفات الأمويّين وعمّالهم وأُمرائهم، فحينما جاؤوا إلى الحكم، صعد واليهم سعيد بن العاص ـ وكان أمير الكوفة آنذاك ـ وقال: أيها الناس السواد بستان لقريش ـ والسواد أرض العراق لكثرة المزارع فيه[1] ـ فالذي يريد أن يعمل عندنا فليعمل، والذي لا يريد ذلك فليتدبّر أمره من مكان آخر[2].

وهذا تحدٍّ صارخ لأحكام الشرع الحنيف، ذلك أن المسلمين سُلبوا ملكيّة أرضهم وسلبوا قوتهم، وامتدّت أيديهم إلى رغيف صاحب الكدّ واقتطعته منه. فهذا حينما يقول لهم ذلك فهو إنما يتصوّر أن الدنيا ملك لهم ولذا فإنه قال: ومن أبى فليشرب من البحر.

ونظريتهم هذه معروفة، ففي زمن خلافة الوليد حدث أمر بينه وبين عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ترجمان القرآن وأمين بيت المال آنذاك، ذلك أن الوليد بعث إلى عبد الله بن مسعود بحوالة قيمتها ستمئة ألف دينار لأُحد ندمائه وهو أبو زبيد، وكان مسيحياً يعاقر الخمرة معه، فما كان من عبد الله إلّا أن حمل المفاتيح وجاء إلى الوليد وأعطاه إياها قائلاً له: إنما أنا خازن بيت مال المسلمين، أمّا إذا أردتني أن أُصبح خازناً عندك فأنا أُفضّل أن أستقيل ولا أُعطي أموال المسلمين إلى أمثال هذا.

وأُلفت نظرك هنا إلى أن عبد الله بن مسعود أراد أن يقول له: إنما أنت شبح يمثل المسلمين ولذلك احترمناك، أمّا إذا أصبحت تمثل نفسك فلا قيمة لك عندنا. وتعرض إثر هذه الحادثة إلى الضرب المبرح حتى

---

(١) لسان العرب ١٢: ٢١ ـ دهم. ومنه قوله تعالى: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ أي مسودّتان لالتفاف أوراقهما.

(٢) تاريخ ابن خلدون ج٢، ق٢: ١٤٠.

أحدثوا به الفتق وأهانوه وأهدروا كرامته. وهكذا انتهى الأمر إلى أن يصبح بيت المال ملكاً للنصارى وسواد العراق ملكاً للأمويين وندمائهم. فكان الأمويون يظنّون أن الناس عبيد لهم وأن الدنيا ملك لهم وأن عرق الناس لا قيمة له يعبثون به كما يريدون أو يشاؤون، ولعل هذه الصورة الشعرية التي يقدمها أحد شعراء العصر الأموي خير دليل يعكس لنا الحالة التي وصلت إليها الأمور آنذاك:

فهبها أمّة هلكت ضياعاً ... يزيدُ أميرُها وأبو يزيدِ

معاويَ إننا بشرٌ فأسجِحْ ... فلسنا بالجبالِ ولا الحديدِ

أكلتم أرضَنا فجردتموها ... فهل من قائمٍ أو من حصيدِ

ذروا جورَ الإمارةِ واستقيموا ... وتأميراً على الناسِ العبيدِ

وأعطونا السويّة لا تزرْكم ... جنودٌ مردفاتٌ بالجنودِ[(١)]

لقد وصلت الأمور إلى هذا الحد ونحت هذا المنحى الظالم، فهل بعد ذلك يحق لأحد أن يلوم الحسين عليه السلام على خروجه وقيامه بهذه النهضة المباركة، أو يسائله: لماذا ثرت على يزيد؟ وبالمناسبة أود أن أذكر هنا أن أحداً ممن يدعي لنفسه حق هذه المساءلة وهو ممن قاءهم الدهر ولفظتهم الدنيا راح يحاكم الحسين عليه السلام على نهضته، وكأنه لم يقرأ ما كتبه الحسين عليه السلام في وصيّته لأخيه محمد بن الحنفية حيث قال: «إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا ظالماً ولا مفسداً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدّي صلى الله عليه وآله، وأن أسير فيهم بسيرة الحقّ؛ فمن قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بقبول

---

(١) الأبيات لعقيبة الأسدي. تاريخ مدينة دمشق ٢٦: ٤٦، خزانة الأدب ٢: ٢٢٥.

الحقّ، ومن ردّ عليّ هذا أصبر حتى يحكم الله وهو أحكم الحاكمين»[(١)].

وبقيت هذه الوصية عند محمد بن الحنفية، ومرت الليالي والأيام ولم يمنعه من الخروج مع أبي عبد الله عليه السلام إلّا مرضه الذي اشتدّ عليه؛ فقد كان يغمى عليه ساعة ويستفيق أخرى. وبعد أن انتهت واقعة الطف وجاء النعي بقتل الحسين عليه السلام وعترته وسبي عائلته فإن أحداً لم يوصل هذه الأخبار إلى محمد رفقاً به وخشية على حياته ورعاية له. لكن لما عادت السبايا يقدمهم بشر بن حذلم وهو ينادي:

يا أهل يثربَ لا مقامَ لكم بها	قُتل الحسينُ فأدمعي مدرارُ
الجسمُ منه بكربلاءَ مضرّجٌ	والرأسُ منه على القناةِ يدارُ[(٢)]

سمع محمد بن الحنفية عليه السلام هذا النداء فسأل أحد غلمانه: ما لي أرى المدينة تضجّ بأهلها؟ فقال له: سيدي، يقال: إن أخاك الحسين عليه السلام قد رجع والناس يعزونه بابن عمه مسلم بن عقيل. فقال: إذن ما لابن والدي لا يأتي إلي؟ قال: لكثرة الناس عنده. قال: ربما هو ينتظر قدومي، أسرجوا لي جوادي.

فأسرجوا له جواده ونشروا على رأسه حلة للظل، فلما أراد أن يقوم سقط، وقام ثانية فسقط، وكذلك في الثالثة فقال: والله إن فيها لمصائب آل يعقوب. ثم أقبل حتى توسط القوم ولمح مجموعة من الأطفال أقبلوا يهرولون أمام السبايا وهم ينادون: واحسيناه. فنظر محمد إلى ذلك الجمع وقال: لقد فعلتها والله بنو أمية، وسقط إلى الأرض مغميّ عليه،

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩.

(٢) مقتل الإمام الحسين عليه السلام (أبو مخنف): ٢٣٩، اللهوف في قتلى الطفوف: ١١٥.

فهرول الرسول إلى الإمام السجاد عليه السلام وقال له: بادر إلى عمك قبل أن يموت. أقبل إليه السجاد عليه السلام وأخذ رأسه ووضعه في حجره وراح ينضحه بدموع عينيه، ففتح محمد عينيه وقال: من؟ علي هذا؟ قال عليه السلام: «بلى يا عم». قال: بني أين أبوك؟ قال: «ياعم لقد أتيتك يتيماً».

وهنا أقبلت السبايا إليه وهن يتصايحن:

مدينةَ جدِّنا لا تقبلينا ... فبالحسراتِ والأحزانِ جينا

خرجنا منك بالأهلين جمعاً ... رجعنا لا رجالَ ولا بنينا[1]

* * *

اخوي من اطب عندك دار ... أرد عيني وأصد فكري

أخاف اتشوف ملعبنا ... الدرجنا بيه من صغري

تمرّ اطيوفك اعليّه ... مثل عذب الهوى تجري

* * *

بالأمس كانوا معي واليومَ قد رحلوا ... وخلّفوا في سويدا القلب نيرانا

نذر علي لئن عادوا وإن رجعوا ... لأملأن طريقَ الطفِّ ريحانا[2]

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ١٩٨، ينابيع المودّة ٣: ٩٤.

(٢) شجرة طوبىٰ ١: ٩١.



﴿٤١﴾

الوظيفة والانتخاب الطبيعي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلاَغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾[١].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: أهليّة الرسول الأكرم ﷺ لحمل الرسالة

يستفاد من الجوّ العامّ للآية الكريمة أن كلّ وظيفة من الوظائف التي يقوم بها الإنسان تتميّز بأن لها انتخاباً طبيعيّاً ، فمثلاً إذا أردنا تأهيل شخص لطلب العلم فيجب أن يكون ذا قابلية عالية على طلبه ، وأن تكون لديه رغبة شديدة فيه ، وأن يعيش ضمن أجواء علمية حتّىٰ ينجح في مهمّته هذه. وإذا أردنا تأهيل شخص للعمل التجاري فإنه يجب أن يعيش في أجواء تجاريّة ، ويجب أن يكون عنده رغبة في هذا العمل ، ومؤهّلات ذهنية وخبرة. وإذا أردنا تأهيل شخص للقتال فيجب أن يكون

---

(١) الأحقاف: ٣٥.

لديه عزيمة وإرادة وعضلات قوية، وأن تكون لديه نفس قوية وشجاعة.

وليس من الممكن أن يتحلىٰ كلّ شخص بهذا المعنىٰ، فمثلاً عندما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله لقتال اليهود جمع النساء في الأُطم (المرتفعات)، وخرج بالمسلمين للقتال، فجاء يهودي إلىٰ الأُطم ليتجسّس ولينفذ إلىٰ عوائل المسلمين؛ حتّىٰ يتمكن اليهود من الوصول إليهم.

وكانت صفيّة بنت عبد المطلب (رضي الله عنها) تترصّد، فالتفتت إلىٰ حسان بن ثابت ـ وهو جالس مع النساء ـ فقالت له: هل رأيت هذا اليهودي؟ قال: بلىٰ. فقالت له: إنه يوشك أن يدلّ علىٰ عوراتنا ويعرف نقطة ضعفنا، فخذ هذا السيف واذهب إليه واضرب عنقه.

فقال لها: جنبيني رؤية الدم. فاشتملت إزارها ونزلت إليه وقتلته، وصعدت فقالت له: ياحسان، إن هذا عليه بزّة كاملة (درع وسيف ودرقة ومغفر)، فانزل لأخذها حتّىٰ يستفيد منها أحد المقاتلين المسلمين.

فقال: لا أستطيع أن أنظر إلىٰ الجراح.

وهذا صادق مع نفسه، ولا يعاب إلّا من هذا الجانب، لكن هناك غيره ممن لا يصدق مع نفسه؛ فيظهرها بمظهر الشجاع، ويُلبس جبنَه رداء الجرأة والإقدام، مع أنه خلاف ذلك، فهذا يعاب من جهتين اثنتين.

فالإنسان إذا لم يكن له تأهيل فسوف لن يستفيد من الأسباب والآليات، يقول الشاعر العربي:

فما تصنع بالسيف إذا لم تك قتالا
فجرد حلية السيف وضعها لك خلخالا[1]

(١) البيت لأبي العتاهية في عبد الله بن معن بن زائدة. قال المبرد: وقد يسير البيت في واحد،

فالآية الكريمة تثبت أهليّة النبي الأعظم(صلى الله عليه وآله) للصراع، وتقول له: أنت ستقدم على مهمّة عظيمة، وعليك أن تكون بمستوى المهمّة، وإنك لا ينقصك التأهيل الكافي لدخول المعركة وخوض هذه التجربة. لكن يجب أن تعلم أن سبيلك وعر، وطريقك متاعب كلّه؛ فعليك أن تصبر وتتحمّل، وأن تخوض هذه المسألة إلى النهاية حتّى يتحقّق الفتح.

المبحث الثاني: أثر السلوك الجمعي في تحمّل أعباء الرسالة

ودليل هذه الأهليّة أن الآية الكريمة قد وضعته في خطّ الرسل؛ تقول الآية: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾، فالآية الكريمة وضعت النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله) في سياق السلوك الجمعي، فهي تقول له: اعطف نفسك على مسيرة الرسل الذين خلوا من قبلك؛ وذلك لأمور منها:

الأول: أنه يمدّ الفرد بطاقة المجموع

فالسلوك الجمعي يعطي الإنسان من الطاقة والقوة ما يستطيع أن يباري به ما يعجز عنه غيره ممن لم يؤتَ ذلك. وكمثال على ذلك إن الخطيب إذا رقى المنبر ليخطب، وكان عدد الحضور من الجمهور قليلاً، فإنه سوف لن تكون له عزيمة وقوّة على إلقاء خطابه، أما إذا احتشدت جماهير غفيرة تحت منبره فعندها سيجد في نفسه قوة دفع على القيام بذلك لم يكن يعهدها من نفسه من ذي قبل لولا هذه الجماهير. وهكذا فإنه سيستمدّ قوّته من هذا الجمع.

ويُرى أثره عليه أبداً، كقول أبي العتاهية في عبد الله بن معن بن زائدة... فكان عبد الله بن معن إذا تقلّد السيف ورأى من يرمقه بان أثره (البيت) عليه، فظهر الخجل منه. شرح نهج البلاغة ٥: ٢٧.

وكذلك الحال مع أُولئك الذين يرفعون شعارات قويّة ويتحرّكون عبرها فإن المتفرّجين يهتزّون معهم لشعاراتهم.

وهذه الظاهرة درسها علماء الاجتماع واستفادوا منها في تطبيقاتهم. ووجدوا أن السلوك الجمعي يعطي للإنسان شعوراً بأنه على أحد طرق الصواب التي سلكها الآخرون غيره، وانتهوا إلى نتائج طيّبة.

وهكذا هو الحال مع نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله، فكأن لسان الآية الكريمة يقول له صلى الله عليه وآله: كما أن الأنبياء تحمّلوا في مسيراتهم الإصلاحية ما تحمّلوا وهم يختطّون مساراتهم وسط مسالك مشوكة، فكذلك أنت واحد منهم؛ فعليك أن تحمل الرسالة، وتقاتل كما قاتلوا وتجاهد كما جاهدوا. تقول الزيارة الشريفة: «أشهد أنك قد مضيت على مامضى عليه البدريون»[1].

فالمجموع ينبغي أن ينعكس عليك؛ لتشحذ إرادتك، وليكون لك إصرار وعزيمة.

الثاني: أن المجموع كله سيتحمّل النتائج والصعاب.

فالإنسان حينما تقع عليه الصعاب وحده فإنه غالباً سيضعف ويُهزم، أمّا إذا وقعت على الناس كلهم فإنها ستهون حينئذٍ، حيث إن المجموع بأكمله سيتحمّل النتائج سلباً أو إيجاباً، فهو حتماً له القدرة على ذلك، كما في المثل «إذا عمّت المصيبة هانت». فسنة الله تعالى في خلقه أن الإصلاح يريد من يتحمّل دونه المشقّة والآلام وألوان العذاب، وأن من يتبنّه ويرُم تحمّل عبئه يُتطلّبْ منه أن يهون عليه كلّ ذلك، وربّما استصعبه، فإذا عرف أن السابقين قد تعرّضوا لمثله هان كل ذلك عليه.

---

(١) كامل الزيارات: ٤٤١، تهذيب الأحكام ٦: ٦٦.

فالآية الكريمة تقرّر للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله أن عليه أن يسلك سبيل الأنبياء؛ لأن الدنيا دار كلّها اعوجاج وملؤها انحرافات، والناس ليسوا كلّهم ذوي استقامة، وهذا يتطلّب مسيرة إصلاح طويلة، ورحلة رسالية لتقويم تلك الانحرافات، وبغير هذا تتحوّل الدنيا إلىٰ غابة يأكل القوي فيها الضعيف. وقد وضع الله لنا وسائل نظرية وأُخرى تطبيقية لتحقيق هذا الهدف؛ فوسائل الضبط النظرية هي الشرائع، أمّا الوسائل التطبيقية فهي الأعمال التنفيذية التي تصلح المجتمع. وهذا أمر ضروري؛ إذ أن البعض لا يلتزم بالقانون، ولا يؤمن بالقيم والأخلاق، فهؤلاء لهم لون خاصّ بهم من المعاملة.

المبحث الثالث: المراد من ﴿أُوْلُو الْعَزْمِ﴾ في الآية

بعد تقرير هذا لنا أن نسأل: من هم ﴿أُوْلُو الْعَزْمِ﴾ الوارد ذكرهم في الآية الكريمة؟ هناك ثلاثة آراء عند المفسّرين في هذه المسألة:

الرأي الأول: أنهم جميع الأنبياء عليهم السلام

وهذا الرأي مبتنٍ على أن ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالىٰ: ﴿مِنَ الرُّسُلِ﴾ واردة لبيان الجنس. والعزم هو الإرادة والعزيمة والجهاد والقابلية علىٰ تعليم الناس. فكلّ نبي له العزيمة على فعل ذلك مهما كلّف الأمر. وهذا هو خطّ الأنبياء والمصلحين، ولكننا مع ذلك نجد من يغمض عينيه عن الدليل، ويقول: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[1]، ويؤسّس على هذا أن الجهاد تهلكة،

---

(١) البقرة: ١٩٥، وقد ورد في أكثر التفاسير والصحاح عن أسلم أبي عمران قال: كنا بالقسطنطينيّة وعلىٰ أهل مصر عقبة بن عامر، وعلىٰ أهل الشام فضالة بن عبيد، فخرج صف عظيم من الروم فصففنا لهم، فحمل رجل من المسلمين علىٰ صفّ الروم حتّىٰ دخل فيهم، فصاح الناس وقالوا: سبحان الله يلقي بيده إلىٰ التهلكة. فقال أبو أيّوب الأنصاريّ الصحابي:

وولوجه إلقاء للنفس فيها.

ونقول لهذا: إنه ليس كلّ جهاد تهلكة، فمعنى هذا التعميم أن نعطّل فريضة الجهاد التي لولاها لما وصلت دعوة من دعوات السماء إلى قلوب الناس. فلولا الجهاد هل كان بإمكان المسلمين أن يحصلوا على ربع الكرة الأرضية المعروفة والمأهولة آنذاك خلال عشرين سنة؟ إنهم إنما وصلوا لذلك بالجهاد: «الجنّة تحت ظلال الأسنة».

فالجهاد يتطلّب قوة، ولا بدّ من حمل السلاح والقتال. وهذه الآية ليست حاكمة على الآيات الأُخر أو مخصّصة لها، وإنما لها مجالها ولغيرها مجال آخر.

وعليه فإن ﴿أُوْلُو الْعَزْمِ﴾ على رأي بعض المفسرين كلّ الأنبياء؛ حيث إنه لا يمكن أن يوجد نبي لا يستطيع أن يتحمّل المصائب ويصبر عليها. وكدليل على هذا نبي الله زكريّا ونبي الله يحيى بن زكريا عليهما السلام، فقد تعرضا وأنبياء آخرون إلى القتل والوقوف بوجه دعواتهم، فلم يهنوا. فكل نبي إذن يحمل الإرادة والعزيمة.

الرأي الثاني: أنهم خمسة منهم

وهذا الرأي هو الذي عليه أغلب المفسرين، وهؤلاء الخمسة يعتبرون المقاتلين بالكلمة وبالفكرة وبالرأي. وهم النبي نوح عليه السلام، والنبي

يا أيّها الناس، إنكم تتأوّلون هذه الآية هذا التأويل، وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، إنا لمّا أعزّ اللهُ دينه وأظهر نبيّه وكثر ناصروه، قال بعضنا لبعض سرّاً دون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعزّ الإسلام وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها. فأنزل الله على نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم يردّ علينا ما قلنا: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، فكانت التهلكة إقامتنا في أموالنا وإصلاحها، وتركنا الجهاد والإنفاق في سبيل الله. الجامع لأحكام القرآن ٢: ٣٦١ ـ ٣٦٢، التفسير الكبير ٥: ١١٧.

إبراهيم عليه السلام، والنبي موسىٰ عليه السلام، والنبي عيسىٰ عليه السلام، ويختمهم نبيّنا الأكرم محمد صلى الله عليه وآله. فهؤلاء قاتلوا بالكلمة كما المقاتل بالسيف، وعليه فإن الاثنين يجمعهما السيف والكلمة؛ فالذي يقاتل بالكلمة يستطيع أن يوصل الفكرة الخيّرة إلىٰ نفوس الناس بالطريق السلمي، وهو أفضل الطرق إذا أدّىٰ إلىٰ النتيجة نفسها. وهذا ما يؤكّده القرآن للنبي صلى الله عليه وآله بقوله: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾[1].

التعسّف الفكري

وعليه فإذا كانت الكلمة مقاتلة وكانت هي السلاح، فهذا يعني صراع الآراء أو مواجهة الرأي بالرأي، لكن الحاصل ـ بالغ الأسف ـ أن هذه الظاهرة غير موجودة في تراثنا ولا في تاريخنا ولا في آرائنا؛ حيث إننا نفتقر إلى ظاهرة صراع الآراء.. الآراء التي تتصارع لتصل إلىٰ نتيجة، وهذا الصراع يحصل على الرغم من أن دليلنا واحد.

هل الغاية داخلة في المغيا؟

وكمثال على هذا قول القرآن الكريم: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾[2]، فالحرف ﴿إِلَى﴾ حرف غاية، لكن الغاية هل تدخل في المغيّا أم لا؟ فمثلاً حينما يقول القائل: مشيت إلىٰ أن دخلت إلىٰ المدينة، فهل معنى هذا أن قدمه وطئت أرض المدينة، أم أنها انتهت إلى الحدّ الفاصل بينها وبين غيرها ولم تجتزه، أي بقيت عند حدّها؟ هنا ينقسم الأُصوليون إلى رأيين:

---

(١) الأنفال: ٦١.

(٢) البقرة: ١٨٧.

الأول: أنها داخلة في المغيّا

أي أن القائل: «مشيت إلىٰ أن دخلت إلىٰ المدينة»، في مثالنا السابق لا يصحّ كلامه إلّا أن يكون قد وطئ أرض المدينة، فلا تكفي في صحّة قوله هذا محاذاته أرض المدينة.

الثاني: أنها غير داخلة في المغيّا

وهؤلاء يذهبون إلى أن القائل: «مشيت إلىٰ أن دخلت إلىٰ المدينة»، يكفي في صحّة قوله هذا محاذاته أرض المدينة ووقوفه عند حدودها.

وكلّ يتّبع دليله الخاصّ به. وفي الآية الآنفة ـ وهي قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ ـ يختلف العلماء حول وقت الليل بناء على اختلافهم في دخول الغاية في المغيّا وعدمه؛ فقسم منهم يذهب إلى أنه إذا غابت الشمس دخل وقت الليل؛ فينتهي وقت الصيام بغياب الشمس، ويذهب القسم الآخر إلى أنه يجب أن يحلّ الظلام كي ينتهي وقت الصيام ويجوز الإفطار، أي يجب أي يدخل الصوم (الغاية) في جزء من الليل (المغيّا).

أمّا أن يأتي فقيه ويقول: إن هؤلاء لا يفطرون إلّا بدخول الظلام، وهو مخالفة للقرآن، ثم يتفوّه بعبارات خشنة، فهذا ليس من أخلاق الفقيه مطلقاً. إن علينا أن نتّبع الأُسلوب الموضوعي والتحاور العلمي في مثل هذه الأُمور.

عدّة المتوفّى عنها زوجها

ومثال آخر قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً﴾[1]؛ فالمرأة التي يُتوفّىٰ زوجها وهي حامل

(١) البقرة: ٢٣٤.

ففي عدّتها رأيان:

الأول: أنها أقرب الأجلين

وهي إمّا عدّة الوفاة أو الوضع، فالذي عليه فقهاء المذاهب الأُخرى أن المرأة متى ما وضعت حملها ولو بعد عشر دقائق من وفاة زوجها، فإن عدّتها تنتهي وتحلّ للأزواج من وقتها.

الثاني: أنها أبعد الأجلين

أمّا فقهاء الإماميّة فيقولون: إنها تعتدّ بأبعد الأجلين، بمعنى أنها إذا وضعت حملها أثناء العدّة ـ وهي الأربعة الأشهر والعشرة الأيام ـ فإن عدّتها لا تنتهي، بل تكمل المدّة المقرّرة المذكورة في القرآن الكريم، فلو كان وضعها بعد شهر أو شهرين من وفاة زوجها فعليها أن تكمل هذه المدّة. ولو أتمّت المدّة المقرّرة المذكورة في القرآن الكريم ولم تضع حملها فعليها أن تعتدّ ـ تكمل عدّتها ـ حتى تضع حملها. وهذا جمع بين الدليلين؛ حيث إن الدليل الأول يحدّد العدّة بفترة أربعة أشهر وعشرة أيام، والدليل الثاني يحدّدها بوضع الحمل. وهنا نجمع بين الدليلين؛ فنأخذ بأبعد الأجلين وهو رأي الإمام عليه السلام.

لكن يأتي أحد المتأخّرين فيشنّع على هذا الرأي وصاحبه، وكأن من يخاطبه ليس الإمام عليّاً عليه السلام. ولذلك فإن شبابنا إذا قرؤوا مثل هذه النظريات لا يتأثّرون بها؛ لأن الدنيا فيها أنماط كثيرة من مثل هذا؛ فالكلمة الطيبة السليمة تقاتل بموضوعية، فيصرع الدليلُ الدليلَ، أمّا الكلمة الخبيثة السقيمة فلا تقاتل بموضوعية، بل بحقد وعدائية، ولذلك فإن القرآن الكريم يوجّه النبي صلى الله عليه وآله فيقول: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ

الْحَسَنَةِ﴾، ثم إذا نفدت السبل: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1]. فهذا هو الأسلوب الذي هذّبنا به الإسلام وجبلنا عليه، فنشأنا نتشرّبه.

فأولو العزم هؤلاء الخمسة؛ لأنهم قاتلوا بالكلمة وحملوا الشرائع العامّة، أما الأنبياء غيرهم فيعملون بشرائع من سبقهم. ولذا فإن الناس قبل النبي صلى الله عليه وآله كانوا يتعبّدون على ملّة نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام. فحملة الشرائع العامّة هم أولو العزم الذين يحملون رسالاتٍ عامّة.

الرأي الثالث: أنهم الذين أمروا بتجريد السلاح للقتال

فأولو العزم هم الذين شهروا السيف وقاتلوا به. لكن ليس هناك من نبي يقاتل قبل أن يقيم الحجّة على دعوته ويقدّمها بين يديه؛ فيدعو إلى الله بالكلمة والتوجيه، ثم يتوجه للقتال بعده فيما لو لم تجدِ الكلمة. فمن حمل السلاح من الأنبياء عليهم السلام أمر بحمله. ومن هنا انبثقت قضية بين العلماء هي: هل إن القتال بالكلمة أفضل أم القتال بالسلاح؟ وهذا البحث في الحقيقة لا جدوى فيه؛ لأن كلّا منهما له مكان، وكلّ في مكانه أفضل؛ فبعض الناس لا يفقه القرآن ولو قرئ كلّه عليه. ومن هذا ما نجده عند البعض إزاء أهل البيت النبوي الشريف، حيث إنه ينقل عن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله قوله: «لا تصلّوا عليّ الصلاة البتراء». فقيل: يا رسول الله، وكيف نصلّي عليك؟ قال صلى الله عليه وآله: «قولوا: اللهم صلّ على محمد وآل محمد».

وبعد أن ينقل عنه صلى الله عليه وآله قوله هذا، قال: هكذا قال (صلى الله عليه وسلم). فهل هذا يتعبّد بالحديث أم لا؟ فإن كان يتعبّد به فما هذه المعاندة؟ إن علينا أن نتأدّب بآداب الإسلام والقرآن.

---

(١) النحل: ١٢٥.

إن البعض يتّهمنا بأن لنا موقفاً من الصحابة، مع أننا نتشرّف بتراب أقدام الصحابة الأبرار، فصاحب النبي صلى الله عليه وآله البارّ هو للمسلمين كافّة، وأهل البيت عليهم السلام للجميع، فلماذا هذا اللون من التخصيص والاستقطاب المفتعل؟ إن البعض من الناس لا تنفع معه الكلمة ولو جيء بكل دليل وبرهان، بل إنه يعود من حيث بدأ، فما فائدة الكلمة هنا إذن؟ في حين إن البعض إذا عُرّض للسيف يصرّ على رأيه مهما كلّفه ذلك. فالكلمة لها تأثيرها، والسيف له تأثيره، والنبي صلى الله عليه وآله جمع الدعوة إلى الله بهذين الطريقين: (الكلمة والسيف).

المبحث الرابع: جور بعض من يدّعي الإسلام

ثم قالت الآية الكريمة بعد ذلك: ﴿وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾، أي أنها تقول للنبي صلى الله عليه وآله: لا تدعُ عليهم؛ لأن رسالتك رسالة رحمة، وأنت رحمة للعالمين[1]، كما أن عندك من الخواصّ ـ مع أنك بشر ـ ما يمنعك من أن يضيق صدرك عليهم، أو تطلب من الله أن يؤدّبهم بالعذاب. ثم إنك بما أُتيت من دواعي الرحمة، وبما وهبك الله من ألوان العطف والشفقة تستطيع أن تتجاوز عن هؤلاء؛ ذلك أن الإنسان ضعيف حتّى لو تظاهر بالقوّة والعجرفة، إذ أنه تؤثّر عليه طبيعة الحياة ومشاكلها كافّة.

والإنسان عندما يولد تمنحه البيئة كلّ خواصّها، فالذي يولد في الجزيرة العربية لا نتوقّع منه أن يتخلّق بأخلاق الدول الأوروبّية؛ لأن الذي يعيش في أوروبّا له قيمه الخاصّة، فليس عنده مثلاً حساسية تجاه أن تراقص أُمّه رجلاً. ولذا فإن علينا حينما نريد أن نعالج قضية ما أن نأخذ

---

(١) قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء: ١٠٧.

بنظر الاعتبار الظروف الموضوعيّة التي تكتنف تلك القضية ، وعليه فالذي يسرق في عام المجاعة ليأكل لا تقطع يده ؛ لأن الظرف أجبره على السرقة . وهكذا نجد أن بعض الناس عاشوا في ظروف أجبرتهم على نمط معيّن من السلوك ، وألجأتهم إليه إلجاء ، فالذي ينبغي ألّا نحكم عليهم هم ومحترفي الجريمة على حد سواء .

ثم إن على الإنسان أن يسأل نفسه حول ما إذا كان غيره قد نشأ في ظروف غير ظروفه ، فلماذا يحكم عليه اعتباطاً ودون تروٍّ بالكفر والضلال؟

إن الذي يجب علينا هنا أن نأخذ بنظر الاعتبار ضعف الإنسان ، فالأُطر الاجتماعية هي التي تملي عليه مستلزماته أحياناً وتصنعه ، ومن هذا على سبيل المثال ما تفرضه بعض العادات والنظم القبلية عندنا ؛ فعندما يريد الرجل أن يتزوّج فإنه يولم الولائم مهما كلّفه ذلك ، وإن لم يجد يعمد إلى بيع كل شيء عنده من أجل هذا وإن أثّر على مستوى معيشته مستقبلاً . فهذا إطار اجتماعي ، والإنسان ضعيف أمام الأُطر الاجتماعية كافّة ، ولذا فإن الواجب أن نأتي إليه من هذا المنطلق لتهذيبه دون أن نحكم عليه بأحكام قاسية .

فالآية تقول : ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل﴾ ؛ فهؤلاء ضعفاء أمام الإطار الاجتماعي ، ولذا فإن النبي صلى الله عليه وآله كان كلّما اشتدّ عليه أذاهم قال : « اللهم اهدِ قومي ؛ فإنهم لا يعلمون »[1] . وفي أحد الأيام أخرجوه من مكّة بعد أن رموه بالحجارة من كلّ جانب إلى أن وصل للطائف ، وكان لعتبة وشيبة بستان يصطافان

---

(١) الخرائج والجرائح ١ : ١٦٤ / ٢٥٢ ، تفسير القرآن العظيم ٣ : ٥٧٥ .

فيه، فرأيا النبي ﷺ، فالتفتا إلىٰ عبد لهم اسمه «عداس»، وقالا له: اجنِ من هذه الكرمة عنباً وأعطه إيّاه ـ وأشارا إليه ﷺ ـ وابتعد عنه؛ لئلا يسحرك بكلامه. فجاء «عداس» بالعنب والماء، وأراد أن يضعه بين يدي الرسول ﷺ وينصرف، فرفع إليه النبي ﷺ رأسه وقال: «عُداس هذا؟». قال: فداؤك عداس، مامعرفتك باسمي وقد سمتني أُمي به؟ قال ﷺ: «أوليس قد أسمتك أمّك بهذا الاسم عندما وضعتك؛ لأنك كنت ثقيلاً في بطنها؟». قال: بأبي أنت وأُمي، نعم والله هكذا أُخبرتني أُمّي، فمن الذي أخبرك بهذا؟ قال ﷺ: «أولست أنت من قرية العبد الصالح يونس بن متي من نينوى بالموصل؟». قال: وما أدراك بهذا؟ قال ﷺ: «ذاك نبي وأنا نبي». فقال عداس: واللّه إني لأرى عليك سيماء النبوّة. ثم انحنى على أقدامه يقبّلهما، وكان عتبة وشيبة يعاينان ما يفعل، فقالا: قد أفسد علينا غلامنا[1].

ثم رأىٰ النبي ﷺ أن جسمه يسيل دماً، وأن ملابسه قد تلطّخت من دمه الشريف، فأخذ يمسح الدماء عن جسده، ثم رمق السماء بطرفه وقال: «اللهم رفقاً بهم؛ إنهم جهلاء لا يعلمون من أنا». فهذا هو الخلق العالي، وهو حاصل نتيجة معرفته ﷺ بأن هؤلاء ضعفاء أمام الأُطر الاجتماعية، فهم لا يعرفون النبي ﷺ.

ولا زال البعض إلىٰ الآن يسأل عن أُمور غاية في البداهة، وكأنه خارج الأُطر الاجتماعية، وعلماء الاجتماع يعرفون التقاليد بقولهم: التقليد هو

(١) انظر: مناقب آل أبي طالب ١: ٦١، مجمع البيان ٩: ١٥٤، تاريخ اليعقوبي ٢: ٣٦ ـ ٣٧، تاريخ الطبري ٢: ٨٠، السيرة النبوية (ابن هشام) ٢: ٢٨٦، السيرة النبوية (ابن كثير) ٢: ١٥، الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٢١١.

قوة الإجبار، أي أنه يجبر الإنسان على الكون في وضع معيّن؛ فلذا قالت الآية الكريمة: ﴿وَلَاتَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾؛ فإنهم إن كانوا يصرّون على الخطيئة فإن الله سينتقم منهم، وإذا كانوا غير مصرّين عليها ـ وهذا محتمل ـ فمن الممكن أن يهتدوا؛ فلا تستعجل بالدعاء عليهم.

المبحث الخامس: جزاء المجاهد في سبيل الله

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾؛ فإن هؤلاء قد يمرّون بدور يصلون فيه إلى نهاية المطاف، فيرون أنهم قد أضاعوا حياتهم، وأنها لم تكن سوى فراغ مقيت؛ حيث إنهم لم يملؤوها بما يتوجّب على الإنسان فعله، وربما التفتوا إلى أخطائهم.

وحينما يتناول القرطبي هذا المقطع من الآية الكريمة يقول: «عن ابن عبّاس أنه إذا عسرت على المرأة الولادة تكتب هذا المقطع ـ ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ ـ وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾[1] في صحيفة، ويكتب: الله رب السموات والأرض ورب العرش العظيم ثم تغسل بالماء، ويعطى للمرأة فتشرب منه، فإنها تضع جنينها»[2].

وهذه الرواية واردة بالطريق المعلّق[3]، أي روى فلان من الصحابة، من دون ذكر السند حتّى يمكن أن يعرف أن الراوي ثقة أم لا. والعلماء لا يعملون بالحديث المعلّق.

وهذه الرواية أيضاً يرويها عكرمة، وهو إن لم يكن خارجيّاً فإنه يميل

(١) النازعات: ٤٦. (٢) الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٢٢٢.

(٣) وكذا رواه مقطوعاً في مكارم الأخلاق ٣٧٩ ـ ٣٨٠، ٣٩٣ ـ ٣٩٤، وعنه في بحار الأنوار ٩٢: ١٢١، لكنه نسبه للإمام الصادق عليه السلام مع أن الطبرسي لم ينسبه له عليه السلام.

إلى رأي الخوارج. وكان معروفاً بالكذب؛ ولذا فإن علي بن عبد الله بن عباس ربطه بباب الكنيف ـ وقيل: على باب حشّ ـ فقالوا له: إن هذا صاحب أبيك! قال: إنه يكذب على أبي[1]. ذلك أن عكرمة كان متأثراً بالفكر اليهودي، غير أن بعض العلماء يعتمد على نقله.

أمّا بالنسبة للرواية فلاشك أن القرآن الكريم له تأثير إيجابي: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2]، لكن الموضع الذي يثبت فيه الشفاء إنما يكون بالرواية الموثوقة، أوبآية قرآنية، كقوله تعالى: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً﴾[3]. وهو ذو فائدة لكلّ النساء الحوامل والمراضع؛ لأنه غني بالمعادن؛ ولهذا فإن الفراعنة نحتوا الرطب في قبورهم وأهراماتهم. وقد أمر الله تعالى مريم عليها السلام أن تأكل من الرطب؛ لما يحويه من طاقة يمكن أن يوفّرها لها، كما أن له آثاراً صحّيّة إيجابية أخرى.

كما أن الرطب والتمر يعتبران من الغذاء الذي أراده الله تعالى حتّى للمجاهدين، وقد أرشد إليه النبي صلى الله عليه وآله خلال غزواته، كان أحد الصحابة ـ وهو عمير ـ قد وضع في فمه تمرات حينما سمع النبي يقول: «والذي نفسي بيده، لا يقاتل هؤلاء القوم أحد صابراً محتسباً ولا يهرب إلّا أدخله الله الجنة». فقال عمير: بخ بخ، ليس بيني وبين دخول الجنة إلّا هذه التميرات. ثم ألقاها إلى الأرض وانغمس في لهوات الحرب حتّى

---

(١) فتح الباري / المقدمة: ٤٢٥، الضعفاء (العقيلي) ٣: ٣٧٣، تهذيب الكمال ٢٠: ٢٨٠، ميزان الاعتدال ٣: ٩٤، سير أعلام النبلاء ٥: ٢٣. ومرّ تحقيق كونه كاذباً في ج٣ ص٣١ من محاضرات الوائلي.

(٢) الإسراء: ٨٢.

(٣) مريم: ٢٥.

قتل [١]. وهكذا كان طعام المجاهدين التمر.

إن الله تعالى قد وعد الشهداء بجنتين هما: جنّة الآخرة، وجنّة الدنيا التي هي الراحة النفسية والذكر الخالد. فالمجاهد الذي يعرف أنه يقاتل دفاعاً عن مبادئ الإسلام يخرج من الدنيا وفي نفسه جنّة، أما الذي يقاتل من أجل فكرة مجرمة فإنه يعرف أنه سيذهب إلى الجحيم.

إذن الجنّة جنّتان: جنّة ذاتية، وجنّة موضوعية؛ ولذا فإن الله تعالى قد وعد الشهداء بهذا المعنى.

المبحث السادس: حركة الحسين عليه السلام على ضوء الآية الكريمة

إن الإمام الحسين عليه السلام قد اعتمد في نهضته سبيل الأنبياء عليهم السلام، ولذا فإنه عليه السلام استخدم الموعظة اللسانيّة والكلمة المقاتلة، ثم استخدم السيف.

مساهمات الحسين عليه السلام في الفتوحات الإسلاميّة

وهذا الأسلوب ليس جديداً عليه، حيث إن له عليه السلام مشاركات سابقة في الفتوحات الإسلامية، منها:

الأولى: مساهمته عليه السلام في فتوح أفريقيا

ففي سنة (٢٦) هـ اشترك في فتوح أفريقيا، وكان أحد القادة فيها مع أخيه الإمام الحسن عليه السلام، فقد استنجد قائد الجيش في أيام عثمان بالمدينة، فأردف بجماعة من الصحابة وفيهم الإمام الحسين عليه السلام.

الثانية: مساهمته عليه السلام في فتح طبرستان

وكذلك كان له مشاركة ثانية في واقعة طبرستان، فقد كان أحد القادة

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٣: ٤٢٦، تاريخ الإسلام ٢: ٩١.

فيها، وكانت مشاركته فعالة حتى حصل الفتح.

الثالثة: مساهمته عليه السلام في معركة القسطنطينية

وهي إسطنبول أو القَرقَدونة، وكان ذلك سنة (٤٨) هـ، حيث إنه عليه السلام خرج إلىٰ الفتح مع الجيش الذي كان يقوده سفيان بن عوف.

وقد رووا حديثاً بشأن هذا الجيش يقول بأن أول جيش يفتح القسطنطينية مغفور له، ومن أهل الجنة. وقد وقعت بعد هذه المعركة معركة اُخرى لإكمال فتحها، وذلك بعد سنتين من المعركة الأُولى، فخرج الجيش، فأصابته حمّىٰ كتب معاوية على أثرها كتاباً إلىٰ ولده يزيد يأمره فيه بأن يلتحق بالجيش باعتباره ولي العهد الذي يُفترض به أن يقود الجيش في مثل هذه الحالات الاستثنائية. فلما وصل الخبر إلى يزيد أنشأ يقول:

ما إن أُبالي بما لاقت جموعُهُمُ ... بالفَرقَدونة من حمّى ومن شومِ
إذا اتكأت على الأنماط مرتفقاً ... بدير مُرّان عندي أمّ كلثومِ [١]

وكانت عنده حينها جارية له تغنّيه اسمها أمّ كلثوم، لكن معاوية أجبره على الالتحاق بالجيش، فالتحق. لكن بعض المؤرّخين يقلب الحقائق فينسب الحديث إلى الجيش الذي كان فيه يزيد، ثم يقول: لماذا تتقوّلون على يزيد هذا، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم قد شهد بأنه مغفور له؟

ونقول لمثل هذا: لا تقلب الحقائق، فأول جيش كان بقيادة سفيان بن عوف (وهذا يرويه ابن خلدون [٢] والطبري [٣] وغيرهما [٤].

---

(١) معجم البلدان ٢: ٥٣٤، ٤: ١٨٨. (٢) تاريخ ابن خلدون ٦: ١٠٨.
(٣) تاريخ الطبري ٣: ٣٥٠.
(٤) الكامل في التاريخ ٣: ٣١٤، الإصابة ٣: ١٠٧، تاريخ مدينة دمشق ١٢: ٣٥٠.

إذن فالإمام الحسين عليه السلام حامل الفكرة وحامل السيف، فكان خطّه خطّ الأنبياء عليهم السلام. والغريب ان ابن تيمية إذا مرَّ بنهضة الإمام الحسين يقول: «ماجلبت إلّا الشؤم». وهذه جرأة على الإمام الحسين عليه السلام.. الحسين الذي سلك طريق الأنبياء عليهم السلام.. الحسين الذي كتب في وصيته لأهله: «إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا ظالماً ولا مفسداً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدّي صلى الله عليه وآله، وأن أسير فيهم بسيرة الحقّ؛ فمن قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بقبول الحقّ، ومن ردّ عليّ هذا أصبر حتى يحكم الله وهو أحكم الحاكمين»[1].

وقد أعطى عليه السلام هذه الوصية لأخيه محمد بن الحنفية، فخرج والتاريخ يعكس صورة الإمام الحسين عليه السلام المقاتل بالكلمة، والمقاتل بالسيف، الذي رفع هذه الصورة المشرقة. وهذا المعنى هو الذي يريده الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول: «إذا هلّ هلال المحرم، نشرت الملائكة قميص الحسين عليه السلام وهو مخضّب بالدماء، فنراه نحن وشيعتنا بالبصيرة لا بالبصر، فتحزن لذلك قلوبنا».

بلى والله، فعلى الرغم من أن بيننا وبينك يا أبا الأحرار مئات السنين لكن صورتك تظلّ تتألّق في نفوسنا، وتبقى شفاء لأرواحنا ووسيلة للمجد يتغنى بها الإنسان عبر التاريخ:

طلعت على الدنيا حساماً مهنّداً	فعاشتك حيناً ثم عاشت على الصدى
تمجّد قومٌ بالخلود وإنني	رأيت بمعناك الخلود مخلّدا
فيا واحداً من خمسة إن ذكرتهم	ذكرت بهم في كلّ وجه محمدا[2]

أبا عبد الله، إن صورتك ماثلة أمامنا وإن كان فيها ما يؤلم، وفيها حجَر

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩.

(٢) ديوان المحاضر ٢: ٢٨.

أبي الحتوف الجعفي على جبهتك، وبها أثر السهام، وفيها ذلك الخدّ الذي سقط على رمال كربلاء: «السلام على العيون الغائرات، السلام على الشفاه الذابلات»[١]، «السلام على الخدّ التريب، السلام على البدن السليب»[٢]، ذلك الوجه الذي وارته رمال كربلاء، والذي كانت أخت الإمام الحسين عليه السلام تتوق لأن تبقى عنده.

---

(١) المزار (المشهدي): ٤٩٨.
(٢) المزار (المشهدي): ٥٠٠.



الفصل السادس

الإمام علي بن الحسين عليه السلام



﴿٤٢﴾

شذرات من سيرة السجاد

يا راهب الليل في جنح الظلام ومن	إذا دجـا اللـيل يـقضيه عـلى ألمِ
وإن بـدا الصبح يـهمي مـن مكـارمه	ما يخجل السحب من نعمى ومن كرمِ
أرومــة فـي بـيوت الأنـبياء ربت	آبــاؤها عــلم يــنمى إلى عــلمِ

توطئة

يعد اسم زين العابدين علي السجاد اسماً أثيراً ومحبّباً لنفوس كلّ من يتفاعل معه تفاعلاً سليماً، والاسم في حقيقته واجهة وعنوان للمسمّى، وغالباً يقال: إن مضمون الاسم يترشّح على الاسم الذي هو في حقيقته باب موصل إلى المعنى أو المضمون. فاسم السجاد بهذا كان محبّباً لأهل البيت ولشيعتهم. وهو أمر سبق أن أثبتناه فيما سلف من محاضرات.

المباحث العامة للموضوع

ثم إن هناك عدّة منازل في حياة الإمام السجاد ينبغي الوقوف عند كلّ واحد منها بمبحث مستقلّ.

المبحث الأول: كناه ﴿ع﴾ وألقابه

يكنى الإمام ﴿ع﴾ بكنى عديدة، ومنها: أبو محمّد، وأبو الحسن، وأبو بكر. وقد سئلت مرّة: لماذا تتجاهلون هذه المظاهر والشكليات وتتجاوزونها، فلا تذكرون أن لأمير المؤمنين ﴿ع﴾ ابنين اسماهما عمر وأبا بكر؟ ولماذا لا تذكرون أن للسجاد ﴿ع﴾ كنية هي أبو بكر؟ والحال أن هذا الكلام مغالطة، بل هو غير صحيح البتة؛ لأنه لو رجع إلى كتبنا المختصّة بالتراجم لوجد أن فيها كل هذا، فنحن ليس لدينا عداء مع الأسماء أبداً[1] إلّا ما حرّمت التسمية به، بل وحتى مع الأشخاص، فنحن لا نعادي إلّا على ضوء مقاييس الإسلام، فنحن نخضع لقواعد التقييم، وهناك فرق بين العداء والتقييم.

ومن هذا أننا حينما نمرّ بالفترة التي عاشها أبو بكر مع أهل بيت النبوّة ﴿ع﴾ فإننا نسجّل حولها موقفاً تقييمياً، وهو الموقف الذي وقفه من سيّدة النساء فاطمة ﴿ع﴾ الزهراء في قضيّة فدك، لنستجلي الدليل والقرائن فيما إذا كانت تقف إلى جانب الزهراء ﴿ع﴾ أو إلى جانبه هو. فكلّ ما يهمّنا هو الدليل الواقعي لإثبات أي الطرفين أحقّ من غيره.

من يسبّ؟

وخلاصة القول: أنه ليس بيننا وبين أحد عداء، ونحن لا نسبّ ولا نشتم بل غيرنا هو من يفعل ذلك. ولهذا المتسائل وغيره يكفي أن نقول: إن من يقرأ مؤلفات ابن تيمية الذي راح يتجذّر في هذه الساحة سيعرف من الذي يسب ويشتم، ومن الذي يملك لساناً ليس عليه من الله رقيب، أمّا

---

(١) كما ادّعاه ابن تيمية، انظر منهاج السنّة النبويّة ٥: ١٧٦.

نحن فمهذّبون بتهذيب أمير المؤمنين عليه السلام الذي يقول لنا في مثل هذه المواقف: «إني أكره لكم أن تكونوا سبّابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب في القول وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبّكم إياهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم؛ حتى يعرف الحقّ من جهله ويرعوي عن الغيّ والعدوان من لهج به»[1].

فهو عليه السلام يأمرنا بأن نترفّع عن هذا المستوى؛ لأنه مستوى لا يحلّ فيه إلّا الضحل الفارغ. وزيادة في التوضيح نقول: إننا حتى في الفترة التي استحكمت فيها هذه الظاهرة لم نكن فيها أكثر من أن نعيش حالة ردّ فعل تجاه ما كان يفعله الأمويّون وأتباعهم من سبّ لأمير المؤمنين عليه السلام، وهو الأمر الذي استمرّ قرابة القرن من الزمان. فنحن نأبى الشتم، وهو ليس من أخلاقنا ولا من شيمنا.

وخلاصة القول أننا ليس عندنا عداء لا مع الأسماء ولا مع المسميات، وإنما نتّبع الموقف الذي يسنده الدليل فقط؛ فما أدّى إليه الدليل ذهبنا إليه، وما قرّر أن فيه خطأ خطّأناه وقلنا بعدم صحّته، وعدم صحّة الذهاب إليه، وما قرر أنه حرام قلنا بحرمته. أما أن يُطلب منا إلغاء المقاييس التي رسمها القرآن الكريم والسنة النبوية فهذا غير مقبول وغير منطقي؛ لأنه إلغاء لوجودنا.

ألقابه عليه السلام

وكما أن للإمام علي بن الحسين عليه السلام عدّة كنى له عدّة ألقاب منها الزكي

---

(١) وذلك حينما بلغه أن بعض أصحابه يسب أهل الشام أيام حربهم بصفين. نهج البلاغة / الكلام: ٢٠٦، بحار الأنوار ٣٢: ٥٦١، المعيار والموازنة: ١٣٧.

وزين العابدين وذو الثفنات والسجاد. وهذه الألقاب مشتقّة من صفات قائمة بذاته الشريفة؛ بمعنى أنه سجّاد لطول سجوده وقيامه وقعوده، فهو عليه السلام عرف عنه أن السجود ترك في جبهته أثراً لطوله وكثرته؛ ولذلك فقد عُبّر عنه بذي الثفنات الذي صار لقباً مشتهراً له. تقول الرواية: إن الإمام الباقر عليه السلام دخل عليه يوماً فوجده قد اصفر لونه من السهر، ورمصت عيناه من البكاء، ودبرت جبهته، وانخرم أنفه من السجود، وورمت ساقاه وقدماه من القيام في الصلاة[1].

بين التجسيم والتنزيه

وهكذا نجد أنه عليه السلام ينفرد في محرابه يناجي ربه ويعبده عبادة أقلّ ما يقال فيها: إنها ترتقي إلى مستوى الإمامة. وعبارة المؤرّخين في حقّه، وهي: كان الإمام السجاد عليه السلام أثناء صلاته إذا جن عليه الليل ووقف للصلاة لا يتحرّك منه شيء إلّا ما تحرّكه الريح[2] خير شاهد على هذا. وهي عبارة لا يمكن تقييمها إلّا إذا قيّمنا رافدين من الفكر حول صفات الله تعالى:

الرافد الأول: الصحيفة السجادية

فمن يقرأ الصحيفة السجادية المشرّفة يجد أنها حينما تمرّ بذكر الله جل وعلا تنعته بأشرف النعوت وأدقّها، وتنزّهه عن الصفات الجسميّة، وهي بهذا لا تعدو وصف القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وآله الصحيحة له تعالى.

(١) شرح الأخبار ٣: ٢٧٢، الإرشاد ٢: ١٤٢، مناقب آل أبي طالب ١: ٣٩٠.
(٢) الكافي ٣: ٣٠٠ / ٤.

الرافد الثاني: أقوال المجسمة

وفي الجانب المقابل نجد نزعة التجسيم واضحة عندهم، وهي نزعة تصفه تعالى بأن عنده رجلاً وبطناً وفرجاً[١]. وهي نزعة لا تلتقي مع الصورة المشرقة التي نقرؤها في القرآن الكريم عنه تعالى. أما أن يصوّر على أنه تعالى خلق آدم على صورته؛ طوله ستون ذراعاً وعرضه سبعة أذرع[٢]، فهذا لون من الفكر لا يمكن أن تقبله أو يقبل العقل به؛ لأنه فكر بعيد عن الرافد الإسلامي، ولا يلتقي معه. ونحن حينما نأباه فإنما نأباه بالدليل، ومن كان عنده دليل على مدّعاه فلا مانع من أن يدلي به في ساحة النقاش النظيف، وحينها تترك الأدلّة تتلاقح حتى تفضي إلى الصواب.

سبب تسميته عليه السلام بزين العابدين

إذن فكلّ الألقاب التي كان عليه السلام يلقّب بها إنما هي ألقاب منتزعة من أفعاله العبادية في حياته، ومنها لقب زين العابدين. وهناك عدّة روايات تُنقل في هذا المجال حول سبب تلقّبه وتسميته عليه السلام بهذا اللقب، ومنها:

الأولى: أنها مروية عن رسول الله صلى الله عليه وآله. فهناك رواية تنقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله تنصّ على أن هذا التعبير وارد عنه صلى الله عليه وآله، فقد نصّ أكثر المؤرخين على أنه صلى الله عليه وآله كان يخبر عن جملة من الملاحم ويحدّث عنها، فقال من ضمن ما قال صلى الله عليه وآله: «**إذا كان يوم القيامة ينادي مناد: أين زين العابدين؟ فكأني انظر إلى ولدي علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب يخطو بين الصفوف**»[٣].

---

(١) انظر: السيف الصقيل: ١٥٤، مؤتمر علماء بغداد: ٢٣.
(٢) صحيح البخاري ٧: ١٢٥، صحيح مسلم ٨: ١٤٩، إعانة الطالبين ٤: ٢١٣.
(٣) الأمالي (الصدوق): ٤١٠ / ٥٣٢، مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٤.

الثانية: أنها عن الزهري عن رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله[١].

الثالثة: أنها عن الزهري نفسه. فهناك رواية أُخرى تنسب هذه التسمية للزهري نفسه، فقد كان قاضياً عند الأمويّين، فابتلي بدم خطأ؛ حيث إنه كان قد جيء إليه بشخص فعاقبه حتى مات، فلما عرف أنه مات أصابه يأس وقنوط من الحياة، وحبس نفسه في بيته ولم يخرج منه. ودخل الإمام السجاد عليه السلام المسجد مرّة فسأل عنه، فقيل له: هل لك فيه؟ قال عليه السلام: «إن لي فيه». أي أُريد أن أراه، فقال له أحدهم: إنّ من أمره كذا وكذا، وهو يظن نفسه أنه قاتل الرجل.

فدخل عليه الإمام عليه السلام وقال له: «إنّ ما أخافه عليك من قنوطك من رحمة الله أكثر مما أخافه عليك مما ابتليت به، وقنوطك من رحمة الله التي وسعت كل شيء أعظم عليك من ذنبك». فقال الزهري: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[٢]، لقد فرّجت عني فرّج الله عنك، أشهد أنك زين العابدين. ثم رجع إلى أهله وماله[٣].

الرابعة: أنها منسوبة لهاتف

وفي المقابل نجد أن هناك رواية تنسب هذه التسمية لهاتف، حيث إنها تقول: سمع صوت لم يُرَ شخصه ينعته بهذا النعت[٤].

---

(١) علل الشرائع ١: ٢٣٠/ب ١٦٥، ح ١، وفيه: عن عمران بن سليم قال: كان الزهري إذا حدّث عن علي بن الحسين عليه السلام قال: حدّثني زين العابدين علي بن الحسين. فقال له سفيان بن عيينة: ولم تقول له زين العابدين؟ قال: لأني سمعت سعيد بن المسيّب يحدّث عن ابن عبّاس أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال. ثم نقل الحديث الآنف.

(٢) الأنعام: ١٢٤.

(٣) ينابيع المودّة ٢: ٤٦٨.

(٤) علل الشرائع ١: ٢٣٠/ب ١٦٥، ح ١.

صفة عبادته عليه السلام

وعلى أية حال فمهما كثرت الروايات حول سبب التسمية، فإن منشأ انتزاعها موجود، وهو كثرة عبادته عليه السلام التي كانت تتّصف بالصدق والحرارة والتفاعل مع السماء، والبعد عن الرياء والتصنّع. وقد يشاهَد شخص يقف بين يدي الله تعالى، لكن حينما تلمس مشاعره تجاه السماء تجد أنها خامدة بعيدة عن أي لون من ألوان الانفعال بها، أمّا السجاد عليه السلام فيقع ولده الإمام محمد الباقر عليه السلام في البئر وهو قائم يصلّي وكانت بعيدة القعر، فنظرت إليه أمّه فصرخت، وأقبلت تضرب نفسها من حوالي البئر وتستغيث به وتقول له: يابن رسول اللّه، غرق والله ابنك محمّد. وكلّ ذلك لا يسمع قولها ولا ينثني عن صلاته، وهي تسمع اضطراب ابنها في قعر البئر في الماء. فلما طال عليها ذلك قالت له جزعاً على ابنها: ما أقسى قلوبكم يا أهل بيت النبوة! وهو مستمرّ في صلاته ولم يخرج عنها إلّا بعد كمالها وتمامها، ثم أقبل عليها فجلس على رأس البئر، ومدّ يده الشريفة إلى قعرها ـ وكانت لا تنال إلّا برشاء طويل ـ فأخرج ابنه محمداً بيده وهو يناغيه ويضحك، ولم يُبلّ له ثوب ولا جسد بالماء[1].

أو يحترق بيته وهو يصلّي، فيقال له: النار قد التهمت البيت. فلا يلتفت، بل يقول بعد أن يتم صلاته ويسأل عن سبب عدم التفاته: «كنت مشغولاً عنها بنار الآخرة».

ومعنى هذا أنه كان منفعلاً بأجواء أُخرى غير هذه الأجواء التي هو فيها.. أجواء داخلية يعمرها الحب ويغمرها الاتّصال بالله تعالى. أمّا هذه

---

(١) دلائل الإمامة: ١٩٧، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٧٨، بحار الأنوار ٤٦: ٣٤ / ٢٩.

الأجواء الخارجية فلم تكن لتأخذه عن حالة اتّصاله بالله تعالى.

فنمط العبادة عنده عليه السلام لا يقف عند حدود المحراب فقط، بل يتعدّاه إلى الحياة العملية. وهذه نقطة هامّة أودّ أن أسترعي الانتباه إليها وألفت الأنظار إلى أهميتها، فالكثير يظن أن العبادة إنما هي في المحراب فقط؛ فيؤدي صلاته وصيامه ثم ينتهي الأمر عند هذا الحدّ. وهذا تصوّر سلبي لها، وغير صحيح للعبادة؛ لأن الدنيا كلّها ميدان لها؛ الشارع والمؤسّسة والمدرسة والبيت والأسرة والمصنع والسوق وغير ذلك.

فالمرء حينما يستخدم الشارع ضمن الضوابط الشرعية والآداب الإسلامية[1] فإنما هو في حالة عبادة؛ لأنه حينئذ يحافظ على آداب الشارع وعلى السلام بينه وبين المسلمين الذين يلقاهم، حيث إنه يستقبلهم ببشر وبشاشة وأخلاق ووجه يطفح حباً لهم واحتراماً. وهكذا نجد أن هذا التصرّف عبادة لأنه ضمن الضوابط الإسلامية.

وكذلك معاملاته معهم إذا كانت تتميّز بالعفّة والنزاهة الصدق كالبيع والشراء وغير ذلك من المعاملات، فإنه حينئذ يكون في حالة عبادة؛ لأن من يعفّ يده ولسانه، ولا يعتدي على الآخرين، بل إن المروءة تتملّكه في كلّ معاملاته مع الناس لهو في نطاق الإسلام وضمن حدوده، وبالتالي فهو في حالة عبادة؛ لأنه في حالة قربى إلى الله تعالى.

وهذا الأمر يجري أيضاً مع الأسرة، فإذا كان تعامله مع زوجته وأطفاله

---

(١) التي سنّها النبي الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم فقال «إياكم والجلوس بالطرقات». قالوا: يا رسول الله ما لنا من مجالسنا بدّ نتحدث فيها. فقال صلى الله عليه وآله وسلم «إذا أبيتم إلّا المجلس، فأعطوا الطريق حقّه». قالوا: وما حقّ الطريق؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «غض البصر، وكفّ الأذى، وردّ السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». مسند أحمد ٣: ٣١، صحيح مسلم ٦: ١٦٥.

تعاملاً إسلامياً صحيحاً كان في حالة عبادة، كان الإمام السجاد عليه السلام قد رُبي يتيم الأُم؛ لأن أُمّه «شاه زنان» قد ماتت وهي نُفساء به، فكفلته جارية لأبيه الإمام الحسين عليه السلام وربّته حتى كبر، فكان عليه السلام يتعامل معها بأرقى ألوان التعامل الإسلامي، بل إنه عليه السلام كان يعاملها كأُمّ له، فهو لم يعرف أُمّاً غيرها، ولذا كان يعبر عنها بقوله: «أُمّي». وكان إذا دخل الدار أولاها فروض الطاعة المترتبة للأُم على ولدها، فكان إذا جلس يؤاكلها انتظرها حتى تمدّ يدها إلى الطعام وتأخذ منه ثم يمدّ يده الكريمة ويأكل، ولما سئل عليه السلام عن ذلك وقيل له: نراك تتوقّى كثيراً عندما تجلس معها يابن رسول الله؟ أجاب عليه السلام بقوله: «إني أكره أن تسبق يدي إلى ما سبقت عينها إليه، فأكون قد عققتها»[1].

وهذا اللون من السلوك الأُسروي قطعاً يبعث على خلق جوّ من الاحترام المتبادل والحبّ والودّ والتقدير. وعليه فإننا نجد أن بناء النظام الأُسري هو من صلب العبادة التي رسمها الإسلام الحنيف؛ فإن لم يُراعَ هذا النظام تفكّكت الأُسرة. لقد قرأت إحصائية نشرتها وزارة العدل الكويتية حول عدد المطلّقات خلال فترة أربعة أشهر، فكانت أسباب الطلاق كارثة حقيقية مع أُننا نعيش في بلد مسلم يعيش حالة رخاء وخير، وإضافة إلى هذا فإنه يتوفّر على جوانب إيجابية كثيرة. فمقتضى القاعدة أنه ليس هناك ما يوجب الطلاق بهذه الصورة المرعبة، وبالتالي ليس هناك ما يوجب حالة التفكّك الأُسري التي نراها حاصلة اليوم، والأمر لا يستلزم أكثر من أن نتأدّب قليلاً بآداب الإسلام.

---

(١) الخصال: ٥١٨ / ٤، مكارم الأخلاق: ٢٢١، مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٠.

إن الواقع الذي نعيشه اليوم هو واقع بداوة يرفضه الإسلام رفضاً تاماً؛ ولذا فإن الواجب أن نقلع عنه ونتحوّل إلى الواقع الإسلامي المتأدّب بكلّ تفاصيله ودقائقه وجزئيّاته، وإلّا فإن بلداً يغترف من الحضارة الحديثة ضروباً وضروباً، ويتفاعل تفاعلاً كاملاً صباح مساء مع نواقل الحضارة، المفروض به أن ينعكس كلّ هذا على سلوكياته وخصوصاً في دنيا الأسرة.

والطلاق بهذا الشكل المروّع يخلق مجموعة من الأبناء من الممكن أن يصبحوا مجرمين، وهذا كلّه يتوقّف على السلوك الأسروي، فعندما يدخل الأب بيته يجب عليه أن يحمل وجهاً باشّاً ضاحكاً؛ فهذه المرأة التي أخذ الرجل زمام أمرها بكلمة الله، يجب عليه أن يعاملها بأمر الله وحسب أخلاقيات دينه، وأن يربيها ويقود زمامها. إن المفروض أن الرجل هو من له حق القوامة في الأسرة، وكان الرسول صلى الله عليه وآله يقول: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»[١].

فالمفروض بالرجل أن عليه حينما يدخل بيته أن يشيع البسمة فيه، وأن ينشر جوّاً من الوئام والمودّة والتسامح في بعض الأمور غير الأساسية المشفوعة بالتنازل عن بعض الحقوق الشخصية مقابل استمرار ثبات الأسرة وعدم تفكّكها، ومن أجل رعاية هذه البذرة التي يجب أن تربّى تربية سليمة وفي جوّ أسريّ طيّب. وهو أمر نحن جميعاً مسؤولون عنه، فأمر تربيتهم بهذا الشكل منوط بنا أمام الله تعالىٰ، وإن أكثر عذاب القبر يوم يموت الإنسان هو من سوء الخلق مع العيال[٢]. أي أن المرء

---

(١) الفقيه ٣: ٥٥٥ / ٤٩٠٨، سنن ابن ماجة ١: ٦٣٦ / ١٩٧٧.

(٢) قريب منه في الاعتقادات: ٥٩.

يعذّب في قبره بسبب سوء خلقه مع عياله.

رجع

وبهذا فإن الإمام عليه السلام يضرب لنا مثلاً سامياً في هذا اللون من السلوك الأسروي؛ فإذا لقّب بزين العابدين فلأن عبادته تمتدّ على مساحة واسعة من الحياة، مساحة أوسع من التصور الذي يتغلغل في رؤوسنا، والذي يوحي لنا بأن العبادة لا تعدو الرقعة الجغرافية للمحراب. إن الدنيا بأجمعها وبأسرها محراب في نظر الإمام عليه السلام إذا ما روعي في كلّ شيء فيه وجه الله تعالى، فكل مظهر من مظاهر الحياة محراب تُحارب فيه النفس الأمّارة، ويحارب فيه الشيطان. فالدّكان محراب والمصنع محراب والمدرسة محراب؛ فإذا لم تغشّ في المعاملة في دكّانك ولم تسرق من وقت صاحب العمل، ولم يسرق صاحب العمل أجرك كان كل ذلك عبادة، بل من أحسن العبادات. ثم إن العمل بحدّ ذاته عبادة، والسعي إلى فعل الخير عبادة، ومراعاة وجه الله تعالى فيما نقوم به عبادة.

الإمام عليه السلام يتعامل مع المجتمع بطهارة

ومن أُلقابه عليه السلام أيضاً الزكي. والزكي هو الطاهر؛ لأن الزكاة هي الطهر. والإمام عليه السلام كان يتعامل بطهر ونقاء مع الآخرين. ومما يؤسف له أن البعض حينما يُتَعامل معه بنقاء وطهر يظنّ بمن يتعامل معه كذلك البلادة، مع أنها بعيدة كل البعد عن هذا المفهوم، بل هي الذكاء المقرون بالعفّة والنظافة. وكشاهد على هذا أنقل هنا موقفين حدثا أيام الإمام السجاد عليه السلام:

الأول: موقفه من الأمويّين

فقد أخرج عبد الله بن الزبير الأُمويين من المدينة، وكذلك فعل ثوّار

الحرّة، ثم بعد ذلك هجم الأمويون على المدينة واستباحوها. ومن هاتين الحادثتين نستطيع أن نرى بوضوح أخلاق الإمام ﷺ العالية، ففي واقعة الحرّة مثلاً أعال ﷺ عائلة مروان وكفلهم، وأوصل زوجته عائشة إلى أهلها بحراسة ابنه، وكذلك أعال أربعمئة عائلة من عوائل الأمويين في المدينة.

الثاني: موقفه من أحد أبناء عمومته

لقد كان ﷺ يخرج ليلاً يحمل على ظهره جراباً فيه الدقيق والخبز وصرر النقود، ويوزّعها على فقراء المدينة ومحتاجيهم، ويستقي لضعفاء جيرانه[1]، ذلك أن آبار المدينة بعيدة الغور، ولا يمكن للضعفاء وكبار السنّ أن يستقوا منها، فكان ﷺ يأخذ الحبل والدلو ويستخرج الماء لهم. وكان قبل أن يذهب لبيته يمرّ بجاره ويسدّ حاجته من الطعام والشراب. وهذا الذي كان من الإمام لم يكن جديداً على محيطه ومجتمعه؛ فهذا الشاعر العربي يقول:

ناري ونار الجار واحدة	وإليه قبلي تنزل القدرُ
ما ضرَّ جاراً لي يجاورني	ألّا يكون لبابه سترُ
أعمى إذا ما جارتي خرجت	حتى يواري جارتي الخدرُ[2]

وهذا اللون من الأجواء جسّده الإمام ﷺ إسلاميّاً ووفق خلق الإسلام وآدابه بعد أن عاشه ﷺ بكل تفاصيله وجزئياته، وقد تعمّق هذا عند العرب أكثر بعد أن جاء الإسلام العظيم، ورفد المجتمع بعطائه الثرّ ونبعه الذي لا ينضب، وكان الإمام ﷺ أحد الروافد الإسلامية في كلّ مجالات

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩٤.
(٢) شرح نهج البلاغة ٥: ٤٣، ١٧: ١٠.

الخير والمعرفة، وعبر هذا الرافد حدث تفاعل كبير بين الحضارة الإسلامية وبين التراث الاجتماعي.

وضمن هذا الإطار كان للإمام عليه السلام موقف مع أحد أبناء عمومته، حيث إنه عليه السلام كان يطرق عليه الباب ليلاً ليعطيه الطعام وبدر الدنانير وهو متلثّم، فيأخذها منه ويقول له: جزاك الله خيراً، ولاجزى علي بن الحسين؛ لأنه يصل الناس ولا يصلني. وكان الإمام عليه السلام يغض عنه ولا يجيبه، بل ربما طرب لسماع هذا الدعاء. واستمر الحال هكذا إلى أن توفي الإمام عليه السلام وانقطع البرّ عنه، فعرف أن الذي كان يأتيه هو الإمام عليه السلام نفسه الذي لم يكن يتوخّى في عمل البر هذا رضا المخلوق، وإنما كان يتوخّى رضا الخالق جلّ وعلا.

وهو عليه السلام بهذا يؤصّل مفهوم العبادة التي خطّ خطوطها العريضة وأوضحها أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «إن قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجّار، وإن قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار»[1].

فكان عليه السلام يعبد الله لأنه أهل للعبادة والخضوع. وبهذا المنظور كان تقييم الإمام عليه السلام للعبادة، وعليه فلا غرابة في أن يلقّب بزين العابدين، وغيره من الألقاب الحميدة؛ لأنه عليه السلام نبع ثرّ للصفات الفاضلة، ومنجم ثري بمعادن الأخلاق الكريمة والآداب القويمة. فكل ألقابه إذن منتزعة من صفاته المنيفة وذاته الشريفة.

---

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ٢٣٧، وقال عليه السلام: «إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنّتك، ولكنني وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك». عوالي اللآلي ١: ٢٠، ٢: ١١ / ١٨.

المبحث الثاني: البيئة التي عاش فيها السجاد عليه السلام

إن البيئة التي درج فيها الإمام السجاد عليه السلام هي بيئة المدينة المنوّرة التي كانت تخضع لرقابة الأُمويّين ومتابعتهم؛ لأنهم يعتبرونها مهد المعارضة، فهي المدينة الأُولى التي سمعت الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله يقول من على منبره: «رأيت بني أُميّة ينزون على منبري نزو القردة يردّون الناس عن الدين القهقرى»[(١)].

والتي سمعته صلى الله عليه وآله كذلك يقول وقد رأى ذات يوم أبا سفيان راكباً ومعاوية يقوده ويزيد بن أبي سفيان يسوقه: «لعن الله السائق والراكب والقائد»[(٢)].

فهاتان المقولتان وأمثالهما[(٣)] كانت مختزنة في ذاكرة أهلها وجماهيرها، وهذا ما جعل موقفها متشنّجاً مع الأُمويّين ومنهم؛ ولذا كان موقفهم منها موقفاً إجرامياً اتّسم بكلّ صفات القسوة والظلم والابتعاد عن روح الدين. فهم لم ينسوا أن المدينة مهد الأنصار، فحرموها من رغيف

---

(١) جامع البيان: ١٥: ١٤١، الجامع لأحكام القرآن ١٠: ٢٨٢، سير أعلام النبلاء: ٨: ٢١٠. فهبط عليه جبرئيل عليه السلام يحمل سورة القدر، وأخبره أن ما رآه حقّ، وأن مدّة ملك بني أُميّة ألف شهر.

وروى السيوطي عن عائشة أنها قالت لمروان بن الحكم: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لأبيك وجدك: «إنّكم الشجرة الملعونة في القرآن». انظر: التفسير الكبير ٢٠: ١٨٩، تفسير غرائب القرآن ٤: ٣٦٢، الدر المنثور ٤: ٣٤٦.

وروى الفخر الرازي وغيره عن ابن عباس قوله: إن الشجرة الملعونة في القرآن هم بنو أُميّة.

(٢) المعجم الكبير ٣: ٧٣، ترجمة الإمام الحسن عليه السلام (ابن عساكر): ١٩١، شرح نهج البلاغة ١٥: ١٧٥.

(٣) كقوله صلى الله عليه وآله: «إن الخلافة محرّمة على ولد أبي سفيان». الأمالي (الصدوق): ٢١٦، اللهوف في قتلى الطفوف: ١٨، بحار الأنوار ٤٤: ٣١٢، ٣٢٦، حياة الحيوان ١: ٨٨ ـ ٨٩.

الخبز، وقطعوا عنها حقوق أهلها وجراياتهم، ثم أتبعوا ذلك بأبشع هجمة عرفها التاريخ بعد وقعة كربلاء، وهي وقعة الحرّة التي كان مخططاً لها، وكان الهدف منها القضاء على الإسلام نفسه، ولذا فقد قتل فيها سبعمئة من حملة القرآن الكريم عدا صحابة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، فكان مجموع ما قتل فيها عشرة آلاف رجل.

والغريب أنه مع هذا الكم الهائل من القتلى نجد الغزالي يصرّح بعدم جواز سبّ يزيد لأنه مسلم وقد تاب، أما نحن فحينما يخطئ شخص منا ويسبّ يزيد وأمثاله ممّن هم على شاكلته فإنه يصبح كافراً، بل تكفّر طائفة بأكملها. مع أنه ربما يكون ردّ فعل طبيعي إزاء هذه المواقف، وإلّا فما الذي يمكن أن يقال في الغزالي؟ مع أن هناك طائفة كبيرة من أبناء المذاهب الإسلامية لا تتوقف عن شتم يزيد[1].

فهذا اللون من المواقف من الغزالي وأمثاله ما الذي يمكن أن يكون قبالته من ردود، سيما أنه يتعلّق بدم رسول الله صلى الله عليه وآله؟ إن هذا الرجل الذي أحرق الكعبة[2]، وأوصل الدماء إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وآله، واعتدى على

---

(١) قال المناوي رحمه الله: «قال أبو الفرج بن الجوزي في كتابه (الرد على المتعصّب العنيد المانع من ذمّ يزيد): أجاز العلماء الورعون لعنه. وفي فتاوى حافظ الدين الكردي الحنفي: لعن يزيد يجوز، لكن ينبغي ألّا يُفعل، وكذا الحجّاج. قال ابن الكمال. وحكي عن الإمام قوام الدين الصفّاري: ولا بأس بلعن يزيد. وسئل ابن الجوزي عن يزيد ومعاوية فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»، وعلمنا أن أباه دخلها فصار آمناً، والابن لم يدخلها... قال المولى ابن الكمال: والحقّ أن لعن يزيد على اشتهار كفره وتواتر فظاعته وشرّه على ما عرف بتفاصيله جائز... (فلعنة الله عليه وعلى أنصاره وأعوانه)...».
فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ٢٦٥ ـ ٢٦٦.

(٢) سنن ابن ماجة ١: ٦٢٣ / ١٩٣٦، الأخبار الطوال: ٣١٤، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥١ ـ ٢٥٢، ٢٦٦، تاريخ الطبري ٥: ٣٠، تهذيب الكمال ٦: ٥٤٨ / ١٣٧٦، الكامل في التاريخ

أعراض المسلمين[١]، ونهب الدنيا لا يزال مسلماً في نظر البعض، ثم بعد كل هذا يطالب المسلمون بأن يعتبروه مسلماً وأميراً للمؤمنين، بل ويقابلوا هذا الموقف ببرود دون أي رد فعل.

على أية حال فإن الإمامعليه السلام عاش هذه الأيام بكل تفاصيلها المؤلمة.

ولادته وتجارب من حياته الشريفة

ولدعليه السلام في أخريات خلافة جدّه أمير المؤمنينعليه السلام سنة (٣٨) هـ، فقد عاش فيها ثلاث سنوات. وبهذا نجد أنه عاش فترة طفولته وشبابه في أيام معاوية، وهي أيام بدأت فيها عملية كتابة التاريخ، وتحددت فيها المواقف، وفيها أخذت التشنّجات حدّها الأعلى ومداها الأبعد. ومن هذا نجد أن في هذه الفترة مرّ الإمامعليه السلام بعدّة تجارب منها:

الأولى: تعرّض المدينة إلى ضغوط لا حدود لها.

الثانية: موقف المسلمين من عمّه الإمام الحسنعليه السلام.

الثالثة: موقفهم من الحركة الإصلاحية للإمام الحسينعليه السلام، وثورته التصحيحيّة في الطف.

وهذا الموقف مخزٍ جدّاً؛ لأنه جاء بناء على طلب المسلمين نصرة

٢: ١٣٥، البداية والنهاية ٨: ٣٦٣، سبل الهدىٰ والرشاد (الشامي) ٦: ٢١٤، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٨٥، تهذيب التهذيب ٢: ١٨٤ / ٣٨٨، ١٨٧ / ٣٣٨، ١٠: ١٤١ / ٢٩٧، ١١: ٣١٦ / ٦٠٠، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٧٤، فتح الباري ٨: ٢٤٥، ينابيع المودّة ٣: ٣٦.

وأليس هو المتمثّل:

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزلْ

انظر: تاريخ الطبري ٨: ١٩٣، شرح نهج البلاغة ١٥: ١٧٨، البداية والنهاية ٨: ٢٠٩، الأخبار الطوال: ٢٦٧.

(١) تاريخ مدينة دمشق ٥٤: ١٨١ ـ ١٨٢.

سيد الشهداء لهم ومكاتبتهم له، ثم هم بعد ذلك يردّدون بأنهم يخضعون لسلطان بني أُميّة؛ لأنهم لم يجدوا من يقودهم أو يأخذ بأيديهم. وهذا من أعجب العجب بعد خذلانهم ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وقد دعوه وكاتبوه. وبالتوجّه نحو بعض النصوص الشعرية التي تعدّ مرآة تعكس واقع كلّ أُمّة اجتماعياً أو سياسياً أو دينياً نجدها تفيض حرارة وتمتشق اللهيب لتقرّر به الواقع المرّ، خصوصاً ذلك التي نتكلم عنه. ومن هذه النصوص قول الشاعر:

ولو جاؤوا برملة أو بهندٍ	نبايعها أمير المؤمنينا
إذا ما مات كسرىٰ قام كسرىٰ	نعدُّ ثلاثة متناسقينا
فوا لهفا لو ان لنا ضيوفاً	ولكن لا نعود كما عُلينا
إذن لضربتم حتىٰ تعودوا	بمكّة تلعقون بها السفينا
شربنا الغيظ حتىٰ لو سقينا	دماء بني أُميّة ما روينا
لقد ضاعت رعيتكم وأنتم	تصيدون الأرانب غافلينا[1]

وهي أبيات تعكس مشاعر الناس؛ ذلك أن من المفترض أن تهبّ الدنيا بأسرها مع الحسين عليه السلام ولنصرته حينما يتحرّك لتصحيح الوضع الشاذّ آنذاك.

المبحث الثالث: مواقف في بناء الدولة والفرد

وهذا الأمر هو أحد الأسباب التي حدت بالإمام السجاد عليه السلام أن يغيّر

---

(١) الأبيات لعبد الله بن همام، وقيل: حمام، ابن نبيشة بن رياح، الملقّب بالعطّار؛ لجودة شعره. تاريخ مدينة دمشق ٣٣: ٣٥٢ ـ ٣٥٣، وفيه: لبايعنا أميرة مؤمنينا، وقد ذكر بيتين منها فقط، وكذلك ذكرهما في البداية والنهاية ٨: ٣٦٢.

جهاده إلى جهاد آخر، كان عليه السلام يطوف، فقال له رجل: تركت الجهاد وخشونته، ولزمت الحجّ ولينه؟ فقال عليه السلام له: «ويحك، أما بلغك ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله في حجّة الوداع أنه لما وقف بعرفة، وهمّت الشمس أن تغيب، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا بلال قل للناس فلينصتوا، فلما نصتوا، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن ربكم تطوّل عليكم في هذا اليوم، فغفر لمحسنكم، وشفّع محسنكم في مسيئكم، فأفيضوا مغفوراً لكم، ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[1]...»[2].

وفي رواية أنه عليه السلام قال له: «إذا وجدنا من يجاهد معنا جاهدنا». والحقيقة أن الإمام عليه السلام أخذ من واقعة الطّف درساً معبّراً أفاد به الأجيال من بعده على الرغم من أنه كان مريضاً حينها يغمى عليه ساعة ويفيق أخرى، ومع هذا فهو عليه السلام في اللحظات الأخيرة من الواقعة امتشق سيفه وخرج لينصر أباه حينما عزّ عليه الناصر.

وحتى في هذا المجال لم يسلم عليه السلام من ألسنة الحاقدين، فقد نجد هناك من يغمزه فيقول: إنه عليه السلام لم يخرج للقتال لأنه تأثر بأمه وأخواله. وهو كما رأينا غير صحيح ولا يصمد أمام النقد، وإلّا فمن الذي يقول: إن هذا المدّعي أشجع من الأمّة التي تنتمي إليها أمّ السجاد عليه السلام؟

أنموذج الصحيفة السجادية

على أية حال فالإمام عليه السلام درس ظروف الأمّة والمجتمع فوجدها غير

---

(١) البقرة: ٢٠٣.

(٢) الكافي ٤: ٢٥٧ ـ ٢٥٨ / ٢٤، ثواب الأعمال: ٤٨، تفسير أبي حمزة الثمالي: ١١٥ ـ ١١٦.

صالحة لإحداث حركة عسكرية ثانية، ووجد الناس غير مهيئين لأي تحرّك عسكري؛ فإن حصل وحدث فإن مصيره سيكون الفشل دائماً. وبهذا فإن ميدان الجهاد لم يكن مواتياً، فاتّجه عليه السلام إلى ميدان العلم والدعاء، وهو ميدان جهاد أيضاً، لكن جهاد النفس[1] والهوى، وجهاد العدوّ بسلاح العلم والعقيدة.

وعندما يمعن أحد النظر في الصحيفة السجادية يلمس فيها مكانة الإمام عليه السلام ومستواه الفكري واضحين كلّ الوضوح، ويلمس كذلك الإبداع بيّناً في نقله عليه السلام الجهاد من ساحة السيف إلى ساحة العلم والقلم والعقيدة.. من الساحة التي أصبحت عقيمة إلى ساحة المحراب الذي نسمعه فيه يناجي ربه بقوله: «اللهم من أنا حتى تغضب علي؟ فوعزّتك ما يزين ملكك إحساني، ولا يقبّحه إساءتي، ولا ينقص من خزائنك غنائي، ولا يزيد فيها فقري»[2].

إلى آخر كلماته العظيمة التي إذا تأمّلها المتأمّل وأمعن النظر فيها عرف منها موقع الإمام عليه السلام.. موقع العبد الواعي الذي يخاطب سيده العظيم الذي لا حدود لقدرته ولا انتهاء لعظمته. ومن يسمعه وهو يبثّ وجده في جذباته الصوفيّة يجدْ جدّه أمير المؤمنين عليه السلام وهو يناجي ربّه في دعائه الذي يقول فيه: «يا إلهي وسيدي وربي، أتراك معذّبي بنارك بعد توحيدك، وبعد ما انطوى عليه قلبي من معرفتك، ولهج به لساني من ذكرك واعتقده ضميري من

---

(١) وهو الذي عبّر عنه الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله بأنه «الجهاد الأكبر». انظر: الفقه المنسوب للإمام الرضا: ٣٨٠، تخريج الأحاديث والآثار ٢: ٣٩٥ـ ٣٩٦.

(٢) الصحيفة الكاملة السجّادية: ٣٨٨ / ١٦٩ ـ دعاؤه عليه السلام في التذلل.

حبّك، وبعد صدق اعترافي ودعائي خاضعا لربوبيّتك»[١].

وهو معنى رائع يستمدّ منه الخيام صورة جميلة في إحدى رباعياته فيقول:

ربّي أوعدتني بأن جزائي	لذنوبي العقابُ والنيرانُ
فتعجّبت من وعيدك هذا	وأنا باكتناهه حيرانُ
أعذابي بموطن منك يخلو	دلّني أين أين هذا المكانُ
أم مكان تحلّه ومحال	حيثما أنت رحمة وحنانُ

فهذا المعنى أصبح نبعاً يغترف منه الأُدباء وتنتجع فيه الأفكار. وهذا هو الوصف عينه الذي ينطبق على أدعية الصحيفة السجادية عينها.

أُنموذج رسالة الحقوق

وكذلك يمكن استكناه عظمة هذا الإمام الكريم واستجلاء حقيقة مواقفه الواعية والمساهمة في بناء دستور الدولة الإسلامية وقانونها من خلال الرجوع إلى رسالته الحقوقية العظيمة التي تعدّ وثيقة اجتماعية وقانونية وأدبية ضخمة ترسم للإنسان جمع ما له وما عليه من الحقوق والواجبات في هذه الحياة. وهو أيضاً نقل للجهاد من ميدانه إلى الميدان العلمي متّخذاً من مسجد الرسول الأكرم منبراً، ومن منبره صلى الله عليه وآله وسيلة إعلامية لنشر كل ذلك وإيصاله للناس. والغريب أن الأُمويّين لم يعجبهم حتى هذا الوضع، فأرسلوا له أحد أبناء عمومته ليشتمه وهو على منبر الوعظ والفتيا، فوقف عليه فشتمه وأبلغ في شتمه، ثم عاد إلى بيته، وبعد أن فرغ الإمام عليه السلام من درسه قال لأصحابه: «قوموا بنا إليه».

---

(١) مصباح المتهجّد: ٨٤٦.

فشقّ طريقه إلى بيته، وهم يظنّون أنه يريد أن يقابله بالمثل، حتى إذا وقف على باب البيت خرج إليه متوثّباً للشرّ، فقال له الإمام عليه السلام: «إنك وقفت عليّ آنفاً وقلت الذي قلت؛ فإن كان الذي قلته فيّ فغفر الله لي، وإن لم يكن فيّ فغفر الله لك». قال: سيدي، بل هو فيَّ والله وليس فيك. ثم انحنى على رجليه يقبّلهما وهو يقول: الله أعلم حيث يجعل رسالته[1].

وهكذا نجد أن هذا الرجل العظيم لا يضيره شتم من شتمه، ولا يرفع منه مدح من مدحه، وهذا هو حال الأُفق المنوهّج دوماً في طريق الحبّ والخير والكمال.

إذن اتخذت العبادة عند الإمام عليه السلام بعداً عميقاً، وقد انبسطت عنده على كل أبعاد حياته ومعطياتها.. انبسطت عنده على الكرم فكان من أكرم الناس، ويدل على هذا أن عبد الملك بن مروان قد أعاد إليه صدقات جده فراح ينفقها على فقراء المسلمين. هذا مضافاً إلى ما كان ينفقه عليهم من موارد أُخرى. وهكذا كانت يده تباري السحابة المرسلة في الجود والعطاء، وفي الوقت نفسه نجد أنه عليه السلام يكتفي بالقدر القليل من الطعام، فكان يشرف على القدور ويقول: وكان إذا حلّ وقت المغرب يشرف على القدور فيقول: «ابعثوا لآل فلان، واغرفوا لآل فلان، واعطوا آل فلان»[2].

ثم يعمد إلى رغيف من الخبز أو شيء من النباتات الصحراوية فيتغذى به.

وهذا كان ديدنه، وحتى إذا وجد في مائدته شيئاً من أطايب الطعام فإنه يؤثر به غلمانه الذين يجلسهم معه ليؤاكلوه، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إن أبي

---

(١) تهذيب الكمال ٢٠: ٣٩٧، سير أعلام النبلاء ٤: ٣٩٧.

(٢) المحاسن ٢: ٣٩٦ / ٦٧، بحار الأنوار ٩٣: ٣١٧ / ٦.

خرج إلى مال له، ومعنا ناس من مواليه وغيرهم، فوضعت المائدة ليتغدى، وجاء ظبي وكان منه قريباً، فقال له: يا ظبي، أنا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وأمّي فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، هلمّ إلى هذا الغداء. فجاء الظبي حتى أكل معهم ما شاء الله أن يأكل، ثم تنحّى الظبي، فقال بعض غلمانه: ردّه علينا. فقال لهم: لا تخفروا ذمّتي؟ قالوا: لا. فقال له: يا ظبي، أنا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وأمّي فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، هلمّ إلى هذا الغداء وأنت آمن في ذمّتي. فجاء الظبي حتى قام على المائدة، فأكل معهم، فأخذ رجل كان يأكل معه حصاة فقذف بها ظهره، فنفر الظبي، فقال علي بن الحسين عليه السلام: أخفرت ذمتي؟ لا كلمتك كلمة أبداً»[1].

فما أعظم هذا الموقف بما فيه من إيجابية ورحمة وعاطفة!

وتكمن إيجائيته في احترام السنن التي تعتبر من القيم الأخلاقية التي يعتز بها كل إنسان، وهو أمر مشهود له في تاريخنا العربي والإسلامي. سيما مسألة الجوار التي اشتهر العرب بها، ومن ذلك ما يروى أن عدي بن حاتم كان إذا رأىٰ قرية من النمل رجع وفتّ لها الخبز ولا يترك النمل جياعاً ويقول: هؤلاء جيراني[2].

فهو يجد من نفسه أنه مسؤول عن إعالتها وتوفير الطعام لها، وحفظ جوارها. وهذا الموقف فيه الكثير من القيم التي ينبغي الحفاظ عليها واحترامها. فالإمام عليه السلام يقول لهذا الغلام: «أخفرت ذمتي؟ لا كلمتك كلمة أبداً»؛ لأنه يرى ضرورة احترام هذه القيم والمحافظة عليها. وكان عليه السلام يشتري العبيد والجواري، فإذا جاءت ليلة العيد جمعهم وقال لهم:

(١) كشف الغمة ٢: ٣٢٠ ـ ٣٢١، بحار الأنوار ٤٦: ٤٣ ـ ٤٤ / ٤٢.

(٢) بحار الأنوار ٦١: ٢٤٢، تاريخ مدينة دمشق ٤٠: ٨٨، ٨٩.

ارفعوا أيديكم وقولوا: اللهمّ اعفُ عن علي بن الحسين كما عفا عنّا». فيعتقهم ويعطيهم شيئاً من المال ويأمرهم بالعمل، ويقول لمن يعطيه: «استعن بها علىٰ دهرك، أصلح الله لك أمرك فيها»[1].

وبهذا نرى أنه عليه السلام كان يجسّد العبادة في أخلاقه، فكانت عبادته تنبسط على كل أبعاد حياته في شتى جوانبها.

الإمام عليه السلام يشجّع الكلمة المقاتلة

وهناك ظاهرة في حياة الإمام عليه السلام ينبغي التوقف عندها، وهي ظاهرة قد تكررت في حياة آبائه وأبنائه عليهم السلام، وهي أن الإمام عليه السلام في الوقت الذي لم يسلّ فيه سيفاً أو ينتضِ حساماً ويقاتل به نجد أنه قد شجّع الكلمة المقاتلة، ودفع بها إلى ساحة الجهاد، وشجع الفكرة المقاتلة أيضاً. ومن هذا ما رأيناه واضحاً في موقف الفرزدق أمام الوليد في الكعبة المشرفة، فهو لم يكن يقول شعراً وإنما كان يطلق سهاماً تفتك في خاصرة العدو. فالفرزدق وقف أمام الكعبة وراح ينتضي سهاماً يشجب بها أفعال أعداء آل محمد ويجابههم بها، ويمدح آل بيت الرسول صلى الله عليه وآله، ويعضد قول الإمام عليه السلام. فهو يقول:

هـذا الذي تـعرف البطحاءُ وطأتَـهُ	والبـيت يـعرفه والحـلّ والحـرمُ
هـذا ابـنُ خـيرِ عـبادِ الله كـلِّهِمُ	هـذا التـقيُّ النـقيُّ الطـاهرُ العَلَمُ
وليس قـولُك مَـن هـذا بـضائره	العُربُ تـعرفُ من أنكرتَ والعـجمُ
فـي كـفه خَـيزُرانٌ ريـحُهُ عَـبِقٌ	مـن كـفّ أروعَ فـي عِرنينِه شَـمَمُ

(١) الصحيفة الكاملة السجّاديّة / دعاؤه عليه السلام في آخر ليلة من شهر رمضان. الإقبال بالأعمال الحسنة ١: ٤٤٤، بحار الأنوار ٤٦: ١٠٤، ٩٥: ١٨٧.

يُغضي حياءً ويُغضَى من مَهابَتِهِ فلا يُكَلَّمُ إلّا حين يبتسمُ

يكادُ يُمسِكُهُ عِرفانُ رَاحَتِهِ رُكنُ الحطيمِ إذا ما جَاءَ يَستَلِمُ

إلى آخر هذه القصيدة الرائعة التي أغضبت هشاماً منه، فمنع جائزته وقال له: ألا قلت فينا مثلها؟ فقال: هات جدّاً كجدّه، وأباً كأبيه، وأمّاً كأمّه؛ حتى أقول فيكم مثلها. فحبسه بعسفان بين مكة والمدينة. وهي القصيدة التي جعلت الإمام عليه السلام يُخرج نفقته التي جعلها لأهل بيته ـ وقد بلغه حبسه ـ وهي اثنا عشر ألف درهم ويبعث بها إليه، ويقول له: «اعذرنا يا أبا فراس، فلو كان عندنا أكثر من هذا لوصلناك به». فردّها وقال: يابن رسول الله، ما قلت هذا الذي قلت إلّا غضباً لله ولرسوله، وما كنت لأرزأ عليه شيئاً. فردها إليه الإمام عليه السلام وقال: «بحقي عليك لما قبلتها فقد رأى الله مكانك وعلم نيّتك». فقبلها[1].

وهذا الموقف يجب أن نلتفت إليه على أنه ليس ظاهرة تميّز حياة الإمام فقط، بل إنها تمتدّ لتشمل حياة جميع الأيمة عليهم السلام؛ فالإمام الرضا عليه السلام يعقد مجلساً خاصاً لتائية دعبل الخزاعي، ويطلب منه أن يقرأها له. وهذه التائية لم تكن مرثية بقدر ما كانت سيفاً مقاتلاً وكلمة مجاهدة، يقول فيها:

تجاوبن بالأرنان والزفراتِ نوائح عجم اللفظ والنطقاتِ

وما جرّأت تلك المهازل بينهم على الناس إلّا بيعة الفلتاتِ

فأجازه على ذلك[2].

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٦.

(٢) كشف الغمّة ٣: ١١٣، بحار الأنوار ٤٩: ٢٤٦. ويريد بـ «بيعة الفلتات» بيعة أبي بكر،

وهو شعر نلمس فيه فكراً مقاتلاً. وبهذا نجد أن الإمام عليه السلام يعضد هذا الموقف إذ تعذّر عليه أن يستنهض من يريد استنهاضه، أو أن يعبّر عما يوجب النهضة. وهذا الموقف نفسه يتكرر في شعر أبي فراس الحمداني في انتقاد العباسيّين ومجاهدتهم ومناوأتهم، فروح الإمام السامية أوحت بالكثير من الفكر المجاهد لشعراء الشيعة، فتجسد شعراً على ألسنتهم، فنهضوا بالكلمة المقاتلة إذ أعوزهم أن ينهضوا بالسيف. وميمية أبي فراس هي في الواقع أكبر من أن يعطيها الوصف حقّها، يقول (رضوان الله تعالى عليه) فيها:

الدين مخترم والحقّ مهتضمُ ... وفيء آل رسول الله مقتسمُ

فأي قتال أعظم من هذا؟ وأي جهاد أعظم من أن يقول:

يا باعة الخمر كفوا عن مفاخركم ... لمعشر بيعهم يوم الهياج دمُ

تُنشا التلاوة في أبياتهم سحراً ... وفي بيوتكم الأوتار والنغم

منكم علية أم منهم وكان لكم ... شيخ المغنّين إبراهيم أمْ لهمُ[1]

وهذه القصيدة يأخذ فيها الشاعر بأطراف الأهداف التي كانت جميعها تعتمل بداخله؛ ليسكبها في قالب من الشعر.

المبحث الرابع: الآثار الجانبية لواقعة الطف وأثرها على الإمام عليه السلام

إذن فحياة أيّمة أهل البيت عليهم السلام ذات أبعاد عظيمة لا يمكن لمن يخوض فيها أن يوفّيها حقّها، فهي روضة من رياض الجنة، لكنها في الجانب

حيث قال عمر عنها: ألا وإنها قد كانت كذلك. ولكن الله وقى شرّها. مسند أحمد ١: ٥٥، صحيح البخاري ٨: ٢٦ ـ ٢٧.

(١) ديوان أبي فراس الحمداني: ٢٥٥.

المقابل المعتم لهذه الدنيا تعد مأتماً، وقد جمع الإمام عليه السلام بين هاتين الصفتين المتضادّتين في حياته، فهو عليه السلام من جانب يعد مدرسة وعطاء ثرّاً وميداناً علمياً واسع النطاق بعيد الشأو، يأخذ بيد مرتاده إلى ميدان الخلد وجنة الأمان، ومن جهة ثانية كان يعيش آلام الطفّ لحظة لحظة، فلم تكن لتفارق ذهنه صورها المأساوية والجرائم البشعة والانتهاكات الفظيعة لحقوق الإنسان وحرمات الدين وكرامة الإسلام التي ارتكبها الأمويّون وأزلامهم ضدّ الدين الإسلامي الحنيف وصاحبه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم متمثّلاً بعترته أهل بيته عليهم السلام.. بريحانته من الدنيا ومن كان جزءاً منه.. الإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام. لقد كان عليه السلام من جهة ميداناً اجتماعياً رائعاً، ومصلحاً ومربّياً فذّاً تخرّج منه ثلّة خيّرة استطاعت أن توصل الإسلام الصحيح إلى الناس، ومن جهة أخرى كان دمعة جارية وهو يتذكّر مصاب سيد الأحرار والشهداء أبي عبد الله الحسين عليه السلام؛ دخل عليه أبو حمزة الثمالي فقال له: سيدي إن القتل لكم عادة، وكرامتكم من الله الشهادة، إن جدّك صلى الله عليه وآله وسلم قتل وأباك عليه السلام قتل. فقال: «شكر الله سعيك يا أبا حمزة، إن يعقوب نبي وابن نبي فقد ولداً واحداً، وهو يعرف أنه حي، لكنه كل يوم يسأل ملك الموت: هل مرّت بك روح يوسف الذي كنت أوسّده بيميني وأدثّره بشمالي؟ وأنا رأيت أهل بيتي مجزّرين كالأضاحي تسفي عليهم الذاريات.».

وأكثر من هذا إيلاماً أنه يقول: «ووالله ما نظرت عيناي إلى عمّاتي وأخواتي إلّا وذكرت فرارهن يوم عاشوراء من خباء إلى خباء، ومن خيمة إلى خيمة، والمنادي ينادي: أحرقوا بيوت الظالمين».

وهي مناظر كانت بالفعل تعيش مع الإمام عليه السلام، فكان عليه السلام حينما يوضع الماء أو الطعام بين يديه يطيل النظر إليه، وكانت له قصة أخرى مع الماء،

وهو فصل عتابه مع الفرات حيث مرّ به يوماً، فقال يخاطبه: «إلى الآن تجري يا فرات وقد قتل عندك ابن بنت رسول الله ظمآناً؟ إلى الآن تجري يا فرات وقد سقط آل رسول الله إلى جانبك؟»:

يا من إذا ذكرت لديه كربلا … لطم الخدود وللمدامع أهملا

وإذا مررت على الفرات فقل ألا … بعداً لشطّك يا فرات فمرّ لا

ومرّ يوماً فسمع أحد القصّابين يقول لغلامه: أسقيت هذا الكبش ماء؟ فلفتت العبارة نظر الإمام عليه السلام، فقال له: «أنتم معاشر القصّابين لا تذبحون الكبش حتى تسقوه الماء؟». قال: بلى سيدي. فأدار وجهه إلى جهة كربلاء وصاح: «وأبه يا أبه، الكبش لا يُذبح حتى يُسقى الماء، وقد قتلت إلى جانب الفرات ظمآناً»:

أشرب لذيذ الماي حاشا … واهلي ڭظوا كلّهم عطاشى



﴿٤٣﴾

نفحات من سيرة السجّاد عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ
وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ
وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: تعاقب الجملتين الخبرية والإنشائية

هناك بعض الأساليب في لغتنا تأتي بصورة أُسلوب آخر؛ لأُمر يقتضيه الباب، أو مراعاة لضوابط البلاغة، أو لأُمر يريده المتكلّم. ومن هذا آية المقام؛ حيث إنها ذكرت بعضاً من أخلاقيات المؤمنين بصورة الجملة الخبرية مع أن المراد منها الجملة الإنشائية، أي أنها تحثّ الناس على فعل هذه الأُمور والاتّصاف بهذه الأُوصاف. ويلاحظ أن هناك فرقاً بين الأُسلوبين، فنحن تارة نجد القرآن يحثّ ويأمر بصورة الأمر المعهودة (الجملة الإنشائية) كقوله تعالى: ﴿أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾[3]، وتارة يأمر ويحثّ بأُسلوب الجملة

---

(١) آل عمران: ١٣٤.
(٢) البقرة: ٤٣.
(٣) البقرة: ٢٣٨.

الخبريّة كما قلنا، كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[١]. فهذا الأُسلوب يطلق عليه اسم الأمر بصيغة الخبر.

وهكذا الأمر في هذه الآية الشريفة، فهي حينما تقول: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، فإنها ليست في معرض تصوير حالة شريحة من الناس وأن صفتهم كذا وكذا، وإنما تريد أن تحثّنا على فعل هذه الأُمور والاتّصاف بهذه الصفات. فهي تأمرنا بفعل هذه الأُشياء، وتقول لنا: إن هذه الأُوصاف الواردة ممّا يجب أن يفعله كل من يريد أن يكون مؤمناً.

وقد سُلسلت هذه الصفات على النحو التالي: الإنفاق في السرّاء والضرّاء، كظم الغيظ، العفو عن الناس، الإحسان إلى الناس بعد العفو عنهم، ثمّ كُلّلت هذه الصفات بأن اللّه يحب من يحسن إلى غيره.

المبحث الثاني: نفحات من السيرة العطرة

ونحن إذ نحتفل هذه الليلة بذكرى استشهاد زين العابدين وسيّد الساجدين الإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام، فمن نافلة القول أن نذكر عنه عليه السلام أنه مدرسة القرآن، أو أنه عدل القرآن؛ لأن أهل بيت النبوة عليهم السلام جميعهم هم مدارس قرآنية وهم عدل القرآن[٢]. فالشيء الذي ينبغي أن يُركز عليه وأن يؤكّد في أذهان الناس أنهم عليهم السلام ما افترقوا لحظة عن

---

(١) المؤمنون: ١ ـ ٢.

(٢) بنص قول رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب اللّه حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً. ولقد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض». فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، وغيرها كثير

أخلاق القرآن الكريم ولا بعُد القرآن الكريم عن أخلاقهم أبداً. وسيمرّ علينا هذا المعنىٰ خلال مراحل البحث إن شاء الله.

ولادته الشريفة (سلام الله عليه) وإخوته

لقد ولج الحياة سنة ثمانٍ وثلاثين من الهجرة، ويبدو أنه باكورة أولاد الإمام الحسين عليه السلام، لأن عليّاً الأكبر عليه السلام هو ليس كذلك بل ـ كما يقول الشيخ الطبرسي ـ: «إنه الأصغر، والناس يسمونه الأكبر خطأ، والأكبر هو الإمام السجاد عليه السلام»[1]. ويأتي بعد علي الأكبر جعفر وأُمه من قضاعة. وقد توفي جعفر هذا في حياة أبيه الحسين عليه السلام.

ثمّ عبدُ الله الرضيع الذي استشهد يوم الطفّ. وابنتان هما رقية وفاطمة.

قضية دخول التشيع إلىٰ إيران

فالسجاد عليه السلام بناء علىٰ هذا هو أكبر أبناء الحسين عليه السلام من زوجته بنت يزدجر.

ويذهب الطبرسي إلىٰ أن بنات يزدجرد اثنتان: واحدة تزوّجها محمد بن أبي بكر رضي الله عنه، وقد ولدت له القاسم الذي يعتبر أحد فقهاء المدينة. والثانية تزوّجها الإمام الحسين عليه السلام فأنجبت له الإمام زين العابدين عليه السلام[2].

ولقد دارت حول هذا الزواج مناقشات ومطارحات عكست العقليّة الهمجية وعقلية التشنّج الغريبة التي كان ولا زال البعض عليها. فكثير من المؤرّخين والكتّاب يعتبرون دخول التشيّع إلىٰ إيران لهذا السبب، حيث إنهم يعزون دخول التشيّع لهذا البلد إلىٰ زواج الإمام الحسين عليه السلام من امرأة

(١) إعلام الورىٰ بأعلام الهدىٰ ١: ٤٧٨. (٢) إعلام الورىٰ بأعلام الهدىٰ ١: ٤٨٠ ـ ٤٨١.

فارسية، فأصبحوا أصهار أمير المؤمنين عليه السلام، فكان هذا عاملاً رئيساً في دخول التشيّع إلى مجتمعهم.

والحقيقة أن هذا النمط من التفكير يجعل أولادنا يسخرون منا، ذلك أن هؤلاء الذين يكتبون مثل هذا ليسوا كتّاباً عاديين وإنما هم معروفون ومشهورون مثل أحمد أمين، وهو كاتب رائع ومنتج، لكن الهوى إذا أراد أن يتحكّم بقلم الكاتب فإنه يجعل منه قلماً أبله و« يهرف بما لا يعرف». وإلّا فليس من المعقول أن يكون رجل بهذه الدرجة من العمق والإحاطة، ثمّ يقول: إن أمّة بكاملها تشيّعت لأن الإمام الحسين عليه السلام تزوّج إحدى بناتها.

ويحقّ لنا هنا أن نقاضيه فنقول: لماذا لم يصبحوا على مذهب التسنّن لأن محمد بن أبي بكر قد تزوّج من أخت التي تزوّج منها الإمام الحسين عليه السلام، وبالتالي أصبحوا أصهار أبي بكر؟ فحكم الأمثال فيما يجوز وما لا يجوز واحد.

وهناك رواية أخرى تقول: إن بنات يزدجر كنّ ثلاثة، وقد تزوّج الثالثة عبد الله بن عمر[1]. وهذا يدعّم الإشكال الذي طرحناه آنفاً وهو لماذا لم يتسنن الإيرانيون؟ فالدائرة السنية أصبحت أوسع هنا حيث تزوّجت إحداهن محمد بن أبي بكر فأصبحوا أصهار أبي بكر، وتزوّجت الثانية عبد الله بن عمر فأصبحوا أصهار الخليفة عمر بن الخطاب. وهذا يؤدّي بنا إلى نتيجة هي أن التشيّع لم يكن عاطفيّاً، ولم ينشأ عن عامل عاطفي.

ثمّ إن التشيع أقدم من هذا بكثير، فهو أمر قد حدث في زمن الفتوحات الإسلامية الأولى، ومنذ أن فتح الري؛ حيث كان هناك أفراد ـ وإن كانوا

(١) البداية والنهاية ٩: ١٢٢.

قلائل ـ في الجيش الإسلامي ممن يحملون الحبّ والولاء لآل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فكان أن انتشر التشيّع بهذه الصورة في إيران.

وفوق هذا فإن هناك بعضاً من الكتاب ممّن يصرّون على أن التشيّع في إيران أيام الصفويين قام بهذه الصورة وبالسيف والدم. مع أن الواقع ليس كذلك؛ لأن العقائد التي تفرض بالدم ستضمحلّ وتذوب وتزول، فالفكر إذا لم يأخذ طريقه الطبيعي بشكله المألوف فلن يخلد ولن يتجدد أبداً.

نشأة السجاد عليه السلام

لقد ولد (صلوات الله وسلامه عليه) في فترة من أحرج الفترات التي مرّت على أمير المؤمنين عليه السلام، فقد أبصر النور بعد مضيّ سنة واحدة على تسنّم الإمام بالحق أمير المؤمنين عليه السلام تقاليد الحكم، وهكذا يكون عليه السلام قد عاش ثلاث سنوات مع جدّه أمير المؤمنين عليه السلام، وهي فترة تميّزت بأن الأحداث فيها كانت تشكّل وتمثّل قمّة الصراع وحمّة الكفاح بين الحق والباطل؛ فأمير المؤمنين عليه السلام ـ كما هو معلوم ـ قضى سنوات حكمه كلّها في القضاء على الفتن الداخلية والحروب الجائرة التي استعرت ضدّه، فهو عليه السلام لم يُلقِ بيضة الحرب عن رأسه أبداً. وفي هذه الفترة التي كان السجاد عليه السلام فيها في حجر أبيه الحسين عليه السلام كان يلقى رعاية خاصّة وتمهيداً بيّناً من قبل أبيه عليه السلام مع انشغاله التام في الحروب مع أمير المؤمنين عليه السلام.

وبعد انتقال أمير المؤمنين عليه السلام إلى الرفيق الأعلى بجوار ربّه راضياً مرضيّاً مرّت أدوار أُخرى على الإمام السجاد عليه السلام، وكانت من أحرج الأدوار التي مرّت على أهل بيت الرسالة ومختلف الملائكة، ولعلها السنوات الأصعب في تاريخهم سيما تلك السنون التي شهدت مقتل سيد شباب أهل الجنة عليه السلام.

ونقول: أحرج ما مرّ علىٰ أهل البيت عليهم السلام لأن معاوية هو الذي جاء للحكم بعد أمير المؤمنين عليه السلام والفترة القصيرة للإمام الحسن عليه السلام، وما أدراك ما معاوية، صاحب الدور الذي لم يقتصر علىٰ إشهار السيف بوجه الحق وإعلان الحرب عليه، وإنما مارس أمراً أبعد من ذلك ودوراً أخطر، فقد أعلن حرباً فكرية وثقافية علىٰ أهل البيت عليهم السلام عبر ما كان يفعله عامداً من تزوير الحقائق وتحريف سنة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله. وهكذا عمد إلىٰ جملة من المعلومات الفكرية والحقائق التاريخية، فأبعدها عن متناول الأيدي عبر تزوير الأحاديث والحقائق وإخفاء بعضها بتهديد رواتها بالقتل إن حدّثوا بها، وكذلك بإحراق الكثير من الكتب، وسجن الكثير من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وتعريضهم لأشد أنواع التعذيب والتنكيل بهم[1].

ملامح فترة شبابه عليه السلام

وقد عاش هذه الفترة الحرجة الإمامُ الحسن والإمامُ الحسين عليهما السلام ثمّ من بعدهما الإمامُ السجاد عليه السلام، وتعرّضوا لآلامها ومآسيها، وقد تركت بصماتها السيئة علىٰ تاريخنا حتىٰ الوقت الحاضر؛ إذ لازال الكثير من الكتاب والمؤرخين واقعين تحت تأثيرها السلبي.

أولاده عليه السلام

وكما مرّ قبل قليل فإن أشدّ أيام هذه الفترة هي فترة وقعة الطف التي

(١) كقتله حجر بن عدي، وميثماً التمّار، وسعيد بن جبير، ومالكاً الأشتر حيث دسّ له السمّ وهو في طريقه إلى مصر بعد أن قلده إيّاها أمير المؤمنين عليه السلام، وغيرهم، وتهديده آخرين في مجلسه كما حدث مع جارية بن قدامة السعديّ، والوليد بن جابر بن ظالم الطائي، وصَعصَعة ابن صُوحان العبدي، والطرمّاح بن الحكم الباهلي، وشريك بن الأعور الحارثيّ الهمدانيّ رحمه الله، حيث كانت لهم مواقف مشرّفة في الدفاع عن أمير المؤمنين عليه السلام في مجلسه.

كان عمره فيها ثلاثة وعشرين عاماً، وكان متزوّجاً، وكان أوّل أبنائه اسمه عبد الله على رواية، وفي رواية أُخرى أنه الإمام الباقر عليه السلام.

وكان له خمسة عشر ولداً: أربع بنات، وأحد عشر ابناً. وأبرز أولاده أربعة: الإمام الباقر عليه السلام امتداد مدرسة جدّه صلى الله عليه وآله، ثمّ زيد ثمّ عمر، ثمّ عبد الله.

وكان زيد من فقهاء أهل البيت عليهم السلام المعدودين. ويحاول البعض أن يثبت أن هناك تأثراً منه بأبي حنيفة حينما ينقل مطابقة رأيه لرأي أبي حنيفة. وللحقيقة نقول: إن المسألة ليست مسألة تأثّر وتأثير بقدر ما هي موافقة آراء الفقهاء من غير مذهب أهل البيت عليهم السلام مع فقههم (سلام اللّه عليهم)، وإلّا فمن غير المعقول القول: إن زيد بن علي سليل أمير المؤمنين عليه السلام قد تأثّر بمدرسة خارج مدرسة آبائه وأجداده.

المدارس الفقهية في تاريخ الفقه الإسلامي

ومعلوم أن هناك أكثر من مدرسة فقهية مرّت في تاريخ تشريعنا، ولعل أبرزها مدرستان:

الأولى: مدرسة الرأي وأبرز ملامحها

وهي مدسة تُخضع النصّ الشرعي للمصلحة، وتسترشد بالمصلحة في النص، وكمثال على ذلك ما فعله الخليفة الثاني حول زكاة المؤلّفة قلوبهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾[1]، ففرض رسول الله صلى الله عليه وآله لهؤلاء المؤلّفة قلوبهم بأمر اللّه سهماً، لكن حينما جاء الخليفة الثاني قال: إنما فرض اللّه سهماً

---

(١) التوبة: ٦٠.

لهؤلاء؛ لأن الإسلام كان ضعيفاً، فهو تعالى يريد أن يقي المسلمين شرّهم، أما وقد قوي الإسلام الآن فلا حاجة له بهم. فمنع هذا السهم عنهم. فقيل له في ذلك: إنك إنما تخالف النص. فأجابهم بأنه يسترشد بروح النصّ.

وهذا أشبه شيء بما ينقله الدكتور أحمد أمين باستخدامنا المعاصر حينما نقول: إن فلاناً يتصرّف بروح القانون لا بنصّ القانون. فكأنه يريد أن يقول لهم: إن هذه هي العلّة التي يدور عليها التشريع وجوداً وعدماً، فلمّا انعدمت العلّة لم يكن ضرورة لإعطاء هذا السهم[1]. والحال أنه ليس كذلك، وقد خالفه الصحابة فيه. فهؤلاء ـ ومنهم أبو سفيان ـ كان الرسول صلى الله عليه وآله يتألّف قلوبهم بالأموال ليقي المسلمين شرّهم.

فقول عمر بأنه يسترشد بروح النص يعتبر مثالاً واضحاً على مدرسة الرأي. وهذا القول نقله عنه أحمد أمين الذي علق عليه بعد ذلك بقوله: إنه أشبه شيء بالاسترشاد بروح القانون الآن. فالخليفة الثاني كان بطل هذه المدرسة بتعبيره، أما أبو حنيفة فكانت مدرسة الرأي هي الغالبة على تفكيره وهو ما اتخذته مدرسة الكوفة بعد ذلك منهجاً لها، لكن يبقى أبو حنيفة من أبرز أصحاب هذه المدرسة.

الثانية: مدرسة المأثور

وهي المدرسة التي يُمثلها الإمام الباقر عليه السلام ومن قبله آباؤه عليهم السلام، والتي تلمذ لها زيد بن علي. والأحكام وفق هذه المدرسة تؤخذ من القرآن الكريم والسنة والنبوية الشريفة. دخل رجل على الإمام الباقر عليه السلام فسأله عن الحكم الشرعي إذا لم يجده في القرآن، فمن أين يأخذه؟ فأجابه عليه السلام

---

(١) بحار الأنوار ١٨: ١٨٢، وقريب منه ما في تاريخ الطبري ٢: ٦٧، البداية والنهاية ٣: ٦٣.

بأنه حينئذٍ سيجده في السنّة الشريفة. فقال: فإن لم أجده؟ قال: «ليس من شيء غير موجود في كتاب الله وسنّة نبيه». فاللّه عزّ وجلّ ما فرّط في الكتاب من شيء[1]. فالأحكام الشرعيّة التي نحتاجها موجودة كلّها في القرآن الكريم وفي السنّة النبويّة الشريفة.

الشيعة هم أهل السنة

وهنا أمر يُثير العجب في النفس وهو أن غير الشيعة يُسمون أهل السنة، مع أن مدرسة المأثور هي مدرسة أهل البيت عليهم السلام. فالشيعة هم أولىٰ بأن يسموا أهل السنة لتمسّكهم بأحاديث الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والأيمّة المعصومين عليهم السلام في استنباط أحكامهم الشرعية، ولم يجنحوا إلىٰ الرأي أو القياس وغيرهما.

وعليه فإن زيد بن علي لا يمكن أن نقول عنه: إنه قد تأثر بفقه أبي حنيفة؛ لما قدمنا من أن فقه زيد قائم علىٰ الأخذ بالمأثور وفقه أبي حنيفة قائم علىٰ الأخذ بالاستحسان والقياس والمصالح المرسلة، وغيرها من النظريات الكثيرة التي لم تكن معمولاً بها عند أهل البيت عليهم السلام وعند أتباعهم.

أما الولد الثالث للإمام السجاد عليه السلام فهو عمر، وكان يُعتبر من الرواة الذين رووا عن أبيه السجاد وأخيه الباقر عليهما السلام، وروىٰ عن عمّته فاطمة.

وأما الولد الرابع فهو عبد اللّه بن علي، ويعتبر من فقهاء أهل البيت عليهم السلام، وكان يتولىٰ صدقات جدّه أمير المؤمنين عليه السلام.

(١) قال الله جلّ وعلا في كتابه: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ الأنعام: ٣٨.

نشاطه العلمي

كان (سلام اللّه عليه) يجلس في مسجد رسول اللّه صلى الله عليه وآله في المدينة للفتيا وتعليم الناس. وغير خفي أن إمامته في زمن أبيه كانت محجوبة، لكنه لم يكن بالذي يتوانىٰ عن أداء دوره ورسالته اللذين أناطتهما السماء به.

الحكام الأمويون الذين عاصرهم الإمام السجاد عليه السلام

لقد عاصر عليه السلام في طفولته معاوية بن أبي سفيان ثمّ ابنه يزيد ثمّ ابنه معاوية ابن يزيد الذي لم تطل مدّة خلافته، حيث إنه لم يبقَ في الحكم سوىٰ أربعين يوماً؛ إذ أنه خلع نفسه بعدها قائلاً: إني أروي عن النبي صلى الله عليه وآله أن الخلافة محرّمة علينا، فإذا كان أبي وجدي قد تحمّلا هذا الوزر فأنا لا أستطيع أن أتحمله. ومن أراد أن يتثبّت من هذا فلينظر (حياة الحيوان)[1]

(١) حياة الحيوان ١: ٨٨ ـ ٨٩، وقد جاء في خطبته: أيها الناس ما أنا بالراغب في الائتمار عليكم لعظيم ما أكرهه منكم. وإني لأعلم أنكم تكرهوننا أيضاً لأنا بلينا بكم وبليتم بنا.
ألا إن جدي معاوية قد نازع في هذا الأمر من كان أولىٰ به منه ومن غيره؛ لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وآله وعظم فضله وسابقته، وهو أعظم المهاجرين قدراً وأشجعهم قلباً وأكثرهم علماً وأولهم إيماناً وأشرفهم منزلة وأقدمهم صحبة، ابن عم رسول اللّه صلى الله عليه وآله وصهره وأخوه، زوّجه صلى الله عليه وآله ابنته فاطمة، وجعله لها بعلاً باختياره لها وجعلها له زوجة باختيارها له، أبو سبطيه سيدي شباب أهل الجنة وأفضل هذه الأمة، تربية الرسول وابني فاطمة البتول من الشجرة الطيبة الطاهرة الزكية. فركب جدي معاوية منه ما تعلمون وركبتم معه مالا تجهلون، حتىٰ انتظمت لجدي الأمور.
فلما جاءه القدر المحتوم واخترمته أيدي المنون بقي مرتهناً بعمله فريداً في قبره، ووجد ما قدمت يداه ورأىٰ ما ارتكبه واعتداه، ثمّ انتقلت الخلافة إلىٰ يزيد أبي، فتقلد أمركم لهوىً كان أبوه فيه، ولقد كان أبي يزيد بسوء فعله وإسرافه علىٰ نفسه غير خليق بالخلافة عن أمّة محمد صلى الله عليه وآله، فركب هواه، واستحسن خطاه، وأقدم علىٰ ما أقدم من جرأته علىٰ اللّه، وبغيه علىٰ من استحل حرمته من أولاد رسول اللّه صلى الله عليه وآله، فقلّت مدته وانقطع أثره وضاجع عمله،

للدميري في ترجمته لهذا الرجل.

ولما خلع نفسه وعاد إلىٰ منزله، استقبلته اُمّه قائلة: ليتك كنت حيضة ولم أسمع بخبرك. فقال لها: وددت واللّه ذلك. ثمّ قال: ويلي إن لم يرحمني ربي.

ثمّ إن بني اُميّة قالوا لمؤدّبه عمر المقصوص: أنت علّمته هذا ولقنته إياه، وصددته عن الخلافة، وزيّنت له حبّ علي وأولاده، وحملته علىٰ ما وسمنا به من ظلم، وحسّنت له البدع حتىٰ نطق بما نطق وقال ما قال. فقال: واللّه ما فعلته، ولكنه مجبول ومطبوع علىٰ حبّ علي. فلم يقبلوا منه ذلك، وأخذوه ودفنوه حياً حتىٰ مات.

وعاصر (سلام اللّه عليه) بعد معاوية بن يزيد مروان الذي لم يطل حكمه أيضاً فقد كانت فترة حكمه ستة أشهر، وكانت كما عبر عنها أمير المؤمنين عليه السلام «كلعقة الكلب أنفه»[1].

ثمّ جاء بعد ذلك حكم ابنه عبد الملك بن مروان الذي وطدّ عصر المروانيين وعهدهم، وثبّت حكمهم. وهو الذي يروىٰ عنه أنه وصّىٰ ابنه بوصيّة جاء فيها: لا تقعد بعد موتي تعتصر دموعك كالأمة الوكعاء، جرّد سيفك؛ فمن قال لك برأسه هكذا، فقل له بسيفك هكذا[2].

والغريب أن بعض المسلمين يأخذون أحكامهم الشرعيّة عن هذا

وصار حليف حفرته رهين خطيئته، وبقيت أوزاره وتبعاته، وحصل علىٰ ما قدم، وندم حيث لا ينفعه الندم، وشغلنا الحزن له عن الحزن عليه: فليت شعري، ماذا قال وماذا قيل له؟ هل عوقب بإساءته وجوزي بعمله وذلك ظني؟

إلىٰ أن قال: واللّه لئن كانت الخلافة مغنماً، فلقد نال أبي منها مغرماً ومأثماً، ولئن كانت سوءاً فحسبه منها ما أصابه.

(١) نهج البلاغة / الكلام: ٧٣.

(٢) تاريخ خليفة بن خياط: ٢٠٩، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٨١، البداية والنهاية ٩: ٧١، ١٨٣.

الرجل، بل ويعتبرونه من الفقهاء، وأنكئ من ذلك أن كثيراً منهم لا يروي عن الحسن والحسين عليهما السلام ويروون عنه ظناً منهم أنه أكثر وثاقة. يقول عميد إحدىٰ الكليّات الإسلاميّة: إنما لم يروِ البخاري عن الصادق لأنه لم يجد طريقاً صحيحاً إليه[1]. فالبخاري وغيره إنما لم يرووا عن الصادق عليه السلام ورووا عن غيره؛ لأنهم لم يجدوا طريقاً صحيحاً واحداً اليه عليه السلام من وجهة نظر هذا.

وهذا إدّعاء عجيب وغريب فإننا نقرأ في تاريخنا عن الحسن الوشّاء أنه قال: «دخلت إلىٰ مسجد الكوفة، فوجدت أربعة آلاف شيخ كلاً يقول حدثني جعفر بن محمد الصادق عليه السلام»[2].

وهذا إن دلّ علىٰ شيء فإنما يدلّ علىٰ عظمة مدرسة هذا الإمام العظيم، وضخامتها العلمية علىٰ شتىٰ الأصعدة؛ سواء الفقهية منها أو الكلامية أو التفسيرية، أو غير ذلك من أنواع العلوم. فهل يقال لمثل هذه المدرسة ولمثل هذا الإمام العظيم بأنه لا يوجد طريق واحد صحيح إليه حتىٰ يُروىٰ عنه، ويقال في الطريق إلىٰ عبد الملك: إنه طريق صحيح؟ إن هذه مفارقات عجيبة في تاريخنا المدوّن. وهذا طبعاً لا يضير الإمام الصادق عليه السلام أو غيره من أيمة أهل البيت عليهم السلام بشيء، وهذا الشعار لا ولن يدنّس مقدار شعرة شيئاً من فيوضات أهل البيت عليهم السلام، أما قارئ هذا التاريخ المزوّر فهو الذي سيتضرّر به؛ لأنه سيشرب من منبع ملوّث.

وكل هؤلاء الذين عاصروا الإمام عليه السلام كانوا يمثّلون الخطّ المعادي

---

(١) سيأتي بيان هذا وردّه في محاضرة (دور الروايات الإسرائيلية وأثرها في تراثنا) ج٦ ص ١٣١ ـ ١٥٥.

(٢) رجال النجاشي: ٤٠ / ٨٠، وفيه: تسعمئة شيخ.

للإسلام والخطّ الذي حاول هدم الإسلام؛ ولذا فإنها كانت فترة صعبة وعصيبة بكل ما تحمله من شدّة وقسوة وأحداث رهيبة مروّعة[1].

تهمة عدم استغلاله الفرص في الثورة على الأمويين

لقد اصطدم الإمام السجاد عليه السلام في حياته بالكثير من الأحداث والاتّهامات، فواجهها بمنتهى الحكمة والحصافة. ومن هذه التّهامات أنه عليه السلام لم يستغل الفرص التي سنحت له بعد ذلك استغلالاً كاملاً في الثورة على الأمويين.

وهذه التهمة والمواجهة هي أوّل السهام التي رمي عليه السلام بها، فهؤلاء يقولون: إن الإمام عليه السلام لم يستغلّ كلّ الفرص التي سنحت له، وكان بإمكانه استغلالها لصالح خطّ الحق ضد الأمويين؛ من قبيل واقعة الحرّة التي كان بوسعه أن يشارك فيها بشكل فاعل؛ لأنه موتور من الأمويين، وقد أصبح أمامه خصم قوي مناهض للأمويين، وكان من الممكن أن يؤدّي دخوله في الحركة إلى قلب الموازين لصالح هذه الحركة.

وهذا كلام غير صحيح؛ لأن الإمام عليه السلام كان أعرف من غيره بتكليفه. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية أن هذا التدخّل ينبغي أن يكون مبتنياً على خطّة مدروسة وعلى ضوء النظر إلى الربح والخسارة، فحينما نريد أن نقدّم دماً فيجب أن نأخذ شيئاً قباله أسمى من الدم.

ثمّ إن الإمام السجاد عليه السلام كان يعلم علم اليقين أن النهضة على الأمويين في تلك الحالة لم تعدُ كونها عملية تشنّج ولم تكن مدروسة أو مخطّطاً

---

(١) من قبيل واقعة الحرّة وقتل المختار الثقفي، وغيرهما من حركات التوابين التي عاصرت الإمام عليه السلام.

لها.

وقد يقول قائل: لقد أعطىٰ الإمام الحسين عليه السلام في واقعة الطف دماً، ولم يأخذ مقابله شيئاً.

فنقول: الأمر علىٰ العكس من ذلك؛ فإن واقعة الطف أخذت حقّها وثمنها مقدّماً، كما أنها قد أهاجت الدنيا وأماجتها وحرّكت كل الثورات التي جاءت بعدها بشكل متلاحق منطقع النظير، ولولاها لما قامت تلك الثورات التي منها ثورة الحرّة. وقد تتابعت هذه الثورات وتلاحقت إلىٰ أن زلزلت عرش الأمويين وأزالته.

فواقعة الطف إذن كانت مدروسة ومخطّطاً لها تماماً، ولم يكن فيها شيء غير منظور له بموازين الثورات والحركات، أمّا واقعة الحرّة فلم تكن كذلك من جهة نظر الإمام السجاد عليه السلام؛ حيث إنه رأىٰ أن المعيار غير متكافئ والمعادلة ليست متوازنة بالدرجة التي يمكن معها الوثوق بشيء من النتائج، وأن العلمية سوف تؤدّي إلىٰ مجزرة يربأ الإمام عليه السلام بشيعته أن يذهبوا ضحيتها. وقد تتضاعف المجزرة؛ لأن الأمويين لا رادع لهم يردعهم أو وازع يمنعهم عن ارتكاب مثل هذه الأفعال الشنيعة، وهم الذين فعلوا ما فعلوا بسبط الرسول صلى الله عليه وآله وسيّد شباب أهل الجنة، فالدم ليست له أي قيمة أو حرمة في حساباتهم.

وهذا هو الذي حصل فعلاً؛ فقد بلغ عدد القتلىٰ في واقعة الحرّة أكثر من عشرة آلاف قتيل منهم سبعمئة من حملة القرآن[1].

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء ٣: ٣٢٥، الاستيعاب ١: ٢٥٨، الإصابة ٦: ١٩٦، أنساب الأشراف ٥: ٤٢، البداية والنهاية ٦: ٢٦٢، ٨: ٢٤٢.

تهافت الغزالي

وممّا يحزّ في النفس أنك تمرّ بتاريخنا المدوّن فتجد أقلاماً تمدح يزيد، وتصفه بصفات المؤمنين، بل وتدافع عنه كما فعل الغزالي حيث يقول: لا ينبغي شتم يزيد ولا سبّه؛ لأنه مسلم وقد تاب. ثمّ يتساءل فيقول: من قال: إنه هو الذي قتل الحسين، أو إنه تسبب في ذلك؟ مع أن الغزالي نفسه يكفّر من يسبّ أحد الصحابة[1]. فهل يعقل أن يحكم بكفر من سبّ صحابيّاً ولا يحكم بكفر من قتل ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسبعمئة صحابي كلّهم من حملة القرآن؟

على أية حال فإن الإمام عليه السلام لم يشترك في واقعة الحرّة لهذا السبب؛ لأنه عليه السلام كان يرى أن هذه المعركة سوف لن تنتهي إلى نتيجة إيجابية، فواجه زحمة الأحداث بما هو معروف عنه من حكمة وحصافة رأي.

المبحث الثالث: أخلاق الإمام عليه السلام من منظار الآية الكريمة

ولنحاول الآن أن نطبّق الآية الكريمة على أخلاق الإمام السجاد (صلوات الله وسلامه عليه وعلى آبائه)؛ لنرى مدى تأثّره عليه السلام بأخلاق القرآن الكريم وتأثير القرآن الكريم عليه، وكيف أن القرآن الكريم لم يفارق سلوكيّاته وأخلاقه العالية، وكلّ حركاته وسكناته. فلنتناول هذه الآية الكريمة فصلاً فصلاً، ولنتدارسها على ضوء ما قدمنا:

الأول: إنفاقه عليه السلام في السرّاء والضرّاء

تقول الآية الكريمة: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾، أي فيما ساء وضرّ وفيما سرّ. والإنفاق في الضرّاء له عدّة وجوه، منها الإنفاق على

---

(١) إحياء علوم الدين ١: ١٩٣، وانظر حياة الحيوان ٢: ١٧٦.

العدوّ ومساعدته وإطعامه وإيواؤه وتوفير الملجأ والمسكن له. فالبعض حينما يأتيه عدّوه طالباً منه أمراً، أو يرىٰ عدوّه في أمسّ الحاجة إلىٰ مساعدته هو، فإنه لا يمدّ له يد العون والمساعدة، بل إنه لا يتصوّر لحظة أو يدور في خلده أنه سيأتي عليه يوم يساعد عدوّه فيه.

لكن القرآن يريد أن يعوّدنا علىٰ هذا الخلق؛ فهو يطلب منا أن نمدّ يد المساعدة لكل إنسان ظاهره يوحي بأنه فعلاً محتاج للمساعدة، وألّا ننقّب خلفه.

وهذا مع من تشكّ في فعليّة حاجته أو مع من لا تميل له ولا ترغب فيه، وهنا يكمن موضع العظمة والكرامة؛ فأن تُجبر نفسك علىٰ فعل يريده اللّه منك فيما ساء وسرّ لهو أمر يوحي بالكرامة والعظمة. والآن لنرَ ذلك وموقعه من الإمام السجاد عليه السلام:

إنفاقه عليه السلام في السرّاء

لقد تكفّل عليه السلام بإعالة جماعة كبيرة من الناس قُطعت عنهم عطاءاتهم؛ لأنهم ذوو المستشهدين مع أمير المؤمنين عليه السلام في حروبه. فكان عليه السلام يتولّىٰ إيصال المال والطعام، بل وحتىٰ الماء إلىٰ هؤلاء وإلىٰ غيرهم من محتاجي المدينة، فكان يستقي لضعفة جيرانه[1] إضافة إلىٰ ما كان يقوم به من إعالة هؤلاء الذين استشهد كافلوهم مع أمير المؤمنين عليه السلام. ويروىٰ عن الزهري أنه قال: رأيته ذات ليلة شاتية ممطرة، وكانت شديدة البرد، يأخذه الهواء يميناً وشمالاً، وهو يطرق أبواب المدينة المنوّرة باباً باباً، ويعطي أهلها هداياه الكريمة بيده الشريفة.

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط: ٢٠٩، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٨١، البداية والنهاية ٩: ٧١، ١٨٣.

إنفاقه عليه السلام في الضرّاء

كما أنه (صلوات اللّه وسلامه عليه وعلىٰ آبائه) كان ينفق ويساعد حتىٰ عوائل أعداء أهل البيت عليهم السلام، ومن ذلك أنه بعد أن استفحل الوضع المتشنّج في المدينة قبل ثورة الحرّة وأثناءها، لجأ أكثر من أربعمئة عائلة إليه فأعالهم وأعانهم هو وصحابته الخلّص بعد أن هاجمهم أهل المدينة وقرّروا القضاء عليهم، وبعد أن سدّ كل أصحاب الشأن في المدينة أبوابهم في وجوههم، حتىٰ أُولئك الذين كان هواهم مع التيار الأُموي كعبد اللّه بن عمر وغيره؛ حيث رفض تقديم العون لمروان وعائلته[1].

فالذي حصل أن الإمام السجاد عليه السلام تكفّل بحماية هذه العوائل الأربعمئة وبإعالتهم ومعيشتهم وحمايتهم إلىٰ أن انتهىٰ الوضع المتشنّج في المدينة وعاد الهدوء إليها.

الإمام عليه السلام يجير عائلة مروان

وكما ذكرنا فإن أربعمئة من العوائل الأُموية طوردت وحوصرت، وكان من جملة هذه العوائل الأربعمئة عائلة مروان بن الحكم، وكان مروان نفسه معهم، فما كان من الإمام عليه السلام إلّا أن أجاره وعائلته، ثم أخرج عائلته إلىٰ الطائف؛ لأن الثوار أرادوا قتله وقتلهم مع من كانوا يريدون قتله من الأُمويين في المدينة؛ حيث أمر الإمام السجاد عليه السلام ابنه عبد اللّه أن يأخذ زوجة مروان عائشة بنت الخليفة الثالث ـ حينما أرادت أن تخرج من المدينة هرباً من الثورة ـ إلى الطائف، ففعل وبقي مرابطاً على باب

---

(١) الكامل في التاريخ ٣: ٤٥٦.

بيتها ثلاثة أشهر لحراستها[١].

وهذا ليس غريباً من رجل عظيم مثل الإمام السجّاد عليه السلام؛ ذلك أن جدّه أمير المؤمنين عليه السلام وقف بعد واقعة الجمل منادياً، والقتلىٰ تنيف على الثلاثين ألفاً: «لا تجهزوا علىٰ جريح، ولا تتبعوا مدبراً، ولا تهيجوا النساء بأذىٰ»، وليناديَ: «لا يصلن لزوجة رسول الله صلى الله عليه وآله منكم أذىٰ». ويأتي ليقف علىٰ رأس المرأة ليقول: «ما أنصفك الذين أخرجوك من بيتك إذ صانوا حلائلهم وأبرزوك». ثمّ وضع لها بيتاً وعشرين خادمة[٢]، فتأمل النبل.

فهذا معدن أمير المؤمنين عليه السلام، فهو تلك النفس المطمئنّة، وذلك الجأش الطامن الثابت، وتلك الروح الكبيرة؛ فليس غريباً منه عليه السلام أن يقف ذلك الموقف، أما هي فحينما وصلها نعيه عليه السلام خاطبت ناعيه قائلة:

فإن يكُ نائياً فلقد نعاهُ نعِيٌ ليس في فيه التُرابُ[٣]

وهذا في الواقع يبيّن لنا المفارقات التاريخية التي احتلّت مساحة واسعة من تاريخنا، وشغلت مجالاً كبيراً منه. فكان أن عاش تاريخنا هذه المفارقات بكلّ أبعادها.

فالآية الكريمة تقول: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾، أي سواء كان الإنفاق فيما يجب الإنسان أن ينفق وفيمن يحبّ، أو فيما يكره وفيمن يكره من أعدائه؛ لأن المطلوب وراء الإنفاق هو وجه الله تعالىٰ.

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٢٧٣، الكامل في التاريخ ٣٤: ٤٥٦.

(٢) شجرة طوبىٰ ٢: ٣٢٤، وقعة الجمل (ضامر بن شدقم): ١٤٦.

(٣) الجمل: ٨٤، تاريخ الطبري ٤: ١١٥. حيث إن العرب كانوا يقولون لمن جاء ينعى عزيزاً عليهم: ملأ الله فمك تراباً، وهي هنا تقول له: لا ملأ الله فمك تراباً؛ كرهاً منها له عليه السلام.

الثاني: كظمه عليه السلام غيظه وعفوه

ثمّ قالت: ﴿وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ﴾، أي لا يظهرون غيظهم وغضبهم. يقول البيهقي والمراغي في تفسير هذا المقطع من الآية الكريمة: إن عليّ بن الحسين عليه السلام كان في بيته، وكانت جارية له تصبّ الماء على يده من إبريق تحمله، فسقط الإبريق على جبهته فشجّها حتّى أدماها، فارتعدت الجارية وقالت له: مولاي، ﴿وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ﴾. فقال عليه السلام: «كظمت غيظي». قالت: ﴿وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾. قال عليه السلام: «قد عفا الله عنك». قالت: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ﴾. فقال عليه السلام: «اذهبي فأنت حرّة لوجه الله تعالى»[1].

وهو عليه السلام إنما شابه بهذه الخصلة جدّه أمير المؤمنين عليه السلام، فقد روى الإمام الصادق عليه السلام ـ وكان يذكر سيرة جدّه علي بن أبي طالب عليه السلام لحضّار مجلسه ـ أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يلبس الخشن ويقوّت نفسه بالعجوة، ويطعم اليتامى الجوز. وكان يعمل عمل رجل وجهه بين الجنة والنار، ثمّ قال: «والله ما أطاق عمل جدّي أمير المؤمنين عليه السلام إلّا علي بن الحسين».

وفعلاً كان هذا من سمات شخصيّة زين العابدين عليه السلام، فمن جملة الأُمور التي شابه بها جدّه أمير المؤمنين عليه السلام أنه كان يجمع كلّ الأرقّاء الذين عنده ليلة العيد من كلّ سنة في وقت الإفطار ويسقيهم الماء ويجلس معهم على الطعام، وإذا كان أحدهم قد أذنب ذنباً ذكّره به، فيخاف العبيد، ثم يأمرهم أن يدعوا له حيث يقول لهم: «قولوا: اللهمّ اعفُ عن علي بن الحسين كما عفا عنّا»[2]. ثم يعتقهم ويعطيهم شيئاً من المال ويأمرهم بالعمل

---

(١) لم يتوفّر لدينا تفسيراهما، انظر: الأمالي (الصدوق): ٢٦٨ / ٢٩٤، الدر المنثور ٢: ٧٣، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٨٧، البداية والنهاية ٩: ٢٥.

(٢) الصحيفة الكاملة السجاديّة / دعاؤه عليه السلام في آخر ليلة من شهر رمضان، الإقبال بالأعمال الحسنة ١: ٤٤٤، بحار الأنوار ٤٦: ١٠٤، ٩٥: ١٨٧.

ويقول، لكل واحد منهم: «استعن بها على دهرك، أصلح الله لك أمرك فيها».

وكذلك كان أمير المؤمنين عليه السلام، فقد أعتق من كدّ يده وعرق جبينه ألف مملوك.

ثمّ قالت: ﴿وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾، وهنا موضع العجب؛ فقد مرّت بالإمام عليه السلام فرص كان بوسعه فيها أن ينتقم بها من أعدائه؛ ومن ذلك حينما دخل مسرف بن عقبة المدينة بعد واقعة الحرّة، وقال لهم: ايتوني بالناس ليبايعوا بالقوّة، إلّا الإمام السجّاد عليه السلام فأحضروه مكرّماً محترماً، فلما دخل عليه أعظمه مسرف وأكرمه، ولما أراد أن يخرج ودعه بأدب واحترام وقال له: مرني يابن رسول الله. فقال له عليه السلام: «لا أُريد لنفسي شيئاً، ولكن رفقاً بالمسلمين».

وهذا في الواقع قمّة تجسيد مفاهيم القرآن في أخلاق الإمام السجاد عليه السلام.

الإمام يجير إسماعيل بن هشام الأموي

وممّا يذكر في هذا الصدد ـ كما يروي عمر بن علي بن الحسين عليهما السلام ـ أن هشام بن إسماعيل المخزومي كان والي عبد الملك في المدينة وكان ناصبياً يسيء لأهل البيت عليهم السلام وخصوصاً للإمام السجاد عليه السلام، فكان يجمعهم كلّ يوم جمعة تحت المنبر ويأخذ بشتم أمير المؤمنين عليه السلام حتى يُبلغ، وهو إنما يفعل هذا مبالغة في إيذاء العلويّين، وكان أذاه للإمام السجاد عليه السلام أشدّ. وقد بقي والياً إلى زمن الوليد بن عبد الملك الذي عزله؛ لأنه اختلس أموالاً كثيرة من بيت المال، وولّى مكانه عمر بن عبد العزيز، وأرسل إلى عمر أن أوقف إسماعيل في الشمس واضربه بالسياط

وأرجع الأموال.

فكان هشام هذا يخاف أن يمرّ به زين العابدين عليه السلام فيشمت به، إذ أنه كان يظن أن الإمام على شاكلته. وذات مرّة كان الإمام عليه السلام يمشي وإذا به يرىٰ حشداً، فسأل فأخبروه الخبر، فمنع عليه السلام الإساءة إليه، حيث إنه عليه السلام جمع كلّ أصحابه وأهل بيته وقال لهم: «لا تتعرّضوا لهذا الرجل بسوء أبداً». فقال أحد أولاده: يا أبه، نحن إنما ننتظر منه مثل هذا اليوم. فقال الإمام عليه السلام: «كِله إلى الله». وطلب منهم ألّا يبدوا على وجوههم أي امتعاض، ثم همس في أُذنه قائلاً: «انظر إلىٰ ما أعجزك من مال تؤخذ به، فعندنا ما يسعك، فطب نفساً منا ومن كلّ من يطيعنا».

وأرسل له الإمام عليه السلام كلّ ما أعوزه من مال؛ ليسد به عجزه، فكان بعد ذلك يقول فيه: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[1]، وكان أن ترك هذا الأموي النصب له[2].

المبحث الرابع: عطاؤه العلمي والفكري والعبادي

يمكن توزيع الفترة التي عاشها الإمام عليه السلام علىٰ الصعيدين العلمي والفكري إلىٰ عدّة أقسام؛ فهو عليه السلام قد أعطىٰ وقتاً طويلاً للعلم والمعرفة، وله في هذا الطريق منفذان:

المنفذ الأوّل: الفتوىٰ المباشرة

حيث إنه عليه السلام كان يجلس في مجلس فتياه في مسجد جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله فيبين للناس حلالهم وحرامهم.

---

(١) الأنعام: ١٢٤.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠١، بحار الأنوار ٤٦: ٥٥، تاريخ الطبري ٥: ٢١٧.

نماذج من نشاطاته العلمية

وقد كان الإمام عليه السلام يأخذ مجلسه كما قلنا في المسجد النبوي المقدّس ليفتي الناس ويبين لهم غوامض التفسير وأحكام الشريعة. ومن هذا ما يروى من أنه دخل عليه شخص فقال له: يابن رسول الله، ما معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[1]، ما معنى ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ فأجابه عليه السلام بقوله: «ما ظهر منها الزنا، وما بطن نكاح زوجة الأب».

والغريب أن أحد الفقهاء يقول: إذا عقد أحد علىٰ أُمّه أو علىٰ أُخته فإنه يدرأ عنه الحدّ؛ لأن هذا العقد عقد شبهة، والرسول صلى الله عليه وآله يقول: «ادرؤوا الحدود بالشبهات». فلذا يجب درء الحدّ هنا[2].

وهكذا فإن الإمام عليه السلام كان يمارس دوره التربوي والتوجيهي في التوعية من منبع الإسلام.. مسجد النبي صلى الله عليه وآله بكل رحابة صدر وتواضع.

المنفذ الثاني: الدعاء والعبادة

وهو المجموع في (الصحيفة السجادية) المعروفة بإنجيل آل محمد صلى الله عليه وآله أو زبور آل محمد صلى الله عليه وآله. وهي صحيفة حقّ علىٰ كل بيت مؤمن أن يحتفظ منها بنسخة؛ لأنها أهم رابط يحدد مسلك الإنسان إلىٰ

---

(١) الأعراف: ٣٣.

(٢) في الفصول المختارة: ١٦٢ - ١٦١، وفي تاريخ بغداد - الخطيب البغدادي ١٣: ٣٧٠ عن الخلّال أنه قال: اجتمع سفيان الثوري وشريك والحسن بن صالح وابن أبي ليلى، فبعثوا إلى أبي حنيفة، فأتاهم، فقالوا له ما: تقول في رجل قتل أباه ونكح أمّه وشرب الخمر في رأس أبيه؟ فقال: مؤمن. فقال له ابن أبي ليلى: لا قبلت لك شهادة أبداً. وقال له سفيان الثوري: لا كلّمتك أبداً. وقال له شريك: لو كان لي من الأمر شيء لضربت عنقك. وقال له الحسن بن صالح: وجهي من وجهك حرام أن أنظر إلى وجهك أبداً.

اللّه ويربطه به.

وكما أنه عليه السلام خصّص قسماً من وقته للدعاء، فكذلك خصّص قسماً منه للعبادة. يروي المؤرّخون أن لونه عليه السلام كان يصبح شديد الاصفرار بمجرّد إقدامه على الوضوء، ويسأله أحدهم: ما بالك يا بن رسول اللّه؟ فيجيبه: «ويلك، أتدري بين يدي من أقف أنا»[١]. وهكذا لا يعرف عظمة اللّه إلّا أولياء اللّه الذين يعرفونه حق المعرفة، فهو الذي «من خشيته ترعد السماء وسكانها، وترجف الأرض وعمّارها، وتموج البحار ومن يسبح في غمراتها»[٢].

فالإمام عليه السلام يقول له: إنك لا تدري بين يدي من أقف، أنا أقف بين يدي جبار السماوات والأرض[٣].

وهكذا كانت هذه الفترة بمثابة فرصة ذهبية تسنّت للإمام ليعبّر فيها عن مدى خضوعه للّه واندكاكه في ملكوته عبر هذه الأدعية المباركة وألوان العبادة الأُخرى التي كان يمارسها، إضافة إلى دوره التثقيفي والتوجيهي. فكان يسهر ليله في عبادة اللّه تعالى، ويقضي نهاره صائماً، أما الحجّ فقد

---

(١) عوالي اللآلي ١: ٣٢٤ / ٦٣، الطبقات الكبرى ٥: ٢١٦، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٧٨، تهذيب الكمال ٢٠: ٣٩٠، سير أعلام النبلاء ٤: ٣٩٢، البداية والنهاية ٩: ١٢٣.

(٢) مصباح المتهجّد: ٥٨٠ / ٦٨٩، الاقبال بالأعمال الحسنة ١: ١٤٠.

(٣) كما ورد من أنه عليه السلام كان قائماً في صلاته فزحف ابنه محمد عليه السلام – وهو طفل – إلى بئر كانت في داره بعيدة القعر، فسقط فيها، فنظرت إليه أُمّه فصرخت، وأقبلت تضرب نفسها من حوالي البئر وتستغيث به وتقول له: يابن رسول الله، غرق والله ابنك محمد. وكلّ ذلك لا يسمع قولها ولا ينثني عن صلاته، وهي تسمع اضطراب ابنها في قعر البئر في الماء. فلما طال عليها ذلك قالت له جزعا على ابنها: ما أقسى قلوبكم يا أهل بيت النبوة! وهو مستمرّ في صلاته ولم يخرج عنها إلّا بعد كمالها وتمامها، ثم أقبل عليها فجلس على رأس البئر، ومدّ يده الشريفة إلى قعرها – وكانت لا تنال إلّا برشاء طويل – فأخرج ابنه محمداً بيده وهو يناغيه ويضحك، ولم يُبلّ له ثوب ولا جسد بالماء.

دلائل الإمامة: ١٩٧، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٧٨.

حجّ مراراً عديدة. وكان عليه السلام معروفاً عنه شدة السهر في سبيل اللّه خاشعاً متهجّداً.

ومما يروىٰ عنه في هذا الصدد أن أُخته فاطمة بنت الحسين عليه السلام دخلت عليه فرأت دقة ساقه واصفرار وجهه وإلىٰ جبينه المعفّر وكوعيه وقد أكلتهما الأرض فرقّت لحاله وأدركتها العبرة وبكت، ثمّ قالت له: سيدي، حسبك هذا الذي أنت فيه؛ فقد أرهقت نفسك ووقفت حتىٰ انتفخ ساقك وورم قدمك، وبكيت حتىٰ قرحت عيناك، وأصابك الضعف والهزال مما أنت فيه من طاعة اللّه تعالىٰ. فكان جوابه عليه السلام أن قال لها: «أعطوني هذه الصحف التي فيها بعض عبادة جدي علي بن أبي طالب». فلما أعطوه إياها فأخذها ثمّ نحّاها قائلاً: «من يصبر ويقوىٰ علىٰ عبادة علي بن أبي طالب؟»[1].

أي أنه عليه السلام يقرّر أن هذه العبادة لا تعدّ شيئاً إذا ما قيست بعبادة علي بن أبي طالب عليه السلام، وأنه عليه السلام يريد أن يتأسّى بجدّه إمام العارفين عليه السلام.

المبحث الخامس: نشاطه الاجتماعي

وأُحبّ أن أُنوّه إلىٰ أن نشاطاته العلمية والعبادية تلك لم تكن لتعيقه عن ممارسة واجباته الاجتماعية، فقد كان يزور المرضىٰ ويحيي مناسبات الناس العامّة. وكان يستشار من قبل الدولة، فيعطي مشورته بكل صدق[2]. كما أنه عليه السلام كان يدعم الجيوش الإسلامية الفاتحة بروحيته العالية، وهو ما يثبته وجود دعاء طويل في صحيفته المشرّفة يعرف باسم

---

(١) شرح الأخبار ٣: ٢٧٢، الإرشاد ٢: ١٤٢، مناقب آل أبي طالب ١: ٣٩٠.

(٢) قد مرّت قصة سكّ النقود الإسلامية وأنها بمشورته عليه السلام في ج١ ص ١٣٢.

«دعاء أهل الثغور» يدعو فيه للمسلمين وجنودهم المرابطين على ثغور البلاد الإسلامية بالنصر والظفر.

المبحث السادس: أثر واقعة الطف على حياته الشريفة عليه السلام

وهذا ينبئك عن روح تتسامى فوق كل حقد وفوق كل نفس بشرية؛ ذلك أنه كان يمدّ تلك الجيوش بدعائه المرفوع والمستجاب دون ريب، مع أنها تشتمل على ذلك الجيش الذي ارتكب تلك المجزرة العظيمة في التاريخ، بل أعظم مجزرة مرّ بها التاريخ، أي في واقعة الطف، تلك الواقعة التي خلّفت حزناً وألماً في نفسه الكريمة وأشبعتها لوعة وأسى.

ولقد استأثرت واقعة الطفّ بجانب كبير من حياته الشريفة متمثّلة بالحزن الذي لم يكن يفارقه؛ ذلك أن أشباح الواقعة لم تكن تبارح ذهنه أو عينيه، ولا تبتعد عنه، وكان (صلوات اللّه وسلامه عليه وعلى آبائه) كلّما دخل عليه أصحابه وجدوه غارقاً بدموعه، غاصّاً بعبراته، وهو يشهق بالبكاء. وقد دخل عليه ذات مرّة أبو حمزة الثمالي رضي الله عنه فوجده على تلك الحالة فقال له: سيدي، القتل لكم عادة، وكرامتكم من اللّه الشهادة، مَن مِن آبائك عليهم السلام مات حتف أنفه؟ فقال عليه السلام: «شكر اللّه سعيك يا أبا حمزة، ولكن ما وقعت عيناي على عماتي وأخواتي إلّا وذكرت فرارهن يوم عاشوراء من خيمة إلى خيمة ومن خباء إلى خباء والمنادي ينادي: احرقوا بيوت الظالمين».

فهو عليه السلام لم يفارق خياله طيف واقعة الطف، وكيف له أن ينساها وينسى ما أعقبها من مأساة مرّوا بها بعد ذلك؟ يقول المؤرّخون: خرج زين العابدين عليه السلام يوماً يمشي في أسواق دمشق، فاستقبله المنهال بن عمرو، فقال له: كيف أمسيت يابن رسول الله؟ قال عليه السلام: «أمسينا كمثل بني إسرائيل

في آل فرعون؛ يذبّحون أبناءهم ويستحيون نساءهم. يا منهال، أمست العرب تفتخر على العجم بأن محمداً عربي، وأمست قريش تفتخر على سائر العرب بأن محمداً منها، وأمسينا معشر أهل بيته ونحن مغصوبون مقتولون مشرّدون، فإنا لله وإنا إليه راجعون مما أمسينا فيه يا منهال»[١].

وفي رواية أخرىٰ أنه قال له بعد أن رأىٰ ساقيه محمرّتين من القيد ويشزبان دماً عبيطاً: سيدي، ما الذي أخرجك مع ما أرىٰ بك من الضعف؟ فقال له: «يا منهال، إن الخربة التي نحن فيها لا تقينا من الحرّ، يا منهال لقد تقشّرت وجوه عمّاتي وأخواني من حرارة الشمس. فأنا أخرج قليلاً لأروّح عن ضعف بدني»[٢].

يقول: ثمّ جاءت امرأة تقوم وتسقط وهي تنادي: إلىٰ أين يا حمانا؟ إلىٰ أين يا بقية السلف؟ فتركني ورجع إليها، فسألت عنها فقيل لي: هذه عمته زينب.

ثمّ رجعوا إلىٰ المدينة، وكان أكثر ما يقضّ مضجعه أن أكثر بيوت آل محمّد صلى الله عليه وآله والهاشميين كانت فارغة، فكان عليه السلام لا يمرّ بمحلّة من محلات الهاشميين ويرىٰ بيوتها فارغة من أهلها إلّا خنقته العبرة؛ فلم يكن بها إلّا الأرامل واليتامىٰ.

أما بيت عقيل فكان فارغاً إلّا من أطفال صغار، فلذا كان عليه السلام يقول: «إذا مررت علىٰ دور آل عقيل خنقتني العبرة؛ لأني أراها خالية ليس فيها إلّا أرامل ويتامىٰ»[٣].

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ١٤٣، مثير الأحزان: ٨٤.

(٢) قريب منه في الأمالي (الصدوق): ٢٣١ ـ ٢٣٢ / ٢٤٣، مثير الأحزان: ٨١.

(٣) لم نعثر على الحديث الشريف بنصه، لكن هناك حديث قريب منه في كامل الزيارات (ابن

فقد كان أوّل من قُدّم في الطفّ من آل عقيل ـ بعد مسلم الذي قتل قبل ذلك ـ هو ابنه عبد الله بن مسلم الذي يخاطبه الإمام عليه السلام في زيارته: «السلام على القتيل ابن القتيل، عبد الله بن مسلم بن عقيل»[١].

وكانت عمته زينب (سلام الله عليها) في بعض الأحيان ترافقه في هذه المأساة وتشترك معه في هذا الألم، وكان إذا رأىٰ نهر الفرات خاطبه قائلاً: «إلى الآن تجري يا فرات وقد قتل عندك ابن بنت رسول الله ظمآناً؟ إلى الآن تجري يا فرات وقد سقط آل رسول الله إلى جانبك؟»:

أفاطمُ لو خلت الحسينَ مجدّلاً ... وقد مات عطشاناً بشطّ فراتِ

إذن للطمت الخدّ فاطمُ عنده ... وأجريت دمعَ العين بالوجناتِ

أفاطمُ قومي ياابنة العزّ واندبي ... نجومَ سماوات بأرض فلاةِ[٢]

* * *

خويه ما بعيني دمع واسجيك ... بنفسي يبو السجاد اداويك

يا نور عيني اتمرمرت بيك ... طلّعت متني وگمت اراويك

* * *

أشرب لذيذ الماي حاشا ... واهلي گضوا كلّهم عطاشى

قولويه): ٢١٣ / ٣٠٦.

(١) العوالم (الإمام الحسين): ٣٣٧.

(٢) شرح الأخبار ٣: ١٧٣، بحار الأنوار ٤٥: ٢٥٧، ٤٩: ٢٤٨.



﴿٤٤﴾

السجاد ﷺ سيرة وقدوة

مولاي زين العابدين تحيّة | للخاشعين بشدّة الظلماءِ
والباسطين أكفّهم إن أصبحوا | بالفضل والآلاء والنعماءِ
والصابرين على الخطوب بكربلا | ما بين غمر مدامع ودماءِ
عاشت بقلبك كربلاء بكلّ ما | فيها فعشت بلوعة وبكاءِ
حتى مضيت وأنت جرح نازف | وأضالع تطوى على لأواءِ

المباحث العامّة للموضوع

المبحث الأوّل: أثر البيئة على الإنسان

اعتاد الباحثون والكّتاب وأرباب الأقلام أن يحدّدوا إطاراً زمنياً للشخصية التي يبحثون حولها أو يكتبون فيها ويترجمونها، وهذا الإطار عبارة من بدء الولادة ونهاية الحياة وما بينهما. والحقيقة أنّ توجيه العناية وتركيزها على تاريخي الولادة والوفاة ليس أمراً مقصوداً بالذات، بل هو مقصود بالعرض؛ من حيث إنهما تحديد لفترة حياة المترجم وبيان حيثياتها وجوانبها كافة؛ لأنّها تنعكس كلياً أو جزئياً بما فيها من أحداث على شخصية الإنسان ونفسيته.

ونحن نعرف أنّ بداية حياة الإمام السجاد ﷺ ـ ونحن نعيش هذه الليلة

في رحابه، نسأل اللّه جلّ وعلا أن نكون دائماً في رحاب أهل بيت العصمة عليهم السلام ـ تبتدئ سنة ثمانٍ وثلاثين هجرية، في فترة خلافة جده أمير المؤمنين عليه السلام، وتستمرّ حتىٰ سنة خمس وتسعين. وكانت هذه الفترة مشحونة ومكتظّة بكل تفاصيلها؛ فقد كانت فترة حرجة؛ لأنّها شكّلت غمرة حروب الإمام علي عليه السلام ضد الباطل.

المبحث الثاني: لماذا تراجعت الفتوحات زمن أمير المؤمنين عليه السلام؟

إنّ الحروب الداخلية التي خاضها أمير المؤمنين دفاعاً عن الحقّ والدين جعلت الفتوحات الخارجية تتراجع بشكل ملحوظ. وهنا يتساءل بعض الكتاب عن سبب هذا التراجع مع ما هو عليه أمير المؤمنين من بسالة وشجاعة وبطولة، وهي أُمور معروفة عنه مشتَهَر ذكرها. إن هناك عدة أسباب تتمحور حول السبب الذي ذكرناه آنفاً، وهو اضطراره عليه السلام لخوض هذه الحروب الداخلية، ومن هذه الاسباب:

تعميق الإيمان والإسلام عند المسلمين

إنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يهدف من وراء خوض هذه الحروب الدفاعية الداخلية التي ألهته نوعاً ما وشغلته عن الحروب الخارجية، إلى تعميق الإسلام في نفوس المسلمين فحينما تسلّم عليه السلام كرسي الخلافة كان هناك كمّ هائل من المسلمين، لكنهم كانوا بعيدين عن روح الإسلام وتعاليمه وأحكامه. وبعبارة أُخرىٰ كان هناك تضخّم في الجانب الكمي وتضاؤل في الجانب الكيفي، فهل كان عليه السلام ـ وهو الحريص على الإسلام والضنين به أن يضيع ـ يطمئن إلى هذه الطبقة المتّصفة بما مرّ على أنّها تحمل الإسلام حملاً صحيحاً؟ إنّ هذا هو الذي جعله (سلام اللّه عليه) يعيد النظر في مسألة بناء البيت الداخلي للإسلام والمسلم، وأن يحرص فيه على

ترتيبة من الداخل، وتربية أفراده تربية صحيحة وسليمة.

الشواهد التاريخية تدعَم فكر الإمام عليه السلام

وأكبر دليل على هذا شواهدنا التاريخية التي تثبت أنّ المسلمين فتحوا بلاداً طويلة عريضة وأدخلوا أهلها وأراضيها إلى سلطان دولة المسلمين وحكم الإسلام، وضمّوها إلى أراضيهم وأملاكهم، لكن أين كل ذلك بعد ذلك؟ وأين الرقعة الإسلامية التي بلغت أوروبّا والصين؟ لقد انحسرت وتراجعت وعادت إلى ما كانت عليه. وهذا هو الواقع، لأنّ المنظور في المسألة كان الكمية وليس الكيفية، بخلاف فكر أمير المؤمنين عليه السلام الصائب ونظره الثاقب، فقد رأىٰ بما يملك من خبرة وفكر وتسديد أن الأولىٰ والأصحّ هو بناء الجبهة الداخلية وتمتينها أولاً، ثم بعد ذلك يُنتقل إلى توسيع الرقعة الجغرافية للمسلمين وبلادهم، والتي لم تتوقف تماماً في عهده.

والحصيلة أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يضع لامة حربه إبّان حكمه أبداً؛ بل إنّه عاشها بكل إفرازاتها ومتاعبها، يخرج من حرب ويدخل في أُخرىٰ داعياً إلى الحق، ومدافعاً عنه.

وفي هذه الفترة كان الإمام السجّاد عليه السلام في حجر أبيه الحسين عليه السلام، ثم جاء دور الإمام الحسن عليه السلام ولم يكن طويلاً، فقد امتدّ ستة أشهر، كان الإمام زين العابدين عليه السلام يعيش فيها غمرة الصراع حيث ذيول الصلح مع معاوية وما رافقه من ملابسات ونقض لبنوده ونكث لما جاء فيه. وهكذا ألقت بظلالها القاتمة على حياة الإمام السجاد، فمعاوية لم يفِ بشرط واحد من شروط الصلح، ولم تتوقّف ملاحقة السلطة لأشياع أمير المؤمنين عليه السلام، وكانت ملاحقة دنيئة غير شريفة وعلى شتّى المستويات

والأصعدة؛ فكانت ملاحقة بالشدة والتخويف، وكانت ملاحقة بالرغيف، وملاحقة بنهب الأرض وسلبها من أصحابها وتضييق موارد العيش عليهم، بل إنّها وصلت إلى حدّ أصبحت فيه ملاحقة لهم على دمائهم ووجودهم فقد طوردوا مطاردة عنيفة(١).

المبحث الثالث: نشاطات الإمام عليه السلام قبل واقعة الطف

واستمرّ الحال هذا إلى أن لحق الإمام الحسن عليه السلام بالرفيق الأعلى، وكانت الأحداث بين رحيله عليه السلام وواقعة الطف متتالية حافلة بالكثير من الممارسات والأعمال غير المشروعة على الرغم من أنّها كانت عشر سنين فقط. لقد كانت فترة مشحونة، غير أني أودّ أن أشير إلى نقطة هامّة هي أن كل من كتب وألّف حول الإمام السّجاد عليه السلام لم يسلّط الأضواء كافية على الفترة التي عاشها قبل واقعة الطف، والتي تبلغ اثنين وعشرين عاماً. وهنا أمور عدّة حول نشاطاته عليه السلام، أرغب في أن أشير إليها في هذ المجال؛ حيث إنّه عليه السلام بعد بلوغه الثانية عشرة من عمره أُنيطت به مهامّ عدّة في أداء رسالته، وهذه المهام تتوزّع بين عدّة أعمال:

الأوّل: النشاط العلمي

فبعد أن ترعرع الإمام عليه السلام عقد له مجلساً في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله، فكان يجلس هناك للفتوىٰ. ويلاحظ أنّ هذا الأمر لم يقتصر على فترة ما

---

(١) كقتله حجر بن عدي رضي الله عنه وأصحابه. انظر: شجرة طوبى ١: ٨٥، تاريخ الطبري ٤: ٢٠٨، الكامل في التاريخ ٣: ٤٨٧، شرح نهج البلاغة ٢: ٢٦١، تاريخ مدينة دمشق (ترجمة الإمام الحسن عليه السلام): ١٨٤، ينابيع المودّة ٢: ٢٧.
وقال ابن أبي الحديد: وكانت بنو أُميّة تختم في أعناق المسلمين كما توسم الخيل؛ علامة لاستعبادهم. شرح نهج البلاغة ١٥: ٢٤٢.

قبل الطف، بل إن هذا النشاط استمرّ مع الإمام عليه السلام حتى انتقاله إلى مقعد صدق عند مليك مقتدر. فالذي نريد إثباته هنا أنّ بدايته كانت في تلك السنّ المبكّرة، وهذا الدور الذي أُنيط به عليه السلام لم يتوقف عند هذه الفترة، بل استمرّ معه حتى بعد أن ازدحمت الأحداث عليه سيّما إبّان فترة إمامته، فلم ينقطع عن مجلسه في مسجد الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، ولا عن نقاشاته العلمية ومحاجّاته وإفتاءاته.

نماذج من محاجّاته عليه السلام

وسأنقل هنا بعض احتجاجاته على من اعترض عليه في أمور كثيرة، ومنها:

الأوّل: حول قول أمير المؤمنين عليه السلام: «إخواننا بغوا علينا»

دخل رجل على زين العابدين عليه السلام فقال: هل تستطيع أن تخبرني كيف قتل أبوك المؤمنين الذين هم إخوانه في الله؟ فبكى علي بن الحسين ثم مسح عينيه وقال: «ويلك، كيف قطعت على أبي أنه قتل المؤمنين؟». قال: لما سألوه عن أهل الجمل: هل نقول عنهم إنهم كفرة؟ فقال: «معاذ الله إنهم قوم يصلّون». فقيل: فماذا نقول؟ قال: «إخواننا قد بغوا علينا، فقاتلناهم على بغيهم». فهو نفسه يعترف بأنهم إخوانه، فكيف قاتلهم؟

وهنا يجد الإمام عليه السلام نفسه أمام واقع منحرف يجب تصحيحه، وأمام مغرّر به ينبغي أن يصحّح له فكره هذا؛ لأن البعض يتعامل مع الأُمور بشكل حرفي، فيأخذ جانباً واحداً من جوانب المسألة فقط دون أن يستوعبها كاملة، فقال عليه السلام له: «ويلك أما تقرأ القرآن؟». قال: بلى. قال: «فقد قال الله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾، فكانوا

إخوانهم في دينهم أو في عشيرتهم؟». أي أنه عليه السلام يريد أن يقول له: إن أهل مدين كفرة وشعيباً نبيٌّ، وكذلك ثمود، فكيف عبّر عنهم بأنهم إخوة مع ما هم عليه من ضلال؟ فقال له الرجل: لا بل في عشيرتهم؟ فقال عليه السلام: «فهؤلاء إخوانهم في عشيرتهم، وليسوا إخوانهم في دينهم».

وألفت نظرك إلى أن القرآن الكريم يعبّر دائماً عن الأنبياء عليهم السلام بأنهم إخوان قومهم. فقال له ذلك الرجل: فرّجت عني فرجّ الله عنك[1].

الثاني: حول زواج النبي صلى الله عليه وآله من زينب ابنة جحش

وكمثال آخر على نشاطاته العلميّة سأله أحد المسلمين قائلاً: لماذا أقدم جدّك رسول الله صلى الله عليه وآله على الزواج من زينب بنت جحش؟ هل كان يعشقها، وكان يخفي ذلك في نفسه؟ فأجابه الإمام عليه السلام: «إن الذي أخفاه في نفسه هو أن الله سبحانه أعلمه أنها ستكون من أزواجه، وأن زيداً سيطلّقها. فلمّا جاء زيد وقال له: أريد أن أطلّق زينب. قال له صلى الله عليه وآله: أمسك عليك زوجك. فقال سبحانه: لم قلت: أمسك عليك زوجك، وقد أعلمتك أنها ستكون من أزواجك؟ ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا﴾: حاجة بحيث ملّها ولم يبقَ له فيها حاجة وطلّقها، وانقضت عدّتها ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾»[2].

فهو عليه السلام يقول له: إن هذه ابنة عمّته وهو يعرفها، ولو أراد أن يتزوّجها لفعل، ولكن الرسول أراد أن يكسر بها عرفاً جاهليّاً وهو مسألة التبنّي، إذ كان العرب إذا تبنّى أحدهم أحداً فإنه يورّثه، وهذا المتبنّى لو تزوّج فإن متبنّيه لا يتزوّج من زوجته فيما لو توفّي.

إنّ زينب ابنة عمة رسول الله صلى الله عليه وآله، وكانت تعيش معه في البيت، ولو

---

(١) تفسير العياشي ٢: ٢٠ / ٥٣.
(٢) التفسير الصافي ٤: ١٩١.

أنّ هناك أمراً خلاف ما أراده القرآن كان قد حصل لما زوّجها رسول الله من متبنّاه زيد. وهذا المعنى هو الذي حاول المستشرقون أن يصوروا عبره قصة غرام بين رسول الله صلى الله عليه وآله وزينب ابنة جحش، وهؤلاء طبعاً لهم هدف واضح وسيّئ هو الطعن بالرسالة والنبوّة وبشخص النبيّ صلى الله عليه وآله نفسه، وإخضاعه إلى مستوى الناس العاديّين. في حين أنّ حقيقة الأمر غير ذلك، فالعرب كانوا لا يرون الزواج من زوجة الربيب أو المتبنّى ويأنفون منه؛ فكانوا إذا أعتق أحدهم عبداً فإن الولاء عندهم يبقى للمعتِق؛ ولذا فهم يأنفون من زواج المعتِق من مطلقة المعتَق أو أرملته، ويعدّونه عاراً.

خطأ نظرية عدم الزواج من زوجة الربيب

وهذا العرف الجاهلي كان سائداً وهو تصوّر مخطوء من وجهين:

الأوّل: أن من الممكن أن تبقى هذه المرأة معطّلة، وربما انحرفت سيّما إن كانت لا تزال شابة.

الثاني: أنه يشمّ منه رائحة التمييز. فالمعتِق يظل على نظرته إلى هذا الربيب على أنه رقّ ليس بمستواه، وأن زوجته مثله، أو أن الزواج من زوجته ولو كانت حرّة يهبط به عن مستواه إلى مستوى الربيب، وهذا ما لا ينبغي أن يكون من حرّ على رأيهم ووجهة نظرهم.

إنّ هذا المولى لم يخلقه الله تعالى كذلك، بل إنّه أصبح كذلك لظرف طارئ مرّ به، وقد انتهى هذا الظرف وعاد إلى حريته، فما معنى هذا اللون من التميّز، وهذا التصرّف؟ إن المفروض أننا مجتمع القرآن وأننا نتبع أخلاق القرآن وتعاليمه، وهو يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1]

---

(١) الحجرات: ١٣.

فهذا هو الشعار الذي رفعه القرآن، والذي يجب أن يكون شعار المجتمع القرآني.

فرسول اللهﷺ أراد أن يكسر هذا العرف الجاهلي، وإلّا فإنّهﷺ كان بإمكانه ومقدوره أن يتزوّج منها قبل أن يزوّجها من زيد. ثم إنّ المطلّقة ليست دائماً مخدوشة، فقد تطلّق المرأة لأنّها لم تنسجم مع زوجها في حياتها الزوجية، وليس بالضرورة أن تكون سيئة أو مخدوشة، ومجرّد عدم التناغم والانسجام في بيت الزوجية لا يخرجها عن كونها امرأة ذات أدب أو عفّة، وهذا ما يجعل الزواج منها ثانية أمراً ممكناً لا عيب فيه. بل ربما يكون الزوج نفسه سيّئ الأخلاق والسيرة، أو أنه لا ينفق عليها؛ مما يلجئ الزوجة إلى طلب الطلاق منه.

ورسول اللهﷺ كان بوسعه أن يتزوّج من أي فتاة من أشراف العرب يشاء، ويخطب إلى أي بيت من بيوتاتهم، لكن جلّ نسائهﷺ كنّ إما أرامل أو مطلّقات، ولذا فهوﷺ لجأ إلى مثل هذا اللون من الزواج لأنّهﷺ يريد أن يضرب هذه القاعدة الجاهلية، ويكسر هذا العرف الجاهلي الذي كان من ضمن موروثات جاهلية تنخر في جسد المجتمع، وأن يقضي عليها. إنّهﷺ إنما جاء ليرفع مستوى الأخلاق عند الناس، وليس من الخلق أن تترك المرأة تتعذب لمجرد وجود مثل هذا الوهم الجاهلي الذي يعشعش في أذهان الناس، وهذا الوهم هو أنّها مطلقة، مع أنها ربما طلقت لسبب معقول ووجيه كما ذكرنا. ومن كانت قد طلقت لمثل هذا السبب هل من الخلق الإسلامي أن تبقى رهينة البيت وسجينة ضمن نطاق العادات والتقاليد الجاهلية، والتمثّلات الجمعيّة؟

فالإمام السجادعليه السلام أجابهم بأن هدف الرسولﷺ هو كسر هذا العرف

المقيت الذي ليس له أي موجب أبداً؛ ولذا فإنه أقدم على الزواج من زينب ابنة جحش.

الثالث: حول مسألة الجمع بين الصلاتين

وهي من المسائل المعاصرة أيضاً؛ إذ أنّ زمانها يمتد مع امتداد وجودها ووجوبها. دخل عليه رجل يوماً فسأله: لماذا تأمر الصبيان بأن يجمعوا بين صلاتي: الظهر والعصر، والمغرب والعشاء؟ فقال عليه السلام: «ما داموا على وضوء قبل أن يشتغلوا». ويقول عليه السلام: «هو خير من أن يناموا عنها»[1].

فهذه رخصة، والله تعالى يحبّ أن يؤخذ برخصه كما يحبّ أن يؤخذ بعزائمه، والرسول صلى الله عليه وآله كان يجمع بين الصلاتين من غير عذر وفي غير السفر والمطر. ومن أحب أن يرى ذلك فليرجع إلى (المنتخب) لابن تيمية، و(المبسوط)[2] للسرخسي وكتب أُخرى[3] في هذا المجال[4] مؤلّفة خصّيصاً لهذا الغرض (الجمع بين الصلاتين). فالإمام عليه السلام حينما أصّل الجمع؛ فلأنّه عليه السلام كان يرىٰ أن يخفّف عن المسلمين ويهوّن الأمر عليهم[5] ويقربهم إلى الطاعة أكثر، فالإنسان قد يصيبه الفتور أيام المطر أو الحرّ أو غير ذلك عن التوجّه إلى المسجد خمس مرّات في اليوم. إضافة إلى ذلك أن هذا الجمع كما قلنا ليس ببدعة وإنّما هو رخصة من الله الذي أباح لنا ذلك. وقد صرّح القرآن الكريم بذلك حينما قال: ﴿أَقِمِ

---

(١) الكافي ٣: ٤٠٩ / ٢، قرب الأسناد: ٢٣ / ٧٧، المصنّف (ابن أبي شيبة) ١: ٣٠٣ / ١٤، أحكام القرآن ٣: ٤٣٠.

(٢) المبسوط ١: ١٤٩ - ١٥٠.

(٣) المغني ٢: ١٢٠ ـ ١٢١.

(٤) قد مرّ كل ذلك في ج ٥ ص ١٩٩ / المبحث الثالث من كتابنا هذا.

(٥) قال رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله: «جئتكم بالشريعة السهلة السمحاء». الانتصار ٩: ٤٠٧، ذخيرة المعاد ١: ٩٧ (حجري).

الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً ﴾[1] .

فالقرآن الكريم في هذه الآية ينصّ على ثلاثة أوقات، وكذلك السنة النبويّة المطهّرة، وقد جمع النبي صلى الله عليه وآله كذلك، وهذه سنّة عملية. ومع كل هذا نجد الآن من ينبز بقوله: لماذا يجمع هؤلاء؟ وأحياناً يتعدّى الأمرُ النبز إلى الألفاظ الجارحة. وهذا التصرّف لايعدّ مزاجاً فقهياً أو نمطاً علميّاً، بل هو نمط بعيد عنهما ومزاج مجافٍ لهما تماماً؛ لأنّه يحمل روح التحامل والمكابرة أمام الدليل. يقول السرخسي في (المبسوط): إنّ أحمد بن حنبل نفسه كان يجمع، وكذلك حال جماعة من الفقهاء على مرّ العصور، وغاية ما في الأمر أن التفريق أفضل. ونحن ليس عندنا جمع حقيقي وإنما هو جمع صوري، بمعنى أنّ هناك فترة فاصلة بين الصلاتين تتخلّلهما، تفرّق بين فرض وآخر، وهذه الفترة يقع فيها الدعاء والتسبيح والذكر، ثم بعد ذلك يقوم المصلّي إلى فرضه الثاني.

فكان الإمام عليه السلام بجلوسه في مسجد جدّه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله يتصدّى لغرس العلم في نفوس الناس.

الثاني: النشاط الأخلاقي

لقد دأب الإمام عليه السلام أن يعلّمنا كيف يكون الانتصار على النفس، فمثلاً أُسامة بن زيد كان ممّن تخلّف عن بيعة أمير المؤمنين عليه السلام، وسرّ تخلّفه عنه عليه السلام أنه حدثت معه حادثة عنّفه رسول الله صلى الله عليه وآله على أثرها، فقال: سوف لن أشهر سيفي على مسلم. وهذه الحادثة هي أن المسلمين وجدوا يوماً وهم في سرية ومعهم أُسامة بن زيد رجلاً على رأس جبل ومعه

---

(١) الإسراء: ٧٨.

غنماته، فلما رآهم نزل وقال: «أشهد ألّا إله إلّا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله».

وفرح بالمسلمين، فقال له أسامة بن زيد: إنك لم تسلم، إنما رأيتنا فخفت منا، واستعذت بهذه الكلمة. ثم جرد سيفه وقتله. فلما رجعوا وأخبروا النبي ﷺ حزن حزناً شديداً، فقال أسامة: إنه استعاذ، وأراد أن يتستّر بالإسلام، ولم يسلم صادقاً. فقال النبي ﷺ: «هلا شققت عن قلبه»[1].

على خلفية شتم الصحابة

فماذا يراد من الإنسان إذا أسلم؟ إنّه ليس أكثر من إشهاره نطقه بالشهادتين، وعدم إنكاره ضرورة من ضرورات الدين. وهنا لابدّ من أن أشير إلى أنّ البعض يعتبر شتم الصحابة كفراً وفاعله كافراً؛ لأن عدم المسّ بصحابة النبي الأكرم ﷺ يعدّ ضرورة من ضرورات الدين، وشتم الصحابي إنكار لهذه الضرورة.

من مظاهر الخلاف بين الصحابة

ونقول: لا شكّ في أن إنكار ضرورة من ضرورات الدين يعدّ كفراً، لكن من قال: إنّ من أخطأ وشتم أحد الصحابة فقد أنكر إحدى هذه الضرورات؟ أليس الصحابة أنفسهم كانوا يشتم بعضهم بعضاً؟ ألم تقل أُم المؤمنين عائشة: اقتلوا نعثلاً؛ فقد كفر[2]. تعني عثمان بن عفّان؟ ألم تقع

---

(١) مسند أحمد ٥: ٢٠٧، صحيح مسلم ١: ٦٧، ومثله في مسند أحمد ٤: ١٣٩، غير أنه لم يسمّ أسامة.

(٢) تاريخ الطبري ٣: ٤٧٦، الإمامة والسياسة ١: ٥١.

مشادّات كثيرة بين الصحابة[(١)]؟ فما هو الدليل على كفر من يشتم

(١) قد مرّ كل ذلك، لكن لإثبات المقام نذكر أن عمر بن الخطّاب رفع الدرة مرّة على أبي هريرة وضربه بها علىٰ رأسه وقال له: قد أكثرت الكذب. انظر شرح نهج البلاغة ٤: ٦٧.
وحينما وقع نزاع بين الخليفة الثالث وأم المؤمنين عائشة وحفصة أيّام بوادر الثورة: حيث دخلتا عليه تطالبانه بميراث النبي صلى الله عليه وآله. ومنعهما ذلك بقوله: والنبي صلى الله عليه وآله يورّث؟ إذا كان يورّث فلمَ مُنعت الزهراء الميراث؟ وإذا كان لا يورّث فأي حقّ تطالبان به؟ أولستِ أنت (يعني عائشة) وهذه الجالسة جئتما معكما بأعرابي يتطهّر ببوله، وشهدتم عند أبيك أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث»؟ قالت: بلى. قال: فأي ميراث تطالبين به؟ فخرجت ورفعت قميص النبي صلى الله عليه وآله وهي تقول: هذا قميص النبي لم يبلَ وقد أبلى عثمان سنته. الإيضاح: ٢٥٧ ـ ٢٥٨، المسترشد في الإمامة: ٥٠٨، بحار الأنوار ٣١: ٢٩٥.
كما أن علي بن أبي طالب عليه السلام شُتم (٨٠) سنة علىٰ المنابر، بل حتى في الصلاة. تاريخ الطبري ٨: ١٨٢ ـ ١٩٣.
ونقل عن ابن عباس في تفسير الجبت والطاغوت أنه قال: الجبت حيي بن أخطب، والطاغوت كعب بن الأشرف. انظر: تاريخ المدينة ٢: ٤٥٢، زاد المسير ٢: ١٣٨، الجامع لأحكام القرآن ٥: ٢٤٨، تفسير القرآن العظيم ١: ٥٢٥، فتح القدير ١: ٤٧٩.
وفوق كل هذا أن رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله يخبرنا عن نكوص بعض الصحابة، وذلك في روايات لعلّ أبرزها وضوحاً في هذا المقام هو قوله صلى الله عليه وآله مخبراً أن جماعة من أصحابه يحشرون يوم القيامة يختلجون دونه ـ يعني تأخذهم الملائكة ـ فيقول: «أصحابي». فيقال له صلى الله عليه وآله: «إنك لا تدري ما أحدثوا من بعدك». انظر: مسند أحمد ١: ٣٨٤ وغيرها كثير، فتح الباري ١١: ٣٣٣ وغيرها، المصنّف (ابن أبي شيبة) ٧: ٤١٥ / ٣٥، المصنّف (الصنعاني) ١١: ٤٠٧ / ٢٠٨٥٥، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٤ / ٣٢١٥.
وحينما وقعت غزوة تبوك بين المسلمين والروم، ندب النبي صلى الله عليه وآله المسلمين إلىٰ قتالهم فتثاقلوا؛ فنزل قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ﴾ التوبة: ٣٨. انظر: مجمع البيان ٥: ٦٥ جامع البيان، المجلد: ٦ ج ١٠: ١٧٣ / ١٢٩٩١.
وكذا في قوله تعالىٰ: ﴿أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ الذي يعني مجموعة من المعاصرين للنبي صلى الله عليه وآله. فهؤلاء صحابة لكن الله تعالى ذمّهم.
كما أن عثمان أمر بضرب عمار، فضربوه وضربه عثمان معهم حتى فتقوا بطنه. الإمامة والسياسة ١: ٣٥.

أحدهم؟ إنّ الإنسان تارة يشتم معاندةً للدليل ووقوفاً بوجه القرآن، وهذا كفر صريح، لكن من يخطئ فهل يجوز تكفيره؟.

يزيد بن معاوية ودعوى عدم جواز لعنه

وهنا أودّ أن اطرح سؤالاً، وهو: إنّ يزيد بن معاوية قتل سبعمئة صحابي من حملة القرآن في واقعة الحرّة، وعشرات الآلاف من الناس غيرهم فيها، وأباح المدينة ثلاثة أيام حتى أُبيحت أعراض المسلمين[1]، وأحرق الكعبة بالمنجنيقات[2]، وسلّط البلاء على

ويروي عبد الله بن عباس رواية يبيّن لنا كيف أن الخليفة الثاني كان يعيب على بعض الصحابة أخلاقهم ويذكرهم بسوء فيسترسل حتى يقول: فقلت: يا أمير المؤمنين، فأين أنت من طلحة بن عبيد الله؟ قال: الأكتع؟ ما كان الله ليعطيها إياه، ما زلت أعرف فيه بأواً مذ أُصيبت يده، مع هَناة كانت له على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله. قلت: يا أمير المؤمنين، فأين أنت من الزبير؟ قال: وعقة لقس؟ قلت: يا أمير المؤمنين، فأين أنت من عثمان؟ قال: أوّه، ووضع يده على رأسه وقال: والله لئن وليها ليحملنّ بني أبي معيط على رقاب الناس. تاريخ المدينة ٣: ٨٨٢، أنساب الأشراف ٥: ١٦، منتخب كنز العمّال ٥: ١٨٩، وليس فيها: مع هَناة كانت له على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله.

والهَناة هي الذنب، والذنب الذي أشار إليه عمر بن الخطاب هو أنه لمّا نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلاَبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ أمر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله نساءه ألّا يكلّمن الناس إلّا من وراء حجاب. فقال طلحة هذا: أيحجبنا محمد عن بنات عمّنا ويتزوّج نساءنا؟ لئن حدث به حدث لنتزوجن نساءه من بعده. الدرّ المنثور ٥: ٢١٤، فتح القدير ٤: ٢٩٩.

وتناجى عمر بن الخطاب وعثمان بن حنيف في المسجد، فأغضب عثمان عمر، فقبض عمر من حصى المسجد قبضة فحصب بها وجه عثمان فشجه بالحصى في وجهه وترك بها آثاراً من شجاج. فلما رأى عمر كثرة تسرّب الدم على لحيته، قال: أمسك عنك الدم. تاريخ المدينة ٢: ٦٩١.

(١) تاريخ مدينة دمشق ٥٤: ١٨١ ـ ١٨٢.

(٢) سنن ابن ماجة ١: ٦٢٣ / ١٩٣٦، الأخبار الطوال: ٣١٤، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥١ ـ ٢٥٢، ٢٦٦، تاريخ الطبري ٥: ٣٠، تهذيب التهذيب ٢: ١٨٤ / ٣٨٨، ١٨٧ / ٣٣٨، ١٠:

المسلمين في كل مكان، فهل يصحّ أن يقال عنه: إنّه مسلم؟ يقول الغزالي: أنا لا أستطيع أن أشتم يزيد؛ لأنّه مسلم[١].

يالله! يزيد ما زال يعدّ مسلماً وإلى الآن، ومن يشتمه كافر، وأميرالمؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ شُتم ثمانين سنة على المنابر، وسبّ ﷺ في صلاتهم. ومع ذلك يعدّ هو ومن كان على شاكلته مسلمين بنظر البعض[٢]! وهذا البعض الذي يرى إسلام من سبّ خليفة رسول الله ﷺ وابن عمه على المنابر، يرىٰ كفر من أخطأ نتيجة ردّ فعل تحدث عنده، وشتم من يشتم أمير المؤمنين ﷺ، أليس هذا تهافتاً؟ فهل يراد للمجتمع الإسلامي أن يتحوّل إلى أنعام سائمة لا تعقل ولا تعي ما يدور حولها؟

على أية حال فبعد أن قال رسول الله ﷺ لأسامة: «هلا شققت عن

---

١٤١ / ٢٩٧، ١١: ٣١٦ / ٦٠٠، الكامل في التاريخ ٢: ١٣٥ / ٣، البداية والنهاية ٨: ٣٦٣، سبل الهدىٰ والرشاد (الشامي) ٦: ٢١٤، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٨٥، تهذيب الكمال ٦: ٥٤٨ / ١٣٧٦، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٧٤، فتح الباري ٨: ٢٤٥، ينابيع المودّة ٣: ٣٦. وأليس هو المتمثّل:

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزلْ

انظر: تاريخ الطبري ٨: ١٩٣، شرح نهج البلاغة ١٥: ١٧٨، البداية والنهاية ٨: ٢٠٩، الأخبار الطوال: ٢٦٧.

(١) مع أنه نفسه يكفّر من يسبّ أحد المسلمين، لكنه يعود فيتغاضى عن أن يزيد نفسه كان يعلن السبّ والشتم لأمير المؤمنين ﷺ. انظر: إحياء علوم الدين ١: ١٩٣، حياة الحيوان ٢: ١٧٦.

(٢) كما عن ابن العربي. انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ٢٦٥ ـ ٢٦٦، ٥: ٣١٣. وكابن تيمية الذي يرى أن يزيد لم يقتل الإمام الحسين ﷺ، انظر: اجتماع الجيوش الإسلاميّة ١: ١٠٥، منهاج السنّة ٤: ٥٥٩، مجموع الفتاوى ٣: ٤١٠ ـ ٤١١، ٤: ٥٠٦ ـ ٥٠٧، ٢٧: ٤٧٠، ٤٧٩ ـ ٤٨٠، ٤٩٣.

قلبه»، حزن وقال: سوف لن أُشهر سيفي بوجه مسلم. ولمّا تولى أمير المؤمنين عليه السلام الأمر، وقاتل القاسطين والمارقين بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله[(١)] رفض مبايعته والقتال معه، وكان يقول له: أعطنا سيفاً يفرق بين الحقّ والباطل حتى نبايعك[(٢)]. ويقول له: أنا لا أُبايعك؛ لأنك تقتل المسلمين والكافرين على حدّ سواء[(٣)]. ولما سئل عن السبب قال: أخشى أن أقتل مسلماً. سبحان الله! من يخرج مع «إمام المتقين»، ومع رجل يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وآله ـ كما عن أم سلمة (رضي الله عنها) وقد رئيت باكية وهي تذكر الإمام علياً عليه السلام ـ قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «علي مع الحق والحق مع علي، ولن يتفرّقا حتى يردا علي الحوض يوم القيامة»[(٤)].

ويقول صلى الله عليه وآله له: «ويلٌ لمن سل سيفَه عليك، وسللت سيفَك عليه»[(٥)].

موقفه عليه السلام من محمّد بن أُسامة بن زيد

على أية حال إن أُسامة بن زيد هذا ترك ولداً له هو محمد، ولم يكن يختلف عن منهج أبيه في شيء، وحينما حضرته الوفاة قال الإمام

---

(١) فقد قال عليه السلام: «أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله أن أُقاتل بعده الناكثين والقاسطين والمارقين». المستدرك على الصحيحين ٣: ١٣٩، ١٤٠، مسند أبي يعلى ١: ٣٩٧ / ٥١٩، المعجم الكبير ٤: ١٧٢.

(٢) الثقات (ابن حبّان) ٢: ٢٧٠.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) الخصال: ٤٩٦، تاريخ مدينة دمشق ٢٤: ٤٤٩، الإمامة والسياسة ١: ٧٣، وقال صلى الله عليه وآله: «علي مع القرآن والقرآن مع علي، لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض». الجامع الصغير ٢: ١٧٦ ـ ١٧٨.

(٥) ورد في الزيارة الشريفة: «فعلى أبي العادية لعنة الله ولعنة ملائكته ورسله أجمعين، وعلى من سلّ سيفه عليك وسللت عليه سيفك يا أمير المؤمنين». المزار (المشهدي): ٢٧٨، المزار (الشهيد الأوّل): ٨٣، بحار الأنوار ٩٧: ٣٦٦.

السجاد عليه السلام لأصحابه: «قوموا بنا لعيادة محمد». فلمّا دخل عليه سمعه يقول: وا غمّاه. قال: «ما غمّك؟». قال: دَيني. قال: «كم هو؟». قال: ستون ألفاً. قال الإمام عليه السلام: «هي عليَّ». وكان عليه السلام قد باع ضيعة كانت عنده، فلم يقم من مجلسه حتى قضى عنه دَينه[1].

فانظر إلى هذا اللون من النبل من رجل لرجل عاش ومات على بغضه وبغض آبائه.. عاش منحرفاً عن خطّه الذي هو خطّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله. فالإمام عليه السلام بهذا اللون من التعامل مع الآخرين يريد أن يعلمنا كيف ننتصر على نفوسنا، وأن يعطينا درساً في تغليب خلق الإسلام على رغبات النفس وشهواتها ومطالبها، وعلى الهوى الذي يسيطر على تلك النفوس. إنّ هذا العطاء أكبر عند اللّه من أن يكون صاحبه خاضعاً لذاك اللون من التأثر بالنفس وأهوائها ضدّ الآخر وإن آذاه.

وهذا الخلق ليس أمراً جديداً ولا طارئاً أو عارضاً عند الإمام السجاد عليه السلام، بل هو خلق ورثه من جديه رسول اللّه صلى الله عليه وآله، وأمير المؤمنين عليه السلام الذي كان يمرّ على قتلى معركة الجمل ممّن خرجوا لقتاله، وهي الواقعة التي خلّفت الآلاف من القتلى، وكانت الدماء تسيل والأشلاء متناثرة، إلى أن وصل إلى طلحة ـ وكان قد قتله مروان بسهم ـ فقال: «من هذا؟». قالوا: طلحة هذا. فأقعدوه فقال: «أبا محمد، اعزز علي»، أي ليس من السهل أن أراك قتيلاً، فهذا نبل أيمّتنا عليهم السلام. وهو شعور في غاية النبل يعجز أي شعور أن يرقى إلى مستواه نبلاً ومودّة وعطفاً ورقّة:

أأبا الحُسينِ وتِلكَ أروعُ كُنيةٍ وكِلاكُما بالرائعاتِ قَمينُ

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٢١، بحار الأنوار ٤٤: ١٨٩، وفيهما أنها جرت بين الإمام الحسين عليه السلام، وبين أسامة أبيه.

لك فـــي خَـــيال الدَّهـــرِ أيُّ مَـلامحٍ	تَـروي السَّـنا ويُـتَرجِـمُ النَّسـرينُ
في الصبح أنت المُستَجِمُّ مِنَ اللَّظى	واللَّـــيل فـــي المـحرابِ أنتَ أنـينُ
تكســـو وأنتَ قَـطيفةٌ مَــرقوعةٌ	وتَـــموتُ مِـــن جـوعٍ وأنت بَـطينُ
مـا عـدت ألحـو عـاشقيك بما أتـوا	وصـــفاتُك الغَـــرّاءُ حـــورٌ عـينُ
آلاؤك البــــيضاءُ طَـــوَّقَتِ الدُّنـــا	فـسلها عـــلى ذِمَـمِ الزَّمـانِ ديـونُ
فـــبحيثُ تَـحتَشِدُ الورودُ فَـراشـةٌ	وبـحيثُ ليـلى يـوجدُ المـجنونُ[1]

فحقّاً إنّه ذو خلق كريم ولون عجيب من الأدب السامي، وكذلك كان الإمام السجاد عليه السلام في مواقف الانتصار للحق على النفس.

الصحيفة السجّاديّة محاولة توازن وانتصار على النفس

اعتاد الناس في تلك الأيام وسيّما في الفترة التي عاشها الإمام السجاد عليه السلام أن يعاملوا الموالي معاملة مزرية، قد كانوا يعدّونهم في مستوىً أدنى بكثير من المستوى الذي يرونه لأنفسهم. ففي عصر السجاد عليه السلام كثرت الفتوحات وكثر معها احضار الموالي الذين لم يكونوا يراعونهم ويعاملونهم كما أمر اللّه تعالى، أو كما هو الخلق الإسلامي المطلوب في هذا المجال. ومن هنا نشأت الحركات الشعوبية أو بذورها على نحو الدقّة. وكان من مظاهر الفتوحات تلك أن جرت الأموال بأيدي الناس؛ مما حوّلهم إلى حياة الترف واللهو. وقد عالج الإمام عليه السلام هذه الظاهرة بالأدعية، فكانت صحيفته الشريفة محاولة لإيجاد حالة من التوازن بين الترف الماديّ في جانب، وفراغ النفس وحاجتها إلى الدعاء وإغناء الروح في جانب آخر.

---

(1) ديوان المحاضر: 19.

مواقف كريمة من الموالي وغيرهم

طلبه من غلامه أن يقتصّ منه

لقد كان عليه السلام يعامل الرقيق على أنّهم بشر لهم كامل حقوقهم كما أمر الإسلام والقرآن بذلك، ومن ذلك أنه عليه السلام غضب في يوم من الأيام على غلام له كان قد طلب منه أن يقوم على ضيعة تخصّه، إذ أنه عليه السلام دخلها يوماً فوجد فيها ضَياعاً كثيراً، ورأى أن الزرع قد فسد، فصاح به: «لم تفعل هذا؟ إنك تأخذ جلّ وارد هذه الضيعة، فلم لا تعتني بها؟». فسكت الغلام، فقرعه الإمام بسوط كان بيده، ثم ندم. فلما رجع إلى الدار ألقى ملابسه وأظهر موضع ضرب السوط من الغلام ثم بعث وراءه. فلما جاء ورأى الإمام بهذه الهيئة اضطرب أكثر وخاف، وظن أن الإمام يريد أن يعاقبه، فقال له الإمام: «هوّن عليك، وخذ هذا السوط واضربني كما ضربتك». فقال: معاذ الله. قال: «بل افعل، إني أريد هذا». قال: معاذ الله، إن يدي لا تطاوعني على ذلك. فقال الإمام: «أما إذا أبيت فالضيعة صدقة عليك»[1].

فهذا اللون من الخلق العالي لم يقتصر أثره على النفس فقط، وإنما يتعدّاه إلى مرحلة الإيحاء للآخرين بأن يعاملوا غلمانهم أو فتيانهم على هذا المثال الذي اختاره هو عليه السلام. فهو عليه السلام يريد أن يقول لهم: إنّ هذا الغلام إنسان كما أنّ مالكه إنسان من غير فرق، وله كرامة وعزّة كما لغيره، فإذا ما ملّك الله أحداً إيّاه فيجب أن يشكر الله تعالى على هذا التمليك الذي كان من الممكن أن يكون بالعكس، أي أن يجعل السيد خادماً والخادم سيداً.

---

(١) شرح الأخبار ٣: ٢٦٢ ـ ٢٦٣ / ١١٦٦، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩٧.

إعتاقه غلمانه ليلة كل عيد فطر

كان الإمام السجاد عليه السلام يشتري العبيد والجواري، فإذا جاءت ليلة العيد جمعهم وقال لهم: ارفعوا أيديكم وقولوا: «اللهمّ اعفُ عن علي بن الحسين كما عفا عنّا». فيعتقهم ويعطيهم شيئاً من المال ويأمرهم بالعمل، ويقول لمن يعطيه: «استعن بها على دهرك، أصلح الله لك أمرك فيها»[١].

فانظر إلى انتصاره (سلام الله عليه) على النفس، وكيف أنه بلغ القمّة في سلوكه هذا. فالإنسان حقّاً يبلغ قمة الأخلاق حينما يقهر نفسه وليستثمر طاقاتها لوجه الله تعالى، وفي خدمة مخلوقاته.

مواقفه من قتلة أبيه السبط الشهيد عليه السلام

وهذه القمّة في الخلق امتدّت لتشمل حتى قتلة أبيه الحسين السبط عليه السلام، فحين ثار الناس في واقعة الحرّة في المدينة عزم أهل المدينة على اجتثاث الأمويين منها وقتلهم كلّهم، فقد كانت النفوس مشحونة ضدّهم، وهذا أحد الشعراء يخاطب الأمويين حينما أخذوا البيعة ليزيد:

ولو جاؤوا برملة أو بهندٍ	نبايعها أمير المؤمنينا
إذا ما مات كسرىٰ قام كسرىٰ	نعدُّ ثلاثة متناسقينا
فوا لهفا لوَ ان لنا ضيوفاً	ولكن لا نعود كما غلينا
إذن لضَربتُمْ حتىٰ تعودوا	بمكّة تلعقون بها السفينا
شربنا الغيظ حتىٰ لو سقينا	دماء بني أُميّة ما روينا
لقد ضاعت رعيّتكم وأنتم	تصيدون الأرانب غافلينا[٢]

---

(١) الصحيفة الكاملة السجّاديّة / دعاؤه عليه السلام في آخر ليلة من شهر رمضان، الإقبال بالأعمال الحسنة ١: ٤٤٤، بحار الأنوار ٤٦: ١٠٤، ٩٥: ١٨٧.

(٢) الأبيات لعبد الله بن همام، وقيل: حمام، ابن نبيشة بن رياح، الملقّب بالعطّار: لجودة شعره. تاريخ مدينة دمشق ٣٣: ٣٥٢ ـ ٣٥٣، وفيه: لبايعنا أميرة مؤمنينا، وقد ذكر بيتين

وهكذا كانت النفوس مشحونة تلتهب، وكان هذا الشاعر يتكلّم بلسان أغلب المسلمين. على أية حال لقد عزم أهل المدينة على استئصال شأفة الأمويين في المدينة المنوّرة، فمن الذي آواهم ودفع القتل عنهم؟ ومن الذي فكروا هم في الالتجاء إليه من شدّة خوفهم؟ إنّه زين العابدين عليه السلام الذي جند أتباعه وكل الهاشميّين ـ وكان هو عليه السلام في طليعتهم ـ لحماية عوائل بني أُمية كلها، وكانوا بالمئات. ولم يقتصر الأمر على توفير الحماية لهم، بل تعدّاه إلى إيصال الماء والطعام لهم، وقضاء كل حوائجهم حتى انتهت الثورة[1].

وهذا اللون من الخلق النبيل غريب حقّاً، ولا يمكن أن يوجد في مكان آخر أو عند شخص غيره، لأنّه من بيت تميّز بهذا الأدب السامي والخلق الرفيع.. من بيت النبوّة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة ومهبط الوحي والتنزيل.. من بيت حمل شعار القرآن: ﴿خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ﴾[2].

الثالث: النشاط التربوي

لقد كانت جوانب مسجد الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله تردّد صدىٰ خطب الإمام السجاد عليه السلام، فلقد كان عليه السلام يخطب كل جمعة ويذكّر الناس بالآخرة والجنة والنار والحساب والعقاب. وكان عليه السلام يقول: «من جمعة إلى جمعة فترة يحتاج الناس فيها إلى من يذكّرهم بآلاء الله تعالى وبأيّامه، ويدعوهم إلى القرب منه». وهكذا يبدأ الإمام عليه السلام خطبته. ولا يمكن لأحد أن يتصوّر مقدار عطاء

منها فقط، وكذلك ذكرهما في البداية والنهاية ٨: ٣٦٢.

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٧٣، الكامل في التاريخ ٣٤: ٤٥٦.

(٢) الأعراف: ١٩٩.

الإمام عليه السلام فهو عطاء يقصر اللسان عن وصفه والفكر عن حصره.

المبحث الرابع: نماذج من أدعيته عليه السلام ومناجياته

ومن أراد أن يعرف مدى ذلك العطاء فليقرأ الصحيفة السجادية التي تعدّ كنزاً من الكنوز الإلهية أتحفنا اللّه بها على لسان ولي من أوليائه. فهي نسيج متميّز لا يكاد يدافعه نسيج ولا يضاهيه كلام.

الأوّل: دعاؤه عليه السلام في مكارم الأخلاق ومرضيّ الأفعال

ولنأخذ من هذا مثلاً هو دعاؤه عليه السلام: «اللهم صلّ على محمد وآله، ونبّهني لذكرك في أوقات الغفلة، واستعملني بطاعتك في أيّام المهملة، وانهج لي إلى محبّتك سبيلاً سهلة»[1].

وهو دعاء يشتمل على معانٍ سامية لا تكون إلّا من ذي نفس مطمئنة، فقوله عليه السلام: «نبّهني لذكرك في أوقات الغفلة»، كأنّه يريد به أن يخاطب بارئه بقوله: أنا إنسان لا أستطيع أن أسيطر على مشاعري بعيداً عنك، ومن غيرك، فالمرجوّ من رحمتك أن تفيض عليّ عطاء التنبيه إلى ذكرك كما أفضت عليّ عطاء العمر وعطاء الصحة والعافية وغير ذلك من نعمك الكثيرة. فاجعلني أتجه إليك في أوقات الغفلة؛ فهذا العمر مهما امتدّ فإنّه لا قيمة تذكر له. ولذا فإنه عليه السلام يسميه «أيّام المهلة»، أي ما يمهل به الإنسان من وقت قبل لحوقه باللّه جلّ وعلا. فهو عليه السلام يطلب من اللّه أن يجعله منشغلاً بطاعته فقط دون أي شيء آخر.

ثم قال عليه السلام: «وانهج لي إلى محبّتك سبيلاً سهلة»، أي اجعل لي طريقاً واضحاً إليك غير معقّد؛ كي أصل إليك من غير أن يحول دوني ودونك

(١) الصحيفة السجّاديّة الكاملة: ١١١.

حائل.

وفعلاً كانﷺ إذا دخل محرابه ناغم السماء، فيحسّ به من يراه نوراً يتحوّل إلى روح ذائبة في ذات اللّه وسابحة في ملكوته، ويشعر بوقع تلك الكلمات التي كانت إذا خرجت من فمه الشريف فكأنما هي ينبوع من ينابيع السماء، فيسمعه من بجانبه إذا جن عليه الليل في مناجاته اللّه تعالى، مناجاة فيها دروس أخلاقية وتربوية ضخمة.

الثاني: دعاؤهﷺ في يوم عرفة والجنبة الفلسفية فيه

وأنا لا أُريد أن أضع المتلقّي في متاهة، لكني سأُعطيه نماذج لبعض النصوص من ذلك؛ كي نرىٰ عظمة هذا الإمام ونحن نسمعه يقول ـ مع أنه عاش في مجتمع نيام في معاطن الإبل ـ: «أنت الذي قصرت الأوهام عن ذاتيّتك، وعجزت الأفهام عن كيفيّتك، ولم تدرك الأبصار موضع أينيّتك. أنت الذي لا تُحدّ فتكون محدوداً، ولم تُمثّل فتكون موجوداً، ولم تلد فتكون مولوداً. أنت الذي لا ضدّ معك فيعاندك، ولا عِدل لك فيكاثرك، ولا ندّ لك فيعارضك. أنت الذي ابتدأ واخترع، واستحدث وابتدع، وأحسن صنع ما صنع. سبحانك ما أجلّ شأنك، وأسنى في الأماكن مكانك»[1].

ويمشي على هذا النهج دون أن يتعثّر في نطقه أو يصيبه عيّ وحصر. إضافة إلى ذلك فإن كل مقطع من مقاطع هذا الدعاء يلخّص ويصوغ نظرية من أعقد النظريات الفلسفية والكلاميّة. فمثلاً قوله: «أنت الذي لا تُحدّ فتكون محدوداً»، يبهر العقول ويثير في النفوس شديد الإعجاب؛ إذ الحدّ هو التعريف المنطقي، فحينما نعرّف الإنسان بقولنا: الإنسان حيوان

---

(١) الصحيفة السجّاديّة الكاملة: ٢٤٧.

ناطق، فإننا إنما نضع حدّاً للإنسان نميّزه به عن غيره، والإمام عليه السلام يناجي ربه ويقول له: إنك أجلّ وأرفع من أن تعرّف، لأننا إن عرّفناك جعلنا لك حدّاً، وإن جعلنا لك حدّاً جعلناك جسماً، وأنت منزّه عن الجسمية ـ تعاليت وتقدّست ـ لأن الجسم لا يمكن أن يكون محيطاً بالسماوات والأرض كما هو شأنه تعالىٰ.

إنّ هذه الأفكار هي في الواقع أكبر من مدارك شابّ عمره خمسة وعشرون عاماً، لكنه ابن بيت هم أهل العلم، ومعدن العطاء والمعرفة. وهكذا تكون الصحيفة السجادية المشرّفة نبعاً صافياً وسلسالاً رقراقاً فيّاضاً بالمعرفة، يغدقه آل النبي صلى الله عليه وآله على الناس ليعرّفوهم كيف يتصلون بربّهم، فينقذوهم ويخرجوهم من الضلال إلى الهدى.

فكان الإمام عليه السلام فارس ميدان العطاء والتصوّف الصحيح الذي يريده اللّه تعالى.. ميدان الانقطاع إليه تعالى وما يرافقه من عطاء في التضرّع والاستكانة إليه تعالىٰ.. عطاء الإنسان الذي يشعر بحجمه وحقيقته وحقيقة نهايته.

الثالث: دعاؤه عليه السلام في سحر شهر رمضان

ونجده أيضاً وقد ضمّته الأسحار وهو يناجي ربه تعالىٰ: «وما لي لا أبكي ولا أدري إلى ما يكون مصيري، وأرى نفسي تخادعني، وأيامي تخاتلني، وقد خفقت عند رأسي أجنحة الموت؟ فمالي لا أبكي؟ أبكي لخروج نفسي، أبكي لحلول رمسي. أبكي لظلمة قبري؟ أبكي لضيق لحدي؟ أبكي لسؤال منكر ونكير إياي؟ أبكي لخروجي من قبري عرياناً ذليلاً حاملاً ثقلي على ظهري، أنظر مرّة عن يميني، ومرّة عن شمالي إذ الخلائق في شأن غير شأني؟ ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا

غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾[(١)]، [(٢)].

وهي مقاطع تبيّن الموقع الحقيقي لعلي بن الحسين عليه السلام في انتمائه إلى الله تعالىٰ.

أقوال معاصريه فيه

هذه بعض من الجوانب التي عاشها الإمام السجاد عليه السلام في مسجد جدّه رسول اللّه صلى الله عليه وآله، وهي جوانب تنبي عن عظمته وقدرته الروحية والعلمية. وهذا ما يشهد له به علماء عصره؛ فالشافعي مثلاً يقول فيه: «كان أفقه أهل المدينة».

ويقول مالك: «إنما سمي زين العابدين لشدّة عبادته».

ويقول له عمر بن عبد العزيز: «أنت سراج العالم وزينة الدنيا».

ويقول تلميذه الزهري: «ما رأيت قرشياً أفضل من علي بن الحسين عليه السلام، وكان إذا جنّ عليه الليل يأخذ اللحم الميت من مواضع سجوده؛ ولذلك لقب بالسجّاد».

وكان حتى ألدّ أعدائه يعطيه الصفات الغريبة، يقول عبد الملك بن مروان للإمام عليه السلام: «واللّه ما أُوتي أحد من الورع والعلم والفقه مثل ما أُوتيت إلّا من سلف من آبائك».

المبحث الخامس: دور الإمام عليه السلام بعد واقعة الطف

وهكذا نجد أنّ للزمن ألسناً تردّد مِدَح هذا الإمام العظيم وتتغنىٰ بالثناء عليه، وهو عليه السلام أهل لذلك؛ إذ أنه لم يتخلّف عن أداء واجبه أبداً في الميادين التي يريدها اللّه عزّ وجلّ كافّة؛ سواء كانت ميادين علمية أو

(١) عبس: ٣٧ ـ ٤١.

(٢) الصحيفة السجّاديّة الكاملة: ٢٢٦.

عملية. هذا قبل واقعة الطف، أما بعدها فالباحث يجد أن العبء قد اشتدّ والمسؤولية قد كبرت على الإمام السجاد عليه السلام، وازدادت بحكم تسنّمه منصب الإمامة الشرعية، وفي المقابل يجد أن ضغط الأُمويين قد اشتدّ عليه أكثر؛ لأنّهم كانوا يظنون أن الإمام عليه السلام سوف لن يسكت بعد الواقعة.

سرّ عدم اشتراكه في الحركات التي أعقبت واقعة الطف

كما أن الباحث المنصف سيجد أنه عليه السلام قد أخذ حجم الزمن وحجم مَن حوله؛ ولذلك لم يشترك بواقعة الحرّة ولا بواقعة بعدها. وهناك أسباب كثيرة منعته من القيام بأي تحرّك أو الاشتراك بتحرّك قام به غيره في عصره، ومن هذه الأسباب:

الأوّل: طبيعة الجوّ آنذاك وعداؤه لأهل البيت عليهم السلام

أننا إذا أمعنّا النظر في الظروف التي عاشها الإمام عليه السلام فسنجد أن الأجواء في عصره كانت مشحونة ومعبّأة ضد أهل البيت عليهم السلام. وأبسط مثال على هذا أنّ أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وسيما الذين استشهدوا معه تحت رايته قد حرمت السلطات أبناءهم من عطائهم ونصيبهم من بيت المال؛ بغضاً لأمير المؤمنين عليه السلام. فالإمام عليه السلام لم يجد المجال الكامل للتحرّك والذي يمكن أن يوصله إلى الهدف الذي يراد من مثل هذه التحركات.

ولذا فإنّه عليه السلام لجأ إلى الدعاء كمجال للتحرّك الفكري والنفسي وإعداد الأُمّة لذلك، وفي الوقت نفسه لجأ إلى مجال العلم والمعرفة. وهي مجالات لا تستلزم سلّ سيف أو قتالاً؛ لأن الإمام عليه السلام كان عارفاً بحجم المسؤولية من جهة وحجم من هم حوله؛ وهذا ما دعاه إلى عدم الاشتراك

في هذه الحركات. وإلّا فإنّه عليه السلام من بيت لا يجرؤ أحد أن يصفه بالجبن أو ينعته بالتخاذل وإن كان عليه السلام لم يسلم من هذه التهمة البشعة، حيث إن أحد الكتاب قد وصفه بتلك التهمة بقوله: إنّه لم يثُر ولم يخرج لأنّه متأثر بأخواله، يعني الفرس.

لكن هل إنّ زين العابدين عليه السلام وحده متأثر بأخواله، أم إنّ هذا التأثر يشمل أبناء الخليفتين أبي بكر وعمر؟ إن كون الفرس أخوالاً لأحد لا يعدّ عيباً وليس فيه ضير على ذلك الرجل، والمذاهب الإسلامية بأجمعها مدينة للفرس بالفلاسفة والعظماء والفقهاء والمحدّثين والمناطقة والمتكلّمين والكتّاب عامّة حتى على صعيد اللغة العربية وعلومها وآدابها. فهل السجاد عليه السلام هو الوحيد الذي تأثّر بالفرس؟ إنّ هذا الكلام غير علمي ولا يعتدّ به.

فأهل البيت عليهم السلام أبعد ما يكونون عن الجبن، وبيتهم أشجع البيوت وأشرفها، بل هم أصل الشجاعة ومنبعها ومثالها، لكن في الوقت نفسه هم مثال التعقّل[1]. فللظروف حكمها أحياناً، وهذا ما دفع الإمام عليه السلام لأن يتّخذ خطوة الدعاء والمناجاة والتعبئة الفكرية والعلمية والدينية سلاحاً بدلاً من السيف.

الثاني: مصيبة الحسين عليه السلام

فهو عليه السلام دائم الحزن، ولم يكن بالذي ينسى واقعة الطّف وما جرى فيها من انتهاك حرمات الله وسفك دماء وتقتيل أطفال وسبي نساء، فقد كانت

---

(١) يقول المتنبي:

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أولٌ وهي المحلّ الثاني

انظر شرح نهج البلاغة ٢٠: ٤٣.

وقعة الطف تعيش في مشاعره وهمومه، وكان كما خاطبه الشاعر رحمه الله في صدر المحاضرة:

والصابرين على الخطوب بكربلا	ما بين غمر مدامع ودماءِ
عاشت بقلبك كربلاء بكلّ ما	فيها فعشت بلوعة وبكاءِ
حتى مضيت وأنت جرح نازف	وأضالع تطوى على لأواءِ

فهو يقول له: إن كربلاء عاشت في ذهنك وقلبك ومشاعرك، فقضّيت عمرك الشريف كلّه باللوعة والحزن والأسى والبكاء. وهذا ما حدث فعلاً، فوالله لم تبارح طيوف الطف ذهن الإمام عليه السلام وقلبه؛ ولذلك حينما دخل عليه أبو حمزة قال: سيدي إن القتل لكم عادة، وكرامتكم من الله الشهادة، إن جدّك صلى الله عليه وآله قتل وأباك عليه السلام قتل، فقال: «شكر الله سعيك يا أبا حمزة، ولكني أذكر أشياء منها أنهم أدخلونا على يزيد ونحن موثوقون بالحبال، وكان الحبل يمتد من عنقي إلى كتف عمتي وأكتاف سائر الفاطميّات، وكنا كلما قصرنا عن المشي ضربونا. ووالله ما نظرت عيناي إلى عمّاتي وأخواتي إلّا وذكرت فرارهن يوم عاشوراء من خباء إلى خباء، ومن خيمة إلى خيمة، والمنادي ينادي: أحرقوا بيوت الظالمين».

فالإمام عليه السلام يجيبه بأن كلامه حق، لكن أُموراً أُخرىٰ تعتمل في ذهنه وتتصارع داخله فتجعله لا يهنأ بطعام ولا شراب، ومن ذلك ما كان الجنود يعاملونهم به في رحلة السبي؛ فكانوا كلما قصروا من المشي نتيجة التعب ضربوهم بالسياط، ومنها إدخالهم على يزيد وهم مصفّدون بالأغلال، وكان الحبل يربط بين عنق السجاد عليه السلام وكتف الحوراء زينب عليها السلام وأكتاف بنات الرسالة:

عجباً لم تلن قلوب الأعادي لعليل عضّت عليه القيودُ
وله حـنّت الفصيل ولكن هـيتمته أمـيّة لا ثـمودُ

وكانت أشدّ فصول حياته حزناً فصل عتابه الفرات حيث مرّ به يوماً، فقال يخاطبه: «إلى الآن تجري يا فرات وقد قتل عندك ابن بنت رسول اللّه ظمآناً؟ إلى الآن تجري يا فرات وقد سقط آل رسول اللّه إلى جانبك؟».

ولم يزل يبكي أباه السبط الشهيد ليلَ نهار إلى أن حضرته الوفاة، فجلس عنده ولده الإمام الباقر عليه السلام يرثيه بلوعة وحزن، وكان قد شخص ببصره إلى السماء وقال: «سجّوني إلى القبلة»، فأغمض عينيه وفاضت روحه الطاهرة ولحقت ببارئها في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وضجّت المدينة بأهلها، لكن السبط الشهيد الإمام الحسين عليه السلام حينما لفظ أنفاسه الشريفة الطاهرة لم يكن بجانبه أحد، كانت زينب عليها السلام ليلة الحادي عشر من المحرم قد لفّتها تلك الليلة بظلمائها، وكان الأطفال حولها يتصارخون وهي تجول ما بينهم:

يبويه عليّه الليل هوّذ وآنه غريبه وما لي احّذ

* * *

وإن يبكِ اليتيمُ أباهُ شجواً فـزعْنَ سياطُهم رأسَ اليتيمِ

﴿٤٥﴾

وفاة الإمام زين العابدين عليه السلام

المباحث العامة للموضوع

مرّت حياة السجاد عليه السلام بمجموعة أدوار إن صح التعبير، أو هو عصر واحد يتجزّأ إلى عدّة أدوار، ولابدّ من المرور بها للتعرّف على تفاصيل حياته الكريمة.

المبحث الأول: نشأته عليه السلام ونشاطه قبل إمامته

ولد الإمام عليه السلام كما هو معروف سنة (٣٨)هـ، وهذا يعني أنّه عاصر جدّه أمير المؤمنين عليه السلام مدّة أربع سنوات. والحقيقة أن هذه السنين الأربع هي السنين الأولى المهمّة في حياة كلّ طفل. ومن بعد استشهاد جدّه أمير المؤمنين عليه السلام عاش فترة حرجة خلال حكم معاوية الذي بنى جيلاً كاملاً وربّاه تربية انعكست آثارها فيما بعد؛ لأن الدولة عندما تلتزم رأياً معيّناً فإنها تستنفر أجهزتها لفرض ذلك الرأي، فتصوغ شخصيّة الإنسان كما تريد، وتجعل وجوه الحضارة بيدها لتربّي الشخص على الشكل الذي تريده، مثلاً إشاعة أن المقصود بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾[1] هم بنو أُميّة.

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

وكان الإمام عليه السلام في هذه الفترة من حياته محجوباً بوجود عمّه ووجود أبيه الحسين عليه السلام لكن هل إن معنىٰ ذلك أنه محجوب عن كلّ النشاطات؟ لا، فإننا علىٰ امتداد حياته الشريفة نلمح نشاطاً ثقافيّاً وعلميّاً واضحاً، فقد كان الإمام عليه السلام يقوم بدور من وراء هذا الحجاب، مثلاً يعرف عنه أنه لا تمرّ جمعة إلّا ويخطب بالمقدار الذي يسمح به الظرف.

وممّا كان يقوم به عليه السلام ما رواه يحيى بن المساور الهمداني عن أبيه أنه جاء رجل من أهل الشام إلى علي بن الحسين عليه السلام فقال: أنت علي بن الحسين؟ قال: «نعم». قال: أبوك الذي قتل المؤمنين؟ فبكى علي بن الحسين ثم مسح عينيه فقال: «ويلك، كيف قطعت على أبي أنه قتل المؤمنين؟». قال: قوله: «إخواننا قد بغوا علينا، فقاتلناهم على بغيهم». فقال عليه السلام: «ويلك أما تقرأ القرآن؟». قال: بلى. قال: «فقد قال الله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً﴾، ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾، فكانوا إخوانهم في دينهم أو في عشيرتهم؟». قال له الرجل: لا بل في عشيرتهم؟ فقال عليه السلام: «فهؤلاء إخوانهم في عشيرتهم، وليسوا إخوانهم في دينهم». فقال له ذلك الرجل: فرّجت عني فرّج الله عنك[1].

ومثال آخر سأله رجل: لماذا تزوّج رسول الله صلى الله عليه وآله زينب بنت جحش؟ هل كان يعشقها؟ فأجابه الإمام عليه السلام بجواب مفاده أن هذه ابنة عمّته وهو يعرفها، ولو أراد أن يتزوّجها لفعل، ولكن الرسول أراد أن يكسر بها عرفاً جاهليّاً وهو مسألة التبنّي، إذ كان العرب إذا تبنّىٰ أحدهم أحداً فإنه يورّثه، وهذا المتبنّىٰ لو تزوّج فإن متبنّيه لا يتزوّج من زوجته فيما لو توفّي.

(١) تفسير العياشي ٢: ٢٠ / ٥٣.

فكان الإمام عليه السلام يتصدّىٰ لمثل هذه الأسئلة ويجيب عنها موضّحاً مواضع اللبس فيها. وهكذا كان نشاطه الفقهي والعقائدي؛ فقد كان عليه السلام يتعاهد القرّاء، وكمثال على ذلك يقول سعيد بن المسيب: كنا لا نخرج إلى الحجّ حتىٰ نمضي لزين العابدين ونحن ألف قارئ، فكان عليه السلام يستقطب القرّاء في مسجد النبي صلى الله عليه وآله ويجيب علىٰ أسئلتهم في حلقاته الدراسيّة.

المبحث الثاني: نشاطه عليه السلام إبّان إمامته

وبعد فترة معاوية جاء دور واقعة الطفّ، وكان عمره ثلاثة وعشرين عاماً، وكان متزوّجاً من ابنة عمه فاطمة بنت الإمام الحسن عليه السلام وعنده منها الإمام الباقر عليه السلام، وكان عمره ثلاث سنين. وهذه الواقعة تركت بصماتها علىٰ أهل البيت عليهم السلام وخصوصاً على الإمام زين العابدين عليه السلام، حيث اجتاحت جميع أهله، ولكن الإمام لم يصبه انطواء علىٰ نفسه من جهتهم أو توحّش، بل كان يدعو لجيوش المسلمين[1]، ويساهم في حركاتهم العامّة. هذا من جهة ومن جهة أُخرىٰ فإن رفده العلمي استمرّ بالعطاء حتّى مع انشغال المسلمين في مدّة حكم يزيد في الثلاث سنوات التي دمّر فيها دنياهم. وقد خلّفت هذه الفترة للإمام عملاً شاقّاً، فبعد واقعة الحرّة التي تركت جيوشاً من اليتامىٰ والأرامل في المدينة (دار الرسول صلى الله عليه وآله) وهي عزيزة عند أهل البيت عليهم السلام، فهل من الممكن أن تبقى هذه العوائل جائعة عارية؟ طبعاً لا، فكان الإمام عليه السلام يعول أربعمئة عائلة بالمدينة يعمل لهم ليلاً ونهاراً، وقد كان منهم من قاتل الإمام الحسين عليه السلام، فكان الإمام عليه السلام يحمي حتىٰ دور الأُمويّين.

---

(١) كما في دعائه عليه السلام لأهل الثغور المعروف. انظر الصحيفة الكاملة السجاديّة: ١٤١ ـ ١٥٠.

وبعد هذه الفترة، وبعد أحداث مكّة، انتهت حياة يزيد وجاء بعده ولده معاوية، هذا النموذج المشرّف ـ راجع (حياة الحيوان) للدميري ـ وكان هذا الرجل قد استعرض على المنبر خلافة جدّه وأبيه منتقداً إيّاها، ثم تنازل عنها لأهل البيت عليهم السلام. ثم جاء دور مروان، وكانت مدّة حكمه ستة أشهر، وهي التي عبّر عنها الإمام علي عليه السلام بقوله: «كلعقة الكلب أنفه»(١).

ثم جاء دور عبد الملك، وكان يحترم الإمام زين العابدين حتىٰ قال له مرّة في مجلسه: «لقد وصلت إلىٰ درجة من العلم والتقىٰ لم يسبقك بها إلّا أسلافك». فكان يرسل للإمام عليه السلام في حلّ مشاكله، وكان منها مشكلة النقد؛ لأن الروم كانت ترسم على الملابس صورة هرقل وتكتب آيات من التوراة، فنهىٰ عبد الملك عن شرائها؛ فانزعج ملك الروم وكتب له أنه إن لم يتراجع عن قراره فسوف يشتم النبي صلى الله عليه وآله في كتابة النقود. فتأثّر عبد الملك من هذا، ثم استشار الإمام السجّاد عليه السلام، فأعطاه الحلّ بسكّ نقود خاصّة بالدولة الإسلاميّة، مع أن عبد الملك لا يحمل حتىٰ بعض الحب لأهل البيت عليهم السلام(٢).

ثم جاء دور عمر بن عبد العزيز، فكان يعبّر عن الإمام بـ(نور الدين وجمال الإسلام)؛ لأن الإمام عليه السلام في كلّ ممارساته كان يراعي روح الإسلام حتىٰ كان يقول للشيعة: «أحبّونا حبّ الإسلام، والله ما زال حبّكم بنا حتىٰ صار عاراً علينا»(٣). وكان يريد أن يربّيهم التربية الإسلاميّة الصحيحة والخلق السليم كأخلاقهم، حتىٰ إنه عليه السلام كان يخدمهم بنفسه. وهذه الأخلاق والتربية من الإمام لم تكن لشيعته فقط بل هي لغيرهم أيضاً. وممّا

(١) نهج البلاغة / الكلام: ٧٣.
(٢) حياة الحيوان ١: ٦٣، عن كتاب المحاسن والمساوئ للبيهقي.
(٣) الإرشاد ٢: ١٤١، مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٠، بحار الأنوار ٤٦: ٧٣ / ٥٨.

يذكر في هذا الصدد أن هشام بن إسماعيل والي عبد الملك في المدينة، وكان ناصبياً يشتم الإمام كثيراً، وبقي والياً إلى زمن الوليد بن عبد الملك الذي عزله؛ لأنه اختلس أموالاً كثيرة من بيت المال، وولّىٰ مكانه عمر بن عبد العزيز، وأرسل إلىٰ عمر أن أوقف إسماعيل في الشمس واضربه بالسياط وأرجع الأموال. فكان هشام هذا يخاف أن يمرّ به زين العابدين عليه السلام فيشمت به، إذ أنه كان يظن أن الإمام علىٰ شاكلته. وذات مرّة كان الإمام عليه السلام يمشي وإذا به يرىٰ حشداً، فسأل فأخبروه الخبر، فمنع عليه السلام الإساءة إليه، ثم همس في أذنه قائلاً: «انظر إلىٰ ما أعجزك من مال تؤخذ به فعندنا ما يسعك، فطب نفساً منا ومن كلّ من يطيعنا». وأرسل له الإمام كلّ ما يحتاج إليه، فكان يقول بعد ذلك: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[1]، وكان أن ترك النصب له[2].

وله عليه السلام في قلب المدينة موقف آخر فقد مرّ يوماً في المدينة ووراءه حشد من العبيد؛ لأنه كان عنده إصرار غريب علىٰ عتق العبيد كما كان يصنع الإمام علي عليه السلام حيث إنه عليه السلام كان يأخذ صدقات أبي نيزر والبغيبغاء ويشتري العبيد ثم يعتقهم، فالإمام زين العابدين عليه السلام كان يجمع عبيده في وقت الإفطار ويسقيهم الماء ويجلس معهم على الطعام، وإذا أذنب أحدهم ذنباً ذكّره به، فيخاف العبيد، وفي آخر ليلة وهي ليلة العيد يجمعهم ليدعوا له حيث يقول لهم: «قولوا: اللهمّ اعفُ عن علي بن الحسين كما عفا عنّا»[3]. فيعتقهم ويعطيهم شيئاً من المال ويأمرهم بالعمل ويقول:

---

(١) الأنعام: ١٢٤.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠١، بحار الأنوار ٤٦: ٥٥، تاريخ الطبري ٥: ٢١٧.

(٣) الصحيفة الكاملة السجاديّة / دعاؤه عليه السلام في آخر ليلة من شهر رمضان، الإقبال بالأعمال الحسنة ١: ٤٤٤، بحار الأنوار ٤٦: ١٠٤، ٩٥: ١٨٧.

«استعن بها على دهرك، أصلح الله لك أمرك فيها».

فكان أن نظر إليه شامي ومعه العبيد فقال: من هذا؟ قالوا: علي بن الحسين فجعل يشتم أمير المؤمنين عليه السلام، فقال له السجّاد عليه السلام: «إن كنت صاحب حاجة قضينا حاجتك». ثم ضيّفه الإمام، فخرج الرجل وهو يقول: والله أنت وأبوك أحبّ الناس إليّ.

وهكذا كان أهل البيت عليهم السلام في نبلهم الذي يصل حتى إلى حدّ العطف على أعدائهم، وكرمهم حتى للنفوس التي حرمتهم من الماء:

حبتنا معالينا نفوساً أبيّةً سمونا فما يوماً ألفنا دنيّةً

إليكم بربّ الخافقين سليّة (ملكنا فكان العفو منّا سجيّةً

ولمّا ملكتم سال بالدم أبطح)

هذا عطاء علي بن الحسين عليه السلام في كلّ جوانبه.. في عطائه العلمي.. في عطائه الاجتماعي، أما في عطائه العبادي فصحيفته خير شاهد. فتلك الفترة التي عاشها علي بن الحسين عليه السلام كانت قد طغا فيها الجانب المادي؛ لأن الأمويين ركزوا على مجتمع المدينة بشكل واضح لطمس معالم الدين عنه، أقرأ في (الأغاني) وفي (صبح الأعشى) وفي كتب التأريخ الأخرى وانظر إلي أي مدىً وصلت المدينة في هذه الفترة من بعد الانفتاح والفتوحات وازدياد الخيرات، فنزل الإمام عليه السلام في هذه الفترة ليحقّق عملية التوازن بمدرسته الفقهيّة والعباديّة والأخلاقيّة عن طريق الدعاء، هذا العطاء الذي ليس كمثله عطاء، كان عليه السلام في الليل يقرأ مثل هذه الكلمات: «يامن يرحم من لا يرحمه العباد، ويقبل من لا تقبله البلاد، يامن لا يحتقر أهل الحاجة إليه، ويا من لا يخيّب الملحّين عليه، يامن لا يجبهُ بالردّ أهل الدالّة عليه، ويا من يجتبي صغير ما يتحف به ويشكر يسير ما يُعمل له، ويامن

يشكر على القليل ويجازي بالجليل»[١].

يقرأ هذا الرافد المعين السلسبيل، والعطاء الذي لا يقف عند حدّ حتى ينبلج عمود الفجر، ثم يرفع رأسه: «إلهي قد انقشع الظلام ولم أقضِ من خدمتك وطراً، ولا من حياض مناجاتك صدراً»[٢]، ثم يقول: «أولج قلبي فرح الإقبال عليك، وألحقني بميدان المطيعين لك»[٣].

فهذا زين العابدين عليه السلام وهو يحمل الروح التي انفصلت من روح محمد صلى الله عليه وآله من سعة ومن إحاطة ومن عطف على المسلمين

وبقي جانب هو جانب أشباح الطفّ التي ما كانت تغيب عن عين زين العابدين عليه السلام إلى أن لحق بربّه، وكانت تؤثّر فيه أكثر ما تؤثّر في الليل عندما يهدأ الناس ويجلس الإمام ويتصوّر الوقائع التي مرّت على أسرته، ومن تلك الصور صور الأطفال المقطّعة والأجساد الموزّعة، والنساء الضائعات وسفر الظليمة والهضيمة، يدخل عليه أبو حمزة فيعجب من حاله فيقول له الإمام: «ولكن والله يا أبا حمزة، ما وقعت عيناي على أخواتي وعمّاتي إلّا ذكرت فرارهن يوم عاشوراء من خيمة إلى خيمة ومن خباء إلى خباء والمنادي ينادي: أحرقوا بيوت الظالمين».

---

(١) الصحيفة الكاملة السجاديّة / دعاؤه عليه السلام يوم الفطر، مصباح المتهجّد: ٣٦٩، المزار: ٤٥٧، ٦٤٣، الإقبال بالأعمال الحسنة ٢: ١٨٨، ٢٣٣.

(٢) مدينة معاجز الأئمّة ٤: ٣٩٣، بحار الأنوار ٨٤: ٢٣١.

(٣) الصحيفة الكاملة السجاديّة / دعاؤه عليه السلام إذا قام إلى الصلاة أوّل الليل وآخره، فتح الأبواب: ٢٤٦.



﴿٤٦﴾

قبسات من حياة السجاد عليه السلام

وراهبُ أهلِ البيتِ كان ولم يَزَلْ يُلَقَّبُ بالسَّجادِ حتىٰ تعبُّدِهْ
يُقَضّي بطول الصومِ طول نهاره مُنيباً ويقضي ليلَهُ بتَهَجُّدِهْ[1]

المباحث العامّة للموضوع

المبحث الأوّل: أن الأئمة عليهم السلام اثنا عشر كلهم من قريش

الإمام السجاد عليه السلام رابع أئمة أهل البيت عليهم السلام، أو رابع الخلفاء الذين نصّ عليهم الحديث النبوي الشريف: «يكون من بعدي اثنا عشر أميراً كلّهم من قريش». والحديث يرويه البخاري[2] ومسلم[3] في صحيحيهما عدا كتب الإمامية[4] وأهل السنة[5].

مغالطات المفسّرين وشرّاح الحديث في تجاوز ما له علاقة بالأئمة عليهم السلام

ونلاحظ أن بعض الشرّاح عندما يصل إلى هذا الحديث ويشرحه يتخطّى

---

(١) البيتان لابن حماد. مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩٢.

(٢) صحيح البخاري ٨: ١٢٧. (٣) صحيح مسلم ٦: ٣ ـ ٤.

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٥٤ / ١٢، الخصال: ٤٦٩ ـ ٤٧٣ / ١٢ ـ ٣٠، روضة الواعظين: ٢٦٢، وغيرها.

(٥) سنن أبي داود ٢: ٣٠٩ / ٤٢٧٩ ـ ٤٢٨٠، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٣: ٣٤٠ / ٣٣٢، المستدرك على الصحيحين ٣: ٦١٧ ـ ٦١٨.

هذا الموضوع ـ وهو أن الأيمة اثنا عشر ـ ويتجاوزه؛ لأنه لا يستطيع أن يُكيّف هذه الرواية مع الواقع التطبيقي. هذا الواقع هو أن عصر الخلفاء فيه أربعة خلفاء، وفيما بعد تعاقب الخلفاء من الأمويّين؛ من آل أبي سفيان والمروانيين على الحكم بأكثر من هذا العدد. والعباسيّون كذلك تعاقب على الحكم منهم أكثر من هذا العدد، فلذلك يحار هؤلاء الشراح في تطبيق هذه الرواية على مصداقها بما يتلاءم مع الواقع القائم؛ ولهذا يتجاوزونها؛ لأن فيها اعترافاً صريحاً بقول الإمامية في كون الأيمّة عليهم السلام اثني عشر.

كما أن بعض الروايات تنصّ على أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «لا تنقضي الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي ـ أو قال عترتي ـ يواطئ اسمه اسمي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً»[1].

ولهذا الأمر نظائر في التفاسير، فهناك بعض المفسّرين من يتخطّى آية بكاملها ويتجاوزها إذا كانت لها علاقة من قريب أو من بعيد بأهل البيت عليهم السلام، فتجد الآية مكتوبة في المتن ولكن المفسّر ينتقل إلى الآية التي بعدها إذا وجد أنها تمسّ أهل البيت عليهم السلام[2]. وهذه المحاولات لا تخفى على الناقد، وهي محاولات ليس فيها أمانة علميّة؛ لأن المفروض بالمسلم أن ينقل إلى الجيل المسلم العلم بأمانة ودقّة، ويترك للعقليّة المسلمة أن تتفاعل مع التراث وتأخذ منه الصحيح.

---

(١) انظر: الحد الفاصل: ٣٢٩، صحيح ابن حبان ١٥: ٢٣٧، المعجم الأوسط ٢: ٥٥، ٧: ٥٤، المعجم الكبير ١٣٣ ـ ١٣٧ / ١٠٢١٤ ـ ١٠٢٣٠، وغيرها كثير.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٤: ٤٨٤ ـ ٤٨٥، حول تفسير سورة الدهر، تفسير الجلالين: ٧٨١ ـ ٧٨٢، في المورد نفسه وغيرهما فيه وفي غيره من الموارد.

المبحث الثاني: في نسبه عليه السلام

بعد هذه المقدمة نعود إلى حياة الإمام السجاد عليه السلام الذي ولد من أبوين غنيّين عن التعريف؛ فالأب منهما الإمام الحسين عليه السلام، ولا نحتاج بعد ذلك إلى تعداد الآباء، فالعرب تقول في أمثالها: «فلان قصير النسب»[1]، أي أنه لا يحتاج إلى تعداد آبائه؛ لشهرتهم وانتشار صيتهم، فيكفي في نسبه أن تقول: فلان ابن فلان؛ لأن أباه عَلَمٌ لا يحتاج إلى التعريف، فيكفي في الإمام السجاد عليه السلام أن نقول: إنه ابن الإمام الحسين عليه السلام.

عوامل الامتزاج بين الحضارتين العربية والفارسيّة

أما أُمه عليه السلام فهي شاه زنان ابنة يزدجرد. وهنا نحتاج إلى وقفة وتأمّل؛ لأن هذا اللون من التزاوج لعب دوراً هامّاً في مزج الفكر العربي بالفكر الفارسي، والثقافة العربية بالثقافة الفارسيّة، والأدب العربي بالأدب الفارسي، بحيث كوّن مزيجاً له بصماته الخاصّة وأبعاده الحضارية. فلو أردنا أن نخلّص الأدب الفارسي من الأدب العربي لما استطعنا، وكذلك لو أردنا تخليص الأدب العربي من الأدب الفارسي؛ لأن أبعاد الثقافة امتزجت بينهما إلى درجة يصعب معها فصلهما. وقد أدىٰ إلىٰ حدوث ذلك خمسة عوامل هي:

العامل الأوّل: مظهر التزاوج

فمنذ أن أخذت الفتوحات عند المسلمين طريقها إلى الشرق والغرب، راحوا يأتون بالجواري المسبيّات فيتزوّجونهن؛ والذي يحدث أن هذه الزوجة تنقل معها بيئتها الثقافية والاجتماعية والأخلاقية، وتلتقي ببيئة

---

(١) لسان العرب ٥: ١٠٠ ـ قصر.

أخرى فيحدث التفاعل بين البيئتين. ولذا نلاحظ أن موضوع التزاوج لعب دوراً كبيراً، فتجد أن بعض أمهات الخلفاء الأمويين والعبّاسيّين فارسيات، فقد تزوّج عبد الملك بن مروان امرأة فارسية فولدت له ابنة اسمها مسلمة. وقد خطب عبد الملك من عقيل بن علفة المري ـ وهو بدوي كان يعيش بالصحراء ـ فقال له: أصلح اللّه الخليفة، جنّبني هُجَنَاءَك[1]. (والهجين هو الذي يولد من أب عربي وأم غير عربية)[2].

وهذا طبعاً لون من العصبيّة الممقوتة التي لا يقرّها الإسلام، وكلّ من تجده يحمل العنصريّة أو العصبيّة فهو بعيد من الإسلام؛ لأن الإسلام لا يلتقي مع العصبية بحال من الأحوال. وكم هي رائعة كلمة رسول اللّه صلى الله عليه وآله لما سمع بعض الناس يفخرون بآبائهم: «فوالذي نفسي بيده لما يدهده الجعل بمنخريه خير من آبائكم الذين ماتوا في الجاهلية»![3]. والجُعل لا يدهده (يدحرج) إلّا البعرة. فالإنسان ابن الفكر والعقيدة، وليست المسألة مسألة دم ولحم، وإلّا فإن بعض الحيوانات ـ كما هو معروف ـ أكثر من الإنسان لحماً ودماً.

وكانت أم مروان آخر خلفاء بني أمية كردية إيرانية، وكذلك أم المأمون فقد كانت فارسية، والكثير من أمهات الأيمة فارسيّات، ومنهن أم الإمام السجاد عليه السلام، وخالته زوجة عبد اللّه بن عمر التي ولدت سالم بن عبد اللّه بن عمر، وخالته الأخرى زوجة محمد بن أبي بكر التي ولدت له ولداً. فكان يؤتى بالجواري أيّام الفتوحات فيتزوّج بهن المسلمون.

---

(١) الأغاني ١٢: ٢٩٨، وليس فيه: جنبني هجناءك، بل فيه: يخطب إليّ عبد الملك فأرده....

(٢) العين ٣: ٣٩٢ ـ هجن.

(٣) مسند أحمد ١: ٣٠١، تحفة الأحوذي ١٠: ٣١٧.

وقد تستغرب أنْ بلغ من أمر الرشيد أنه كان في قصره ألف جارية[1]، وفي قصر المتوكل أربعة آلاف جارية وسرّية[2]، ولكن الغريب من أنيس منصور وغيره من المتهالكين على موائد البغض والتفرقة أن يحاولوا إلصاق ذلك بالأيمة عليهم السلام. وسوف يمر بنا أن الإمام السجاد عليه السلام كان يشتري العبيد والجواري، فإذا جاءت ليلة العيد قال لهم: ارفعوا أيديكم و: «قولوا: اللهمّ اعفُ عن علي بن الحسين كما عفا عنّا». فيعتقهم ويعطيهم شيئاً من المال ويأمرهم بالعمل ويقول لمن يعطيه: «استعن بها على دهرك، أصلح الله لك أمرك فيها»[3].

فالجواري لم يكنّ يتأخّرن في بيوت الأيمة عليهم السلام، وإنما كنّ يعتقن جميعهن. أما أن يدّعي أنيس منصور وغيره غير ذلك فهذا لا واقع له.

إذن هذا العامل كان قد لعب دوراً مهمّاً جداً في مزج الثقافتين. فهناك فارسيّات تزوّجن من عرب، وبالعكس هناك عربيّات تزوجن في بلاد فارس. ويلاحظ أن الفكر الإسلامي ليس فكراً فارسيّاً أو عربيّاً فقط، وإنما هو جدول تنصبّ فيه روافد متنوّعة، لكن أبرز هذه الروافد الرافد الفارسي؛ وذلك بسبب وجود الجواري.

العامل الثاني: الجوار والتبادل التجاري

وهذا العامل هام جداً من حيث كونه وسيلة للانتقال بين البلاد التي تزاول

---

(١) البداية والنهاية ١٠: ٢٣٨ ـ ٢٣٩، ٢٤١.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٢: ٤٠.

(٣) الصحيفة الكاملة السجّاديّة / دعاؤه عليه السلام في آخر ليلة من شهر رمضان، الإقبال بالأعمال الحسنة ١: ٤٤٤، بحار الأنوار ٤٦: ١٠٤، ٩٥: ١٨٧.

عبرها وبينها التجارة، فهنا جانبان:

الأوّل: الجوار

فبحكم التحادّ بين بلدين يحدث نوع من التبادل الفكري والثقافي بينهما، لسهولة التنقل وقرب المسافة نوعاً ما في ذلك الزمان. وهذا الجانب يسهل كثيراً عملية التبادل الثقافي بسبب القرب بين البلدين المتجاورين.

الثاني: التبادل التجاري

وهو جانب يقوم بالدرجة الأولىٰ علىٰ الجانب الأوّل (الجوار) حيث تكون مسألة التقارب بين البلدين عاملاً محفّزاً لقيام الرحلات التجارية بينهما؛ مما يؤدي إلىٰ انتقال ثقافة كل بلد إلىٰ البلد الآخر عن طريق التجار الذين ينقلون عاداته معهم عبر الإماء وسوق الرقيق، وربما عبر بيع بعض مصادر الثقافة أو نقلها من بلد إلىٰ آخر.

العامل الثالث: عامل الانتقال الوظيفي

فقد استعانت الدولة الإسلامية زمن الأمويّين والعباسيّين بخبرات وكفاءات الأمم الأُخرى، فالإسلام انفتح على ثقافات متعدّدة كوّنت جدولاً تصبّ فيه روافد كثيرة ومتنوّعة. فاستفاد من هذه الثقافات والخبرات. والباحث يجد في قصور الخلفاء أيام الأمويّين والعبّاسيّين النصراني والمسلم، والنبطي والفارسي والتركي وغير ذلك من مختلف الجنسيّات. أمّا الوزارات فكانت من نصيب الفرس خاصّة، فكان أول وزير للعبّاسيّين أبو سلمة الخلّال وهو فارسي، ومن بعد أبي سلمة جاء المورياني وهو فارسي أيضاً، ومن بعده يعقوب بن داود والبرامكة وآل سهل وكلهم من الفرس. وكان كلّ واحد من هؤلاء يستعمل مجموعة من

الكتّاب والأُدباء، فتجد بيوتهم مؤسّسات أدبيّة تحمل الفكر والثقافة، فتجد الفقيه إلى جانب اللغوي والأديب والمحدّث والمفسر. وهذا اللون من التمازج بالفكر أحدث مزيجاً له بصمات متنوعة.

العامل الرابع: عملية الترجمة والنقل

فقد نقلت الكتب من الفارسيّة إلى العربية، ونقل الفكر العربي من العرب إلى الفرس؛ ولذا أُحبّ أن أُلفت نظر الشباب المثقّف إلى أن يطّلع على الحِكَم التي تروى عن كسرى أو بزرجمهر أو نظائرهم، أو التي تروى للمعاصرين منهم في الجانب الثاني، فإننا نجد أن البصمات واضحة ومتشابكة، وأن لكل منهما حِكَماً في أدب وثقافة الجانب الآخر.

وقد لعب الكثير من المترجمين دوراً مهماً في هذا المجال، فكان البلاذري مثلاً من المترجمين، بالإضافة إلى محمد بن بهزاد وشاهويه وابن المقفع، وعشرات المترجمين الذين نقلوا الكتب من مختلف الثقافات، وتطعمت مع الثقافة العربية الإسلامية.

العامل الخامس: تبادل الثقافة بين الأدباء

فالأسواري مثلاً كان أديباً فارسيّاً تثقّف بالثقافة العربيّة، وكان العتابي أديباً عربيّاً تثقّف بالثقافة الفارسيّة. فعندما تقرأ شعر العتابي تجد فيه البصمات الفارسيّة، فتجد الديباجة إلى جانب الفكرة، فيقول مثلاً:

فلو كان للشكر شخصٌ يرى ... إذا ما تأمّلهُ الناظرُ
لمثّلتُهُ لك حتى تراه ... فتعلمَ أنّي امرؤٌ شاكرُ[1]

وهذ اللون من التوليد بين المعاني والألفاظ ما عرف إلّا في هذه الفترة.

---

(١) روضة الواعظين: ٤٧٤، الإمامة والسياسة ٢: ١٦١.

وتجد عند الكتّاب مثلاً ألواناً من العلوم النقليّة والعقليّة، فالعلوم العقليّة مثل الطبّ والفلسفة والكيمياء والمنطق وغيرها من العلوم التي كانت تتّخذ المنهج العقلي منهجاً لها. والعلوم النقليّة هي العلوم التي يعتبر مركزها القرآن الكريم مثل الحديث والتفسير والفقه واللغة العربيّة بمشتقّاتها. وفي هذه العلوم تجد العلماء متمازجين، فتجد سيبويه وأستاذه الخليل بن أحمد الفراهيدي، وتجد الشافعي و إلى جانبه الشريف المرتضى. وتجد في الأدب بشّار بن برد إلى جانب أبي العتاهية والأصمعي. فحصل لون من التمازج يصعب معه انفصال الثقافتين.

ولكن الذي لعب الدور الأول هو العامل الأول، وهو التزاوج.

المبحث الثالث: في افتراءات بعض الكتّاب عليه عليه السلام

وهنا نحبّ أن ننبّه إلى أن بعض الكتّاب المهووسين حينما يتناول ولادة الإمام السجاد عليه السلام من كونه من أم فارسيّة فإنه يقول: إن الذي منع الإمام السجاد عليه السلام من الخروج إلى القتال يوم الطفّ أنه لم يكن متأثراً بالوراثة بأبيه وإنما كان متأثراً بأمه. وهذا اللون من الكتب والكتابات عليها الكثير من علامات الاستفهام، وهي كتابات تُسيء للإسلام الذي صهر الجنسيّات المختلفة وذوّبها، وصنع منها مزيجاً رائعاً يهتزّ له الدهر إعجاباً، وهو لون من الفكر يطرده الإسلام عن حضيرته، ويأباه أشدّ الإباء؛ إذ لا تكاد تجد اليوم دماً خالصاً مئة بالمئة، ومن يقل ذلك فهو مغفّل.

وفي رأي الإسلام أن الإنسان إنسان بمشاعره وفكره ومصالحه المشتركة وأهدافه؛ ولذلك تجد الآن أن الخصائص التي يعطونها إلى الأمم الأُخرى لا يدخل فيها الدم، فإن هذا الفكر أصبح فكراً خرافيّاً. أما الفكر

الصحيح فهو الفكر القائم على أساس المصالح المشتركة واللغة والمشاعر، وهذه هي التي تحدّد معالم القوميّة.

فالإمام السجّاد عليه السلام ولد بين هذين الأبوين، وقد ماتت به أمّه وهي نُفَساء، أما ما تقوله الرواية من أنها حضرت واقعة الطفّ ورمت نفسها في الفرات وغرقت فهذه لا واقع لها ولا منشأ، ولا أساس لها من الصحّة إطلاقاً. والصحيح ما نقلناه من أنها ماتت به وهي نُفَساء، فأوكل الإمام الحسين عليه السلام أمره إلى جارية من جواريه، فربته وأرضعته وعطفت عليه ونشأته. ولذلك فإن الإمام عليه السلام كبر على احترامها وإكرامها غاية الإكرام، يقول المؤرخون: إنه عليه السلام كان يجلس معها على مائدة الطعام ويؤاكلها ويؤانسها، ولا يمدّ يده إلى الطعام، فلما سئل عن ذلك قال: «إني أكره أن تسبق يدي إلى ما سبقت عينها إليه فأكون قد عققتها»[1]. وهذا النمط من الأدب قد تجده أيضاً عند العرب، يقول حاتم الطائي:

وإنـي لأستحيي صحابيَ أن يـرَوا	مكـانَ يـدي مـن جـانب الزاد أقـرعا
أقـصّرُ كـفّي أن تـنالَ أكـفّهم	إذا نـحنُ أهـوينا وحـاجاتُنا مـعا
أبـيت خـميص البطن مضطمر الحشا	حـياء أخـاف الضـيم أن أتـضلّعا
فـإنك إن أعـطيتَ نـفسَك سُـؤْلَها	وفـرجَك نـالا مـنتهى الذمّ أجـمعا[2]

المبحث الرابع: نشأته عليه السلام ونشاطه إبّان إمامته عليه السلام

ثم ترعرع عليه السلام ونشأ في المدينة، وكانت له فعّاليّات كبيرة فيها بعد استشهاد أبيه الحسين عليه السلام؛ لأنه كان محجوباً أيّام أبيه الذي كانت فعّاليّاته

---

(١) الخصال: ٥١٨ / ٤، مكارم الأخلاق: ٢٢١، مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٠.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٩: ١٨٩ ـ ١٩٠.

ملء السمع والبصر، وكلّ فعّاليّة للسجّاد تندكّ بجانب فعّاليّات أبيه عليه السلام.

وحينما استشهد الإمام الحسين عليه السلام كان عمر السجاد عليه السلام اثنتين وعشرين سنة؛ لأنه ولد سنة ثمانٍ وثلاثين للهجرة، حيث إن جابر بن حريث كان قد خرج أيّام أمير المؤمنين عليه السلام إلى خراسان ففتحها، وأتى ببنات يزدجرد، فتزوّج الحسين عليه السلام واحدة منهن، فولدت السجاد عليه السلام، وتوفيت به وهي نُفَساء. فعلى هذا يكون عمره الشريف يوم الطفّ اثنتين وعشرين سنة. وكان متزوّجاً وعنده الباقر عليه السلام وله من العمر ثلاث سنوات. وكان علي الأكبر أكبر منه؛ ولذلك لقّب بالأكبر.

ولما رجع الإمام عليه السلام إلى المدينة بعد استشهاد والده عليه السلام، بدأت تظهر عنده بعض الفعّاليّات، وأهمّ هذه الفعّاليّات فعّاليّة الأدعية، فكان من نتاجه هذه الصحيفة السجادية الشريفة (زبور آل محمد)، هذه الثروة الضخمة التي عندما تقرأ دعاء منها كدعائه عليه السلام يوم عرفة فإنك تقف على مضامين فلسفيّة وعقليّة دقيقة جداً يسكبها الإمام عليه السلام في هذه الأدعية، وكذلك في دعائه عليه السلام في تذلّله وتضرّعه، أو إذا شاهد جنازة.

لماذا الدعاء؟

فما هو السبب في هذا اللون من الفكر الذي ارتبط به الفكر الصوفي من بعد؟ إن الصوفيّة ارتبطوا بالإمام أمير المؤمنين عن طريق الإمام زين العابدين عليه السلام وإن كان التصوّف قد دخلت فيه عناصر غنوصية[1] لا علاقة لها بالعهد الإسلامي، فإن الصوفية في العهد الإسلامي هي غير

---

(١) الغنوصية: نزعة فكرية ترمي إلى مزج الفلسفة بالدين، وتشتمل على طائفة من الآراء المضنون بها على غير أهلها. وتطلق خاصة على جماعة من المفكرين في القرنين الأوّل والثاني الميلاديين. المعجم الوسيط: ٦٦٤ ـ غنص.

الصوفية التي بدأت تكتسح العالم الآن، خصوصاً بعد إفلاس النظم الاجتماعيّة. فالإنسان عندما أفلس في تجاربه الاقتصاديّة والاجتماعيّة واصطدم بها حصل عند الناس ردّة فعل، وذلك بالاتّجاه نحو اللّه والانقطاع إليه، وانتشرت حركة التصوّف في هذا العصر. وهذا موضوع ليس محلّه الآن، لكننا نبحث عن البواعث التي دعت الإمام السجاد عليه السلام إلى سلوك طريق الدعاء في زمانه.

لقد كان السبب في ذلك هو الانفتاح المادي الذي حصل بسبب الامتزاج مع الحضارات الذي شرحناه آنفاً. ويبدو هذا الأمر بشكل واضح في هذا العصر، فلو أنك نظرت إلى شاب كويتي يعيش في هذا الزمان وشاب آخر يعيش في الخمسينيّات وثالث في الثلاثينيّات للاحظت فرقاً كبيراً في الشخصية بين هؤلاء: فهذا الذي يعيش الآن يعيش دور الأموال والتلفزيون والرفاهية والمخترعات الحديثة، كالسيارات الضخمة والطائرات؛ ولذا تجد مجموعة من الشباب المتأثر بهذه الأوضاع ولها هويّة خاصّة، فقد دخلت في ذهنه تيّارات فكريّة ملحدة أو مشوّشة أبعدته عن عاداته وتقاليده. وإذا كان الشاب في الأوقات الاعتيادية كالراكب في السفينة في مهب الريح لا يدري متى يغرق، فكيف به في مثل هذه الأوضاع؟

نعم يوجد في الكويت الآن انفتاح فكري ضخم، ولا أُريد أن أقول: إن كلّ الذين فيها أصبحوا مفكّرين؛ فإن ذلك يحتاج إلى وقت، ولكنها تشهد انفتاحاً فكريّاً خصوصاً في رحاب الجامعات. وهناك فعّاليّات ثقافيّة ضخمة وإصدارات وكتب ومجلات، مثل (عالم الفكر)، و(عالم المعرفة) اللتين أعتزّ بهما كمجلّتين متميّزتين. وكذلك (العربي)، وهي

مجلّة فيها فكر وتنويع وأبواب متعدّدة، وهناك نمط من التفاعل مع الثقافات الحديثة، لكن في مقابل هذا حدث ابتعاد عن الدين والعقائد، فيحتاج ذلك إلى تعديل التوازن، ولا يعدّل التوازن سوى الأخلاق.

معالجة السجّاد عليه السلام لحالة الابتعاد عن الدين

وهذه الحالة من الابتعاد حدثت في زمن الإمام زين العابدين عليه السلام، وذلك يعود لعدة أسباب، منها انفتاح الأمة الإسلاميّة على الشرق والغرب، فكان أن امتلأت البيوت بالجواري والأموال[1]، وحصلت حالة من الترف، وعمّت مجالس الطرب والرحلات والتنعّم. فرأى الإمام عليه السلام أن الناحية الماديّة غلبت على الناس بشكل عجيب، فلا تكاد تجد إلّا مجالس الأُنس والطرب والبيع والشراء والاتجار بالرقيق والرحلات، فتلافى الإمام عليه السلام ذلك بطريقين:

الطريق الأوّل: الأدعية

فأدعية الصحيفة السجادية كلّها تصب في مجال التعلّق الروحي بالله عزّ وجلّ والخوف منه، ونقل الإنسان إلى عالم ما وراء الطبيعة، وشرح ما ينبغي أن يكون عليه العبد من الأخلاق والانقطاع إلى اللّه، وتذكيره بالآخرة والموت، «وكفى بالموت واعظاً»[2]، يقول طاووس اليماني: كنت أطوف بالكعبة في جوف الليل، فأقبل رجل قد أكربته أحزانه وأقلقته أشجانه، فدخل إلى الكعبة ورمق السماء بطرفه، وسمعته يقول: «إلهي،

---

(١) مرّ الحديث عن ذلك بشكل مفصل في ج٢ ص٢٠٥ / الهامش: ٤ ـ ٥، ص٢٠٦ / الهامش: ١ من المحاضرات.

(٢) الكافي ٢: ٢٧٥ / ٢٨، مسند الشهاب ٢: ٣٠٢.

وحقّك ما عصيتك إذ عصيتك وأنا بنكالك شاكٌّ، ولا لعقوبتك متعرّض، ولكن سوّلت لي نفسي وغرّني سترك المرخىٰ عليّ، فأنا الآن من عذابك مَن يستنقذني؟ وبحبل مَن أعتصم إذا قطعت حبلك عنّي؟ فواسوأتاه غداً من الوقوف بين يديك إذا قيل للمخفّين: جوزوا، وللمثقّلين: حطّوا. ليت شعري، أمع المثقلين أحطّ، أم مع المخفّين أجوز؟ ما لي كلّما طال عمري كثرت خطاياي، أما آن لي أن أستحي من ربي؟». يقول طاوس: ثم سقط فأقبلت إليه، فرأيت شفاهه تتمتم بهذين البيتين:

«أتحرقني بالنار ياغاية المنى فأين رجائي ثمّ أين محبّتي
أتيتُ بأعمالٍ قباحٍ زريّةٍ وما بالورى خلقٌ جنى كجنايتي»

فجلستُ عنده أمسح التراب وحبات العرق عن وجهه، فانتبه لي فقال: «من؟ طاووس هذا؟». قلت: نعم، فداؤك طاوس، هذا أنت وتصنع هذا؟ قال: «ولماذا؟». قلت: سيدي، من ورائك شفاعة جدك ونسبك، ثم إنك محسن ورحمة اللّه قريبة منك. فالتفت إليّ، وقال: «دع عنك حديث أبي وأمي، ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾[1]». ثم قال لي: «دعني أدنُ إلى الله». قلت: تدنو إلى اللّه وأنت زين العابدين؟ قال: «نعم، لا تحُل بيني وبين ربي». فأضجعته وقمت عنه[2].

وهذا اللون من العبادة والانقطاع إلى اللّه كان الإمام عليه السلام يصدح به في كلّ مناسبة، فهو عليه السلام يقول مثلاً: «لا تصف العقول صفة ذاتك، عجزت الأوهام عن كيفيّتك، ولا تدرك الأبصار موضع أينيّتك»[3]. فأنت لا تقرأ في هذا دعاءً فقط

---

(١) المؤمنون: ١٠١.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩١، المزار (المشهدي): ١٤١ ـ ١٤٢.

(٣) الإقبال بالأعمال الحسنة ٢: ١٥٠. وفي جمال الأسبوع: «إلهي، أنت الذي عجزت

وإنما تقرأ فكراً.

وذلك كما لو كنت تقرأ في دعاء جده أمير المؤمنين عليه السلام: «اللهمّ يا من دلع لسان الصباح بنطق تبلّجه، وسرّح قطع الليل المظلم بغياهب تلجلجه، وأتقن صنع الفلك الدوار في مقادير تبرّجه، وشعشع ضياء الشمس بنور تأججه، يا من دلّ على ذاته بذاته، وتنزّه عن مجانسة مخلوقاته وجلّ عن ملاءمة كيفيّاته»[1]، فإنك إنما تقرأ قطعاً مموسقة رائعة تحتوي على أدقّ المعاني.

وكلّ ذلك أعطاه الإمام عليه السلام هذا الزخم ليعدّل التوازن بين الجانب المادي الطاغي على حياة الناس والجانب الروحي، فيجرّ الناس إلى الروح؛ لأن المادّة لا تحقّق لهم السعادة، وإنما المادّة عامل مساعد عليها.

يقول عليه السلام في أحد أدعيته: «مولاي وارحمني عند تغيّر صورتي وحالي إذا بلي جسمي وتغيرت أعضائي وتقطعت أوصالي؟»[2]. فالإنسان روح، أمّا هذا الجسد فسوف يعطيه للتراب شاء أم أبي، يقول الشاعر:

ولقد قلتُ لنفسي وأنا بين المقابرْ
هل رأيتِ الأمنَ والرا حةَ إلّا في الحفائرْ
فأشارت فإذا للـ دود عبثٌ بالمحاجرْ

أقوال الصحابة والتابعين والخلفاء فيه عليه السلام

فالإمام عليه السلام أراد أن يخلق التوازن بين المادّة والروح، ولذلك تجد ألدّ أعدائه يعطيه الصفات الغريبة، يقول عبد الملك بن مروان للإمام عليه السلام:

الأوهام عن الإحاطة بك، وكلّت الألسن عن نعت ذاتك». جمال الأسبوع: ٦٢.

(١) قطعة شريفة من دعاء الصباح له عليه السلام. انظر: بحار الأنوار ٨٤: ٣٣٩ / ١٩، ٩١: ٢٤٣ / ١١.

(٢) الصحيفة السجادية: ٣٠٧ / ٥٢ ـ دعاؤه في التذلّل لله عزّ وجلّ.

والله ما أوتي أحد من الورع والعلم والفقه مثل ما أوتيت إلّا أسلافك.

ويقول له عمر بن عبد العزيز: أنت سراج العالم وزينة الدنيا.

ويقول عنه الإمام مالك: إنما سمي بزين العابدين لشدة عبادته.

ويقول عنه الإمام الشافعي: ما رئي أفقه منه.

ويقول تلميذه الزهري: ما رأيت قرشياً أفضل من علي بن الحسين عليه السلام، وكان إذا جنّ عليه الليل يأخذ اللحم الميت من مواضع سجوده؛ ولذلك لقب بالسجّاد.

الطريق الثاني: الخطابة

وناهيك بها من خطابة، فكان يوم الجمعة يصعد المنبر فيخطب ويعالج المشاكل الاجتماعية، وكان يحرص على إبعاد الروح الطائفي والتألّم من خطبه، فلا تجد فيها شيئاً من ذلك أبداً، مع أنه عانى معاناة ضخمة كان من بعضها أن رأس أبيه عليه السلام حُمل أمامه وضرب بالقضيب. لكنه عندما تمكن ممّن فعل ذلك بعث الطعام إلى أهله وحرس بيته من هجمات الثوار وراعى عياله[1]. وكان يدعو لحفظ الثغور في أيّامه[2] ويطلب من المسلمين أن يجاهدوا.

الطريق الثالث: التدريس في المسجد

ومن فعالياته عليه السلام في هذه الفترة ما كان يمارسه من نشر الوعي عن طريق المسجد. ولا ننسَ أن المسجد هو الذي بنى مجتمعنا وأسّس حضارتنا،

---

(١) انظر حول ذلك: مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠١، اللهوف في قتلى الطفوف: ١٨، بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٦، ٤٦: ٥٥، تاريخ الطبري ٥: ٢١٧، الكامل في التاريخ ٣: ٤٥٦.

(٢) كما في دعائه عليه السلام لأهل الثغور المعروف. انظر الصحيفة الكاملة السجاديّة: ١٤١ ـ ١٥٠.

فكان عليه السلام يقضي معظم أوقاته بالتدريس وتفسير القرآن الكريم في المسجد، وكانت آلاف الأسئلة ترد عليه كلّ يوم من مختلف الجهات، فكان يجيب عليها.

نماذج من أجوبته عليه السلام

١ـ سأله أحدهم عن قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[1]، ما معنى ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾؟ فقال عليه السلام: «ما ظهر منها الزنا، وما بطن نكاح زوجة الأب»[2].

وهذا النوع من النكاح كان سائداً في الجاهلية، وهو المسمّى بنكاح المقت. فكان الأب إذا مات وله زوجة يجيء ابنه من الزوجة الثانية فيتزوّجها، أو يلقي رداءه عليها، أو يزوّجها بعد أن يأخذ مهرها. ولذلك نزل قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾[3].

٢ـ وروى يحيى بن المساور الهمداني عن أبيه أنه جاء رجل من أهل الشام إلى علي بن الحسين عليه السلام فقال: أنت علي بن الحسين؟ قال: «نعم». قال: أبوك الذي قتل المؤمنين؟ فبكى عليه السلام ثم مسح عينيه وقال: «ويلك، كيف قطعت على أبي أنه قتل المؤمنين؟». قال: قوله: «إخواننا قد بغوا علينا، فقاتلناهم على بغيهم». فقال عليه السلام: «ويلك أما تقرأ القرآن؟». قال: بلى. قال: «فقد قال الله: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً﴾[4]، ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾[5]، فكانوا إخوانهم

---

(١) الأعراف: ٣٣.
(٢) الكافي ٥: ٥٦٧ / ٤٧، وفي الكافي ٦: ٤٠٦ / ١، عن الكاظم عليه السلام.
(٣) النساء: ٢٢.
(٤) الأعراف: ٨٥.
(٥) الأعراف: ٧٣.

في دينهم أو في عشيرتهم؟». قال له الرجل: لا بل في عشيرتهم؟ فقال عليه السلام: «فهؤلاء إخوانهم في عشيرتهم، وليسوا إخواتهم في دينهم». فقال له ذلك الرجل: فرّجت عني فرّج الله عنك[١].

كان عليه السلام هكذا في النهار بين الإجابة عن الأسئلة والدرس، فإن جنّ عليه الليل حمل على ظهره الحقيبة أو الجراب المملوء ببدر الدنانير والدراهم أو صرر الطحين فيمرّ على البيوت فيطرقها باباً باباً فيعطيها لهم. وقبيل الفجر كان يحمل القِرَب فيستقي لضعفة جيرانه.

وقد سئل الإمام الباقر عليه السلام: لماذا كان على ظهر أبيك مجل[٢]؟ قال عليه السلام: «إنه كان يستقي لضعفة جيرانه بالليل»[٣]؛ ذلك أن المدينة المنوّرة ليس فيها أنهار، وإنما كان فيها آبار بعيدة القعر ـ مثل النجف سابقاً ـ فلذا كان الإمام عليه السلام يستقي لهؤلاء الضعفة من جيرانه من كبار السنّ وغيرهم، فيمتح الماء بالدلو ويحمله على ظهره ثم يعود به إلى بيوتهم.

وكان إذا حلّ وقت المغرب يشرف على القدور فيقول: «ابعثوا لآل فلان، واغرفوا لآل فلان، واعطوا آل فلان»[٤]. ولا يتناول إلا لقيمات يسيرة من طعام يعدّ له. وكان يخرج إلى الصحراء، حتى إنه كان في بعض الأحيان يصلّي الفجر في الصحراء. وكانوا يسمعونه يردّد:

مـن عـرف الربّ فلم تُغنِهِ ... مـعرفةُ الرَّبِّ فذاك الشقي

مـا ضرّ ذا الطاعةِ ما نالهُ ... فـي طاعةِ اللهِ وماذا لقي

---

(١) تفسير العياشي ٢: ٢٠ / ٥٣.

(٢) المجل: أثر العمل في الكفّ وغيره حينما يعالج بها الإنسان الشيء حتى يغلظ جلدها من المشقة. لسان العرب ١١: ٦١٦ ـ مجل. (٣) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩٤.

(٤) المحاسن ٢: ٣٩٦ / ٦٧، بحار الأنوار ٩٣: ٣١٧ / ٦.

ما يصنعُ العبدُ بغير التُّقى والعزُّ كلُّ العزِّ للمتقي[1]

وأية روضة أكثر عطاء من هذه الروضة؟ أدب وفكر وخلق عالٍ وإنسانية وبطولة ورأفة بالإنسانية، وهذه هي الحياة التي نحرص على أن نأخذ منها زاداً لأجيالنا.

وإلى جانب هذا استأثرت بحياة الإمام عليه السلام ذكريات الطفّ التي ما بارحت ذهنه أبداً، فالحدث كان ضخماً جداً، حتى إنه عليه السلام كان يوضع الماء بين يديه فيطيل النظر إليه ويقول: «أأشرب وابن رسول الله مات ظمآناً؟ أشرب وابن رسول الله مات عطشاناً؟».

مرّ يوماً على الفرات فأطال النظر إليه ثم قال: «إلى الآن تجري يا فرات وقد قتل عندك ابن بنت رسول الله ظمآناً؟ إلى الآن تجري يا فرات وقد سقط آل رسول الله إلى جانبك؟».

اشرب لذيذ الماي حاشا واهلي گضوا كلّهم عطاشى

ومرّ يوماً بالمدينة فسمع أحداً يصيح: أنا غريب. فقال له: «من المنادي؟». قال: أنا. قال له: «إذا جعت تُطعم الطعام؟». قال: المسلمون كثيرون وفيهم الغيرة. قال: «إذا عطشت تُسقى الماء؟». قال: الماء مباح للكلاب والخنازير. قال: «فإن متّ تطرح على الأرض أو تُوارى؟». قال: إن المسلمين لا يتركونني دون مواراة. قال: «إذن لست غريباً». قال: فمن الغريب إذن؟ قال: «الغريب أبو عبد الله عليه السلام، بقي ثلاثة أيام بلا غسل ولا كفن».

ومرّ يوماً فسمع أحد القصّابين يقول لغلامه: أسقيت هذا الكبش ماء؟ فلفتت العبارة نظر الإمام عليه السلام، فقال له: «أنتم معاشر القصّابين لا تذبحون

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٨٢، وفيه: بعزّ الغنيّ. بدل: بغير التقيّ.

الكبش حتى تسقوه الماء؟». قال: بلى سيدي. فأدار وجهه إلى جهة كربلاء وصاح: «أبه يا أبه، الكبش لا يُذبح حتى يُسقى الماء، وقد قتلت إلى جانب الفرات ظمآناً».

ودخل عليه أبو حمزة يوماً فقال له: سيدي، أما آن لحزنك أن ينقضي؟ وهل مات أحد من آبائك حتف أنفه؟ ألستم تموتون تحت السيوف؟ فقال ﷺ له: «يا أبا حمزة هذا صحيح، ولكن والله، ما وقعت عيناي على أخواتي وعمّاتي إلّا ذكرت فرارهن يوم عاشوراء من خيمة إلى خيمة ومن خباء إلى خباء والمنادي ينادي: أحرقوا بيوت الظالمين».

يقول حميد بن مسلم: نظرت إلى امرأة على باب خباء أوشكت النار أن تأخذها، فدنوت منها وقلت: أمة الله، النار قاربتك. فلم تجبني، فقلت: أمة الله، النار علقت بأطراف ثيابك. فلم تجبني، فقلت في الثالثة بأعلى صوتي: النار أوشكت أن تلتهمك! فأدارت وجهها إليَّ قائلة: يا ظالم، أنا أرى النار، ولكن لنا عليل في هذه الخيمة، ثمّ دخلت عليه فقالت: يابن أخي ماذا نصنع؟ قال: «فروا على وجوهكم في البيداء».

وعاش هذه الفترة بعد أبيه يبكي لرؤية الماء وذكر كربلاء إلى أن حضرته الوفاة في مثل هذه الليلة وعنده أهل بيته، يقول المؤرّخون: رفع رأسه إلى السماء وقال: «رفقاً بي ملائكة ربي، لمثلها فليعمل العاملون»[1].

ثم سجّاه الإمام الباقر ﷺ إلى القبلة فأسبل يديه ورجليه وغمض عينيه وقضى نحبه مسموماً، وللقيود على جسمه آثار وآثار، وللسياط على كتفه آثار وآثار:

---

(١) لم نعثر عليه عن الإمام السجاد ﷺ، وهو في وفيات الأيمّة: ٥٨، عن أمير المؤمنين ﷺ.

مالي أراك ودمعُ عينك جامدٌ ... أوما سمعت بمحنة السجادِ

يقول المؤرخون: أوصى الإمام السجاد عليه السلام ولده الإمام الباقر عليه السلام فقال له: «إذا أنا قضيت نحبي فأسرجوا في مكاني ضياءً؛ لأن الروح ترجع إلى مكان الجسد فإن رأته مظلماً استوحشت». وكانت هذه عادة أهل البيت عليهم السلام لكن هل أسرجت زينب عليها السلام ليلة الحادي عشر من المحرم سراجاً مكان إخوتها، أم بقيت تلك الليلة بالظلماء؟ كان الأطفال حولها يتصارخون وهي تجول ما بينهم:

يبويه عليّه الليل هـوّذ ... وآنه غريبه وما لي اخذ

* * *

وإن يبكِ اليتيمُ أباهُ شَجواً ... قَرَعْنَ سِياطُهم رأسَ اليَتيمِ

﴿ ٤٧ ﴾

أخلاق زين العابدين عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

إن استدلال الإمام السجاد عليه السلام بهذه الآية الشريفة يعدّ منقبة بلا شكّ، لكنه لم يلحظ فيها معنى الانتماء الدموي وإن كان هذا المعنى ملحوظاً باعتبار أنهم أولاد رسول الله صلى الله عليه وآله، بل إنه عليه السلام لحظ فيها أنه امتداد للرسالة. وقد استشهد عليه السلام بها حينما كان في طريقه إلى الشام، ورماه أحد الشاميّين بأنه من الخوارج وقال له: «أتقرأ القرآن الكريم؟». قال: نعم. قال: «هل قرأت هذه الآية: ﴿قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾؟». قال: نعم، قال عليه السلام: «فنحن القربى يا شيخ».

المبحث الأوّل: المراد من ﴿الْقُرْبَى﴾

لقد حاول الكثيرون أن يصرفوا هذه الآية عن معناها بأن يثبتوا ظلماً أن القربى هي التقرّب إلى النبي صلى الله عليه وآله لا الانتماء الدموي له، فهم يريدون نفي

---

(١) الشورى: ٢٣.

حتى القرابة الدموية. ومن جملة من حاول صرفها عن هذا المعنى ابن تيمية، واستدل بأن هذه الآية مكّية لا علاقة لها بعلي بن أبي طالب عليه السلام؛ لأنه تزوج وولد له في المدينة، وهذه الآية من سورة (الشورى)، وهي من الحواميم، والحواميم كلّها مكّية.

والصحيح في ذلك أن سورة (الشورى) وإن كانت مكّية، لكن فيها آيات مدنيّة، ومنها هذه الآية؛ ولذا لم نجد أحداً من المفسّرين يقول: إن هذه الآية مكّية، بل أجمعوا على أنها مدنية.

وألفت النظر إلى أن صاحب (المواهب اللدنية من المذاهب الإسلامية)، وكثيرين غيره صرّحوا بمدنية هذه الآية. ومن أراد ذلك فليقرأ الجزء الأول من الغدير[1] للشيخ الأميني، فقد عقد فيه فصلاً كاملاً حول السور المدنيّة التي فيها آيات مكّية وبالعكس؛ لأن تأليف القرآن الكريم لم يكن حسب النزول. لكن ابن تيمية حاول أن يصرف الآية عن آل البيت عليهم السلام.

وأؤكد هنا أن الإمام زين العابدين عليه السلام كان حريصاً على أن يثبت القربى المعنويّة لا الدمويّة ويبرهن عليها؛ لأننا نعرف أن هناك من ينتمي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالدم وليس له تلك الأهمّيّة الكبيرة، ومنهم من هو من أولاد الأيمّة عليهم السلام. فعند الإمام علي عليه السلام أولاد لا نعيرهم كثير أهمية مع أنهم من صلبه عليه السلام. فالمسألة ليست مسألة انتماء دموي فقط.

وهناك نماذج لا تربطهم بعلي عليه السلام أية رابطة دمويّة، لكنهم أجلّ أصحابه ومواليه، كسعد بن عبادة مثلاً، الذي لو وضعته في كفّة ميزان، ووضعت المئات ممن ينتمون دمويّاً إلى بعض العلويين، لما أمكن القياس بينهم

---

(١) الغدير ١: ٢٢١.

أبداً. فالقضيّة قضيّة مشاعر وارتباط بفكر ومبادئ وولاء. وهذا ما أراده الإمام السجاد عليه السلام في احتجاجه على الشامي، واستدلاله بآية القربى، فهو عليه السلام أراد أن يقول: إننا حملة علم النبي صلى الله عليه وآله، ومَن جعل القرآن الكريم أجرَ الرسالة مودّتنا.

وإذا كانت المسألة مسألة الانتماء الدموي فمعنى ذلك أن اللّه يأمرنا بالمعصية في بعض الأحيان؛ لأن هناك من ينتمي إلى النبي صلى الله عليه وآله وكان يجنّ عليه الليل وهو غارق في كؤوس الخمرة، فهل يمكن أن يأمرنا اللّه بمودّته وطاعته؟ حاشا للّه أن يأمر بذلك. نعم، علينا أن نتركه إكراماً لرسول الله صلى الله عليه وآله.

فاللّه إذن أمرنا بمودّة ذوي القربى؛ لنقترب من المشاعل التي أضاءت طريق الإنسانيّة، وهي مشاعل الإسلام من آل محمد صلى الله عليه وآله، فقد أراد الإمام السجاد عليه السلام أن يقول: نحن النسخ المكررة من النبي محمد صلى الله عليه وآله، يقول أحد الشعراء:

أيا واحداً من خمسةٍ إن رأيتهم	رأيت بهم في كلّ وجهٍ محمدا
حديث الكسا ترنيمة الدهر فيهمُ	روى الدهر فيها الاعتزازَ وغرّدا

فسرُّ تكريمنا لآل البيت عليهم السلام أنهم امتداد للنبوّة، ونحن نفترض أن النبوّة إذا خرجت من الأرض فلا يمكن أن تبقى الأرض خالية، وإن أخلى اللّه الأرض من حجّة فليس له حجّة على العباد، فهو تعالى مثلاً يقول لنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[1]، فمن هم الصادقون الذين أمرنا أن نكون معهم؟ وهل انقطعوا في زمن النبي صلى الله عليه وآله؟ فإن أمرنا أن نكون

(١) التوبة: ١١٩.

مع صادق غير معصوم فهذا يعني أننا مع عاصٍ. فلا بدّ أن يكون معصوماً. فالآية توجّهنا إلى أن نكون في خطّ أهل البيت عليهم السلام، وهذا ما أراده الإمام السجاد عليه السلام في استشهاده بالآية الكريمة.

وبعبارة أُخرى إن الإمام عليه السلام لم يكن يرمي من وراء ذلك أن يستدرّ العطف بقدر ما أراد أن يوجّه هؤلاء المغفّلين المخدوعين البعيدين عن مورد أهل البيت عليهم السلام. ولا تستغرب من هؤلاء، فمع كلّ هذه الأشواط الطويلة التي قطعتها البشريّة، لا زال في الناس إلى الآن من لا يدري أن أهل البيت عليهم السلام لهم كلّ هذا المقام، وهؤلاء ليسوا من البسطاء، وإنما هم من الباحثين الكبار.

وهؤلاء يستشهدون بالآراء الفقهيّة لربيعة الرأي أو أبي ثور أو غيرهما، ولو رجعت إلى تراجم هؤلاء لرأيت أن علومهم متواضعة بسيطة، لكنهم يشغلون حيّزاً كبيراً من الكتب. والغريب ألّا تجد لزين العابدين عليه السلام في المدينة ـ وهي منطلق أهل البيت عليهم السلام ـ مؤسّسة، أو على الأقل ذكراً في مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي كان يجلس فيه للإفتاء. فقد كان يجلس للإفتاء عند إسطوانة في مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الصباح إلى المساء، وكان يفتي في مختلف أبعاد العلوم الإسلامية. فلا تجد من تلك الأبعاد في طيات الكتب ما تجده لغيره عليه السلام.

وهذا في واقع الأمر خسارة كبيرة للإنسانية؛ لأنه منهل صافٍ لا يعتريه أي خلل أو شائبة، وبإمكان المسلم أن يضع رجله على أرض صلبة وهو مطمئن؛ لأنهم عِدل الكتاب(١).

---

(١) بنصّ قول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب اللّه حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً. ولقد نبّأني

المبحث الثاني: رسالة الحقوق تجسيد للإسلام

إن الإمام زين العابدين عليه السلام يمكن دراسته فكراً وعبادة وشخصاً من الأشخاص الذين لمس منهم المجتمع الإسلامي تجسيداً للإسلام بكلّ ما للتجسيد الصحيح من معنى. وسوف نتناول ذلك بشيء من التفصيل.

إن تجسيد الإمام للإسلام يعد تراثاً غنياً جداً لا زالت الإنسانية بحاجة إلى تحليله وتعليله. فالمؤرّخون مثلاً يعتنون بابن خلدون باعتباره رائداً في علم الاجتماع، لكنني أرجو من الشباب المثقّف أن يطّلع على (رسالة الحقوق) للإمام زين العابدين عليه السلام؛ ليرى فيها الحقوق الاجتماعية التي استعرضها لكل فصائل المحيط الذي عاش فيه. فمثلاً إن للانسان في الدنيا أمّاً وأباً وأسرة وجاراً، كما أن هناك مواطنين يعيشون معه في البلد عينه، ثم إن هناك دولاً يجاور بعضها البعض، وفيها مسلمون يعيشون في شرق الأرض وغربها. وكل هذا تناولته (رسالة الحقوق). ولو كانت هذه الرسالة لغير الإمام زين العابدين عليه السلام لكانت العناية التي ستحاط بها ممّا لا يمكن تصوّره.

ولا أدري لم هذه المحاولة في ستر هذا النور؟ وهل يمكن أن يُستر مثل هذا النور؟ إنه لا يمكن ستره أبداً، لكن من سوء حظّ الإنسانيّة أن تبتلى بفقد أعزّ ذخائرها.

إشارات من رسالة الحقوق

المورد الأول: حقّ الأبوين

يؤكد الإمام في رسالته مثلاً على حقّ الأبوين؛ باعتبارهما المهد والمنطلق

اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليَّ الحوض». انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، وغيرها كثير.

الذي يواجه به الإنسان الوجود، والقناة التي مرت منها إرادة اللّه؛ لأن اللّه خلق الإنسان بالسبب الطبيعي، كما أن القناة الطبيعية لوجود النبات هي التربة والماء والمناخ. ولا يمكن أن يدخل الولد الوجود ما لم يعبر هذه القناة. ثم إن وظيفة هذه القناة تتعدّى ذلك إلى حمل الولد ورعايته وتربيته والسهر والإنفاق عليه، والمسيرة الطويلة التي يقطعها الأبوان في رعايته. لذا فإن الإمام عليه السلام يؤكّد كثيراً على حقوقهما في رسالته الحقوقيّة.

ونحن اليوم بأمسّ الحاجة إلى أن نستلهم من عطاء الإمام عليه السلام في (رسالة الحقوق) هذه؛ لنعرف حقوق الأبوين علينا؛ لأن الإنسانيّة اليوم تعيش عقوقاً لا حدود له. فأنا أحياناً أقرأ في بعض أخبار الصحف ما تدمع منه العين ويحترق له القلب؛ إذ أرى بعض كتابنا يطالب بإيجاد دار للعجزة المسنّين، وهذا اعتراف صريح بأن الولد لم يعد مستعداً لرعاية أبويه وتحملهما، وأن الأُسرة رأت أن هؤلاء استنفدوا دورهم في الحياة، ولا بدّ من وضعهم في دور خاصة ترعاهم وترىٰ احتياجاتهم.

ولا يمكن تصوّر مجتمع خالٍ من الرحمة والشفقة والمودّة والروح الإنساني كالمجتمع الذي يطالب بمثل هذه المؤسسات. إن ساعة من السرور تمرّ على الأب أو الأمّ الكبيري السن حينما يكون حولهما أولادهما أو أحفادهما تعدل الدنيا وما فيها. إنهما يريان أنفسهما في هؤلاء الأحفاد، ويريان أنهما لم يخرجا من الحياة؛ لأن امتدادهما فيها لا زال موجوداً. فهل من الإنسانية أن يُحرما من العطف والتفاعل المباشر بينهما وبين البراعم التي تعيد إليهما الثقة بنفسيهما وبالإنسانية؟ وهل من الروح الإنساني أن يُرميا في غرفة تقتلهما فيها الوحشة، وتفتك بهما الغربة، ويشعران بالسأم من الحياة؟ هل هذا جزاؤهما بعد تعبهما، واللّه

تعالى يُسمعنا قوله على لسان نبيه صلى الله عليه وآله: «الجنة طيبة طيبها الله وطيّب ريحها، ويوجد ريحها من مسيرة ألفي عام، ولا يجد ريح الجنّة عاقّ»[1]؟

فهذا الصدر الذي غذّاني الدفء والحنان والحياة، والروح الذي غطّاني ومسح آلامي، هل من الخلُق أن تنتهي رسالته بهذا الشكل ويُرمى كالمتاع العتيق؟ يقول أحد الشعراء:

قد كنتُ أشبعُ من نومٍ وأنتِ إلى ... جـنبِ السّرير عيونٌ كلّها سهرُ

النّجم ملّ وما ملّت شفاهُك من ... تلكَ المواويلِ حتّى يطلعَ السَّحرُ

الثّديُ يشبعني والصّدرُ يَغمُرُني ... دِفْئاً ومنكِ الطوى والقَرُّ يَهتصِرُ

أمّاهُ يا ذكرياتٍ استَجِيرُ بِهَا ... بَيضاءَ إنْ مَرّتِ الأيّامُ والعُصُرُ[2]

فهل يكون مصير الأُم أن تُلقى في دور الرعاية؟ وهل يبقى للأب رغبة في أن يُنشئ أسرة وأولاداً بعد هذا؟ فهو يرى أنه يكدّ ويكدح ويجمع وفي النهاية لا يحصل على أبسط الحقوق. ولعنة اللّه على الأسرة التي تنتهي إلى هذا الحدّ، فدارها لا تمرّ بها رحمة اللّه تعالى. وبهذا تتحوّل الإنسانيّة إلى ما هو أخسّ من الغابة؛ لأن الحيوان في الغابة لا يُعرض عن أمه وأبيه إذا كبرا.

إن الإسلام يؤكّد تأكيداً بالغاً على حقوق الأبوين فيما ورد عن الله تعالى على لسان مشعل من مشاعل الإسلام، وهو الإمام زين العابدين عليه السلام في (رسالة الحقوق). وهو الحقّ الأول الذي ينطلق منه.

---

(١) الكافي ٦: ٥٠ / ٦. مسند أحمد ٢: ٣: ٢٠، ٦: ٤٤١، وقد روى ذيله فقط.

(٢) ديوان المحاضر ٢: ٦٦.

المورد الثاني: حقّ الجار

ثم ينطلق إلى الحقّ الثاني وهو حقّ الجوار، فيقول: «والجار ثلاثة: جار له عليك حقّ، وجار له عليك حقّان، وجار له عليك ثلاثة حقوق. فأمّا الذي له حقّ فجارك الكافر». وهذا الحقّ هو حقّ الجوار، ويرتّب الشارع المقدّس على هذا الجوار أثراً، هو أن هذا الكافر إنسان، وله حقّ الإنسانيّة أولاً، ثم إنه ارتبط بك بالجوار ثانياً، فله حقّ الجوار، والجوار عهد.

أقسام العهود

ويقسم فقهاء القانون والشريعة العهود إلى قسمين: العهد الفعلي، والعهد اللفظي. أما العهد اللفظي فهو ما كان فيه اللفظ صريحاً، كأن أقول لك: أعاهدك على أن تحميني وأحميك. فنعقد بيننا معاهدة. أما العهد الفعلي ـ وهو الذي يعبر عنه «جان جاك روسو» بالعقد الاجتماعي ـ فهو كما بين الجار وجاره، فلا يحتاج هذا إلى العهد اللفظي، وإنما يترتّب حقّ الحماية والرعاية تلقائيّاً على كلّ من الجارين.

وكانت العرب والأُمم الأُخرى أيضاً تعتزّ بالجوار كثيراً، لكن الدرجة من الاعتزاز بالجار كانت عند العرب لا نظير لها؛ فقد كان الجار أشبه عندهم بالأخ، فيمكن له أن يمدّ يده إلى طعامه. وهذا المعنى كان معروفاً عندهم، فإن طرق أحدهم طارق في الليل جاء جاره يحمل قدره من فوق ناره إلى ضيفه. قال مسكين الدارمي:

ناري ونارُ الجارِ واحدةٌ ... وإليه قبلي تنزل القدرُ
ما ضرّ جاراً لي يجاورني ... ألّا يكونَ لبابه سترُ
أعمى إذا ما جارتي برزت ... حتى يواري جارتي الخدرُ[1]

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ١٨: ٥٩، زاد المسير ١: ٣٢، شرح نهج البلاغة ٥: ٤٣، ١٧: ١٠،

ثم يقول الإمام: «وأما الذي له حقّان فجارك المسلم، فمن حقّ جارك عليك ألّا تؤذيه بقتار قدرك حتى تقتدح له منها»، أي إذا شمّ جارك رائحة الطعام فعليك أن تغترف له منه، وترسل اليه ليأكل كما تأكل، ولا تؤذيه بهذه الرائحة. وهذا لون من التكافل في محيط الإسلام.

كان سعيد بن محمد مجاوراً للإمام الصادق عليه السلام فعرض داره للبيع بعد أن مسّته الحاجة، فجاءه من يشتريها، فطلب منه مئة وخمسين ألفاً، فاستغرب المشتري؛ لأن قيمتها لا تتجاوز الخمسين، وسأله: لماذا؟ قال: الخمسين ثمن الدار، والمئة ثمن جوار الإمام الصادق؛ فهو إن غبتُ سأل عني، وإن سكتُّ ابتدأني، وإن أكل تفقّدني قبل أن يأكل. فلما وصل الخبر إلى الإمام عليه السلام ابتسم ثم أرسل إليه المبلغ كلّه، وقال له: دعك في دارك، بارك اللّه لك فيها[1].

ثم يقول عليه السلام: «وأما الجار الذي له ثلاثة حقوق فهو الرحم المسلم»؛ فإن له حقّ الإسلام وحقّ الجوار وحقّ الرحم. ثم يشرع الإمام عليه السلام في شرح هذه الحقوق وتبيينها.

ثم ينطلق عليه السلام إلى ذكر حقّ المسلم على المسلم، وذلك بأن يستر عورته، ويُشبع جوعته، ويفرّج كربته، ويحفظ غيبته، إلى أن يصل الى الوقوف على قبره. يقول الحرّ العاملي في (الوسائل): «يَعتبر أيمّة أهل البيت عليهم السلام أن من حق المسلم على المسلم يشهده إذا مات»[2]. لذا تروي عائشة عن

السيرة النبوية (ابن كثير) ١: ١١١.

(١) سبق أن نوّهنا إلى أننا لم نعثر عليها عن الصادق عليه السلام، وفي شرح نهج البلاغة ١٧: ١٩ عن سعيد بن العاص، وفي الكنى والألقاب ٢: ٣١٦، تاريخ بغداد ٤: ٣٢، تهذيب الكمال ٢٦: ٥٤٨، سير أعلام النبلاء ٧: ٣٨٧ / ١٤١ عن أبي حمزة السكري.

(٢) وسائل الشيعة ١٢: ٨٧ / ١٥٧١٢، ومثله في ١٢: ٢٠٦ / ١٦٠٩٧.

النبي صلى الله عليه وآله قوله: «اقرؤوا على موتاكم سورة ياسين، إنها المؤمّنة له»[١] ...».
هذه نماذج من الموارد التي عالجتها (رسالة الحقوق)، وإني أُشجع كلّ مسلم على أن يقتني نسخة منها، بل أرغب في ذلك له؛ ليرى بنفسه أبعاد فكر الإمام عليه السلام، وهي حصيلة تربيته الإسلامية. ونحن اليوم بأمسّ الحاجة إلى دراسة هذه الأخلاق العالية.

وقد يقول قائل: إن الكثير من الحكماء يضعون النظريات، ولكن ما مقدار تطبيقها؟ وهل كانت هذه النظريات مطبّقة عند الإمام زين العابدين عليه السلام؟

إن الجواب على ذلك لا يحتاج إلى بحث، فقد كان كلّ ذلك مجسّداً في حياة الإمام زين العابدين عليه السلام. ومن المؤكد أن هذه الشريحة لديها نظريات غريبة في بابها، يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «مؤدب الناس ومعلمهم بسيرته أحق بالإجلال من مؤدب الناس ومعلمهم بلسانه»[٢]؛ فهناك من يدعو الناس للخير والصلاح وهو ليس صالحاً، ومنهم من يؤدّب الناس بسلوكه وسيرته، وكان أهل البيت عليهم السلام هكذا.

إن الإمام السجّاد عليه السلام كان يجسّد ما يقوله في رسالته، فسيرته مع والديه مثلاً كانت مثالاً لذلك. وكان عليه السلام قد عاصر أباه فقط، أما أُمّه فقد توفّيت في نفاسها به. يقول الزمخشري في (ربيع الأبرار): «إن بنات يزدجرد ثلاث: تزوّج محمد بن أبي بكر واحدة، وتزوّج عبد الله بن عمر الثانية، وتزوج الحسين الثالثة. فولدت شاه زنان الإمام زين العابدين، وتوفّيت في نفاسها

---

(١) نيل الأوطار ٤: ١٤٢، البحر الرائق ٣: ١٠٥، كشف القناع ٢: ٩٥، سبل السلام ٢: ١١٩، تحفة الأحوذي ٣: ٢٧٦.

(٢) لم نعثر عليه بنصّه، وفي نهج البلاغة / الحكمة: ٧٣ ما نصّه: «ومعلم نفسه ومؤدّبها أحقّ بالإجلال من معلم الناس ومؤدّبهم».

به. فدفع الإمام الحسين ابنه إلى جارية من فضليات جواريه، فأشرفت على تربية الإمام ورعايته وحضانته. وكان الإمام عليه السلام يدعوها: أمي، وهي التي زوّجها بعد أن كبر». ويبدو أنها عندما احتضنته كانت صبية، فلما كبر الإمام كانت قد بلغت الثلاثين تقريباً. فأرسل إليها بعض النساء ليعرفن منها رغبتها في الزواج.

وكان الإمام عليه السلام يجلس معها على مائدة الطعام، ويؤاكلها، فلا يمدّ يده إلى أن تمدّ يدها. فقيل له: لم تفعل ذلك؟ قال: «إني أكره أن تسبق يدي إلى ما سبقت عينها إليه، فأكون قد عققتها»[1].

فأي لون من البرّ هذا؟ إنه تصرّف فيه روح الإسلام الذي يحاول أهل البيت عليهم السلام أن يربّونا عليه، ويعطونا به درساً أخلاقيّاً في رعاية الأبوين. أما موقفه مع أبيه الحسين عليه السلام، فقد كان الأنموذج المثالي أيضاً.

المبحث الثالث: شذرات من رعايته عليه السلام حقوقَ جاره

وأما في جواره فيروي جميع المؤرّخين أن الطعام كان يخرج كلّ ليلة من بيته، وكانت القدور تُملأ بما يعدّه الطباخون، فإن حان وقت الغروب جلس الإمام عليه السلام أمام القدور وراح يقول: «ابعثوا لآل فلان، واغرفوا لآل فلان، واعطوا آل فلان»[2]. فإذا فرغ من ذلك وضع بين يديه بعضاً من الخبز والملح والحشائش الصحراوية وأكل منها الشيء القليل.

تصدقه عليه السلام بالعنب

وكان عليه السلام يعجبه العنب، فاشتهاه يوماً وكان صائماً، فلمّا أفطر كان أوّل ما

---

(١) الخصال: ٥١٨ / ٤، مكارم الأخلاق: ٢٢١، مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٠.

(٢) المحاسن ٢: ٣٩٦ / ٦٧، الفقيه ٢: ١٣٥ / ١٩٥٥، بحار الأنوار ٩٣: ٢١٧ / ٦.

جيء له بالعنب، أتته أم ولد له بعنقود فوضعته بين يديه، فجاء سائل فقال: يا آل محمّد، أعطوني ممّا أعطاكم اللّه. فقال لجاريته: «احمليه إليه». فدفعته إليه، ثمّ دسّت إلى السائل فاشترته منه وأتت به فوضعته بين يديه عليه السلام، فجاء سائل آخر فأعطاه، ففعلت أم الولد مثل ذلك، حتى فعل ذلك ثلاث مرات، حيث أرسلت الجارية في الثالثة إلى السائل، فاشترته منه؛ لأن الوقت ليل، ولا أحد يبيع العنب، ثم أتت به إلى الإمام عليه السلام، فتناول منه حبات[1].

وكان هذا تجسيداً عملياً للوسام الذي أعطاه القرآن الكريم لجدّه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً﴾[2].

ملاقاته عليه السلام الزهريّ

ولا يكتفي الإمام عليه السلام بذلك، بل كان يخرج في الليل يحمل الطعام إلى جيرانه، يقول الزهري: كنت في إحدى الليالي أتمشّى في المدينة وقد انتصف الليل، فنظرت إلى زين العابدين يحمل على ظهره دقيقاً وحطباً وهو يمشي، فقلت: سيدي ما هذا؟ فقال: «أُريد سفراً أُعدّ له زاداً أحمله إلى موضع حريز». فقلت: فهذا غلامي يحمله عنك، فأبى، فقلت: فأحمله عنك؛ فإني أرفعك عن حمله. فقال: «لكني لا أرفع نفسي عمّا ينجيني في سفري، ويحسن ورودي على ما أرد عليه. سألتك بالله لمّا مضيت في حاجتك وتركتني». فانصرفت عنه، وبعد أيام رأيته فقلت له: يابن رسول اللّه، لست أرى لذلك السفر الذي ذكرته أثراً؟ فقال: «يا زهري ليس ما ظننت، ولكنه

---

(١) بحار الأنوار ٦٤: ٧٢/ ٥٥.

(٢) الدهر: ٨ ـ ٩.

الموت، وله كنت استعدّ». فقلت: ما هذا الذي كنت تحمله؟ قال: «هذا شيء من الطعام كنت أحمله للبيوت الجائعة»(١).

لقد كانت العشرات من بيوت المدينة المنوّرة ـ وبيوت كلّ مدينة يحلّها الإمام عليه السلام ـ يصلها طعامها ولا تدري من أين يأتيها، ولم تعلم بذلك حتى مات الإمام عليه السلام، فعلموا حينها أنه هو الذي كان يوصل إليهم هذا الطعام(٢).

لقد كان عليه السلام يطوف على البيوت ليوصل الأطعمة والماء إلى أهلها؛ سواء كانت بيوت أعدائه أو بيوت أحبّائه. وقد كانت سيرة أهل البيت عليهم السلام كلّها هكذا. فقد كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يبعث بالطعام إلى بيت عمار بالقدر الذي يبعثه إلى بيت عبد اللّه بن الكواء الذي يتقرّب إلى اللّه بشتمه(٣).

بسطه عليه السلام حمايته على إسماعيل الأموي

وكذلك كان فعله مع إسماعيل بن هشام المخزومي عامل عبد الملك على المدينة، فقد كان إسماعيل هذا يسيء لأهل البيت عليهم السلام وخصوصاً للإمام السجاد عليه السلام، وقد بقي عاملاً إلى زمن الوليد الذي عزله، وأوقفه تحت الشمس عارياً، فأخذ الناس يطالبونه بالأموال، فجمع الإمام كلّ أصحابه وأهل بيته وقال لهم: «لا تتعرّضوا لهذا الرجل بسوء أبداً». فقال أحد أولاد الإمام عليه السلام: يا أبه، نحن ننتظر منه مثل هذا اليوم. فقال الإمام عليه السلام: «كِله إلى

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩٣. (٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩٢ ـ ٢٩٣.

(٣) كما فعل عليه السلام مع سلمان بن ثمامة بن شراحيل بن الأصهب الجعفي الذي اعتزل القتال معه هو وقوم فكان عليه السلام يرسل إليهم الأعطية ويقول: «لا نمنعكم حقّكم من الفيء لأنكم مسلمون وإن امتنعتم من نصرتنا». الإصابة ٣: ١١٦ / ٣٣٦٤.

الله». وطلب منهم أنهم إذا مرّ به أحد منهم فلا يبدِ على وجهه أي امتعاض.

ثمّ إن الإمام عليه السلام مرّ من قربه فهمس في أذنه قائلاً: «انظر إلىٰ ما أعجزك من مال تؤخذ به فعندنا ما يسعك، فطب نفساً منا ومن كلّ من يطيعنا». وأرسل له الإمام كلّ ما يحتاج إليه، فكان يقول بعد ذلك: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[1]، وكان أن ترك النصب له عليه السلام[2].

وقد يصل به الأمر أحياناً إلى أن يحمل الماء على ظهره بعد أن يمتحه من البئر. وقد سئل الإمام الباقر عليه السلام: لماذا كان على ظهر أبيك مجل[3]؟ قال عليه السلام: «إنه كان يستقي لضعفة جيرانه بالليل»[4]؛ ذلك أنه لم يكن في المدينة المنوّرة أنهار، بل كان فيها آبار بعيدة القعر، فلذا كان الإمام عليه السلام يستقي لهؤلاء الضعفة من كبار السنّ وغيرهم من جيرانه، فيمتح الماء بالدلو ويحمله على ظهره ثم يذهب به إلى بيوتهم.

حمايته عليه السلام عائلة مروان في واقعة الحرّة

وينطلق عليه السلام إلى أبعد من ذلك في رعاية جيرانه كما سأذكر لك هذا عبر ما فعله مع عائلة مروان. وقبل هذا أودّ أن أشير إلىٰ قضية في التشريع الإسلامي أدّت إلىٰ ظهور ما يسمى بقاعدة «لا ضرر ولا ضرار»، وهي من أضخم القواعد الإسلاميّة، ويستند إليها فقهاء القانون وفقهاء الشريعة في حلّ كثير من القضايا. وفي عصرنا هذا يقولون عن هذه القاعدة: إنها

---

(١) الأنعام: ١٢٤.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠١. بحار الأنوار ٤٦: ٥٥. تاريخ الطبري ٥: ٢١٧.

(٣) المجل: أثر العمل في الكفّ حينما يعالج بها الإنسان الشيء حتىٰ يغلظ جلدها من المشقة. لسان العرب ١١: ٦١٦ ـ مجل.

(٤) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩٤.

تستعمل عند التعسّف باستعمال الحقّ، مثل أن يكون عند أحد قطعة أرض يريد بناءها، فعليه أن يراعي جاره بألّا يحجب عنه الشمس أو الهواء، فلا يتعسّف عليه باستعمال حقّه باعتبار أنه يملك هذه القطعة من تخوم الأرض إلى عنان السماء.

كان سمرة بن جندب ـ وهو من الصحابة، ثمّ أصبح بعد ذلك مدير شرطة زياد، وعاش إلى أيام الحسين عليه السلام، وكان يدفع الناس إلى قتاله عليه السلام ويشجعهم على ذلك ـ يملك نخلة في بيت جار له من الأنصار، فكان يدخل على جاره فجأة متى شاء، وهو جالس مع أهله فيطّلع على أهله بذريعة الوصول إلى نخلته. فشكاه الأنصاري إلى رسول اللّه صلى الله عليه وآله، فاستدعاه وقال: له: «هبها له ولك كذا وكذا». أمراً رغّبه فيه، فأبى فقال صلى الله عليه وآله: «أنت مضارّ». ثم قال صلى الله عليه وآله للأنصاري: «اذهب فاقلع نخلته»[1].

هذا لون من الجوار الذي رأته المدينة، في حين أن الإمام السجّاد عليه السلام يؤوي عائلة مروان ويبعث ابنه عبد اللّه لحماية زوجته، ويقول له: «إنه جارنا». وذلك لما حدثت واقعة الحرة في المدينة، وأراد الثوّار أن يقضوا على عوائل بني اُميّة بالكامل، فجاء مروان يهرول إلى عبد اللّه بن عمر يطلب منه إيواء عائلته، فقال له: ليس عندي مكان، ولا اُدخل أحداً إلى بيتي. فراحوا يتسكّعون على البيوت، حتى جاؤوا بأجمعهم إلى دار زين العابدين عليه السلام، فاستقبلهم وأدخلهم داره، وبقوا حتى نهاية الثورة في بيت الإمام عليه السلام ينفق عليهم ويحميهم[2].

---

(١) النصائح الكافية: ٧٦. وانظر: سنن أبي داود ٢: ١٧٣ / ٣٦٣٦. السنن الكبرى (البيهقي) ٦: ١٥٧. المحلّى ٩: ٢٩ / المسألة: ١٥٤٠. نيل الأوطار ٦: ٦٧. وفي بعضها أنه كان إذا وقعت تمرة منها وأكلها صغار الأنصاري مدّ يده إلى فيه واستخرجها منه ولم يسمح له بأكلها.

(٢) الكامل في التاريخ ٣: ٤٥٦.

والأكثر من ذلك أن عائشة بنت الخليفة الثالث زوجة مروان أرادت أن تخرج من المدينة هرباً من الثورة، فأرسل عليه السلام معها ابنه عبد اللّه حتى أوصلها إلى الطائف، وظلّ مرابطاً على باب بيتها ثلاثة أشهر لحراستها[١].

ومن هو مروان؟ إنه من كان يتقرّب إلى اللّه بشتم أمير المؤمنين عليه السلام، وكان يقول للحسين: أنصحك ببيعة يزيد فإنه خير لك في دينك ودنياك[٢].

وكان يضرب ثنايا الإمام الحسين عليه السلام ويرتجز:

يا حبّذا بردك باليدينِ ولونك الأحمر بالخدّينِ

شفيت نفسي من بني الحسينِ[٣]

فهل رأيت في التاريخ نموذجاً مثل هذاالعفو؟ إنه مصداق لقول الفرزدق:

مشتقّة من رسول اللّه نبعته طابت عناصره والخيم والشيَمُ

ما قال لا قطّ إلّا في تشهّده لولا التشهّد كانت لاؤه نعمُ[٤]

فلو أردنا أن نكون على مائدة هذا الرجل لأصابتنا الحيرة فيما نأخذ وما نذر من سيرته في تقواه وخلقه وعبادته، فكان عليه السلام إذا جن عليه الليل وقف لا يتحرّك منه إلا ما تحرّكه الريح[٥]، يقول في إحدى مناجياته: «يا ذا الملك المتأبّد بالخلود، ويا ذا السلطان الممتنّ بغير جنود» إلى أن يصل إلى

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٧٣، الكامل في التاريخ ٣: ٤٥٦.

(٢) اللهوف في قتلى الطفوف: ١٨، بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٦.

(٣) شرح الأخبار ٣: ١٦١، مثير الأحزان: ٧٥، شرح نهج البلاغة ٤: ٧١، ترجمة الإمام الحسين عليه السلام (ابن عساكر): ٢٣٩.

(٤) الاختصاص: ١٩٤، تاريخ بغداد ٩: ٢١٠.

(٥) الكافي ٣: ٣٠٠ / ٤.

قوله: «وأنا الضعيف عملاً، والجسيم أملاً»[١].

وقد حشد عليه السلام فيها المعاني الكبيرة التي تكشف عن الروح الضارعة إلى اللّه جلّ وعلا، والتي تتوخىٰ أدقّ المعاني في تصوير العلاقة بين العبد وربّه. فلنعرف أين هو موقع الصحيفة السجادية (انجيل آل محمد صلى الله عليه وآله) من التراث الفكري الروحي للإسلام.

إننا في مسيس الحاجة إلى دراسة الإمام عليه السلام عطاء ورحمة وخيراً، فهو المجاهد في اللّه، الصابر على المصائب، وهو الامتداد الطبيعي للنبي صلى الله عليه وآله، لا أن نأخذ منه جانب المأساة فقط وإن كانت المآسي التي مرّت به أخذت منه قسطاً وافراً؛ فإنه كان عطاء قبل أن يكون مأساة.

فسلام عليه يوم ولد ويوم نصر الله ورسوله صلى الله عليه وآله ودينه، ويوم استُخلف ويوم استُشهد ويوم يبعث حيّاً.



(١) الصحيفة الكاملة السجادية: ١٦٥ / من دعائه عليه السلام عقيب صلاة الليل.



﴿٤٨﴾

نشاط الإمام السجّاد عليه السلام

يا عليّاً به يتيه العلاءُ وإماماً آلاؤه غرّاءُ
أي مجد حملته في دماء نسلتها الملوك والأنبياءُ
أنت مجد النهار والراهب السجّـ ـادُ ليلاً إن عمّت الظلماءُ

الإلمام بسيرة الإمام زين العابدين عليه السلام

لابدّ لكلّ باحث في سيرة هذا الإمام العظيم من تناول مختلف الأبعاد ذات العلاقة به، والتي لها المدخليّة الكبرى في استيضاح تلك السيرة اللامعة العطرة. وهذا الأمر يقتضي التوجّه إلى عدّة أبعاد والنظر فيها، ومنها:

البعد الأول: البعد الانتمائي

ونعني به نسبه الشريف، فهو (نسبه عليه السلام) من ناحية الآباء لا يحتاج الإنسان معه إلى وقت للتأمّل في ذكره، فلا أحد من الناس يمكن له أن ينكر النسب الهاشمي من جهة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن جهة علي بن أبي طالب عليه السلام. فهو ابن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام.

النسب القصير

وهذا ما تسميه العرب (النسب القصير) ، بمعنى أنه نسب لا يحتاج الإنسان معه إلى أن يذكر سلسلة آباء الشخص الذي يراد نسبته ، بل إن هذا الإنسان يقف عند أب قريب في سلسلة آبائه ؛ لاشتهار ذلك الأب .

أهداف تزويج الإمام الحسين عليه السلام من بنت يزدجرد

أما من ناحية الأمّهات فالواقع أن الزواج الذي تمّ بين الإمام الحسين عليه السلام وبين إحدى بنات يزدجرد كان زواجاً قد توخّى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام من ورائه أهدافاً معينة محدّدة غير خافية ، وقد نصّت الأخبار على بعض منها . ومن هذه الأهداف :

الهدف الأول: القضاء على نظرة التعالي عند العرب

فهذه النظرة التي كانوا ينظرون بها إلى كلّ شخص هجين، أي ما يتولّد من أمّ غير عربية ، ومن أب عربي أراد الإسلام أن يزيلها تماماً من العقلية العربيّة التي كانت تعتنقها اعتناق الدين.

إفرازات نظرة التعالي

وإطلاق هذه التسمية على الهجين لا تنتهي عند هذا المقدار من الازدراء ، بل إنها كانت تترتّب عليها آثار عمليّة كبيرة ، وإفرازات كثيرة ، منها :

الأولى: أنهم لا يزوّجونه

فالعرب كانوا يرغبون عن الهجين ويأنفون من تزويجه ، ويرون في فعل ذلك عاراً عليهم[1].

---

(١) وقد مرّ بنا في المجلّد ١١ / محاضرة (الفتنة) قول عقيل بن علفة المري لعبد الملك

الثانية: أنهم يرفعون مكانته

فهؤلاء كانوا لا يعطونه مكانة تليق به في المجتمع، ولا مكاناً ملائماً في صدر المجلس. وقد مرّ بنا حادثة دخول زيد بن الإمام زين العابدين عليه السلام على هشام بن عبد الملك؛ فقد تلكّأ الناس في القيام له، وفي فسح مكان له في المجلس، وأظهروا ازدراءهم له؛ لأنه كان ابن أمة، فلم يجد موضعاً يقعد فيه.

كما أن هشاماً قد ازدراه أكثر؛ لأنه قد وصلته عنه أخبار بأنه يريد الخروج عليه؛ ولذا فإنه التفت إليه وقد رآه واقفاً، وقال له: أنت الذي تنازعك نفسك إلى الخلافة، وتحدّث نفسك بها، وأنت ابن أمة؟ فقال له زيد: أمّا قولك: إني أحدّث نفسي بالخلافة، فلا يعلم الغيب إلّا الله. وأمّا قولك: إني ابن أمة، فإن لك جواباً. قال: هاته. قال: أيهما أفضل النبي أم الخليفة؟ قال: النبي. فقال: هناك أنبياء أمّهاتهم إماء، وهذا إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام ابن أمة، ومن صلبه خير البشر محمد صلى الله عليه وآله، وإسحاق ابن حرّة أخرج من صلبه القردة والخنازير وعبدة الطاغوت. فلو كانت الأمّهات يقعدن بالأبناء عن نيل المعالي، لقعدت أم إسماعيل بولدها إسماعيل هذا، لكنه كان نبيّاً وأبا خير نبي، محمد صلى الله عليه وآله. فقال له: قم. قال: إذن لا تراني إلّا حيث تكره.

ولذا فإن أحد فقهائنا يعقّب على هذه الرواية عندما يمرّ بها بحديث الإمام الصادق عليه السلام الذي يقول: «إنما يؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر مؤمن

جنبني هجناءك. طبائع النساء ١: ٦٧. وفي الأغاني ١٢: ٢٩٨، خزانة الأدب ٤: ٤٣٨: قوله لمن خطب إليه ابنته: يخطب إلي عبد الملك فأردّه، مشيراً إلى ما نقل عنه في (طبائع النساء) الآنف.

فيتّعظ، أو جاهل فيتعلّم، وأما صاحب سوط وسيف فلا»[1].

على أيّ حال فلما خرج من عنده، قال: ما أحبّ أحد الحياة قطّ إلّا ذلّ. فزيد قد تنبّه إلى أن هذه اللغة التي يكلّمه بها ليست هي اللغة التي يفهمها، فهذا له لغة يجب أن يخاطب بها غير لغة اللسان.. اللغة التي يفهمها، وهي لغة السيف.

والمراد بهذه الرواية أن بعض الناس لا يفهم لغة الحوار والموعظة، بل يحتاج إلى لغة أُخرى هي لغة السيف ولغة السلاح؛ ولذا فإننا وجدنا أن زيداً قد خرج من عند هشام وقد وضع يده على قائم سيفه، وهو ينشد هذه الأبيات:

شرّده الخوف وأزرى به ... كذاك من يكره حرّ الجلاد

ومحتفي الرجلين يشكو الوجى ... تقرعه أطراف مرو حداد

قد كان في الموت له راحة ... والموت حتم في رقاب العباد

ثم خرج عليه وهو ينشد في المعركة:

فذلّ الحياة وعزّ الممات ... وكلّاً أراه طعاماً وبيلا

فإن كان لابدّ من واحد ... فسيري إلى الموت سيراً جميلا

حتى قتل (رضوان الله تعالى عليه)[2].

وموضع الشاهد هنا أن ابن الأمة يزدريه الناس ويحتقرونه، ويحاولون

---

(١) الكافي ٥: ٦٠ / ٢، الخصال (الصدوق): ٣٥ / ٩.

(٢) انظر: شجرة طوبى ١: ١٤٨، العقد الفريد ١: ٣٢، شرح نهج البلاغة ٣: ٢٨٥ - ٢٨٦، الفصول المهمة (ابن الصباغ) ٢: ٩٠٠ - ٩٠١، والبيتان لبشامة بن الغدير من ضمن أربعة أبيات كما في شرح نهج البلاغة ٣: ٢٥٧، وقد تمثّل بهما.

أن يبعدوه عنهم؛ فلا يعطوه صدر المجلس، ولا يزوّجوه، ولا يتعاملوا معه.

الثالثة: أنهم ينعتونه بقبيح النعت

فهؤلاء كانوا كذلك ينعتونه بنعوت لا تليق بمقامه وإن كان ذا مكانة علميّة مثلاً. والإسلام حينما جاء كان يهدف إلى كسر كثير من النطاقات القائمة على أساس التعامل العرقي أو العنصري، أو المبتنية على جوانب غير إنسانيّة. وقد حاول أن يكسر كلّ هذه الحواجز التي يضعها الناس بينهم وبين غيرهم من الأعراق أو الشعوب الأُخرى. وفعلاً فإن المؤرّخين يذكرون أن العرب كانوا يحتقرون أبناء الإماء حتى ولد ثلاثة أبناء منهن هم: الإمام زين العابدين عليه السلام، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب[١]. وبهذا فقد أصبح ابن الأمة ذا مكانة تختلف عن المكانة التي كان ينظر بها هؤلاء الأعراب إليه؛ فلا يعيّر بشيء مما كان يعيّر به سابقاً، ولا يشار إليه على أنه هجين أو ابن أمة.

الحضارات التي انحدرت منها الإماء

ويجب ألّا ننسى بأن الكثير من الإماء كنّ ينحدرن من حضارات تعدّ وقتها أعلى وأسمى من حضارة العرب القائمة على أساس القتل والسلب والنهب، وأكل الحشرات، وشرب الطَرْق، وما إلى ذلك. فالكثير منهن جئن من حضارات أضخم وأكبر وأعرق، بل لا وجه للمقارنة بين حضارات أقوامهن وحضارة العرب آنذاك. فحينما تكون الأمة مثلاً روميّة أو فارسيّة فإن هذا يعني أنها ابنة إحدى هاتين الحضارتين اللتين

---

(١) وفيات الأعيان ٣: ٢٦٩.

كانتا تسودان العالم آنذاك، وهما حضارتان تتوفّران على الكثير من الإمكانيات العلمية والحضاريّة نظريّاً وتطبيقيّاً. وكان أبناء هاتين الحضارتين يعتزّون بحضارتيهما أكثر مما يعتزّ العرب أنفسهم بحضارتهم.

وفعلاً فقد تغيّرت النظرة إلى ابن الأمة وهو الهجين تغيّراً تامّاً، وأصبحت الجوانب الإيجابيّة أكثر فاعليّة في هذا الباب. وهي الجوانب التي أشار إليها الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) في جملة من الأحاديث.

إيجابيات الزواج من الأجنبيات

إن هناك أهدافاً كثيرة تعدّ ثمرات إيجابية للزواج من الأجنبيات؛ فهو يخلق خواصّ إيجابية كثيرة للأسر، نذكر منها لتقريب المعنى:

الإيجابية الأولى: التلاقح الثقافي

ذلك أن هذه الأسر التي تمتزج فيها الدماء المختلفة سوف تجتمع فيها خواصّ من حضارتين مختلفتين، وسوف تندكّ هذه الخواصّ في أسرة واحدة جديدة هي عبارة عن مزيج من تينك الأسرتين؛ ممّا يؤدّي إلى توسيع أفق الثمرة المتولّدة منه.

الإيجابية الثانية: الجنبة الصحّيّة

إننا حينما ننظر إلى الأسر المنغلقة على نفسها، فإننا نجدها غالباً ما تنتج أولاداً معاقين أو مصابين بالأمراض التي تعدّ أمراضاً وراثيّة؛ فالزواج من الأقارب أو من أبناء العائلة نفسها يؤدّي إلى انتقال المرض من الآباء إلى الأبناء بنسبة أكبر ممّا لو كانت تلك الزيجة من عائلة أخرى. وهذا الأمر قد أثبته العلم الحديث الذي أثبت كذلك أن المتولّدين من هذه

الزيجات (الأقارب) إن لم يكونوا مرضى جسديّاً، فربما يكونون مرضى نفسيّاً.

وعلى العموم فإن أول هدف استهدفه الإسلام من هذه الناحية هو أن يكسر هذا الطوق السميك المتمثّل بالعرف الجاهلي الذي كان يسيطر على العرب آنذاك عبر ازدرائهم ابن الأمة، وبنظرتهم له على أنه يجب أن ينحطّ في مستواه عن ابن الحرّة. يروى أنه جاء ثلاثة إخوة إلى سوار بن عبد الله بن قدامة القاضي، فقال أحدهم: إننا إخوة وقد مات أبونا، ونحن الاثنان أشقّاء، أمّا الثالث فابن أمة، ونريدك أن تقسم الميراث بيننا. فقال: لكلّ واحد منكم الثلث. فقال الشقيقان: لا نراك فهمت. قال: بل فهمت؛ فإنه أخوكما. قالا: تعطي ابن الأمة كما تعطي ابن الحرّة؟ فقال: بلى. فقالا: إنك لقليل الخالات بالدهناء. قال: وليكن، فقد سألتماني عن حكم الله جلّ وعلا وقد أجبتكما وِفْقَه[١].

والمهم أن هذه الظاهرة كانت تعيش داخل النفوس آنذاك، وقد ووجه أمير المؤمنين عليه السلام بهذا المعنى حينما دخلت عليه امرأتان وهو عليه السلام جالس في مسجد الكوفة عند بيت المال، وكانت إحداهما عربيّة حرّة والأُخرىٰ مولاة مملوكة، فسألتاه العطاء، فأمر عليه السلام لكلّ واحدة منهما بكرّ من طعام وأربعين درهماً، فأخذت المولاة العطاء الذي أُعطيت وذهبت، وقالت العربيّة: يا أمير المؤمنين، تعطيني مثل الذي أعطيت هذه، وأنا عربية وهي مولاة؟ فحمل أمير المؤمنين عليه السلام قبضتين من التراب وقال: «والله، إني لا أرىٰ فرقاً بين هذه وبين هذه، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ

---

(١) الكامل في الأدب ٢: ٤٨.

خَبِيرٌ﴾[١] ...». ثم قال عليه السلام لها: «إني نظرت في كتاب الله عزّ وجلّ، فلم أرَ فيه فضلاً لولد إسماعيل على ولد إسحاق»[٢].

فـ«كلّكم لآدم وآدم من تراب»[٣].

الهدف الثاني: القضاء على الآثار النفسيّة للفتوحات

إن من الواضح الذي لا يمكن إنكاره أن وقع الفتوح على الأمم التي تفتح بلادها يبقى وقعاً مرّاً، فإذا احتلّت أُمّة أُمّة أُخرى، واستولت على أرضها، وسلبتها الحكم، وسيطرت على زمام الأمور في بلدها، فإن تلك الأُمّة التي قد فتح بلادها تظلّ تعيش مرارة الهزيمة والإحساس بالاحتلال لأجيال عدّة. وللقضاء على هذا الإحساس، ولرفع هذه المرارة من نفوس هؤلاء أمر الإسلام بالإصهار معهم، أي أن يتزاوجوا من بعضهم البعض؛ فيتزوج العرب من بنات أُولئك، ويتزوّج أُولئك من بنات العرب بشرط أن يكونوا مسلمين، فيصبح هذا خال ذاك وذاك قريب هذا وابن عمّته. وهكذا إذ يستمرّ العمل بهذا النهج العلاجي فإن الأمر ينتهي إلى حالة

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) انظر السنن الكبرى (البيهقي) ٦: ٣٤٩، كنز العمّال ٦: ٦١٠ ـ ٦١١ / ١٧٠٩٥. وفي الكافي ٨: ٦٩ / ٢٦ أنه عليه السلام خطب فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس، إن آدم لم يلد عبداً ولا أمة. وإن الناس كلّهم أحرار، ولكن الله خوّل بعضكم بعضاً. فمن كان له بلاء فصبر في الخير فلا يمنّ به على الله عز وجل. ألا وقد حضر شيء ونحن مسوّون فيه بين الأسود والأحمر». فقال مروان لطلحة والزبير: ما أراد بهذا غيركما.

ثم وزّع عليه السلام المال، فأعطى كل واحد ثلاثة دنانير. وأعطى رجلاً من الأنصار ثلاثة دنانير، وجاء بعدُ غلام أسود فأعطاه ثلاثة دنانير. فقال الأنصاري: يا أمير المؤمنين، هذا غلام أعتقته بالأمس تجعلني وإياه سواء؟ فقال عليه السلام: «إني نظرت في كتاب الله، فلم أجد لولد إسماعيل على ولد إسحاق فضلاً».

(٣) تحف العقول: ٢٤، شرح نهج البلاغة ١: ١٢٨، الدرّ المنثور ٦: ٩٨.

تذوب عندها تلك الأحقاد، وتلك المرارة، وذلك الشعور والإحساس بالاحتلال والذلّ وما إلى ذلك.

إن هذا الأمر ينتهي بطبيعة الحال إلى حصول لون من ألوان التمازج بين الشعبين أو الحضارتين؛ وهو ما يؤدّي بالتالي إلى اندماجهما في فكر واحد، وفي بوتقة واحدة. وهذا هو من أهمّ الأهداف التي ندب إليها الإسلام الحنيف، وأولاها عناية كبرى.

إذن فالإصهار مع الأجناس الأخرى من الأمور التي تقضي على حالة التمايز بين الناس، بل الشعور بتلك المرارة وذلك الإحساس بالاحتلال؛ ولذا فإن عندنا نحن الإمامية وعند الشافعي [١] أيضاً أن الكفاءة هي الاتّفاق بالدين فقط. أما أن يأتي من يقول: إن المرأة غير العربية ليست كفئاً للرجل العربي، أو أن الرجل غير العربي ليس كفئاً للمرأة العربيّة، فهذا مرفوض تماماً. وهذا الأمر موجود عند بعض فقهاء المسلمين، مع أن الدين خلاف ذلك؛ فالقرآن الكريم يقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [٢]، كما أن الحديث النبوي الشريف يصدح: «من جاءكم ممن ترضون دينه فزوجوه» [٣].

والغريب في الأمر أن الذي يذهب إلى هذا المذهب ـ وهو عدم جواز تزويج العربية من غير العربي ـ يذهب في مقابل هذا إلى جواز كون الخلافة في غير العرب، مع أن الثابت عندنا أن الخلافة لا تكون إلّا في قريش كما نصّ عليه الحديث الشريف [٤].

---

(١) انظر فتح الباري ٩: ١١٣. (٢) الحجر: ١٣.

(٣) الكافي ٥: ٣٤٧ / ٢ـ٣، الفقيه ٣: ٢٩٣ / ٤٣٨١، كنز العمّال ٦: ٤٥٩ / ٤٥٤٢٧.

(٤) قال رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله: «من ولدي اثنا عشر نقيباً نجباء محدثون مفهمون، آخرهم القائم بالحقّ يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً». تقريب المعارف: ٤١٩، شرح أصول الكافي ٢: ٢٤٠. وقال صلى الله عليه وآله: «لا يزال الدين قائماً حتى يكون اثنا عشر خليفة من قريش». مسند أحمد ٥: ٨٦، صحيح مسلم ٦: ٣ـ٤، سنن أبي داود ٢: ٣٠٩ / ٤٢٧٩.

وبناء على هذا فإن أمير المؤمنين عليه السلام قد زوّج ولده الإمام الحسين عليه السلام إحدى ابنتي يزدجرد، وزوج الأُخرى لربيبه القاسم بن محمد بن أبي بكر الذي ولد له منها ولد، كما أن الّتي تزوّجها الإمام الحسين عليه السلام قد ولدت له الإمام زين العابدين عليه السلام.

وعلى رواية فإن هناك ابنة ثالثة قد زوّجها للإمام الحسن عليه السلام. وكل هذا يذكره الزمخشري في (ربيع الأبرار).

الهدف الثالث: توخّي الأقرب بالصلة

إن عندنا أن حدود الجزيرة العربية مشتركة غالباً؛ فالجزيرة كان بعض منها تحت حكم الفرس، والبعض الآخر منها تحت حكم غيرهم؛ فمنها ما اتّصل بالحيرة عن طريق المناذرة، ومنها ما اتّصل بالأحباش، وهو ما يشكّل محلّ احتكاك كذلك بينها وبين هؤلاء، لكن التأثر بالحضارات الخارجيّة هو محلّ احتكاك بشكل أكبر بالنسبة لسكان الحدود أو أطراف الجزيرة العربية، كتلك التي تربط فارس بجزيرة العرب. وبهذا فإن الإسلام أراد أن تتحقّق هذه الصلة بين الشعوب بشكل أكبر، بل وأن تتعمّق فيما بينها.

وينبغي أن نذكر بأننا لا نولي هذا الأمر ـ كون أمّ أحد أيمّتنا عليهم السلام ابنة ملك أو ما يشبه ذلك ـ عناية كبيرة، أو شيئاً من الأهمية؛ فمن الضروري أن نؤكّد على أنه ليس من ضروريّات تاريخنا أو فكرنا، وعلى أن من مجالات اهتماماته أن تكون أمّ أحدهم عليهم السلام بنت ملك مثلاً. فسواء كانت بنت ملك أو بنت شخص عادي، فهذا ممّا لا يرفع من منزلة الإمام عليه السلام، ولا يقلّل منها. إن هذا الأمر بعيد كلّ البعد عن حساباتنا؛ لأنه لا يشكّل أي نقطة ضوء في مضمار إعطاء الإمام عليه السلام أي دور كان؛ سواء على مستوى

الدين، أو العلاقات الاجتماعية، أو المنزلة الروحيّة التي يتمتّعون ﷺ بها.

إننا إذ نذكر هذا الأمر فإنما نذكره كحقيقة تاريخية، وإذا كان غيرنا يعتبره نوعاً من أنواع المجد فهذا شيء آخر لا شأن لنا به، ولا نقيم له أي وزن أو اعتبار؛ فمثل هذه الأمور الجانبية المادية لا يمكن أن نعتبرها في يوم من الأيام ممّا يمثّل لوناً من ألوان المجد مطلقاً.

الهدف من ذكر هذا النسب

إننا إذ نذكر هذا الأمر فإنما نذكره لسببين:

الأول: أنه من باب ذكر الحقائق التاريخية.

الثاني: أن فيه إشارة إلى الهدف الذي ينشده الإسلام في مثل هذه الحالات، وهو القضاء على حالة الشعور بالتمايز بين العرب وغيرهم من الأمم المفتوحة عن طريق الزواج من الإماء، وهو ما أشرنا إليه عند الكلام حول أهداف الحثّ على الزواج من الأجنبيّة.

ولذا فإننا نجد في مجال الفقه والتشريع عندنا أن هناك تكريماً لأُم الولد؛ فهي تنعتق من نصيب ولدها بمجرد أن تضع حملها، أي أن ملكيّتها تصبح متزلزلة بمجرّد أن تحمل، فإذا وضعت أصبحت حرّة؛ كيلا يلحق الولد بالأمة وهو ابن حرّ، وكيلا يعيّر بعد ذلك على أنه ابن أمة. فالإسلام يريد له أن يكون ابن حرة.

بيع الإماء

يروي بعض الفقهاء أن لأمير المؤمنين عليه السلام رأيا يجيز فيه بيع أمّهات الأولاد[1]، وأنا استغرب مثل هذا الرأي الذي ينقل عنه عليه السلام، وهو رأي غير

---

(١) بدائع الصنائع ٤: ١٣٠، الإحكام في أصول الأحكام ( ) ١: ٢٥٤، ٢٥٨، ٤: ٤٣، شرح نهج البلاغة ٧: ٧٢.

صحيح النسبة وغير ثابت عن أمير المؤمنين عليه السلام [١]. وفي هذا المجال أذكر أن أستاذنا الإمام الخوئي كان يقول دائماً: في حدود اطّلاعي أن هذا الرأي لا وجود له مطلقاً، ومع أنه غير صادر عنه عليه السلام لكنه نسب إليه خطأ أو لغرض آخر.

البعد الثاني: عصر الإمام السجاد عليه السلام

ولد الإمام (صلوات الله وسلامه عليه) في حياة جدّه أمير المؤمنين عليه السلام، وتوفي عام (٩٤) أو (٩٥) هـ؛ وبهذا فإنه يكون قد عاصر جدّه أمير المؤمنين عليه السلام، وعمّه الإمام الحسن عليه السلام وأبيه الإمام الحسين بطبيعة الحال. وكانت فترة معاصرته لجدّه أمير المؤمنين عليه السلام ثلاث سنوات. والذي يبدو من خلال تتبّع سيرة هذا الإمام العظيم وملاحظتها أنه على الرغم من قصر الفترة التي عاصر فيها جده أمير المؤمنين عليه السلام، فإننا نجد أن هذه السنوات قد غرست في ذهنه انطباعاً نمّاه بعد ذلك بتتبّع سيرة جده عليه السلام، كما سيمر بنا. ثم بعد ذلك بقي مع عمّه الإمام الحسن عليه السلام ثلاث عشرة سنة، وكانت سنوات حبلى بالأحداث والمضاعفات السياسية والدينية؛ لما حصل فيها من انتقال للسلطة من الطرف الشرعي والخليفة الذي نصّبته السماء إلى طرف غير شرعي، ولم تنصّبه السماء، بل نصّبته الآراء والأهواء والسلطان والقوة والمال.

وبهذا فإننا لو تتبّعنا حياة الإمام عليه السلام ومراحلها، لوجدناها تتّسم بأنها قد

---

(١) فروایاتنا وفقهنا صريحان في النصّ على أنها تنعتق من نصيب ولدها. انظر: الفقيه ٤: ١٦٢ / ٥٠٩، وسائل الشيعة ١١: ٥٣، المختصر النافع: ١٦٤، كشف الرموز (الفاضل الآبي) ٢: ٧٥، قواعد الأحكام ٣: ٢٣١، ٢٥٦، إيضاح الفوائد ٣: ٥٦٩، المهذب البارع ٣: ١٠٩، مسالك الأفهام ١٣، ٥٢١.

مرّت بأكثر من مرحلة، كما سنلاحظ إن شاء الله تعالى، وسوف نتناولها من خلال هذا المبحث مرحلة مرحلة بما يقتضيه المقام من إيجاز أو إسهاب:

الفترة الأولى: معاصرته لجده أمير المؤمنين عليه السلام

كان عليه السلام في هذه الفترة القصيرة يختزن في وعيه وذاكرته صوراً مؤلمة؛ فقد كانت فترةً محتدمةً مشحونةً بالأحداث؛ ولذا فإن ذاكرته عليه السلام كانت تحتضن تلك المشاهد والمناظر المؤلمة التي مرّت بها الخلافة الشرعيّة.. خلافة جدّه أمير المؤمنين عليه السلام من حيث مناجزة معاوية له، أو مناجزة أصحاب الجمل، أو مناجزة أصحاب صفّين الذين حاولوا جميعاً زعزعة أركان حكم الإمام عليه السلام؛ إذ أنهم كانوا يعتبرونه وجوداً خطراً على مصالحهم.

الفترة الثانية: معاصرته لعمّه الحسن عليه السلام

وفي هذه الفترة أيضاً اختزنت ذاكرة الإمام عليه السلام، واحتضن وعيه الكثير الكثير من الصور المؤلمة التي حفلت بها تلك الفترة، والتي كانت حبلى بها؛ ومن هذه نذكر:

الأولى: استيلاء بني أُميّة ممثّلين بمعاوية على السلطة الشرعية من الخليفة الشرعي بغير وجه حقّ.

الثانية: نقض الحاكم الأُموي (معاوية) لبنود وشروط الصلح الذي عقده مع الإمام الحسن عليه السلام.

الثالثة: قطع الرواتب والعطاءات عن أبناء الشهداء من المهاجرين والأنصار الذين استشهدوا مع الإمام علي عليه السلام في معاركه الثلاث ضدّ

المارقين والقاسطين والناكثين، وتعرّضهم للمتابعة الاقتصادية، وبالتالي جعلهم عرضة لمعاناة الجوع والعري والحرمان وما إلى ذلك.

الرابعة: متابعة أصحاب الأئمة (سلام الله عليهم) الخلّص، وملاحقتهم، وإنزال التقتيل والتنكيل بهم، بل وصل الأمر إلى الإبادة المنظّمة على أيدي معاوية من جهة، وأيدي أتباعه من جهة أُخرى، عبر نظام التصفية الذي اعتمده معاوية؛ السيف أو العسل.

الخامسة: محاولات القضاء على ذكر أهل البيت النبوي الطاهر عليهم السلام، فيما يعود لهم من مناقب، فحاولوا أنّ يسلبوهم مناقبهم ويلحقوها بغيرهم، وأن يلصقوا معايب ومثالب هؤلاء بهم. وقد بذلوا الأموال ورفعوا السيوف في سبيل تحقيق ذلك الترغيب والترهيب والإكراه[1].

يذكر أحد المؤرخين أن سليمان بن عبد الملك أرسل خلف رجل ممّن

---

(١) قال ابن حجر: «عن إسحاق بن راهويه أنه قال: لم يصح في فضائل معاوية شيء». ثم قال: «واخرج ابن الجوزي أيضاً من طريق عبد الله بن أحمد بن حنبل: سألت أبي: ما تقول في علي ومعاوية؟ فأطرق ثم قال: اعلم أن علياً كان كثير الأعداء، ففتّش أعداؤه له عيباً فلم يجدوا، فعمدوا إلى رجل قد حاربه فأطروه كياداً منهم لعلي. فأشار بهذا إلى ما اختلقوه لمعاوية من الفضائل مما لا أصل له. وقد ورد في فضائل معاوية أحاديث كثيرة لكن ليس فيها ما يصحّ من طريق الأسناد، وبذلك جزم إسحاق بن راهويه، والنسائي، وغيرهما، والله أعلم». فتح الباري ٧: ٨١.

ونقل المباركفوري مثله. تحفة الأحوذي ١٠: ٢٣١.

وأسرّ الشافعي إلى الربيع أن لا تقبل شهادة أربعة من الصحابة، وهم: معاوية، وعمرو بن العاص، والمغيرة، وزياد». خزانة الأدب ٦: ٥١، ونقله مروان خليفات وأحمد حسين يعقوب عن تاريخ الطبري / حوادث سنة ٥١، الكامل في التاريخ ٣: ٢٠٢ ـ ٢٠٩، تاريخ مدينة دمشق ٢: ٣٧٩. انظر: وركبت السفينة: ٢٢١، نظرية عدالة الصحابة: ١١٢

وقال إسحاق بن راهويه: «لا يصحّ عن النبي صلى الله عليه وآله في فضل معاوية شيء». انظر سير أعلام النبلاء ٣: ١٣٢.

يهتمّ بكتابة التاريخ، وقال له: اكتب لي التاريخ الذي تعرفه. فقال له: إنه مكتوب عندي، وقد دوّنته على هذه الرقاق (أو الرقاع). ثم سلّمها إليه.

فلما نظر سليمان بن عبد الملك فيها رأى أن في مجموعة منها ذكراً لسيرة الرسول صلى الله عليه وآله وسيرة أهل بيته عليهم السلام، وأصحابه الخلّص (رضوان الله تعالى عليهم)، وأن فيها روايات في فضل الأنصار (رضي الله تعالى عنهم)، فقال له: هل إن هؤلاء مجاهدون ومقاتلون وأبرار، وقد دافعوا عن النبي؟ وهل إنهم أهل عبادة وورع وتقوى كما تذكر؟ من أين لك هذا الكلام؟ إنهم إن كانوا بهذه الشاكلة فهذا يعني أنهم قد ظُلموا، وأن أسلافي ظالمون، وإن لم يكن أسلافي كذلك فهذا يعني أن هذا الكلام كلّه كذب وافتراء، ولا أساس له من الصحّة.

ثم طوى هذه الرقاق ومزّقها وقال لصاحبها: أُريد أولاً أن أستوثق من هذا الأمر الذي تذكره، ومن صحّة هذه الروايات من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان. ثم دخل عليه وأخبره بما قرأ في هذه الرقاق وبما فعله فيها حيث إنه مزقها، فقال له عبد الملك: لقد أحسنت صنعاً؛ إننا لا نريد لأهل الشام أن يقرؤوا مثل هذا الكتابات، ولا أن يعرفوها.

والواقع أن الأنصار قد قسا عليهم الدهر، وجارت عليهم السلطات؛ لأن بعضهم قد اتّبع الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وناصره وأحبّه دون أن يفعل ذلك مع بني أُميّة؛ لا في حياته، ولا حال موته.

إذن في هذه الفترة بدأت الملاحقة الفعليّة لكلّ من ناصر أمير المؤمنين عليه السلام، ولكل من أحبّه وشايعه، وكل من يروي رواية في فضله عليه السلام أو فضل أهل البيت عليهم السلام[1]. فكلّ من يُشمّ منه رائحة لحبّ علي عليه السلام أو أحد

---

(١) وقد ذكرنا فيما سبق أن الأمر لم يقتصر على الحكّام الطغاة فقط، بل تعدّاهم إلى طبقة

من أهل بيته يلاحق بمختلف أنواع الملاحقة، ويتعرّض لأقسى الأساليب وأشدها من السجن، وألوان التعذيب، وقطع الأرزاق، وما إلى ذلك. وقد كان معاوية ينتهج أسلوبي الترغيب والترهيب في تجريد المذهب الشيعي من أتباعه؛ سعياً لإضعاف التشيّع، فمن لم ينفع معه المال كان السم أو السيف له أجدى وأنفع.

وقد بذل الأموال الطائلة في سبيل شراء الذمم ومن ذلك ما يروى من أن الأحنف بن قيس، وجارية بن قدامة، والجون بن قتادة، والحباب بن يزيد أبا منازل دخلوا على معاوية بن أبي سفيان، فأعطى كلّ رجل منهم مئة ألف درهم، وأعطى الحباب سبعين ألف درهم.

فلما خرجوا منه وكانوا في الطريق، سأل بعضهم بعضاً عمّا أعطاه معاوية، فأخبروا بجوائزهم، فرجع الحباب إلى معاوية، فقال له: ما ردّك يا أبا منازل؟ قال: فضحتني في بني تميم، أما حسبي صحيح؟ أولست ذا سن؟ أولست مطاعاً في عشيرتي؟ فقال معاوية: بلى أنت كذلك. قال: فما بالك خسست بي دون القوم، فتعطي الأحنف ورأيه رأيه ـ وكان علويّ الرأي والهوى ـ مئة ألف درهم وتعطيني ورأيي رأيي ـ وكان عثمانيّ

العلماء، وإلى الشعوب الإمّعة كما حدث مع النسائي حينما ألّف كتابه (خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ) فقد اجتمع عليه المحدّثون والقرّاء وغيرهم في دمشق ـ وقيل: في فلسطين، وكان قد خرج من مصر وافداً على دمشق ـ في بعض مجالسه، فسأله بعضهم: أيهما أفضل علي أم معاوية؟ فقال على الفور: أما رضي معاوية أن يخرج رأساً برأس حتى يفضّل؟ وقال: والله لا أعرف له فضيلة إلّا قول النبي ﷺ: «لا أشبع الله بطنك». فداسوه بأرجلهم وأخرجوه من الشام مضروراً، فتوجّه نحو مكّة المكرّمة وتوفّي بها متأثّراً بإصابته. وفيات الأعيان ١: ٧٧، النصائح الكافية: ١٩٩.

ونقل عنه أنه قال: «دخلت الشام، والمنحرف عن علي ﷺ بها كثير، فصنّفت كتاب (الخصائص) رجوت بذلك أن يهديهم الله». شذرات الذهب ٢: ٢٤٠.

الرأي والهوى ـ سبعين ألف درهم؟ فقال: يا حباب، إني اشتريت منه دينه بما أعطيته، أمّا أنت فقد وكلتك إلى دينك ورأيك في عثمان بن عفّان، فإني أردت أن أبقي لك دينك؛ لأنك عثماني، وأنا أُريد أن أُبقيك على عثمانيّتك. فقال الحباب: يا أمير المؤمنين، فاشترِ مني أيضاً ديني. فأتمّها له مئة ألف درهم، وألحقه بالأحنف ورفيقيه.

ثم لم يأتِ على الحباب بعد ذلك أُسبوع حتى مات، وردّ المال بعينه إلى معاوية [١].

---

(١) انظر: الغارات ٢: ٧٥٤، تاريخ مدينة دمشق ١٠: ٢٧٨ ـ ٢٧٩. وقد روي أن معاوية همّ أن يعزل المغيرة عن الكوفة ويولّي عليها سعيد بن العاص، فلمّا بلغه ذلك شخص إلىٰ معاوية بالشام، وقال لأصحابه حين وصل إليه: إن لم أكسبكم اليوم ولاية وإمارة لا أفعل ذلك أبداً. ومضىٰ حتىٰ دخل علىٰ يزيد، وقال له: إنّه قد ذهب أعيان أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وكبراء قريش وذوو أسنانهم، وإنّما بقي أبناؤهم وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأياً، وأعلمهم بالسنّة والسياسة، وما أدري ما يمنع أميرالمؤمنين أن يعقد لك البيعة! قال: أوترىٰ ذلك يتمّ لي؟ قال: نعم.

فدخل يزيد علىٰ أبيه، وأخبره بما قال المغيرة، فأحضره معاوية، وقال له: ما يقول يزيد؟ فقال: يا أمير المؤمنين، قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد قتل عثمان، وفي يزيد منك خلف فاعقد له، فإن حدث بك حادث كان كهفاً للناس، وخلفاً منك، ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة. قال: ومن لي بهذا؟ قال: أكفيك أهل الكوفة، ويكفيك زياد أهل البصرة، وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك. قال: فارجع إلىٰ عملك، وتحدّث مع من تثق إليه وترىٰ ونرىٰ.

فودّعه ورجع إلىٰ أصحابه، فقالوا: مَه، فقال: لقد وضعت رجل معاوية في غرز بعيد الغاية علىٰ أُمّة محمّد صلى الله عليه وآله، وفتقت عليهم فتقاً لا يرتق أبداً.

وسار المغيرة حتىٰ قدم الكوفة وذاكر من يثق فيه، ومن يعلم أنّه من شيعة بني أُميّة، فأجابوا إلىٰ بيعة يزيد، فأوفد منهم عشرة وأعطاهم ثلاثين ألف درهم، وجعل عليهم ابنه موسىٰ بن المغيرة، وقدموا علىٰ معاوية فزيّنوا له بيعة يزيد، ودعوه إلىٰ عقدها، فقال معاوية: لا تعجلوا بإظهار هذا الأمر، وكونوا علىٰ رأيكم. ثمّ قال لموسىٰ بن المغيرة: بكم اشترىٰ أبوك من هؤلاء دينهم؟ قال: بثلاثين ألف درهم. قال: لقد هان عليهم دينهم. الكامل في التاريخ ٣:

فهذه المفارقات المؤلمة كانت نصب عيني الإمام السجاد عليه السلام ، وهو يعيش هذه المرحلة التي عاصر فيها عمّه الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية ، وقد استمرّت هذه الفترة إلى وفاة الإمام الحسن عليه السلام .

جوابه عليه السلام الزهري بأن الصوم أربعون وجهاً

وفي هذه الأثناء ـ أي في زمان أبيه وعمه عليهما السلام ـ كان الإمام عليه السلام يعقد في مسجد النبي صلى الله عليه وآله حلقة للتدريس ، فكان الإمام عليه السلام يجيب على أسئلة السائلين بالمقدار الذي تسمح به الظروف ، ولهذا فإن الأسئلة كانت تتوارد عليه فيجيب أصحابها دون كلل أو ملل ، ومن هذا ما يروى من أن الزهري جاءه يوماً فقال له : لقد حصل بيننا نزاع ، ونريدك أن تفصل فيه . ثم قال : لقد تذاكرنا أمر الصوم ، فاجتمع رأيي ورأي أصحابي على أنه ليس من الصوم شيء واجب إلّا صوم شهر رمضان . فقال عليه السلام : « يا زهري ، ليس كما قلتم ؛ الصوم على أربعين وجهاً : فعشرة أوجه منها واجبة كوجوب شهر رمضان ، وعشرة أوجه منها صيامهن حرام ، وأربعة عشر منها صاحبها بالخيار إن شاء صام وإن شاء أفطر ، وصوم الإذن على ثلاثة أوجه ، وصوم التأديب وصوم الإباحة وصوم السفر والمرض » .

الصوم الواجب

فقال : جعلت فداك فسّرهن لي . فقال عليه السلام :

« أما الواجبة ؛ فصيام شهر رمضان ، وصيام شهرين متتابعين في كفارة الظهار لقول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ

---

٤٠٥ . النصائح الكافية : ٦٤ . وليس بعد هذا تلاعب بالدين .

مُتَتَابِعَيْنِ ﴾[١].

وصيام شهرين متتابعين فيمن أفطر يوماً من شهر رمضان. وصيام شهرين متتابعين في قتل الخطأ لمن لم يجد العتق واجب؛ لقول الله عزّ وجل: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾[٢].

وصوم ثلاثة أيام في كفّارة اليمين واجب؛ قال الله عزّ وجل: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ ﴾[٣]. هذا لمن لا يجد الإطعام، كلّ ذلك متتابع وليس بمتفرّق.

وصيام أذى حلق الرأس واجب قال الله عزّ وجل: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾[٤]، فصاحبها فيها بالخيار؛ فإن صام صام ثلاثة أيام.

وصوم المتعة واجب لمن لم يجد الهدي؛ قال الله عز وجل: ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾[٥].

وصوم جزاء الصيد واجب قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً ﴾[٦]. أو تدري كيف يكون عدل ذلك صياماً يا زهري؟». قال: لا أدري. قال عليه السلام: «يقوّم الصيد قيمة، ثم تفضّ تلك القيمة على البرّ، ثم يكال

---

(١) المجادلة: ٣ ـ ٤.
(٢) النساء: ٩٢.
(٣) المائدة: ٨٩.
(٤) البقرة: ١٩٦.
(٥) البقرة: ١٩٦.
(٦) المائدة: ٩٥.

ذلك البُرّ أصواعاً، فيصوم لكلّ نصف صاع يوماً.

وصوم النذر واجب، وصوم الاعتكاف واجب».

الصوم الحرام

«وأما الصوم الحرام، فصوم يوم الفطر، ويوم الأضحى، وثلاثة أيّام من أيّام التشريق، وصوم يوم الشك أُمرنا به ونهينا عنه؛ أُمرنا به أن نصومه مع صيام شعبان، ونهينا عنه أن ينفرد الرجل بصيامه في اليوم يشك فيه الناس». فقال له: جعلت فداك، فإن لم يكن صام من شعبان شيئاً، كيف يصنع؟ قال عليه السلام: «ينوي ليلة الشك أنه صائم من شعبان؛ فإن كان من شهر رمضان أجزأ عنه، وإن كان من شعبان لم يضرّه». فقال: وكيف يجزئ صوم تطوّع عن فريضة؟ قال عليه السلام: «لو أن رجلاً صام يوماً من شهر رمضان تطوّعاً، وهو لا يعلم أنه من شهر رمضان، ثم علم بذلك لأجزأ عنه؛ لأن الفرض إنما وقع على اليوم بعينه.

وصوم الوصال حرام، وصوم الصمت حرام، وصوم نذر المعصية حرام، وصوم الدهر حرام».

الصوم المباح

«وأما الصوم الذي صاحبه فيه بالخيار، فصوم يوم الجمعة والخميس، وصوم البيض، وصوم ستّة أيام من شوّال بعد شهر رمضان، وصوم يوم عرفة، وصوم يوم عاشوراء، فكلّ ذلك صاحبه فيه بالخيار؛ إن شاء صام، وإن شاء أفطر».

صوم الإذن

«وأما صوم الإذن فالمرأة لا تصوم تطوّعاً إلّا بإذن زوجها، والعبد لا يصوم تطوّعاً إلّا بإذن مولاه، والضيف لا يصوم تطوّعاً إلّا بإذن صاحبه. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من نزل على قوم فلا يصم تطوّعاً إلّا بإذنهم».

صوم التأديب والإباحة والسفر والمرض

«وأما صوم التأديب فأن يؤخذ الصبي إذا راهق بالصوم؛ تأديباً، وليس بفرض، وكذلك المسافر إذا أكل من أوّل النهار ثم قدم أهله أمر بالإمساك بقيّة يومه وليس بفرض. وأما صوم الإباحة لمن أكل أو شرب ناسيا أو قاء من غير تعمّد، فقد أباح الله له ذلك وأجزأ عنه صومه. وأما صوم السفر والمرض فإن العامّة قد اختلفت في ذلك فقال قوم: يصوم وقال آخرون: لا يصوم، وقال قوم: إن شاء صام وإن شاء أفطر، وأما نحن فنقول: يفطر في الحالين جميعاً فإن صام في السفر أو في حال المرض فعليه القضاء، فإن الله عزّ وجل يقول: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾[1]، فهذا تفسير الصيام»[2].

وفي واقع الأمر إن هذه الإجابة للزهري على سؤاله هذا، مضافاً إليها قضيّة أخرى حدثت للزهري مع الإمام السجاد عليه السلام وقد حلها له لهما مدعاة للتساؤل. والقضية الثانية هي أن الزهري كان قاضياً عند الأمويّين، فرأى يوماً فيما يرى النائم كأن يده قد غمست بدم، فسأل عن ذلك فقيل له: سوف تُبتلى بدم وبقتل. وفعلاً ابتلي يوماً بدم خطأ؛ فقد جيء إليه بشخص فعاقبه حتى مات، فلما عرف أنه مات أصابه يأس وقنوط من الحياة، وحبس نفسه في بيته ولم يخرج منه.

وقد افتقده الإمام السجاد عليه السلام مرّة؛ إذ لم يرَه في المسجد، فسأل عنه، فقيل له: هل لك فيه؟ قال عليه السلام: «إن لي فيه». أي أُريد أن أراه، فقال له أحدهم: إنّ من أمره كذا وكذا، وهو يظن نفسه أنه قاتل الرجل.

فدخل عليه الإمام عليه السلام وقال له: «إنّ ما أخافه عليك من قنوطك من رحمة الله

---

(١) البقرة: ١٨٤.

(٢) الكافي ٤: ٨٣ ـ ٨٧ / ١، البداية والنهاية ٩: ١٣٤.

أكثر مما أخافه عليك مما ابتليت به، وقنوطك من رحمة الله التي وسعت كل شيء أعظم عليك من ذنبك». فقال الزهري: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[1]، لقد فرّجت عني فرّج الله عنك، أشهد أنك زين العابدين. ثم رجع إلى أهله وماله[2].

علم الإمام السجاد ومصادره

والحادثة الثانية بالذات قد تركت انطباعاً طيّباً عن الإمام السجاد عليه السلام في نفس الزهري، وأثراً حميداً فيها. وهذه المبادرة من الإمام عليه السلام في هذه الأدوار المبكّرة من عمره الشريف تنمّ عن علم جزل، وثقافة غزيرة، ومعرفة واطّلاع واسعين. ولنا هنا أن نتساءل عن علم الإمام عليه السلام ومصدره، وهل إن مصدره طريق طبيعي أم طريق غير طبيعي؟ وبعبارة أُخرى: هل إنه علم يخضع للظروف الطبيعيّة أو العادية، أم إنه علم بطريقة غيبية؟ وهذه المسألة تثار بشكل مستمرّ، وتدور حول علم الأيمّة عليهم السلام كلّهم.

إن هنا عندنا أكثر من إجابة لهذا التساؤل، ولو أننا وسّعنا مساحة البحث في هذه المسألة، ووصلنا إلى الإمام الجواد عليه السلام لرأينا أنه عليه السلام وهو في عمر مبكّر جدّاً يختبره فقهاء المذاهب الأُخرى، فيطرحون عليه ثلاثين ألف مسألة في أوقات متعدّدة فيجيب عليها جميعها بالبرهان والدليل[3]، فمن أين جاء عليه السلام بهذه العلمية؟ ولعل المشكلة تكمن هنا؛ ذلك أننا إذا ذكرنا لأحد الأئمة عليهم السلام منقبة أو فضيلة أو كرامة، فإن الدنيا تقوم ولا تقعد، بل إن قيامتنا تقوم، لاسيما إذا ذكرنا ما يخصّ علمهم عليهم السلام،

---

(١) الأنعام: ١٢٤. (٢) ينابيع المودّة ٢: ٤٦٨.

(٣) مستدرك سفينة البحار ٣: ٤٠٢، عن الاختصاص، وفيهما أن هذه المسائل كلها طرحت في مجلس واحد.

ونوّهنا إلى أنه علم من الله جلّ وعلا؛ باعتبار أنهم ملهمون على اختلاف مشارب الإلهام الذي يقع تارة بالنقر في الأسماع، أو النكت في القلوب، أو عن طريق المنام وما إلى ذلك.

هذا في حين أن الطرف الآخر حينما يذكر بعض هذه المناقب، وينسبها إلى جماعة فإنه لا يتحسّس منها، بل ويعدّها أمراً طبيعياً؛ ومن ذلك ما يرويه ابن حجر في (تهذيب التهذيب)[1] وغيره من ان عمر بن عبد العزيز كان يمشي وإلى يمينه الخضر، وهو يحدّثه ويلهمه.

وإذا كان هؤلاء لا يستكثرون على عمر بن عبد العزيز أن تلهمه الملائكة أحكامه، وإذا كانوا كذلك لا يستكثرون على عمران بن الحصين مثل هذه المسألة؛ إذ أنهم يروون أنه كانت تحدّثه الملائكة[2]، فلماذا هذه الحساسية إذن تجاه آل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله؟

القول بنظرية الإلهام ضرورة يفرضها الواقع

ونحن حينما نقول بنظرية الإلهام فلأننا نضطرّ إلى أن نفرضها في الواقع، وأن نقول بها. وهذا هو المعنى الذي يشير إليه الإمام عليه السلام من أنه لو أراد أن يعلم لعلم. وهذا يعني أن الإمام عليه السلام بمجرّد أن يتوجّه إلى الله جلّ وعلا في أن يمدّه تعالى بعلم من عنده، وأن يفيض عليه بمعرفته، فإنه جلّ وعلا حينئذٍ يلهمه علم تلك المسألة، أو علم ذلك الأمر الذي أراده.

---

(١) تهذيب التهذيب ٧: ٤١٩ / ٧٩١.

(٢) سنن أبي داود ٢: ٢٢١ / ٣٨٦٥. كما يروون أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال: «قد كان في الأمم السابقة قبلكم محدّثون، فإن يكن في أمّتي أحد منهم فهو عمر بن الخطاب». صحيح البخاري ٤: ١٤٩، صحيح مسلم ٧: ١١٥، مسند الحميدي ١: ١٢٣، صحيح ابن حبّان ١٥: ٣١٧.

وهذه هي عقيدتنا بعلم الأئمة عليهم السلام، أما أن يُدّعى أننا نقول بأن علم الإمام علم ذاتي، فهذا محض افتراء لا أساس له من الصحّة، بل إن القائل به يخرج معه عن ربقة الإسلام. وهذا الأمر ينسحب أيضاً حتى على ولاية المعصوم عليه السلام، فولايته ولاية متفرّعة عن ولاية الله جلّ وعلا؛ أي أن ولايته عليه السلام ليست ولاية ذاتية، وليست لذاته، بل إنها مستمدّة من ولاية الله جلّ وعلا وعطائه. ونحن إنما نقول بهذا القول فلأنهم عليهم السلام عباد مكرمون، أكرمهم الله جلّ وعلا وأعطاهم؛ لقاء ما نذروا أنفسهم من أجله، وهو خدمة دينه، وإلّا ما الذي يمكن أن يفسّر به أن يتصدّى أحد المعصومين عليهم السلام للإجابة عن أعتى المسائل وأصعبها وهو في سنّ مبكرة؟

وبناء على هذا فإننا نستطيع أن نجمل مصادر علم الإمام السجاد عليه السلام بطريقين، هما:

الأول: الطريق الطبيعي

فالإمام السجاد عليه السلام هو ابن الحسين وابن أخي الحسن عليهما السلام؛ فهو حفيد علي بن أبي طالب عليه السلام، وفاطمة الزهراء عليها السلام؛ وبالتالي فهو ابن رسول الله صلى الله عليه وآله. وهذا هو الجوّ الذي كان يعيش فيه، وليس من هؤلاء المكرمين أحد إلّا عالم غير معلّم، وقد توارثوا العلم خلفُهم عن سلفِهم. وهكذا نرى أن جوّ العلم الذي عاش فيه الإمام عليه السلام هو جوّ الوحي.

الثاني: الطريق الغيبي

ذلك أن جبرائيل عليه السلام كان ينزل على رسول الله صلى الله عليه وآله فيعلّمه من علم الله جلّ وعلا، وقد علّم الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أمير المؤمنين عليه السلام علمه هذا[1].

---

(١) حتى قال عليه السلام: «علمني رسول الله ألفَ باب من العلم، ينفتح لي من كلّ باب ألفُ باب».

ثم انتقلت هذه المعارف والعلوم بعد انتقال أمير المؤمنين عليه السلام إلى الرفيق الأعلى إلى ولديه الحسن والحسين عليهما السلام اللذين ورّثاها إلى تلك السلسلة الذهبية الطاهرة من أبناء الحسين عليهم السلام.

وهكذا راحت معارف رسول الله صلى الله عليه وآله التي هي معرفة الله وعلمه جلّ وعلا تنتقل إلى أبنائه عليهم السلام من بعده بمقدار ما أطلعهم تعالى عليه [1]. والدليل على هذا تلك المحاورة التي حدثت بين الإمام الحسن عليه السلام والرجل الشامي؛ فقد كان الإمام الحسن عليه السلام يطوف في أحد الأيام، فوقف له رجل شامي وشتمه، فقال له الإمام: «على رسلك: أنا آخذ بيدك إلى بيتنا لأريك زغب جناح جبرئيل» [2].

الخصال: ٥٧٢ / ١، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٣٨٥.

(١) قال السيد الخوئي: إن القضاء على ثلاثة أقسام:

الأول: قضاء الله الذي لم يطلع عليه أحداً من خلقه، والعلم المخزون الذي استأثر به لنفسه. ولا ريب في أن البداء لا يقع في هذا القسم، بل ورد في روايات كثيرة عن أهل البيت عليهم السلام أن البداء إنما ينشأ من هذا العلم.

الثاني: قضاء الله الذي أخبر أنبياءه وملائكته عليهم السلام بأنه سيقع حتماً. ولا ريب في أن هذا القسم أيضاً لا يقع فيه البداء، وإن افترق عن القسم الأول، بأن البداء لا ينشأ منه.

الثالث: قضاء الله الذي أخبر أنبياءه وملائكته عليهم السلام بوقوعه في الخارج، إلّا إنه موقوف على ألّا تتعلق مشيئة الله بخلافه. وهذا القسم هو الذي يقع فيه البداء: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ الرعد: ٣٩.

البيان في تفسير القرآن - - ص ٣٩١ - ٣٨٦، وبهذا فإن القسمين الأخيرين كليهما قد انتقلا إلى رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله، ومنه إلى أهل بيته الكرام عليهم السلام.

(٢) لم نعثر عليه بهذا النصّ، وقد سبق أن أشرنا إلى أنه كان للحسن والحسين عليهما السلام تعويذتان حشوهما من زغب جناح جبرئيل عليه السلام. انظر مناقب آل أبي طالب ٣: ١٦٢، بحار الأنوار ٤٣: ٢٦٣ / ٩، ترجمة الإمام الحسن عليه السلام (ابن عساكر): ١١٣، ١١٤، ترجمة الإمام الحسين عليه السلام (ابن عساكر): ١٩٢.

الفترة الثالثة: معاصرته لأبيه الحسين عليه السلام

وبعد أن انتهت تلك الفترة جاء دور الفترة الثالثة التي عاصر فيها أباه الإمام الحسين عليه السلام، فعاشها بكلّ معاناتها ومآسيها، وكانت إمامته في هذه الفترة محجوبة بإمامة أبيه عليه السلام كذلك. وقد استمرت هذه الفترة منذ وفاة الإمام الحسن عليه السلام وحتى وفاة معاوية عام (٦٠) للهجرة، أي قبل معركة الطف. وهي مرحلة اتّسمت بالعنف الأُموي من جهة، وبأن فيها كانت تعدّ التحضيرات للثورة ضدّ يزيد بعد استخلاف معاوية له وتوليته إياه على المسلمين بعد وفاته. فكانت إرهاصات النهضة المباركة تلوح في الأُفق، وكانت الاستعدادات النفسيّة والتهيّؤ للقيام بهذا الدور قد نشأت في تلك الفترة التي ذكرنا أنها كانت فترة معاناة في حياة الإمام السجاد عليه السلام؛ لما كان يراه من ظلم الظالمين وجور الجائرين.

الفترة الرابعة: فترة معركة الطفّ

وفي هذه الواقعة الفاجعة كان عمره الشريف ثلاثاً وعشرين سنة، وقد خرج مع أبيه عليه السلام، وبيده ولده الإمام الباقر عليه السلام الذي كان له من العمر ثلاث سنوات.

أبناء الإمام السجاد عليه السلام

وكان للإمام السجاد عليه السلام ثمانية أبناء هم: الإمام محمد الباقر عليه السلام وزيد والحسن والحسين وعبيد الله وعبد الله وعلي وعمر. وقد نصّ أغلب المؤرّخين على أنه عليه السلام لم تولد له أنثى، وأن كلّ ذرّيته كانت من الذكور. وكان من أولاده عليه السلام معه في الطف الإمام الباقر عليه السلام كما ذكرنا وأمه فاطمة بنت الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام ولذا فإن بعض المؤرخين يستغرب

تلك النبرة أو اللهجة التي خاطبت بها الإمام عليه السلام في حادثة وقوع الإمام الباقر عليه السلام في البئر وهو يصلي؛ ذلك أنها (رضي الله عنها) كانت من العارفات الورعات العابدات، تقول الرواية: إن الإمام السّجاد عليه السلام كان قائماً في صلاته فزحف ابنه محمد عليه السلام ـ وهو طفل ـ إلى بئر كانت في داره بعيدة القعر، فسقط فيها، فنظرت إليه أمّه فصرخت، وأقبلت تضرب نفسها من حوالي البئر وتستغيث به وتقول له: يابن رسول الله، غرق والله ابنك محمد. وكلّ ذلك لا يسمع قولها ولا ينثني عن صلاته، وهي تسمع اضطراب ابنها في قعر البئر في الماء. فلما طال عليها ذلك قالت له جزعاً على ابنها: ما أقسى قلوبكم يا أهل بيت النبوة! وهو مستمرّ في صلاته ولم يخرج عنها إلّا بعد كمالها وتمامها، ثم أقبل عليها فجلس على رأس البئر، ومدّ يده الشريفة إلى قعرها ـ وكانت لا تنال إلّا برشاء طويل ـ فأخرج ابنه محمداً بيده وهو يناغيه ويضحك، ولم يُبلّ له ثوب ولا جسد بالماء[1].

ولهذا فإن بعض من نقلوا هذه الرواية يستغرب صدور مثل هذا الكلام منها، ويذهب إلى عدم صحته، وإلى أنها بمنزلة من الأدب والتقوى والطاعة تمنعها من أن تخاطب زوجها وهو الإمام بهذه اللهجة، مضافاً إلى أنها من آل بيت محمد كذلك. فالحقيقة التي نخلص إليها هي أن فاطمة (رضي الله عنها) لا تقول مثل هذا الكلام.

وعلى أيّ حال فقد قضى الإمام عليه السلام فترة الطف القصيرة مع أبيه الإمام الحسين عليه السلام بشكل لا يمكن أن يُتصور أو يوصف؛ لِما كان فيها من مآسٍ

(١) دلائل الإمامة: ١٩٧، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٧٨.

وآلام، ولما ارتُكبت فيها من مجازر وجرائم وحشية يندى لها جبين الإنسانية. وإضافة إلى هذا ما كان يعانيه هو عليه السلام من المرض، فقد كان (سلام الله عليه) مريضاً في أشدّ حالات المرض، فكان يغمى عليه بين آونة وأُخرى من الألم والإعياء والمعاناة والمرض. ولهذا السبب لم يشترك في القتال، أو على الأصح لم يأذن له أبوه عليه السلام بالقتال حتى بعد أن اخترط سيفه ونزل وسحب نفسه إلى المعركة يجر أذياله لأنه سمع نداء أبيه ولم يسمع من يجيبه.

العلّة من مرض السجاد عليه السلام في واقعة الطف

إن الله جل وعلا له وسائل عديدة للحفاظ على عباده، ومن هذه الوسائل المرض، وهي الوسيلة التي استخدمها مع الإمام السجاد عليه السلام حينما امتحنه بهذا الاختبار؛ فإن الله جل وعلا أبى إلّا أن يبقى محمّد صلى الله عليه وآله ونور محمد وآل محمد (عليهم الصلاة والسلام). ولولا أن الإمام السجّاد كان مريضاً لوجب عليه القتال تحت لواء أبيه عليه السلام[1]. وهذا المرض أراد الله جلّ وعلا به أن يحفظ النسل النبويّ الكريم، وأن يبقى

---

(١) ويدلّ على هذا قول الإمام الحسين عليه السلام لهرثمة: ـ إذ جاءه الأخير قائلاً: لقد مررت بكربلاء مع أبيك بعد واقعة صفين، ونحن راجعون، فوقف وأخذ قبضة من تراب كربلا وشمّها وقال: «هذا ـ والله ـ مناخ ركابهم وموضع منيّتهم» فقيل له: يا أمير المؤمنين، ما هذا الموضع؟ قال: «هذا كربلاء، يقتل فيه قوم يدخلون الجنة بغير حساب». وفي رواية أنه عليه السلام قال: «واهاً لك يا تربة ليحشرن منك قوم يدخلون الجنة بغير حساب ـ: «أنت لنا أم علينا؟». فقلت: يابن رسول الله، لا لكم ولا عليكم؛ خلّفت صِبية أخاف عليهم عبيد الله بن زياد. فقال عليه السلام: «فامضِ حيث لا ترى لنا مقتلاً، ولا تسمع لنا صوتاً، فوالذي نفس الحسين بيده، لا يسمع اليوم واعيتنا أحد فلا يعيننا إلّا دخل النار». انظر: الإرشاد ١: ٣٣٢، شرح نهج البلاغة ٣: ١٦٩، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٢٢، تهذيب الكمال ٦: ٤١١، تهذيب التهذيب ٢: ٣٠١.

امتداد الرسالة به.

إذن فهذه وسيلة من وسائل الحفظ، ودليل هذا أن عمر بن سعد بعد أن انتهت معركة الطف حينما أراد أن يقتله (سلام الله عليه)، وقف له رجل من الجيش وقال له: أتقتلون رجلاً مريضاً؟ إن هذا عار عليكم. فتركوه، وهكذا بقي الإمام عليه السلام؛ ليحفظ لنا نسل رسول الله صلى الله عليه وآله، وليحفظ لنا خطّ الإمامة المقدّسة.

الفترة الخامسة: فترة ما بعد الطف

وبانتهاء معركة الطف تنتهي هذه الفترة من حياة الإمام عليه السلام وهي فترة مليئة بالأحزان وبالمعاناة، وهو (سلام الله عليه) يشاهد إخوانه وأبناء عمومته وأنصار أبيه ثم أباه عليه السلام يتساقطون الواحد تلو الآخر في أرض المعركة دون أن يستطيع أن يقدم لهم شيئاً.

وفي هذه الفترة بالذات تتجلى لنا أبعاد كبيرة في سيرة الإمام عليه السلام. إننا نعيش الآن في دنيا هي عبارة عن صحراء قاحلة من الأخلاق، وعن غابة مليئة بالوحوش التي يفترس بعضها بعضاً ويأكل بعضها حق بعض؛ ولذا كان من الواجب علينا في مثل هذه الحالة أن نتبع أخلاق أئمتنا عليهم السلام وسيرتهم ومواقفهم وأن نعيشها واقعاً وأخلاقاً وتعاملاً مع الآخرين؛ لأنها سيرة شريفة تضفي طراوة على هذه الأجواء التي أصبحت قاحلة.

البعد الثالث: صفات الإمام السجّاد عليه السلام

ولو تتبعنا هذه السيرة العطرة المشرّفة والمشرقة لهذا الإمام العظيم فإننا سنجد فيها الجوانب الأخلاقية كافة، كما أننا سنجدها وقد ضمخت كل أبعاد حياته وتعاملاته، فكان المثل الأعلى والأسمى في جميع

تصرفاته وأبعاد حياته، ومن هذه الصفات والأخلاق نذكر:

الصفة الأولى: النبل

إن النبل كان في معدن أهل هذا البيت النبوي الطاهر قاعدة وأساساً بنيت عليه كل أخلاقياتهم وتعاملاتهم. ولو أردنا أن نتتبع سيرة الإمام عليه السلام لوجدناها مليئة بمفردات هذه الكلمة، ويكفي هنا أن نذكر أكثر من حادثة مر بهما الإمام عليه السلام لتكشفا عن حقيقة نبله ومقداره، وسموّ خلقه:

الحادثة الأولى: واقعة الحرة ومضاعفاتها

ففي هذه الواقعة احتل الجيش الأُموي المدينة المنورة، واشتد ضغطهم على جميع من في المدينة مما اضطر الإمام عليه السلام إلى أن يتكفل بأربعمئة عائلة والقيام على شؤونهم. ولعل البعض يستغرب حينما يعرف هذا، لكننا نرى أن مورد استغرابه سيزول حينما يعرف ما هو أكثر من ذلك ففي هذه الواقعة قتل عشرة آلاف من أهل المدينة المنورة ممن ناصروا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقاسموا المهاجرين أموالهم وبيوتهم ونساءهم بعد أن طلقوا قسماً منهن بالنسبة لمن كان متزوجاً من أكثر من امرأة، وكان من هؤلاء القتلى سبعمئة صحابي من حملة القرآن. كما أن الأمر وصل إلى أن تباح الأعراض، فقد أباحوا المدينة للجيش ثلاثة أيام يفعلون بها ما يشاءون[1].

---

(١) حتى روي أن بعض أهلها كان إذا جاءه أحدهم خاطباً قال له: أُزوّجكها، لكن لا أضمن لك عذريّتها؛ فقد روى المؤرّخون في ذلك الأعاجيب، منها ما رواه الذهبي حيث قال: (وقال جرير بن عبد الحميد، عن مغيرة: نهب مسرف بن عقبة المدينة ثلاثاً، وافتضّ فيها ألف عذراء). تاريخ الإسلام ٥: ٢٦.

وقال ابن خلّكان هذا: (حتى قيل: إنه بعد وقعة الحرّة ولدت أكثر من ألف بكر من أهل

ومع كل هذا فإننا نجد أحد من يدّعي بأنه عالم أو فقيه يقول عن يزيد بأنه: قد تاب؛ وعليه فلا يجوز سبّه أو لعنه.

وممّا يحزّ في النفس أن المرء حينما يمرّ بتاريخنا المدوّن فإنه يجد أقلاماً تمدح يزيد، وتصفه بصفات المؤمنين، بل وتدافع عنه كما فعل الغزالي حيث يقول: لا ينبغي شتم يزيد ولا سبّه؛ لأنه مسلم وقد تاب. ثمّ يتساءل فيقول: من قال: إنه هو الذي قتل الحسين، أو إنه تسبّب في ذلك؟[1].

المدينة ممّن ليس لهن أزواج؛ بسبب ما جرى فيها من الفجور). وفيات الأعيان ٦: ٢٧٦.
وقال ابن كثير: (وزعم بعض علماء السلف أنه قتل في غضون ذلك ألف بكر، فالله أعلم). البداية والنهاية ٦: ٢٦٢.
وقال: (قال المدائني: عن أبي قرّة قال: قال هشام بن حسان: ولدت ألف امرأة من أهل المدينة بعد وقعة الحرة من غير زوج). البداية والنهاية ٨: ٢٤١.
وفي الغدير ١٠: ٣٥ عن الإتحاف: ٢٢، وفاء الوفاء ١: ٨٨، وفي معالم المدرستين ٣: ١٨٨ ـ ١٨٩ عن تاريخ الخلفاء: ٢٠٩، تاريخ الخميس ٢: ٣٠٢ مثل ذلك.

(١) قال الآلوسي: (وأبو بكر بن العربي المالكي (عليه من الله تعالى ما يستحقّ) أعظم الفرية، فزعم أن الحسين قتل بسيف جدّه صلى الله عليه وآله، وله من الجهلة موافقون على ذلك: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ الكهف: ٥. ثم نقل قول ابن الجوزي: (عليه الرحمة) في كتابه (السر المصون) المار في محاضرة (الشخصيّة القياديّة عند أهل البيت عليهم السلام) قال: (هذا ويعلم من جميع ما ذكره اختلاف الناس في أمره فمنهم من يقول: هو مسلم عاصٍ بما صدر منه مع العترة الطاهرة، لكن لا يجوز لعنه... ولا يخالف أحد في جواز اللعن بهذه الألفاظ ونحوها سوى ابن العربي المارّ ذكره وموافقيه؛ فإنهم على ظاهر ما نقل عنهم لا يجوّزون لعن من رضي بقتل الحسين (رضي الله تعالى عنه)، وذلك لعمري هو الضلال البعيد الذي يكاد يزيد على ضلال يزيد.
وأفتى الغزالي (عفا الله عنه) بحرمة لعنه). تفسير الآلوسي ٢٦: ٧٢. وبخصوص ابن العربي انظر فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ٢٦٥ ـ ٢٦٦، ٥: ٣١٣.
وقال ابن تيمية: (وأما الذين سوّغوا محبّته أو أحبّوه كالغزالي والدستي، فلهم مأخذان). مجموع الفتاوى ٤: ٥٠٦.

فهذا يقتل ابن بنت النبي صلى الله عليه وآله، ويهتك حرمته صلى الله عليه وآله، ويسبي حرَمه، ويستبيح المدينة، ويقتل عشرة آلاف مسلم منهم سبعمئة من حملة القرآن، ومع ذلك يعتبر تائباً ومسلماً ولا يجوز سبه، أما إذا أخطأ أحد وشتم أحد أصحاب النبي صلى الله عليه وآله فإن الدنيا تقوم ولا تقعد، وتكفَّر طائفة بكاملها. إنها لمفارقة عجيبة.

وبهذا يتّضح حال يزيد الذي قتل كماً هائلاً من المسلمين ومع ذلك يسمى مسلماً بل ويخلع عليه لقب (أمير المؤمنين) الذي لا زال البعض حتى الآن يسميه به.

وعلى أيّ حال فالإمام عليه السلام جمع أربعمئة عائلة من تلك العوائل، وكفلها، وقام على شؤونها ورعايتها من توفير المسكن والمأوى والمأكل والملبس وما إلى ذلك حتى انتهت تلك الواقعة وعادت الأمور إلى طبيعتها.

الحادثة الثانية: موقفه عليه السلام من الأمويين بعد طردهم من المدينة

فبعد أن ثار أهل المدينة على الأمويين وقرروا إجلاءهم عن المدينة وطردهم منها بل وقتل من يعثرون عليه لاذ بعضهم بالإمام السجاد عليه السلام واستجاروا به فأجارهم، وكان من هؤلاء مروان بن الحكم الذي كان يضرب رأس الإمام الحسين عليه السلام حينما أحضروه إلى المدينة بعصا بيده وهو يقول:

يا حبّذا بردك باليدينِ ولونك الأحمر بالخدّينِ
شفيت نفسي من بني الحسينِ[1]

---

(١) شرح الأخبار ٣: ١٦١، مثير الأحزان: ٧٥، شرح نهج البلاغة ٤: ٧١، ترجمة الإمام الحسين عليه السلام (ابن عساكر): ٣٢٩.

ومع ذلك فإننا نجد إن نبل الإمام قد أصبح هو الحاكم في مثل هذه الظروف ولم ينظر إلى أن هذا عدو له وأن عنده ثأراً له، أو أنه كان في يوم من الأيام يشمت بقتل أبيه، وفعلاً وفر الإمام عليه السلام الحماية لعائلة مروان بل إنه أرسل ابنه عبد الله ليقف على بيت زوجته عاتكة ليحرسها ويرعاها، ثم بعد ذلك أمره أن يوصلها إلى أهلها.

الحادثة الثالثة: موقفه عليه السلام مع محمد بن أسامة بن زيد

فقد دخل عليه السلام في يوم من الأيام على محمد بن أسامة بن زيد يعوده فسمعه يقول: وا غمّاه. قال: «ما غمك؟». قال: دَيني. فسأله الإمام عليه السلام: «كم هو؟». قال: ستون ألفاً. قال الإمام عليه السلام: «هي عليَّ». وكان الإمام قد باع ضيعة كانت عنده، فلم يقم من مجلسه حتى قضى عنه دَينه[1].

الحادثة الرابعة: موقفه عليه السلام من إسماعيل الأموي

وإسماعيل هذا هو إسماعيل بن هشام المخزومي، وكان عامل عبد الملك بن مروان على المدينة، لكنه كان يسيء لأهل البيت عليهم السلام عامّة، وخصوصاً للإمام السجاد عليه السلام، وكان يكنّ له بغضاً شديداً، وكان إذا مرّ به الإمام عليه السلام يشتمه ويشتم آباءه عليهم السلام. وبقي عاملاً إلى زمن الوليد الذي عزله. وكان من عادة الأمويين أنهم إذا أرادوا عزل والٍ وأرادوا أن ينكّلوا به أوقفوه يشهّرون به بين الناس، فيمرّ به الناس ويطالبونه بالسجلات والأموال، ويتّهمونه بكلّ ما يريدون. فكان أن أُوقف في الشمس عارياً، وأخذ الناس يطالبونه بالأموال، فجمع الإمام كلّ أصحابه وأهل بيته

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٢١، بحار الأنوار ٤٤: ١٨٩، وقد ذكرنا فيما سبق أنها جرت بين الإمام الحسين عليه السلام وأسامة أبيه.

وقال لهم: «لا تتعرّضوا لهذا الرجل بسوء أبداً». فقال أحد أولاد الإمام عليه السلام: يا أبه، نحن ننتظر منه مثل هذا اليوم. فقال الإمام عليه السلام: «كِله إلى الله». وطلب منهم أنهم إذا مرّ به أحد منهم فلا يبدِ على وجهه أي امتعاض.

ثم مرّ الإمام عليه السلام قربه فهمس في أذنه قائلاً: «انظر إلىٰ ما أعجزك من مال تؤخذ به فعندنا ما يسعك، فطب نفساً منا ومن كلّ من يطيعنا». وأرسل له الإمام كلّ ما يحتاج إليه، فكان يقول بعد ذلك: ﴿اللهُ أعْلَمُ حَيثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[(١)]، وكان أن ترك النصب له عليه السلام[(٢)].

فتأمل هذا النبل العظيم من الإمام عليه السلام وهو نبل كان يعد سمةً واضحةً من سماته الكثيرة الحميدة.

الصفة الثانية: الخلق العالي

وحينما نستعرض بعض الوقائع في حياة الإمام عليه السلام فإننا نجد أنها مطبوعة بطابع الخلق الكريم العالي ومن ذلك أنه عليه السلام كما يروي المؤرخون عنه ضرب غلاماً له ضربة واحدة بسوط، وكان بعثه في حاجة فأبطأ عليه، فبكى الغلام وقال: الله! تبعثني في حاجتك، ثم تضربني. فبكى عليه السلام وقال: «يا بني، اذهب إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وآله، فصلِّ ركعتين وقل: اللهم اغفر لعلي بن الحسين خطيئته». ثم قال عليه السلام للغلام: «اذهب فأنت حر»[(٣)].

---

(١) الأنعام: ١٢٤.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠١، بحار الأنوار ٤٦: ٥٥، تاريخ الطبري ٥: ٢١٧.

(٣) وسائل الشيعة ٢٢: ٤٠١ / ٢٨٨٩٢. وهذا ليس بغريب عن خلق أهل بيت النبوّة ومعدن الرسالة ومهبط الوحي والتنزيل؛ ففي (مشكاة الأنوار) أن أمير المؤمنين عليه السلام بعث غلاماً له في حاجة فأبطأ عليه، فلمّا جاءه قال: «اسعَ». فسعى، ثم أقبل، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: «ما أرى إلّا وقد أشفقت عليك، فاذهب فأنت حر». مشكاة الأنوار: ٣١٣.

وفي (الكافي) أن الإمام الصادق عليه السلام بعث غلاماً له في حاجة، فأبطأ عليه، فخرج عليه السلام على

وقد حجّ عليه السلام على ناقة له (٢٥) حجّة ما قرعها بسوط، وكان يرفع السوط فيقول: «آه، لولا القصاص». ويردّ يده عنها[(١)].

والذي يبدو من هذه الرواية أن القصاص لا يقتصر على الإنسان، بل إنه يمتدّ إلى الحيوانات أيضاً، فكلّ كبد رطبة لها وزنها عند الله جلّ وعلا. وفي هذه الرواية إذ يمسك الإمام عليه السلام سوطه ثم يمتنع عن قرع ناقته رسالة إلى السياط التي تتوالى على متون الأحرار بألوان التعذيب والاعتداء الذي يتعرّض له المؤمنون والأحرار وهو يصعد إلى السماء في عهد جبابرة هذا الزمن. فالسوط الذي يقول: إن هذه المقرعة لا يمكن أن تنال من الناقة التي تتلكأ عن مشيها يبعث رسالة إلى هؤلاء، وأي رسالة أعظم وأبلغ منها.. رسالة تنضح بالنبل والشعور بالمسؤولية والاتّسام بالخلق العالي.

وهكذا كان الإمام عليه السلام حتى بالنسبة إلى ألدّ أعدائه، بل حتى إلى الحيوانات التي لا تعي ولا تعقل، وقف عليه أحد أبناء عمومته يوماً، فشتمه وأبلغ في شتمه، ثم مضى إلى بيته، فقال الإمام عليه السلام: «قوموا بنا إليه». ثم شقّ طريقه إلى بيته، وهم يظنّون أنه يريد أن يقابله بالمثل، حتى إذا وقف على باب البيت وطرقه، خرج إليه ابن عمّه متوثّباً للشرّ والردّ على الإمام عليه السلام، فقال له الإمام عليه السلام: «إنك وقفت علي آنفاً وقلت الذي قلت؛ فإن كان الذي قلته فيّ فغفر الله لي، وإن لم يكن فيّ فغفر الله لك». فقال: سيدي، بل هو فيّ والله وليس فيك. ثم انحنى على رجليه يقبّلهما وهو يقول: ﴿اللّهُ أَعْلَمُ

أثره، فوجده نائماً، فجلس عند رأسه يروّحه حتى انتبه، فلما تنبّه قال عليه السلام له: «يا فلان والله ما ذلك لك، تنام الليل والنهار؟ لك الليل ولنا منك النهار». الكافي ٢: ١١٢ / ٧.

(١) روضة الواعظين: ١٩٩، الإرشاد ٢: ١٤٤، دلائل الإمامة: ١٩٦.

﴿حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ ثم اعتذر منه[١].

ويمرّ عليه السلام وهو يقرأ ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[٢]. وهل هذا إلّا أدب القرآن، وخلق الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، بل أدب الله جلّ وعلا؟

الصفة الثالثة: الكرم

وكان الناس يظنّون به البخل؛ لأنه عليه السلام لم يكن يتصدّق نهاراً، مع أنه عليه السلام كان يباري السحابة المرسلة، يقول محمد بن طلحة: قال أبو حمزة الثمالي: كان زين العابدين عليه السلام يحمل جراب الخبز على ظهره بالليل، فيتصدّق به، ويقول: «إن صدقة السرّ تطفئ غضب الربّ»[٣].

ولما مات عليه السلام وغسّلوه جعلوا ينظرون إلى آثار في ظهره، فقالوا ما هذا؟ قيل: كان يحمل جُرُب الدقيق على ظهره ليلاً ويوصلها إلى فقراء المدينة سرّاً. وقال ابن عائشة: سمعت أهل المدينة يقولون: ما فقدنا صدقة السرّ حتى مات علي بن الحسين[٤].

فهؤلاء كانوا يظنون أنه عليه السلام يبخل؛ لأنه لا يتصدّق جهراً، وهم لهم الظاهر، لكنهم لم يعرفوا هذه الظاهرة من الكرم التي عنده عليه السلام إلّا بعد أن مات. فهؤلاء حينما مات الإمام عليه السلام عرفوا أنه هو الذي كان يعطيهم؛ ولذا فإنه (صلوات الله عليه) كان يقول: «إن صدقة السرّ تطفئ غضب الربّ».

الصفة الرابعة: العبادة

لقد قسم (سلام الله عليه) ليله إلى ثلاثة أقسام:

---

(١) تهذيب الكمال ٢٠: ٣٩٧، سير أعلام النبلاء ٤: ٣٩٧.

(٢) فصلت: ٣٤.

(٣) بحار الأنوار ٤٦: ٧٧/٨٨.

(٤) مطالب السؤول: ٤١٥.

القسم الأول: المناجاة

فقد ترك لنا (سلام الله عليه) هذا الأثر الضخم المسمى (الصحيفة السجادية) وهي ما يطلق عليها (إنجيل آل محمد) أو (زبور آل محمد) وهي الصحيفة المفخرة التي أرى أن على كل شيعي ينتمي إلى أهل البيت عليهم السلام أن يقتني نسخة منها ليناجي الله جل وعلا بها، ويدعوه بما ورد فيها؛ ففيها يجد الداعي والمناجي ضالّته وبغيته، وفيها يجد الإنسان المواقف الرائعة. إن عظمة هذه الصحيفة نجمت عن عظمة الموقف الذي ولدت فيه، لقد ولدت في جوف الليل والناس نيام حيث يرفع الإمام عليه السلام رأسه إلى السماء ويقول: «وما أنا يا ربّ؟ وما خطري؟ هبني بفضلك، وتصدّق علي بعفوك... فوعزّتك يا سيّدي لو انتهرتني ما برحت من بابك، ولا كففت عن تملّقك؛ لِما انتهى إلي من المعرفة بجودك وكرمك، وأنت الفاعل لما تشاء، تعذّب من تشاء بما تشاء كيف تشاء، وترحم من تشاء بما تشاء كيف تشاء، ولا تسأل عن فعلك، ولا تنازع في ملكك، ولا تشارك في أمرك، ولا تضادّ في حكمك، ولا يعترض عليك أحد في تدبيرك. لك الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين. يا رب هذا مقام من لاذ بك، واستجار بكرمك، وألِف إحسانك ونعمك، وأنت الجواد الذي لا يضيق عفوك، ولا ينقص فضلك، ولا تقل رحمتك. فوعزّتك لو انتهرتني ما برحت عن بابك، ولا كففت عن تملّقك، لِما أُلهم قلبي من المعرفة بكرمك، وسعة رحمتك. إلى من يذهب العبد إلّا إلى مولاه؟ وإلى من يلتجئ المخلوق إلّا إلى خالقه؟»[1].

ويقول عليه السلام في مناجاة أخرى له: «يا من قصده الضالّون فأصابوه مرشداً، وأمّه الخائفون فوجدوه معقلاً، ولجأ إليه العائذون فوجدوه موئلاً. متى راحة من

---

(١) الصحيفة السجادية: ٢٢٥/١١٦.

نصب لغيرك بدنه؟ ومتى فرح من قصد سواك بهمّته؟ إلهي قد انقشع الظلام ولم أقضِ من خدمتك وطراً، ولا من حياض مناجاتك صدرًا، صلِّ على محمد وآل محمّد، وافعل بي أولى الأمرين بك»[١].

ويستمر (سلام الله عليه) في هذه اللون من المناجاة، وبهذا النمط من الدعاء والتسبيح والانصهار في بوتقة الله جلّ وعلا، وهو نمط من العبادة لا يمكن أن يجده الإنسان إلّا عند رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله، وعند أمير المؤمنين عليه السلام، وعند آل علي ابن أبي طالب عليهم السلام. إنها حقّاً نسيج رائع مشرق.

القسم الثاني: البكاء والتوسّل

فهذا القسم هو عبارة عن مستدر للدمع عنده (سلام الله عليه) يقول عنه أحد المؤرخين: كان يصلي إلى أن يصل إلى درجة أنه إذا أراد الذهاب إلى فراشه يزحف زحفاً على يديه ورجليه[٢].

القسم الثالث: مساعدة الفقراء والمحتاجين

فقد كان عليه السلام يحمل على ظهره جراباً فيه دنانير ودراهم ودقيق أحياناً ويأتي إلى الأبواب يطرقها ليلاً ليعطي أصحابها ما يقيمون به أودهم، وقد لا يكتفي بهذا المقدار بل يتجاوزه إلى أن يدخل معهم إلى بيوتهم سيما

(١) الخرائج والجرائح ١: ٢٦٥ ـ ٢٦٦ / ٩، مناقب آل أبي طالب ٢: ٢٨٤، بحار الأنوار ٤٦: ٤٠، ٨٤: ٢٣١.

(٢) لم نعثر عليه بهذه الصورة، والذي ورد فيه عليه السلام أنه كان يصلّي في كل يوم وليلة ألف ركعة، وتهيج الريح فيسقط مغشياً عليه. شرح نهج البلاغة ١٥: ٢٣٤، تاريخ مدينة دمشق ٣٥: ٤٢، ٤١: ٧٨، ٤٥: ١٨١، تهذيب الكمال ٢٠: ٣٩٠، سير أعلام النبلاء ٤: ٣٩٢، تهذيب التهذيب ٧: ٢٦٩، مطالب السؤول: ٤٢٠، وهو موجود في تذكرة الخواصّ: ٣٢٦، صفة الصفوة ٢: ١٠٠، تذكرة الحفّاظ ١: ٧٥، وغيرها كثير.

كبار السن الذين لا يقوون على الحركة فيستقي لهم. وقد اشتهر عنه عليه السلام هذا وأنه كان يستقي لضعفة جيرانه، ممن لا يمتلك القدرة على أن يقف على البئر ويمتح منه الماء بيده الكريمة، فكان يرفع الماء لهم ويحمله على ظهره، حتى حصل في ظهره الشريف مجل. وقد سئل الإمام الباقر: لماذا كان على ظهر أبيك مجل؟ فقال عليه السلام: «إنه كان يستقي لضعفة جيرانه بالليل»[1].

أما عند الصباح فإنه عليه السلام كان يتجه إلى كل فعل فيه مجد، سواء كان اجتماعيّاً أو اقتصاديّاً أو غيرهما. وكان من عادته عليه السلام أنه إذا أراد أن يخرج في سفر له مع قافلة اعتزل الناس وكتم نسبه عنهم فقيل له ـ وقد كان بيّن الفضل ـ: ما بالك إذا سافرت كتمت نسبك عن أهل الرفقة؟ فقال عليه السلام: «أكره أن آخذ برسول الله صلى الله عليه وآله ما لا أعطي مثله»[2].

ويروى عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «إن أبي خرج إلى مال له، ومعنا ناس من مواليه وغيرهم، فوُضعت المائدة ليتغدى، وجاء ظبي وكان منه قريباً، فقال له: يا ظبي، أنا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وأُمّي فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، هلمّ إلى هذا الغداء. فجاء الظبي حتى أكل معهم ما شاء الله أن يأكل، ثم تنحّى الظبي، فقال بعض غلمانه: ردّه علينا. فقال لهم: لا تخفروا ذمّتي؟ قالوا: لا. فقال له: يا ظبي، أنا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وأُمّي فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، هلمّ إلى هذا الغداء وأنت آمن في ذمّتي.

فجاء الظبي حتى قام على المائدة، فأكل معهم، فأخذ رجل كان يأكل معه

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩٤.

(٢) دلائل الإمامة: ١٩٦، مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٠، وفيات الأعيان ٣: ٢٧١، خزانة الأدب ٤: ٢٠٨.

حصاة فقذف بها ظهره، فنفر الظبي، فقال علي بن الحسين عليه السلام: أخفرت ذمتي؟ لا كلمتك كلمة أبداً»[١].

فالإمام عليه السلام هنا يرتقي بمراتب الرأفة والشفقة إلى أن يصل إلى درجة من الرأفة على الحيوان أنه لا يكلم رجلاً بسبب غزالة. وهذا المعنى كان موجوداً عند العرب الذين ذكرت أكثر من مرة في محاضراتي السابقة موقفهم من حماية الحيوان والرفق به[٢]. وهكذا نجد أن الإمام عليه السلام كان يرعى حتى الأمجاد التي تبانى عليها العرف، والعادة عند الناس، فكان يرعاها مروءةً وخلقاً.

وبهذا فإننا نرى أن من يفعل هذا الفعل مع الحيوان لا يمكن في أي حال من الأحوال أن يترك جاره؛ ولذا فإنه عليه السلام كان إذا جن عليه الليل يشرف على القدور ثم يقول: «ابعثوا لآل فلان، واغرفوا لآل فلان، واعطوا آل فلان»[٣].

البعد الرابع: من حكمه عليه السلام

وهكذا نجد هنا أن الإمام عليه السلام يحاول أن يشبع عند الإنسان احتياجاته كافّة؛ فهو يملأ البطون طعاماً، ولا يغيب عن ذهنه الشريف أن يملأ الرؤوس وعياً والأذهان أخلاقاً. فكان كلّ كلامه حكماً، وهنا نذكر من حكمه:

الأولى: لقد كان عليه السلام طالما يردّد: «عجبت لمن يحتمي من الطعام لمضرّته، ولا يحتمي من الذنب لمعرّته»[٤].

---

(١) كشف الغمة ٢: ٣٢٠ ـ ٣٢١. بحار الأنوار ٤٦: ٤٣ ـ ٤٤ / ٤٢.

(٢) كما في قصّة مجير الجراد، انظر الكنى والألقاب ٣: ١٥٢. وكما كان من أمر عدي بن حاتم الذي كان إذا رأىٰ قرية من النمل رجع وفتَّ لها الخبز ولا يترك النمل جياعاً ويقول: هؤلاء جيراني، انظر بحار الأنوار ٦١: ٢٤٢، تاريخ مدينة دمشق ٤٠: ٨٨، ٨٩.

(٣) المحاسن ٢: ٣٩٦ / ٦٧، بحار الأنوار ٩٣: ٣١٧ / ٦.

(٤) كشف الغمّة ٢: ٣١٩، الفصول المهمّة ٢: ٨٥٩ ـ ٨٦٠، نزهة الناظر وتنبيه

فالذنب حقّاً عار؛ لأن الله جل وعلا لم يسمِّ شيئاً ذنباً ما لم يكن به عار؛ وبهذا فإن الزنا عار، والقتل عار، والاعتداء على حقوق الآخرين وحرياتهم عار. وهو عليه السلام بهذا الحديث يريد أن يقول: إنني أعجب من الناس الذين يتورّعون عن طعام خاصّ؛ لكيلا يؤذي أجسادهم، ولا يبتعدون عن الذنب الذي يؤذي أرواحهم وعقولهم وأخلاقهم وقيمهم. وهذه حكمة عالية إذا سمعها الإنسان لا يمكن له إلّا أن يمجدها.. حكمة منتزعة من صميم الواقع يعجز الإنسان عن ألّا ينحني إجلالاً لها، أو أن يسجد في محرابها إكباراً لها.

الثانية: «إذا قنعت من الله بالرزق القليل، قنع الله منك بالعمل القليل».

الثالثة: «فقد الأحبّة غربة»[1].

وهكذا نجد إن الشخص الذي يعيش مع جماعة ويؤنس بهم، ثم يجد نفسه بعد ذلك وحيداً بعد أن ابتعد عنهم فإن الحياة تصبح في نظره فراغاً قاتلاً، وسأماً ومللاً. وقد مرّ بنا كيف أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كان يخرج إلى الجبّانة من ظهر النجف، ويقف على القبور وينكت الأرض بإصبعه، وهو يناجي أحبّاءه الذين أصبحوا تراباً بعد أن أخذتهم الأرض[2]:

الخاطر: ٩٠ / ٩.

(١) بحار الأنوار ٧٥: ١٥٨، سير أعلام النبلاء ٤: ٣٩٦، البداية والنهاية ٩: ١٣٣، ورويت هذه الحكمة عن أمير المؤمنين عليه السلام، انظر: نهج البلاغة / الحكمة: ٦٥، عيون الحكم والمواعظ: ٣٥٨.

(٢) وكان عليه السلام ينشد ويقول:

وفـي الصَّـدرِ لُـبانات	إذا ضـاق بـها صـدري
نكتُّ الأرضَ بـالكفِّ	وأبـديتُ لهـا سِـرّي
فـمهما تُـنبِتُ الأرضُ	فـذاك النّـبتُ مـن بَـذري

فضل الكوفة ومساجدها (المشهدي): ٦٥، بحار الأنوار ٤: ٢٠٠، ٩٧، ٩: ٤٥٢.

إن قــبرَ الحــبيبِ دارٌ وداراً ليس فـيها الحبيبُ قبرٌ كئيبُ

البعد الخامس: الحزن في حياة الإمام عليه السلام

ومن خلال هذه المقتطفات نجد أن حياة الإمام عليه السلام كانت منجماً غنياً للحِكم والمواعظ، ومقلعاً ضخماً مملوء عطاءً في مختلف أبعادها، لكن دعنا نرَ كيف أن هذه الحياة كانت فيها مساحة كبيرة للحزن والأسى واللوعة. إن مجموع عمر الإمام عليه السلام كان سبعة وخمسين سنة قضى منها ثلاثاً وعشرين سنة مع أبيه عليه السلام، والمتبقي منها ـ وهو البالغ أربعاً وثلاثين سنة ـ قضاها بعد استشهاد أبيه عليه السلام. وهذه السنوات الثلاثون والأربع كما رأينا وكما نعرف قد استهلكها عليه السلام في مختلف الجوانب الإيجابية التي تشيد الأمجاد لصاحبها، وهو ما رأيناه من خلال المباحث السابقة، لكن إضافة إلى كل ذلك، وإضافة إلى كلّ ما قام به عليه السلام من أعمال تؤدي إلى تشييد ذلك المجد الأثيل نجد في نفسه الشريفة وعلى ملامح وجهه الكريم مسحة من الحزن والكآبة تغطي نور تلك الإشراقة كلما تذكّر واقعة الطف وكلّما تذكّر مصيبة أبيه وسبي عمته وحرائر البيت النبوي. لقد كانت الأحداث التي مرت به عليه السلام لا يمكن أن تنسى بأي حال من الأحوال، يقول المنهال: حججت سنة، فلمّا فرغت من الحجّ مررت بالمدينة لأزور سيّدي ومولاي عليّ بن الحسين عليه السلام، فلمّا دخلت عليه سلّمت، فردّ عليّ السلام، وقال: «يا منهال، ما فعل حرملة بن كاهل الأسدي؟».

والذي يبدو أن هذا قد ملأ قلب الإمام عليه السلام ألماً ولوعة بحكم أنه عليه السلام كان

كما أنه عليه السلام كان يصعد على المنبر فيقول: «أين إخواني الذي ركبوا الطريق ومضوا على الحق؟ أين عمار؟ وأين ابن التيهان؟ وأين ذو الشهادتين؟... أوّه على إخواني الذي تلوا القرآن فأحكموه». نهج البلاغة / الخطبة: ١٨٢.

على تماسّ بالواقعة؛ فقد رأى الطفل يتلوّى على يد والده عليه السلام وقد عاد به، والدماء تغرقه، وقد ملأت كفّ أبيه عليه السلام ثم رمى به إلى السماء، ورأى السهم وقد أخذ مأخذه من هذا الطفل الرضيع وقد حزّ جيده من الوريد إلى الوريد.

يقول المنهال: فقلت له: يا مولاي تركته حيّاً بالكوفة. فرفع يده إلىٰ السماء، وقال: «اللهم أذقه حرّ الحديد، اللهم أذقه حرّ الحديد، اللهم أذقه حرّ النار».

يقول المنهال: وقد بقيت عند الإمام عليه السلام فترة ثمّ رجعت أهلي، فلمّا دخلت الكوفة، سمعت جلبة، فسألت عنها، فقيل: هذا المختار قد ظهر، وقتل من قتل، وهذا موكبه. وكان بيني وبينه صداقة، فلمّا استرحت من سفري، وانقطع الناس عنّي ركبت وخرجت في طلبه، فلقيته خارجاً من باب داره، فسلمت عليه، فردّ عليّ السلام، وقال لي: يا منهال ما أتيتنا، ولا هنّأتنا بما فتح الله علىٰ أيدينا، ونصرنا علىٰ أعداء الله وأعداء رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيت رسوله صلى الله عليه وآله! فقلت: يا مولاي إنـي كـنت بمكّة، وقد جئت الآن.

ثم سايرته حتّىٰ أتينا كناسة، فوقف كأنه ينتظر شيئاً، وكان واشٍ قد أخبر بحرملة؛ فبعث قوماً يفتّشون عنه، فلم تكن إلّا ساعة حتّىٰ جاء القوم يركضون، ويقولون: يا أمير، البشارة، فقد جئنا بحرملة.

فلمّا أُحضر بين يديه مكتوفاً، نظر إليه، وقال: الحمد لله الّذي مكّنني منك يا عدوّ الله. ثمّ قال: أين الجزّار؟ فجيء به إليه، فقال له: اقطع يديه ورجليه. فقطعها وهو يستغيث، ثمّ قال: عليّ بالنار. فأُحضرت بين يديه، فأخذ قضيباً من حديد، وجعله في النار حتّىٰ احمرّ، فوضعه علىٰ رقبته،

فصارت رقبته تجوش من النار، وهو يستغيث حتّىٰ قطعت النار رقبته.

قال المنهال: فعند ذلك قلت: سبحان الله. فقال المختار: التسبيح حسن في كلّ حال، ولكن فيم سبّحت؟ فقلت: أيها الأمير، دخلت في سفرتي هذه عند منصرفي من مكّة على علي بن الحسين عليهما السلام فقال لي: «يا منهال، ما فعل حرملة بن كاهل الأسدي؟». فقلت: تركته حياً بالكوفة؟ فرفع يديه جميعاً فقال: «اللهم أذقه حرّ الحديد، اللهم أذقه حرّ الحديد، اللهم أذقه حرّ النار»

فقال: بالله عليك، سمعته يقول هذا؟ فقلت: نعم والله. فنزل من دابّته، وصلّىٰ ركعتين ثمّ حَمِدَ الله كثيراً، ثمّ ركب وسرنا راجعين، فلمّا قربنا من داري، قلت: يا أمير أُحبّ أن تشرّفني، وتكرمني وتتملّح بطعامي. فقال: يا منهال، أنت تعرف أن مولاي دعا بدعوات، وقد استجابها الله علىٰ يدي، ثمّ تأمرني أن آكل وأشرب؟ لا والله، بل أصوم هذا اليوم؛ شكراً لله علىٰ توفيقه [1].

ومن هذا نعرف أن أشباح معركة الطف كانت تلاحق الإمام عليه السلام في كل لحظة من لحظات حياته، يدخل عليه أبو حمزة الثمالي فيجده علىٰ تلك الحالة فيقول له: سيدي، أما آن لحزنك أن ينقضي؟ أما آن لبكائك أن ينقطع؟ القتل لكم عادة، وكرامتكم من اللّه الشهادة، مَن مِن آبائك عليهم السلام مات حتف أنفه؟ فقال عليه السلام: «شكر اللّه سعيك يا أبا حمزة، ولكن ما وقعت عيناي علىٰ عماتي وأخواتي إلّا وذكرت فرارهن يوم عاشوراء من خيمة، إلىٰ خيمة، ومن خباء إلىٰ خباء والمنادي ينادي: أحرقوا بيوت الظالمين».

---

(١) الأمالي: ٢٣٩ / ٤٢٣، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٧٦، كشف الغمّة ٢: ٣٢٤، ذوب النضار: ١٢١.

أما الشيء الثاني الذي كان يؤرقه وكان يزيد من مساحة مسحة الحزن تلك فهو أنه إذا جيء له بماء فوضع بين يديه نظر إليه وأطال النظر ثم قال: «أأشرب وابن رسول الله مات ظمآناً؟ أأشرب وابن رسول الله مات عطشاناً؟».

وكان إذا قصد النجف وقف على الفرات وخاطبه بقوله: «إلى الآن تجري يا فرات وقد قتل عندك ابن بنت رسول الله ظمآناً؟ إلى الآن تجري يا فرات وقد سقط آل رسول الله إلى جانبك؟».

وهنا يمر على محاريب آبائه.. على دار أبيه الحسين عليه السلام ودور أعمامه من آل عقيل فيقول: «إذا مررت على دور آل عقيل خنقتني العبرة؛ لأني أراها خالية ليس فيها إلّا أرامل ويتامى»[1]:

قـفا نسألِ الدارَ التـي بـانَ أهـلُها	متى عـهدُها بـالصومِ والصلواتِ
وأينَ الأُلى شطّت بهم غُربةُ النَّوى	أفــانينَ بــالآفاقِ مُــفترقاتِ
ديــارُ عــليٍّ والحســينِ وجـعفرٍ	وحمزةَ والسجادِ ذي الثَّفِناتِ[2]

* * *

وحقك لو جـــهيت الدار	ألاكـــيها بـــدمع ســـچاب
أشـــوف ارســـومكم بـــيها	واشـــتم ريـــحة الأحـــباب
واتـــذكر ثـــناياكـــم	واتكـــوّم اكـــبال البـــاب

* * *

---

(١) لم نعثر على الحديث الشريف بنصه، لكن هناك حديث قريب منه في كامل الزيارات (ابن قولويه): ٢١٣ / ٣٠٦.

(٢) ديوان دعبل: ٥٩.



الفهرس الإجمالي

الفهرس التفصيلي

الفصل الرابع: الإمام الحسن عليه السلام

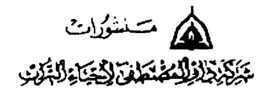
الفصل الخامس: الإمام الحسين عليه السلام

صدرت المجموعة الخامسة

الجزء ١٣ - الجزء ١٥

مــن




منشورات
شركة دار المصطفى لإحياء التراث





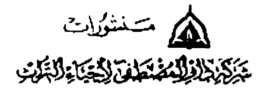
ترقبوا بإذن الله

صدور المجموعة السادسة

الجزء ١٦ - الجزء ١٨

من





شركة دار المصطفى لإحياء التراث

